كلمة الوزارة

الدكتور رياض عصمت
وزير الثقافة

الإبداع والاتباع

عندما كنّا شباباً، كنّا نحمل فكرة مضللة جعلت بعضنا مغرماً باستعراض عضلاته الثقافية ومعارفه النقدية. خرج بيننا من أصحاب المواهب الأدبية أيام الجامعة من يتبجح بقدرته على كتابة نصوص شديدة الإبهام، بحيث تتجاوز حدود الغموض

الفني الذي كنا نلمسه في أشعار ت. س. إليوت ومسرحيات صموئيل بيكيت وقصص إدغار آلن بو وروايات فرانز كافكا. لم يفهم أولئك الشباب بيننا أن المهارة الفنية هي في الترميز الذكي، وفي الرؤى الموحية، وفي الأحلام السيريالية التي تصل إلى شكل الكوابيس. سرت موجة التأثر بالحداثة إلى بعض الأدباء الشباب العرب، إنما بوعي وموهبة متأصلين، فخرج ما يسمى بجيل مجلة «جاليري ٦٨» في مصر، وما يسمى «جيل السبعينات» في سورية، وظهرت محاولات متعددة لمسرح اللامعقول. والأغرب من ذلك أن بعض كبار الأدباء العرب نهجوا منهج الحداثة والتغريب والعبث. يذكر جيل السبعينات، مجموعتي نجيب محفوظ «تحت المظلة» و«خمارة القط الأسود»، ويذكر أشعار أدونيس وخليل حاوي ومحمود درويش، ويذكر مسرحيتي توفيق الحكيم «يا طالع الشجرة» و«مصير صرصار»، كما يذكر مسرحية «الأميرة تنتظر» لصلاح عبد الصبور، ويذكر قصة «تلك الرائحة» لصنع الله إبراهيم، ومجموعة «خمس جرائد لم تقرأ» لمجيد طوبيا، كما يذكر «صهيل الجواد الأبيض» و«ربيع في الرماد» و«الرعد» و«دمشق الحرائق» و«النمور في اليوم العاشر» لزكريا تامر. هناك أعمال أدبية حداثية رائعة لعبد الرحمن منيف وإبراهيم الكوني وحيدر حيدر. وهناك أفلام طليعية مهمة ليوسف شاهين، منها فيلمه «الاختيار». كانت تلك أعمالاً رائعة ما زالت حية ومؤثرة عربياً إلى اليوم. ولكن، بالمقابل، ظهرت أعمال مقلدة كثيرة افتقرت إلى الحد الأدنى من الموهبة، متذرعة بغموض يصل حد إبهام فارغ من المعنى والإيحاء. وقد ظلت تلك الموجة سارية، تحت راية التشبه بألفريد جاري أو بيكيت أو يونيسكو أو آرابال أو آداموف، من دون هضم الأسس التي يقوم عليها المسرح الحديث. وتعرض

بعض الأدباء إلى مقالب ساخنة، فأحدهم نشر مسرحية زعم أنها مترجمة عن دورنمات، بحيث كيل لها التقريظ والثناء على أنها فتح جديد في مسرح العبث، ليكشف النقاب عن أنها من بنات أفكاره – علماً بأن من امتدحها آنذاك فاتهم أن دورنمات لا يصنف بين كتاب العبث أو اللامعقول. وهناك صحفي آخر جمع قصيدة من قصاصات جرائد بصورة اعتباطية، ثم عرضها على عدد من الأدباء والنقاد، فامتدحها أغلبهم، وذمها قلة منهم، وتجاهلها أحدهم، ليكشف فيما بعد على الملأ فضيحة كون القصيدة المذكورة تجميعاً عشوائياً لكلمات وجمل لا ترابط بينها من الصحف اليومية. في اعتقادي إنه في الحالتين لم تسرِ اللعبة على الأدباء والنقاد الحقيقيين، الذين لم يبهروا بالاسم الأوروبي الشهير، أو تنطلي عليهم خدعة الشاعر العظيم المجهول. لكن المخدوعين كانوا من أصحاب المواهب المتوسطة، الذين تغرهم الأضواء، وتغريهم الأسماء، فيتورطون من دون حكمة في القدح كما في الثناء.

نأتي على ذكر هذا ليس تنكراً منّا لأهمية الحداثة في الإبداع الفني، بل على العكس.. دفاعاً عن قيمة الحداثة المقترنة بموهبة مجددة حقيقية، وليس مجرد اتباع عشوائي هدفه مجاراة «صرعة» أو «موضة». الحداثة الحقيقية –كما صورها ذات مرة الناقد والأديب البريطاني الكبير الراحل مالكولم برادبري في مؤتمر أدبي في جامعة كيمبريدج– تشكل قيمة تجاوزية وطليعية بدأت منذ بدايات البشرية، واستمرت، وستبقى. في اعتقادي، ترتبط الحداثة بتعطش جمهور الشباب إلى الجديد، ولكن ليس كل جديد يحمل «حكم قيمة» لمجرد جدته، فالحداثة رؤية وتعبير من أجل تواصل وتأثير أعمق وأبقى، وهي ليست هذراً ولعباً مجاني الهدف.

لذا، أعود لأذكّر أن الشباب ليس مسألة عمر فعلي للإنسان، بل هو تفاعل مع البيئة المحيطة. فنجيب محفوظ استطاع مجاراة الشباب في قصصه ومسرحياته وبعض رواياتــه منــذ «ميرامــار». وزكريا تامــر ظل شابــاً في تعبيره القصصــي رغم تجاوزه السبعــين مــن العمــر. كذلك، بالطبــع، كتاب مــن وزن ماركيز وكويللــو وألليندي مــن أمريكا اللاتينية والجنوبية، كذلك تــوني موريسون وبول أوستر من الروائيين الأمريكيين المعاصرين. إذن، يستطيع أصحاب المواهب الأدبية من الشيوخ الارتقاء بذائقتهــم الجماليــة وأساليب تعبيرهم لتجاري تطور العصر وحاجات قرائهم في مجتمعاتهــم، ومــن ثــم في العالم، قافزين فــوق حواجز الزمن مــن حيث المضمون والشـكل. ومـا نقوله عـن الأدب ينطبق على المسرح والسينمـا، فالحداثة ليست اغترابا عن جميع شرائح الجمهور، بل توسيعاً للجمهور عن طريق إضافة شريحة جديدة تملأ الفراغ الناجم عن ملل شريحة تقليدية انفضت عن أساليب التعبير المحافظـة. ولا بـد أن نتذكر بين المبدعين الكبار الذين استطاعوا مجـاراة أجيال الشباب الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب، الذي لحن لعبد الحليم حافظ بشكل نافس محمد الموجي وكمال الطويل وبليغ حمدي في صياغة ألحان شبابية رشيقة وحيوية، بل إنه جدد مسيرة نجمة الغناء العظيمة أم كلثوم، ليسير جنباً إلى جنب مــع بليــغ حمدي الشــاب آنذاك. كذلك فعـل المخرج الكبير يوسـف شاهين، الذي راوح بين سينما الغموض الفني الجدير بمسابقات المهرجانات، وبين إخراج أفلام جماهيريــة ذات قيمــة فنية مثل «الناصر صلاح الدين» و«الأرض» و«بياع الخواتم» و«بونابــرت» و«المصــير» و«سكوت حنصور»، مما جعلــه خالداً بعد رحيله عن الحياة في ذاكــرة الأجيال القادمــة. كذلك فعل الرحبانيان عاصــي ومنصور، ثم إلياس،

ثـم زيـاد، مع أغاني فيروز، فظلـوا أسطورة في الحداثة والتجديـد في ذاكرة جميع الأجيال. ولا أحد ينكر مقدار التجديد في أغاني جوليا بطرس أو ألحان مارسيل خليفة، ولكنهما يظلان قريبين من الجماهير العريضة من دون تنازلات.

يخلـق هوس الحداثة المبالغ بـه في بلادنا النامية صدمات للجمهور العريض تجعلـه أحيانـاً كثيرة ينفض تماماً عن الإقبال سـواء على المطالعة، أو على ارتياد المسـارح، أو مشاهـدة الأفلام الفنية الجادة. لذلـك، لا بد من التعامل بحذر لدى استقطـاب أعمـال أدبيـة وفنيـة لترجمتهـا أو عرضهـا، لأن دورهـا الحقيقي هو التحريض البناء، والإلهام الخلاق، وليس نبذ الجمهور أو تغريب العمل الإبداعي عن الثقافات الأخرى. من المؤسف أن نجد من يروج بإصرار لأعمال غير جماهيرية، منتجـة محليـاً أو مستوردة، في حين يُهمـل عمداً ويتعالى علـى كل إنتاج إبداعي يحمـل صفـة الجماهيرية، حتى لو اتسم بحداثة وتجريـب نسبيين، وكأن مقياس النجاح يقاس بمدى الاقتراب عن الثقافة العربية، وعن الجمهور العريض.

كثيراً ما أعجب شخصياً بأعمال أوروبية خلال جولاتي المسرحية إلى مهرجانات مثـل «أفينيـون» الفرنسـي و«أدنـبره» البريطاني و«أوروس» الدانماركـي و«القاهرة للمسرح التجريبي» وسواها، ولكنني لا أستطيع تعميم ذوقي وقسره على الجمهور العريض، لأنني أعلم علم اليقين بأنها ستسبـب صدمة تسفر عن إضاعة الجهد والمـال. بالمقابـل، لا أنكر أن بعض الأعمال الحداثيـة العبقرية يمكنها تجاوز كل الحـدود المألوفـة والمتعـارف عليها، لتحدث أثـر صدمة خلاقـة وإيجابية ومبهرة لدى الجمهور العادي، كما حدث في مرات قليلة أطل على عواصمنا العربية فيها عمل فرنسي أو بولندي أو بريطاني أو ألماني طليعي عظيم، يحمل قيمة استثنائية

من حيث نجاحه في التجريب. أما الغالبية العظمى من الأعمال المستوردة، التي أصبح لها مريدون وأتباع مقلدون عندنا، فهي بلا أثر، سوى تنفير جماهيرنا من الحداثة، طالما تفتقر إلى الهوية والموهبة. ولكن أعظم الإبداعات تلك التي تجمع المجدين: مجد الحداثة الطليعية، ومجد الجماهيرية الواسعة.

كلمة العدد



الموسيقى التركية - العربية
(القواسم المشتركة)

د. علي القيم
رئيس التحرير

الموسيقى العثمانية هي الشكل المتبلور للصوت، هي جمال علوي، وهي بشكل عام موسيقى إيمانية استهدفت بقالبها العسكري الظفر بالجهاد الأصغر، وبقالبها الديني الظفر بالجهاد الأكبر، الذي هو المعركة الكبرى مع النفس، وسمتها الأساسية الترنّم بالحقيقة التي يدركها الحس وحده.

الموسيقى التركية وضعت على الفواصل الخمس البنتاتونيه في شمال وشرق آسيا، وعلى الفواصل السبع الهيبتاتونيه في جنوب وغرب آسيا، وتعتمد

بوجه عام على ثمانيات صوتية (أوكتاف) تنزل خافتة من السريع إلى البطيء، وهي موسيقى يعزفها ويغنيها في الأصل (تاريخياً) شخص واحد (مثلما نرى في شخصية شاعر الربابة عند العرب) بأصول وأوزان إيقاعية أو بغير أصول، ولكن لا بد من مقام معين، وهي تركز، مثلما هو الحال في الموسيقى العربية، على الصوت البشري، ولا تستخدم من الموسيقى إلا الإيقاع والنغم، وتنتقل من جيل إلى آخر عن طريق التعلم والنقل المباشر، وليس عن طريق «النوتة» كما هو الحال في الموسيقى الغربية.

الأتراك في الماضي، كما هو الحال عند العرب، لم يهتموا كثيراً بالتدوين الكتابي لأعمالهم الموسيقية، وآثروا أن يودعوا أحاسيسهم وأساليبهم أمانة على آذان العازفين وأرواحهم وليس على الورق، وهم لم يكونوا يجهلون «النوتة» ولكنهم آثروا أن يحفظوا في ذاكرتهم وفي مشاعرهم، وهذا ما ساعد على تطوير الموسيقى التركية في الاتجاه اللفظي أي (الشعر) أكثر من التركيز على الآلية، مثلما هو الحال في الموسيقى العربية، وعندما يذكر الشعر لا يمكن أن نتصور الموسيقى خارج نطاق العروض (الوزن العروضي والوزن الإيقاعي) وهذه سمة أساسية من سمات الموسيقى العثمانية والتركية بشكل عام.

السمة المميزة للموسيقى التركية بشكل عام إنها ليست للأداء الجماعي إلا في موسيقى الجيش والتكايا والترفيه، ولم تؤدَّ أبداً عن طريق الكورس، أما الوصلات (أو موسيقى الفاصل) التي كانت تعزف في السراي والأوساط الراقية من الموسيقى الكلاسيكية أو الشعبية فهي بعيدة كل البعد عن «الكورس» الموجود حالياً، سواء من ناحية الكادر أو من ناحية المحفوظات، فالكورس تطبيق يناقض السمة الأصلية للموسيقى التركية.

❁ ❁ ❁

لقد حصل الاحتكاك والتفاعل بأشكال مختلفة بين الموسيقى التركية والعربية، وقد استعان الأتراك بالحضارات المجاورة في التسميات وفي تطوير الآلات الموسيقية والمقامات، وبالمقابل انتقلت مصطلحات فنية تركية إلى الموسيقى العربية وموسيقى

الشعوب الإسلامية الأخرى، وتمّ تطوير قوالب موسيقية بمقامات وأصول أكثر تنوعاً وغنى، مما أثرى الموسيقى الشرقية بشكل عام وساهم في تطويرها وانتشارها في شتى أرجاء الوطن العربي، والدليل واضح في مئات البشارف والسماعيات التي وضعها الموسيقيون في استانبول بوجه خاص، واحتلت مكانة متميزة في التراث الموسيقي العربي.

لقد حافظت الموسيقى التركية على مكانتها وانتقلت من جيل إلى جيل عن طريق التلقين، المباشر، والتعليم في أماكن مختلفة أهمها: المهترخانة، والمولويخانة، والأندرون والمنتديات الخاصة بأرباب الطرب ودور التعليم الخاصة، وجميعها كانت بمثابة معاهد تعليم وتدريب أساسية ساعدت على ترغيب المجتمع في الموسيقى، والتعرّف عليها ثم نشرها بين الناس عن طريق الألحان والحفلات، ويمكن الإشارة إلى أشهر المؤسسات الموسيقية:

– المهترخانة: وهي مدرسة الموسيقى العسكرية التي عرفت في عهد السلطان الفاتح بهذا الاسم، بينما عرفت في زمن الأتراك باسم (طوغ) وكانت تستخدم آلات النقر والنفخ، وكانت الموسيقى العسكرية من أصول الحرب التركية، وقد عُرف هذا النوع من الموسيقى منذ العهد السلجوقي باسم (طبلخانة)، وتتألف من ست آلات موسيقية، اثنتان منها نفخية، وأربع (نقرية)، وكانت هذه الموسيقى تعزف أيضاً في الاحتفالات والألعاب الرياضية.

وفي مقابل هذه الموسيقى، كانت هناك موسيقى الحياة اليومية، وهي موسيقى (النوبة) التي تُعرف خلال أوقات الصلاة وفي المناسبات الرسمية المهمة وإلى جانب وظيفتها الدينية فإن لها أيضاً صفة حفل شعبي ذي طابع عسكري، يقوم بالعزف فيها فريق يصطف وقوفاً على شكل هلال، وقد ازدهر هذا النوع من الموسيقى (المهترخانة) منذ القرن السادس عشر الميلادي، حتى عام ١٨٢٨م عندما قام السلطان محمود الثاني بإغلاق (المهترخانة) وتم تشكيل مدرسة (باندو) للسراي بدلاً عنها، وهي نسخة من الباندوهات الغربية التي عرفت باسم (موزيقة همايون).

- تكايا المولوية (مولويخانة): وهي المنتديات الروحية، التي يمرّ فيها المتعلم بمراحل (بدنية وفكرية وروحية) تهدف إلى الانضاج والوصول بالمتعلم إلى مرتبة الإنسان الكامل، وقد انتشرت وتطورت هذه التكايا منذ القرن الثاني عشر الميلادي، وقد مهّدت لظهور طريقة في السماع والرقص في العديد من المناطق التركية والعربية، وكانت «قونية» أشهرها، وقد قام أتباع هذه الطريقة من الموسيقيين بإبداع مجموعة من الأعمال الموسيقية في غاية الجمال والروعة، مما ساهم في ذيوعها وانتشارها في شتى أرجاء العالم الإسلامي.

- مدرسة الأندرون: التي تخرج منها الصفوة من الموسيقيين، وكانت داخل سراي الحكومة، وقد توقف العمل فيها عام ١٨٣٣ على يد السلطان محمود الثاني مع تشكيل (الاندرون الهمايوني).

لقد ارتبط تطور الموسيقى التركية ومسارها على مدى التاريخ بالحياة الموسيقية في الحواضر التي أقامتها الدول التركية المختلفة، فالمرحلة من الفارابي الكبير الذي عاش في القرن العاشر الميلادي حتى العطري الاستانبولي، أكبر الموسيقيين في القرن السابع عشر، ليس صدفة أن تتم في مدن كانت تقوم بوظيفة المركز الثقافي، وتنتقل من مدينة إلى أخرى مثل: فاراب- قشغر- غزنة- بلخ- هرات- رومّية- بغداد- حلب- قونية- بورصة- أدرنة- استانبول، ومن المفيد الإشارة إلى أن الأتراك حملوا موسيقاهم إلى البلدان التي فتحوها، ورأوا أن هذه الموسيقى أرهبت بمعظمها العسكرية (المهتر) سكان تلك البلاد، فلم يلبثوا أن مالوا إليها مع جاذبية التشريفات (موسيقى النوبة)، ولم يلبث الموسيقيون هناك بعد فترة أن مالوا إليها وتأثروا بها مع بعض التغييرات، تبعاً لطبيعة لغاتهم وأذواقهم القومية وهذا ما حدث في البلدان العربية وغيرها من الدول في آسيا وأوروبـة، لدرجة أن الموسيقى العسكرية التركية أثرت على مؤلفي الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية.

❁ ❁ ❁

لقد لعبت الطبقات الراقية وتكايا المولوية في البلدان العربية منذ القرن الخامس عشر الميلادي، دوراً مهماً في التعرف على الموسيقى العثمانية التركية، واستمر التأثير التركي على الموسيقى العربية لفترة تقرب من خمسة قرون حتى أواخر القرن التاسع عشر، وظلت موسيقى العاصمة العثمانية مسموعة في حواضر العرب الكبرى لقرون عديدة، واستمر هذا حتى بداية القرن العشرين، عندما شعر الأتراك أن موسيقاهم «بدائية» فسعوا للاتجاه نحو الموسيقى الغربية، على عكس ما فعل العرب في هذه الفترة، حيث تمسكوا بموسيقاهم التي تحمل كثيراً من التأثيرات التركية

وباختصار يمكن القول: من يدقق في الإرث الحضاري الموسيقي التركي، يجد أنها توأم الموسيقى العربية، وقد تطورتا نظرياً وعملياً من بيئات شرقية إسلامية على مرحلتين:

– الأولى: تتسم بالأصالة العربية والتركيز النظري والعملي حتى العصر الذهبي العباسي.

– الثانية: تتسم بالتفتح والتثاقف والتداخل مع مختلف العناصر المكونة للعالم الإسلامي، تمكنت بعدها بدعم من السلطة العثمانية، من التألق ثانية في مجالات الخلق والإبداع.

المرحلة الأولى، مراجعها قليلة، ويوجد من الوثائق ما ذكره (أبو الفرج الأصفهاني) في كتابه (الأغاني) من أن أبا يحيى عبد الله بن سريج المغني الذي طوت شهرته أرجاء الحجاز ليعتبر من أصول الغناء العربي في العهد الأموي، مع ابن محرز ومعبد ومالك، وقد ولد بمكة المكرمة في السنة الثانية عشرة للهجرة من أب تركي، ولابد أنه قد تأثر بكلامه وبألحانه وتقاليده التركية.

ويروي لنا الكتاب نفسه أن مسلم بن محرز بن المكي، سافر إلى فارس وتعلم الغناء بها، ثم صار إلى الشام وتعلم بها غناء الروم، ليحدث بعد ذلك مدرسته الخاصة التي

أنتج بها غناء (الرمل) وطوّر بها الغناء العربي من الاعتماد على البيت الواحد من الشعر إلى البيتين، وتبعه المغنون بعده في أغلب الدول الإسلامية، ويعتبر إنتاج ابن محرز، أول تفاعل حقيقي بين الموسيقى العربية والتركية.

واشتهر في العصر العباسي زامر تركي يدعى (برسوم) كان على درجة من الفن، جعلت أكابر فناني عصره مثل (إسماعيل بن جامع) و(إبراهيم الموصلي) يتحاكمان لديه فيجيبهما بقوله: الموصلي بستان تجد فيه الحلو والحامض والطري والذي لم ينضج، فتأكل من هذا وذاك، وابن جامع زق عسل، إن فتحت فمه خرج عسل حلو تأكله.

أما الفترة الثانية، فقد كانت فترة تحول جذري تعانق فيها الشعبان العربي والتركي، تحت راية الدين الإسلامي، وامتزجت ثقافتهما امتزاجاً كلياً، وظهر ذلك جلياً في نظم الأغاني والتأليف الموسيقي، وفي مستوى الترنيمات الموسيقية، فإخواننا الأتراك يستعملون الكلمة العربية (ياليل) وما تفرع عنها مثل (يالاللي)، كما نستعمل في الغناء العربي حتى اليوم (جانم وأفندم) و(أمان) للاستعطاف، كما اشترك الشعبان مع الشعب الإيراني في توحيد أسماء درجات السلم الموسيقي أو أسماء المقامات الموسيقية أو المصطلحات الغنية.

ودخل الغناء التركي شتى أرجاء الوطن العربي عن طريق التهاليل المستعملة في المساجد، وقبيل صلاة العيدين، ومنهم من يترنم بها عند الإتيان بالإمام من بيته إلى الجامع، وحتى المآتم...

وكان للمعهد الموسيقي الرسمي باستانبول المعروف باسم (دار الألحان التركية) دوره الفعّال في خدمة الموسيقى التركية بشكل خاص والموسيقى الشرقية بشكل عام، حيث أنه كان قبلة الفنانين، وقد تخرج منه العديد، وأقيمت في رحابه أبحاث على غاية من الأهمية في شتى المجالات الموسيقية، ساهم بها خير إسهام في تطور ودراسة الموسيقى

العربية، وكانت أكثر اتجاهات هذه الأبحاث تتبنى وجهة النظر العربية المتوارثة، ونلاحظ أن هذا التثاقف بين الموسيقى التركية والعربية مكّن من ازدهار وتطور الموسيقى على يد عبده الحمولي ومحمد عثمان، وتم تهذيب التواشيح والقدود وتبادل ترجمتها بين الشعبين، وبفضل التثاقف الإيجابي بين الموسيقى السورية والتركية، فإن الموسيقى المصرية انطلقت في أواخر القرن التاسع عشر لتقدم بدورها أجلّ الخدمات للتراث الموسيقي العربي.

* * *

يبرز التأثير التركي في الموسيقى العربية في القوالب الآلية مثل: البشرف والسماعي واللونغا.. مما مكن تطوير التخت الشرقي الذي يشمل الموسيقى في شتى أرجاء الوطن العربي وما جاورها، وهذا التخت يتألف تقليدياً من الآلات التالية:

- عود كبير
- عود صغير، (مازال دوره أساسياً في إيران وتركيا).
- قانون صغير
- الناي (انتشر بفضل الطرق الصوفية وخاصة المولوية).
- البزق: آلة دخلت عن طريق الغجر الرحل، وتمتاز بنغماتها الوسط.
- الإيقاع: الدف- الدربكة- النقرات.

التخت الشرقي الذي يرافق الغناء ولاسيما ما يمكن تسميته بـ«الموشحات التركية» المأخوذة من الموشحات العربية، مازال على الصورة القديمة المعروفة عنه، ولم يسمح بدخول الآلات الغربية إليه، كما حافظوا على دور المجموعة كاملاً في الغناء باعتبار الموشح أغنية جماعية، وهذا بخلاف ما هو حاصل في الوطن العربي في وقتنا الراهن.

أما الإنتاج الغنائي فقد ظهرت منه التقاليد العربية الأندلسية في الغناء التركي التقليدي المعروف بكلمة (شرقي) وكان يقدم ضمن الفاصل، وارتبطت معزوفات

تركية بالتراث العربي، وبالمقابل فإن مدينة استانبول، كانت مقصد الأدباء والعلماء، والفنانين من جميع أنحاء الوطن العربي، كفترة زمنية طويلة، فيقدمون فيها إنتاجهم، ويقتبسون روائع ما يسمعون بها، ومن ذلك نتج وأثمر ما نلاحظه من تشابه كبير بين القطع والأغاني العربية والتركية، وكان من أبرز الزائرين من سورية الشيخ علي الدرويش، ومن مصر محمد عثمان وعبده الحمولي، وكان من ثمار هذه الزيارات موشحات وأدوار وبشارف عديدة أثرت الموسيقى العربية والتركية على حد سواء، نذكر من هذه الأعمال الشهيرة والتي مازالت تردد حتى اليوم موشح «اسقني الراح وافرح الأرواح» وموشح «زارني منيتي» و«ما كنت أدري» وغيرها من الأعمال التراثية الخالدة، التي تؤكد بما لا يقبل الشك عناصر عديدة مشتركة بين الموسيقى التركية والموسيقى العربية، مازالت موجودة وبقوة حتى اليوم، ومن يتجول في شوارع وأزقة مدينة استانبول وغيرها من المدن التركية، لابد وأن تلامس مسامعه أينما اتجه نغمات وألحان موسيقية شجيّة يجمعها معنا رباط أزلي متين، وعلاقات حضارية وثقافية وفنية قديمة، توجتها الحضارة الإسلامية بكل أبعادها ومعانيها السامية النبيلة.





الدراسات والبحوث

الدراسات والبحوث

حلب الشهباء ومولد التاريخ

عبد الفتاح قلعه جي ⊙

في الأغوار البعيدة من ليل الزمن تغيب حكاية الوجود الأول لمدينة هي إحدى أقدم مدن العالم، ما تزال تنبض بالحياة والحركة إلى اليوم. حلب هذه المدينة الرابضة في شمال سورية على نهر كالوس «قويق» في الطريق بين قنسرين ويره بوليس «منبج» وكركميش «جرابلس»، عرفت منذ الأغوار السحيقة للزمن تتصدى لعاديات السنين، وتبقى ماثلة إلى اليوم، تسيل الحياة في شوارعها.

⊙ كاتب ومسرحي وناقد سوري.

(ع) العمل الفني: الفنان قحطان الطلاع.

تتفرد حلب عن غيرها من لداتها الداثرات والشاخصات والعامرات، بأن في موقعها الحالي على تلال: القلعة، الجبيلة، العقبة، تلة السودا... يكمن ثلاث وجودات ما تزال تشخص إلى اليوم: تاريخاً، وعمراناً، وسكاناً.

١- حلب العصر الحجري: وهي حلب القابعة في ظلمات الأرض، على الثرى، مغاور، وكهوفاً وسراديب، وبيوتاً منقورة في الحوار، ماثلة إلى الآن، ولكنها غير مكتشفة.

٢- حلب الآثار: وهي حلب القلعة والسور والمساجد والقصور...

٣- حلب الحديثة: وهي المدينة الزاخرة بالحياة اليوم.

وقد حظيت حلب باهتمام الباحثين والمؤرخين، القدماء والمحدثين، فألفت حولها كتب عديدة ولابد للباحث من أن يعود إلى العديد من المصادر التاريخية المتفرقة ويستقرئ الرقم والآثار، وينقب عن المدلولات في جمهرة اللغات السامية، ليتاح له الوصول إلى شيء من الحقيقة التي تغيب في سنخ الزمن.

-١-

يحيط الغموض الزمني النشأة الأولى لمدينة حلب، فمن بلوكوش الموصلي إلى سلوقس اليوناني ينهض الباحثون متلمسين بانيها الأول. وأغلب الذين نقلوا عن ابن العديم من زبدة الحلب يقولون بأن بلوكوش «أو بلوكوس» الموصلي هو الذي بنى حلب، وهو أحد ملوك آشور، لكن ابن العديم ينقل عن كتاب الجامع للتاريخ لأبي نصر يحي بن جرير الطبيب التكريتي النصراني. ومثل ذلك يقول أبو الريحان أحمد بن محمد البيروني في كتاب القانون المسعودي مع تصحيف الاسم من بلوكوش إلى بلقورس: يقول ابن العديم في زبدة الحلب ج١، ص ١٤: (وقال: أي البيروني: بنيت حلب في أيام بلقورس من ملوك نينوى، وكان ملكه لمضي ٣٩٦٢ سنة لآدم عليه السلام، ومدة مقامه في الملك ثلاثون سنة، وعلق صاحب الأعلاق الخطيرة على اسم بلقورس قائلاً: وبلقورس هذا هو بلوكوس الذي قدمنا ذكره غير أن هذه الأسماء الأعجمية لا يكاد المسمون لها يتفقون فيها على صورة واحدة لاختلاف ألسنتهم).

ثمة رواية أخرى تقول إن بلوكوس حكم ٤٥ سنة بدءاً من ٣٩٨٩ لآدم عليه السلام، ومثل هذا التحديد الزمني الذي يأخذ به المؤرخون العرب حقيقة ثابتة وليس فرضاً، من ابن العديم إلى الطباخ. يستدعي الكثير من الشك التاريخي، والطباخ يستهويه حساب السنين، ويعتبرها على شكيتها حقيقة

نهائية. يقول في أعلام النبلاء ج١: (بين آدم والهجرة -كما في أبي الفداء- ٦٢١٦ سنة، فإذا أسقطنا منها المدة التي بين بلوكوس وآدم وهي ٣٩٩٠ سنة يبقى ٢٢٢٦ سنة، فإذا اعتبرنا أنه عمرها بعد مضي ١٥ سنة من ملكه وأضفنا إلى ذلك من الهجرة إلى الآن، مع المسامحة بالفرق بين السنين الشمسية والسنين القمرية وهو ١٣٤٢ يكون المجموع ٣٦٨٣ سنة: هي المدة التي مضت على بناء حلب للمرة الأولى إلى الآن)، ويضيف الطباخ: (وكان بناها بعد ورود إبراهيم عليه السلام إلى الديار الشامية بـ«٥٤٩» سنة لأن إبراهيم ابتلي بما ابتلي به من نمرود زمانه واسمه «راميس» وهو الرابع من ملوك آثورا. وجاء في زبدة الحلب لابن العديم ج١ ص١١: وقيل إن إبراهيم لما قطع الفرات من حران أقام ينتظر ابن أخيه لوطاً في كثير ممن تبعه في سنة شديدة المحل، وكان الكنعانيون يأتون إبراهيم عليه السلام بأبنائهم فيهبونهم منه، ويتصدق عليهم بأقواتهم من الطعام والغنم، وصار إبراهيم عليه السلام إلى أرض حلب، فاتخذ الركايا، وكرا الأعين، ومنها عين إبراهيم وهي التي بنيت عليها مدينة حلب. وكان للكنعانيين بتل القلعة في رأسه بيت للصنم فصار إليه إبراهيم «ص» فأخرج الصنم وقال لمن حضره من الكنعانيين: ادعوا إلهكم هذا أن يكشف عنكم الشدة، فقالوا: وهل هو إلا حجر؟.. فقال لهم: فإن أنا كشفت عنكم هذه الشدة ما يكون جزائي، فقالوا له: نعبدك، فقال لهم: بل تعبدون الذي أعبد، فقالوا: نفعل)...

هذه الرواية التي تعتمد بناء بلوكوس لحلب تنفي بالطبع أسطورة «حلب الشهباء»، وعلاقتها بإبراهيم الخليل «ص».

لكن ابن العديم نفسه عندما يتحدث عمن بنى حلب فإنه لا يسوق الخبر على أساس أنه حقيقة تاريخية لا يرقى إليها الشك فهو يقول: (وقيل إن الذي بنى مدينة حلب أول ملك من ملوك الموصل يقال له بلوكوس الموصلي ويسميه اليونانيون «سردينبلوس» وكان أول ملكه سنة ٣٩٨٩ لآدم وملك ٤٥ سنة، وفي السنة التاسعة والعشرين من ملكه وهي سنة ٤٠١٨ لآدم ملكت ابنته المسماة «سميرم» مع أبيها بلوكوس). وليس لدينا رقيم أثري يؤكد هذا الرأي سوى ماجاء في الدر المنتخب: قال ابن شداد: أخبرني الرئيس بهاء الدين أبو محمد الحسن بن إبراهيم الخشاب الحلبي قال: نقلت من ظهر كتاب عتيق ما هذه صورته: رأيته في القنطرة التي على باب إنطاكية من مدينة حلب سنة ٤١١ كتابة يونانية... وترجمتها: بنيت هذه المدينة والطالع العقرب والمشتري فيه وعطارد يليه،

والحمد لله كثيراً، بناها صاحب الموصل. قال ابن الشحنة المؤرخ: وصاحب الموصل والله أعلم هو بلوكوش الذي تسميه اليونانية سردانا بالوس.

* * *

أما ما قيل عن بناء العمالقة لحلب، وهو ما يؤكده د. بيتشوف في تحف الأنباء بقوله:

«إن الذي تحقق عندي أن حلب من بناء العمالقة، بدليل الحجر الأسود في الحائط بظاهر جامع القيقان في داخل باب إنطاكية «محلة العقبة» فإنها مرسومة بقلم الهيروكليف بلغة الكيتا أو الحماتيين «أهل حماة» وهذه الكتابة كان اصطلاحهم عليها في أيامهم، وكان اسم حلب بلغتهم «هلبون وهلبة»، واستمرت بأيديهم إلى أن أتى الملوك المصريون وحاربوهم وملكوها».

لا ينتقض ذلك الرواية السابقة بل يدعمها، فالبيروني، وصاحب معجم البلدان، وابن العديم يقولون إن الذي نفذ أمر بنائها هو حلب بن مهر أحد بني الخاب بن مكنف من العمالقة، اختطها وسميت باسمه وذلك عام ٣٩٩٠ لآدم، ويقول ابن شداد نقلاً عن مختصر البلدان لابن عبد الحق: (قيل كان حلب وحمص وبردعة أخوة من بني عمليق، فبنى كل واحد مدينة باسمه). ويورد صاحب الدرر المنتخب هذه الرواية كما يلي: (وقيل بناها حلب بن المهر بن حمص بن عمليق من بني حام بن مكنف فسميت باسمه)، وقد بنيت أثر ما حل بالعماليق على يد قائد موسى عليه السلام، وخليفته يوشع بن نون الذي افتتح أريحا والغور وعمان، ودفع بالعماليق إلى شمال سورية، وكان العماليق قوماً جبارين: (قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون). (المائدة . ٢٢). وقد استوطن العماليق مدينة قنسرين: «جنوب حلب» وكانت تسمى آنذاك سورية، وتسمى الآن (العيس) وكان اسمها قديماً (شاليس) وبنوا مدينة حلب حصناً لهم. وبانيها هو حلب بن مهر ملك قنسرين، وكان والياً من قبل بلوكوش الموصلي الآثوري.

سوابن فضل الله يقول عن حمص: اسمها القديم سورية: ويرد ابن الشحنة: إن اسم سورية يطلق على الشام كله وحلب، وعلى غيرها، وفي زبدة الحلب يقول ابن العديم: (وسورية هي الشام الأولى، وهي حلب وما حولها -على ما ذكره بعض الرواة- وفي طرف بلد حلب بناحية الأحص مدينة عظيمة دائرة وبها آثار قديمة يقال لها سورية، وإليها ينسب القلم السرياني...

كما أُطلق على جميع الكورة اسم قنسرين). وفي التنبيه والإشراف للمسعودي تعتبر حلب من جند قنسرين، يقول: (ومما عرضه ست وثلاثون درجة مدينة حلب من جند قنسرين من أرض الشام)، ويعدد ابن خرداذبة في المسالك والممالك كور قنسرين فيذكر منها: (كورة حلب).

❁ ❁ ❁

وينفرد ابن العبري -وهو غريغوريوس أبو الفرج بن هرون الطبيب الملطي- في تاريخ مختصر الدول بالقول بأن الآثوريين هم الذين بنوا حلب وذلك بأمر بتحوس ملك آثور في عهد الدولة الثانية: دولة قضاة بني إسرائيل. يقول: (وفي هذا الزمان - يقصد فترة حكم أهور بن جارا الذي اغتال عجلون ملك مواب، وعجلون هذا استعبد بني إسرائيل ١٨ سنة حتى خلصهم أهور من العبودية- بنيت مدينة حلب بأمر بتحوس ملك آثور).

وينفي ذلك أن ذكر حلب كان موجوداً في عهود سابقة لهذا العهد، وجاء في تحف الأنباء: (أما اليهود فإنهم يقولون أن أول من بنى هذه المدينة بنو آرام ويسمونها: آرام صوبا). وسنعود إلى ذلك في الحديث عن هذه التسمية لحلب.

❁ ❁ ❁

وتشير آراء أخرى إلى أن الحثيين هم بناة حلب، بدليل الكتابة الهيروغليفية الحثية الموجودة على حجر جامع القيقان، وبدليل آخر هو ما كشفته الحفريات الحديثة في قلعة حلب عن وجود معبد حثي يعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد هو معبد حدد، وإلى هذا الرأي يميل محمد كرد علي في كتابه خطط الشام إذ يقول: (وربما كانت حلب من بناء الحثيين)، وكذلك المطران الدبس في كتابه تاريخ سورية، ويرجح هذا الرأي أيضاً صاحب أعلام النبلاء، وينقل قول بولس جوون اليسوعي في مجلة المشرق مجلد ٢ ص١٤: (ومما لا سبيل إلى إنكاره أن حلب كانت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد مدينة عامرة تشهد بذلك كتابات مصرية ترتقي إلى زمن رعمسيس الثاني، وصف فيها سفر المصريين إلى شمال سورية، جاء فيها مراراً ذكر «حلبو»، أي «حلب»، وورد أيضاً في رقيم هيكل رعمسيس المذكور أن هذا الفرعون انتصر على أمير حلب وكان أتى في ١٨٠٠٠ لنصرة ملوك الخطيين أو الحثيين في معركة قادش، فغلبه رعمسيس ورماه في نهر العاصي فنجا منه، وصورته على هذه البناية تمثله معلقاً برجليه يتقيأ ما تجرعه من الماء). ومعركة قادش جرت عام ١٢٨٨ ق.م.



ويضيف الطباخ: (وما نراه الأرجح في أصل مدينة حلب أن بناتها هم الحثيون من سلالة حام بن نوح وكانوا شعباً قوياً تملكوا على سورية الشمالية قبل فتوحات ملوك مصر من القرن ٧- ١٤ ق.م. وقد أبقوا آثاراً جليلة من ملكهم في جهات حمص وحماة وحلب، ونظن أن أسماء هذه المدن نفسها مشتقة من اللغة الحثية).

ولكن التاريخ يؤكد أن الحثيين لم يبنوا مدينة حلب وإنما غزوها، وقد حاول الملك الحثي حاتوسيل بن لابرناس ملك مدينة خطي أو «خاطوزا» احتلالها بعد علاقات سلمية سابقة، لكنه ارتد مقهوراً أمام أسوارها، وحاصرها من بعده مورسيل الأول فاستولى عليها عام ١٨٢٠ق.م، فدمرها، ونهبها، وساق إلى مدينة خاطوزا أسرى حلب وثروتها. وقد بقيت تحت الاحتلال الحثي حتى عام ١٦٥٠ ق.م. ومما يؤكد ذلك أن لوحات ماري تذكر أن تجاراً ماريين زاروا حلب عام ٢٢٠٠ق.م. في بحثهم عن الأخشاب من كركميش. وهكذا فحلب كانت مدينة عامرة قبل تأسيس الإمبراطورية الحثية، وكانت دولة قوية إبان التوسع الحثي.

وموريث في كتابه Histoire de L'orient ancien يقول: إن المؤسس الأول للإمبراطورية

الحثية، هـو حاتوسيل الأول Khatousil وكانـت له صلات سلميـة بحلب Khalpa المدينـة المعمورة الكـبرى). والعموريون هم أقـدم شعب سامي سكـن حلب نعرفه حتى الآن. ولا نـدري ما تفيدنا بـه مكتبة إيبلا المكتشفة حديثـاً، والتي تحوي أكثر من ١٥ ألف رقيم، ولربما تخبرنا عن شعب أقدم من العموريين سكن حلب.

❁ ❁ ❁

يبـدو أن حلب بنيت مرتين، فقد خربت بعد بناء بلوكوش لها، فجدد بناءها سلوقس اليونـاني، يقول أبو النصـر يحيى بن جرير الطبيب التكريتي النصراني في كتابه الجامع للتاريخ والمتضمن ذكر مبـدأ الدول ومنشأ الممالـك ومواليد الأنبياء وأوقات بناء المدن وذكـر الحوادث، وعنـه ينقل ابـن العديم وصاحـب المعجم: (كان الملـك على سورية وبابل والبلاد العليـا سلوقس نيقطور، وهو سرياني، وملـك في السنة الثالثة لبطليموس ابن لاغوس بعد ممـات الإسكنـدر، وفي السنة الثالثة عشرة من مملكته بنى سلوقس اللاذقية وسلوقية وأفامية وباروا وهي حلب، وأراسا وهي الرها، وكمل بناء إنطاكية).

وفي تحف الأنباء: لما استولى على إنطاكية سلوقس وهو أحد الملـوك الرومانيين سنة ٢١ من جلوسه ٣١٢ ق.م. جدد بناء مقدار النصف من مدينة حلـب الذي كان انهدم، وهو الذي بنى القلعة على التل المشهور عند العرب أنه لإبراهيم الخليل، وأمر اليهود أن يترددوا إلى هذه البلدة للتجارة فكثروا فيها. لذلـك كانت حلب تسمى بمدينـة الأحبار، حتـى إن أحـد أبوابها اسمه بـاب اليهود، واستمر ذلك الاسم إلى أن أتت الملوك الأيوبية فغيرت اسمه وسمته باب النصر.وهذا الباب قائم إلى يومنا هذا، وهو أحد الأبواب التي ما تزال ماثلة: باب الحديد (أو القناة)، باب المقام، باب قنسرين، باب انطاكية.

وينقـل ابن العديم عـن بعض المؤرخين من المسيحيـة: إن الذي ملك بعد الاسكندر بطليموس الأريب وهو الذي بنى مدينة حلب وسماهـا اشمونيت. وذلك أنـه اختار بناء المدينـة في موضـع وأراد أن يكون بها الماء. فرأى الأعين التي بحيلان فأمر المهندس أن يبني عليهن بنـاء ويحكمه وأن يجريهن إلى المكان المرسوم، وجمع الناس للعمل في عمارة المدينة، وآخر مابناه باب إنطاكية وعين فيها ابنتـه اشمونيت وسمى المدينـة باسمها.ثم ملك حلب بطليموس بن اشمونيت، مع أمه، وعمر على صخرتها قلعة وحصنها، ثم غزا انطاخوس ملك الروم حلب فأسر اشمونيت وابنها، وماتا في الأسر، وراح يهدم حلب، ثم

كلَّ عن هدمها وتوعــد من يسكنها فارتحل عنها الناس.

ولا يضاهـــي فعل انطياخوس هذا سوى ما فعلــه أوغسطوس قيصر بـــن ميخوس، فقد مرّ بحلب ولم يرضَ بسكناها وتجاوزها إلى موضــع مدينــة قنسرين، فأمـــر جنده أن يعسكـــروا فيها وبناهـــا، وسماها مدينة العسكر، يقول ابـــن العديم: (ونقل الأسواق مـــن حلب إليهـــا: ولم يبق بحلـــب إلا من لا حاجــة للعسكر به، وكانت هـــذه أعظم من فعل انطياخوس)، بـــل إنه ساق إلى قنسرين عين المباركة التي كانت تسقي حلب.

لقد سقنا أغلـــب النصوص التي تنسب بناء حلب إلى بطليموس لاغوس «أو الأريب» أو سلوقـــس نيكاتـــور، لنبـــين أن الملكـــين المذكوريـــن همـــا حديثا عهـــد بالنسبة لمن تقدمهما، وأن علـــم الآثار يؤكد وجود حلب باسمها الحالي قبل هـــذا التاريخ، ولابد أن سلوقس وهـــو الأرجح هو الذي أعاد بناءها وحركة الحياة إليها.

وسوفاجيـــه يقف طويلاً عند هذا العهد الهيلينستـــي، وهـــو يعـــدد في تاريـــخ حلب ثلاث مراحل حضاريـــة وثقافية مرت على المدينة: ١-الحضارة الغابرة. ٢- الحضارة الهيلينستية. ٣-الإسلام. وإلى المرحلة الثانية يعيد سوفاجيـــه النصيب الأوفى في تشكيل المدينة. يقول: (إن عهد السلوقيين يمكن أن يعتـــبر بجدارة وحق العهد الحاسم في تاريخ حلب). ذلك لأنه في رأيه هو الذي أوصل حلب إلى الوظيفة المدينية بشـــكل قطعي، ورسخ مصيرها بصـــورة حاسمة. وعلى الرغم من أن سوفاجيه يؤكـــد أن لحلب ماضياً طويلاً قبـــل أن تدخـــل التاريخ، وأن آثـــار التجمع الســـكاني الأول لأهل حلـــب يجب أن يفتش عنه في تل العقبة الذي يقوم على حافة وادي قويق، فإن سوفاجيـــه ينفي بتعصب غريب للحضارة الهيلينستية أي أثر لما قبل أو بعد هذه الفترة: يقول: (إن حلب لم تحتفظ بشيء من حضارات العصور العظيمة الآسيوية، أو أنها احتفظت على الأقل بأشياء بسيطة مثل اسمها، ولا شيء غير ذلك). أما العهود التي تلت «الزمن اليونـــاني»، أي الإسلام-حسب زعم سوفاجيه- فإنها لم تقدم شيئاً حضارياً لهذه المدينة. يقـــول: (إن الإسلام في تاريخ حلـــب الطويل لم يكن إلا حادثـــاً عرضياً).. ويبلغ به التعصب والتحامل أقصاهما حين يقـــول: (إن العصـــر الإسلامـــي لم يقم بأي إسهام إيجابـــي، إنه سارع في انحطاط هذه المدينة... إن العصر الإسلامي لم يفعل شيئاً ســـوى تفكيك كل مـــا كان حتى ذلك الوقت مبنياً بصورة متجانسة).

من الغريب أن يسوق التعصب سوفاجيه

إلى تجاهل تأثير الحقب الطويلة العربية والإسلامية الممتدة إلى اليوم، وإلى رد النظام المعماري في المدينة إلى الإطار المادي للحضارة الهيلينستية والرومانية، يقول: (فليست أجهزة التجمع السكاني العربي المسلم الحياتية إلا نسخاً للأجهزة الحياتية للمدينة الهيلينستية، وهكذا يكون إنشاء مدينة Bérée وكأنه الحدث الرئيسي في تاريخ حلب).

لكن ما جاء به سوفاجية لا يلبث أن يتداعى أمام الفرضيات الأكثر صحة، والآثار، والواقع الذي لا يمكن تجاهله. فليس ثمة ما يؤكد أن تل العقبة هو مكان التجمع الأول للحلبيين، والفرضية الأكثر قبولاً وصحة هي أن المغائر في حلب هي الموقع الأول لسكناهم، بل لسكنى الإنسان الحلبي في العصر الحجري. وفي حلب حي خاص يعرف بالمغاير لكثرة المغاور فيه. وهذه المغاور المنتشرة في تلة السودا «المغارة الجديدة»، والمعادي، والخناقية «السريان» و«الشيخومير، وسراديب القلعة... ربما كانت متصلة مع بعضها.

يقول خير الدين الأسدي: (أما مغاير حلب فبلدة تحت بلدة، وبلدة كبيرة لا يعلم العلم حتى يومنا هذا مدى امتدادها، ومدى اتصالها. وبقربها حي الكلاسة ورد ذكره في لوحات ماري سنة ٢٨٥٠ق.م. بلفظ «كلاسو» ولقد تيسر لي الدخول إلى كبراها، أعني المسماة المغارة الجديدة المسدودة الباب الآن)، وقد حاول الأسدي مع لفيف من أساتذة المعهد العربي الفرنسي اكتشاف إحداها.

ويضيف العلامة الأسدي جوف المغائر -وكان قد ربط نفسه بحبل وأنزله طلابه إلى المغارة، وسار فيها ما سارت به الحبال- فيقول: (هذه الدهاليز المتشعبة تشعب العروق في الجسد، وكل شعب يتشعب، وفروع الشعوب تتشعب، وأثر كل مسافة غير منظمة غرفة منقورة بالحجر، وآثار نقرها ماثلة في جدرانها الحورية وفي سقوفها، نعم تمتعوا أيضا بما في كل غرفة أو مخدع من دكة أو مصطبة كان ينام عليها سكان حلب في عهدهم السحيق، عهد العصور الحجرية، ثم رأينا في السقوف قوافع على نحو ما في «سوق الزرب» على مسافات بعيدة، ومعظمها مردوم، كانت مهمتها أن تأذن للهواء والنور بالدخول كما أن مهمتها الدخول إلى المغاير والخروج منها، وهذه الدواسات الباقية حتى اليوم تتحدث أن المداخل والمخارج من الباب الأصلي البعيد). وهنا تنتهي الحبال بالأسدي فينتهي الوصف، ويعود أدراجه مهتدياً في ظلمة ليل المغاير بالحبال.

كتب سوفاجية: (تدخل حلب سجل التاريخ منذ القرن العشرين قبل الميلاد باسمها الراهن، ولما كانت في ذلك العهد عاصمة استلزم هذا أن يكون لها ماض قديم، على أن منبتها يضيع في دياجير الزمن، فنحن أمام إحدى أقدم مدن العالم).

لكن حلب تدخل التاريخ قبل هذا الزمن، وما كتبه سوفاجيه كان قبل أن تجري حفريات ماري قرب البوكمال، وآلالاخ قرب إنطاكية، وأور جنوبي العراق، وقبل اكتشاف مدينة ايبلا في تل مرديخ قرب حلب.

ففي لارسا Larsa واسمها الآن سنكرة أثران يرجع عهدهما إلى ٢٠٣٦ . ٢٠٤٧ ق.م. جاء في الأول: (إلى عشتار Ishtar الحلبية أنا وردسين Ward – sin ملك لارسا).

وجاء في الثاني: (إلى عشتار الحلبية: ابنة البكر).

وفي الرقم المارية أن زميريليم ملك ماري زار حلب وأهدى تمثاله البرونزي إلى حدّد إله حلب وكتب عليه:

Muzi – Im – Ri– Li– Im– Salam – Svan– Nail – Addad– Ha – La .– Abki – U– Se – Lu – U

وكذلك يرد اسم حلب في رقم تل العمارنة.

ومن الواضح أن اسمها في رقم ماري: حا . لا . اب «حلب» Ha – La – ab

أما «كي أو كو» فملحق خاص بالعلمية على معنى المحل أو البلد، وآثار ماري تذكر حلب في القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، وكثيراً ماكان ملوك ماري وملوك حلب يتبادلون الهدايا، منها أن ملك ماري أرسل أسطوانة ختم كبيرة من اللازورد الأزرق كتب عليها: (إلى ياريليم ملك حلب). وياريليم هو أقدم من عرفنا من ملوك حلب ومعنى اسمه: «غوث الإله الجليل».

والرقم الأثرية المختلفة تذكر حلب بأسماء متقاربة في اللفظ:

ففي الآثار المصرية تذكر باسم «حلبُو»، و«خالوبو» و«حلب كو»، و«حيلبون» و«حرب».

وفي الآثار الحثية تذكر باسم «حلب» و«حلباس» و«حلبا» و«حالاب».

وفي الآثار الأكدية تذكر باسم «حلآبكي».

وفي الآثار الأشورية تذكر باسم «خلمان» أو «حلوان».

وفي الآثار الآرامية تذكر باسم «حلب» وقد ورد اسمها في المعاهدة التي عقدها أشور نيراري مع موتوايلو ملك أرباد الآرامي «تل رفعت» سنة ٧٥٠ ق.م. تقريباً.

وفي الآثار السومرية تذكر باسم «حلب» و«حلآبا».

وثمة أشكال متقاربة في اللفظ في رقم أثرية أخرى، لكنها كلها تصدر عن الاسم الذي تعرف به المدينة الآن وهو «حلب».

إن أول ذكر لحلب- نعرفه حتى الآن. كان قبل الفتح الحثي بـ٣٨٠ سنة، أي نحو ٢٢٠٠ ق.م. وذلك في لوحات ماري، وفيها نجد أن تجاراً ماريين ساروا إلى كركميش «جرابلس» ومنها إلى حلب فأوغاريت «رأس شمرا»، فكانسس في الأناضول، وذلك يعني أن حلب في هذه الفترة كانت مركزاً تجارياً عامراً، ومما لاشك فيه أن وجودها يرجع إلى أبعد من ذلك.

وهذا يؤكد أن مدينة حلب نشأت سامية. ومما لا شك فيه أن لوحات ايبلا تلقي ضوءاً أقوى على نشأة حلب.

هكذا تغرق حكاية حلب ونشأتها الأولى في دياجير ماقبل التاريخ.

لقد دثرت أترابها: بابل وماري وأوغاريت وإيبلا، ودثرت مدن بنيت بعدها... وبقيت حلب وحدها تمد جذورها في ليل الزمن، وترفع رأسها نحو الشمس في كل صباح.

أخنى الزمان على لداتها، وما تزال الدماء تجري في عروقها، والحياة في أماسيها، عصية على النكبات والخطوب، منيعة على الغزاة والطغاة.

-٢-

وكما تغرق حلب في ليل الزمن فإنها تغرق في ليل اللغة. ولا بد قبل التعرض إلى تحليل كلمة حلب أن نستعرض أسماءها الأخرى التي عرفت بها، ولم يبق منها غير الشهباء تقرن غالباً بالاسم الأصلي «حلب»، فيقال: حلب الشهباء.

«الشهباء» وصف انتقل على مر الزمن من الوصفية إلى العلمية، مثل ورقاء يطلق على الحمامة، وحلب معروفة بأرضها الحوارية وحجارتها الكلسية البيضاء. والشهب بياض يصدعه سواد. ويقول ابن شداد: إنها توصف بالشهباء والبيضاء، ومثل ذلك يقول صاحب معجم البلدان لكن أحداً لم يستعمل الصفة الثانية، ولربما كانت مجرد توسع في الوصف.

وتل القلعة حواري أشهب، وعليه تقوم القلعة، ويرى ابن جبير أن أول ما لقب بالشهباء هو القلعة، ثم انتقل الوصف إلى حلب من قبيل إطلاق الجزء على الكل.

«والشهباء من الكتائب العظيمة الكثيرة السلاح»، ولربما أطلق عليها الشهباء أيضاً لا لشهبة حجارتها، وإنما لأنها كانت منيعة يصطدم بوجودها الغزاة، وكثير هم الذين غزوها، وإلى هذا الرأي نميل، ومهما يكن

فالشهباء صفة عربيــة. سماها بها العرب. أما مــا ينقلــه ألكس رسل عــن الأسطورة الخرافية، والذاكرة الشعبيــة، بأن الشهباء بقــرة غريبــة بلونهــا وخوارهــا في قطيع إبراهيم «ص» كان يحلبها ويطعم الفقراء، فيقال: «حلب إبراهيــم الشهباء»، فلا تقوم علــى أساس، لأن العبــارة بلفظها وتركيبها عربيــة. وعلى الرغم مما يقال بأن إبراهيم «ص» في رحلته الكبرى من أور إلى فلسطين قد مر بموقع حلب، وله فيها مقامان: أعلى في القلعــة، وأدنى في حي بــاب المقام، وإن مجال حركته كان يمتد مابين فلسطين جنوباً وحلــب شمالاً، فإن ذلــك لا يفيد في إثبات هذا الرأي.

❁ ❁ ❁

وحين جــدد السلوقيون ملــوك سورية بناء حلــب سموها «بيروا»، وجــاء في زبدة الحلــب لابــن العــديم: (وكان اســم حلب باليونانيــة، «بــاروا»، وقيل (بــيروا)، وذكر أرسطاطاليس في كتاب الكيان: إنه لما خرج الاسكندر لقصد دارا الملــك ومقاتلته، كان أرسطاطاليس في صحبته، فوصل إلى حلب، وهي تعــرف بلسان اليونانية «بــيروا»، ولما تحقــق أرسطاطاليس حــال تربتها وصحة هوائها، استــأذن الاسكنــدر في المقام بها، وقــال له: إن بي مرضاً باطنــاً، وهواء هذه البلــدة موافق لشفائــي، فأقــام بها فزال مرضه). ويقول سوفاجيه: (لقد شيد سلوقس نيكاتور مدينة جديدة على موقع حلب سنتي ٣٠١ . ٢٨١ سماهــا «بيريه Beree أو بيروا Beroia وهــي اسم لموضــع في مقدونيا»). يقــول الطباخ: (وفي سنة ١٠٧ أو ١١٧م أمر الامبراطور ترايــان اللاتيني بضرب السكة في حلب، فشرعــوا فيها وكان مرسوماً على أحــد جانبيها صــورة الإمبراطــور، وعلى الجانب الآخر (بروبا) وهو اسم حلب بالقلم اليوناني)، وهكذا حتى العهد الروماني كانت تعرف في المعامــلات الرسمية وكتب البيعة للنصارى باســم «بيروا». ويذكر الأسدي أنه اتصــل ببعــض مطارنة الطوائــف -الروم الأرثوذكس، الكاثوليك، الأرمن الأرثوذكس- في حلــب فأفــادوا بأنهم كانــوا أو ما زالوا يوقعــون باسم «مطران بيريــا». لكن اسمها لدى العامة ظل «حلب».

❁ ❁ ❁

وإذا كان مطارنــة المسيحيــين يسمونها «بــاروا» فإن اليهود يطلقون عليها اسم «متا محسيــا» و«آرام صوبــا»، و«صوبة». و«متا» تعنــي مدينة، ومحسيــا «مركبة» مزجيا من محسة وتعنــي ملجأ، و«يه» وتعني يهوه: الله

فتكون مدينة ملجأ الله. ولربما سميت باسم مدينة في العراق، وينقل الأسدي عن «محنة يهوده» أن أول من أطلق على حلب متامحسيا هو الحاخام يهوده قاصين الحلبي المتوفى سنة ٥٥٤٤ لآدم -كما على لوح قبره- أي سنة ١٧٨٤م). و«سورا» مدينة في منطقة بابل تقع على مستنقع «سوريا» كان فيها معهد ديني يهودي، حدث فيها وباء لم يرفع إلا بعد أن نصح أحد الأحبار سكانها بتغيير اسمها إلى «متامحسيا» ثم نقل هذا الاسم فأطلق على حلب لما اشتهرت به من علم ومحافل دينية وصلاح.

وجاء في تحف الأنباء: (أما اليهود فإنهم يقولون إن أوّل من بنى هذه المدينة بنو آرام ويسمونها «آرام صوبا»)، مستدلين بما ذكر في التوراة في صموئيل الثاني الأصحاح الثامن:

(وضرب داود هدد عزر بن رحوب ملك صوبة حين ذهب ليرد سلطته عند نهر الفرات، فأخذ داود ألفاً وسبعمئة فارس وعشرين ألف رجل، وعرقب داود جميع خيل المركبات، وأبقى منها مئة مركبة، فجاء آرام دمشق لنجدة هدد عزر ملك صوبة).

نقلنا هذا المقطع من الكتاب المقدس طبعة المطبعة الأميركية بيروت ١٩٥١، أما العبارة التي نقلها الطباخ عن تحف الأنباء فهي: (إنه لما نزل داود إلى الفرات ضرب حاتا تيثر بن ريجوبا ملك آرام صوبا)، وعلى الرغم من الاختلاف الظاهري في رسم الأسماء في العبارتين، إلا أنها واحدة، ومتفقة لفظاً ودلالة.

ويناقش الطباخ مؤلف أعلام النبلاء هذا الزعم بقوله: (إن هذا الوادي الذي ضرب به الآراميون هو بين الجبول وسبت، وهو شرقي الجبول من جهة الجنوب، والدليل على ذلك أن لفظ سبت أقرب للفظ «صوبا» من حيث مخارج الحروف، بخلاف لفظ حلب، وسبت مدينة عظيمة آثارها موجودة إلى الآن). وهكذا فمدينة آرام صوبا- كما يرى الطباخ- هي مدينة سبت- قرب بلدة الباب حالياً وليست هي حلب. وينقل الطباخ عن أحد الحاخامين الإسرائيليين أنه رأى في قلعة حلب حجراً مكتوباً عليه بالعبرانية: «أنا أيوب بن سيرويا أخذت هذه القلعة». وايواب هو قائد جيش داود النبي «ص» قبل التاريخ المسيحي، ١٩٨٠- ١٧١٠ق.م، واستمرت بأيديهم إلى أن أتى الملوك البابليون وتحاربوا مع السريان وأخرجوهم منها سنة ٦٦٠ ق.م. وهذا الادعاء لا صحة له فلا وجود لمثل هذا الحجر في قلعة حلب. يقول الطباخ: (بحثت كثيراً عن هذا الحجر فلم أجد له أثراً). يقول ألكس رسل: (ويبدو أن إطلاق صوبا

على حلب مشكوك فيه، ومضطرب جداً). ويرد دوسود R. Dussaud أن «صوبا» تقع جنوبي حماة، وهو رأي تدعمه الوثائق الأثرية، ومن الأرجح أن هذا الاسم أطلق على حلب بعد اندثار مملكة صوبة.

❁ ❁ ❁

وفي رقيم أكدي يرجع إلى نرم سين Naram sin ٢٥٠٧ . ٢٤٥٢ ق.م ما ترجمته: «قديماً لم يكن بقدرة ملك من الملوك أن يكتسح ارمان وابلا. شق «نركال» الإله له طريقاً وأعطاه «ارمان» و«ابلا» نرم سين ظفر على ارمان وابلا». وهذا الاسم قريب جداً في لفظه من «حلوان» الذي يطلقه الآشوريون على حلب. كما أن هنالك رقيماً آخر حورياً سوبرياً يدعو: «أرمان» بلفظ «حلباً با»، و«بلا» بلفظ «ابلأبا».

❁ ❁ ❁

وينقل الطباخ عن الدرر المنتخب أن الصابئة تسمي حلب «مابوغ» وقال: كانت حلب تعرف بمدينة الأحبار عند الصابئة. ووجد في كتاب بابا الصابي الحراني في المقالة الرابعة في ذكر خروج الحبشة وفسادهم في البلاد: (وينزل الفرات... من مدينة الأحبار المسماة مابوغ: وهي- حلب مدينة الأحبار، يأتي رجل سلطان يحل بك، ويعلي أسوارك، ويجدد أسواقك، ويجري العين التي فيك، وبعد قليل يؤخذ منك).

لكن الغزي في نهر الذهب يرى أن ما بوغ أو ما برغ هي منبج، ومثل هذا الوهم وقع في اسم يره بوليس، حيث توهم أنه أطلق على حلب، وأثبته منكه الجغرافي الفرنسي في خارطة آشور. وقد دحض الغزي ذلك قائلاً: (والصواب أن يره بوليس هو أشهر اسمي منبج القديمة في الدولة اليونانية). وجاء في الدرر المنتخب نقلاً عن يحبوب بن القسطنطينية في كتابه الذي وضعه في أخبار ملوك الروم: (وفي سنة ٣١ من مولد لاوي بن يعقوب بنت الملكة سمرين بناء عظيماً لقيوس الصنم في المدينة على شاطئ الفرات وأقامت له من الكهنة ٧٠ رجلاً وسمت تلك المدينة يره بوليس، الذي تفسيره مدينة الكهان وهي مدينة منبج العتيقة).

ويؤكد ذلك ما قاله دوسو: يره بوليس هي التي يدعوها الآشوريون نابيجو Nappigu تدعوها النصوص مابوج Mabbog .

❁ ❁ ❁

كغيرها من المدن السورية ردفت اسمها الأصلي «حلب» أسماء أخرى يتمثل فيها مختلف التأثيرات والمتغيرات التي تعرضت لها المدينة.

لاشك أن هذه المدينـة السامية الموغلة في القدم إلى ماقبل الوعي التاريخي، تحمل اسمهـا منذ النشأة لفظة سامية الأصل هي «حلب».

ولابـد قبـل العرض التحليلـي العلمي لتسمية حلب أن نمـر بالجانب الأسطوري والمتداول بين العامـة في تسميتها، ويدفعنا إلى ذلك أنه ورد لدى بعض المؤرخين.

يقـول ابن العديم في زبدة الحلب (وكان الضعفاء إذا سمعوا بمقدمـه «أي إبراهيم «صـ» أتوه مـن كل وجه، من بـلاد الشام، فيجتمعون مع من اتبعه من الأرض المقدسة لينالوا بره، فكان يأمر الرعاء بحلب ما معهم طرف النهـار، ويأمر ولـده وعبيده باتخاذ الطعام فإذا فرغ له من ذلك أمر بحمله إلى الطرق المختلفة بإزاء التل، فيتنادى الضعفاء «إن إبراهيم حلب»، فيتبادرون إليه. فنقلت هذه اللفظة كمـا نقل غيرها فصارت اسماً لتـل القلعة، ولم يكن في ذلـك الوقت مدينة مبنيـة... فلما عمـرت المدينة تحته سميت باسمه).

وثمة رأي آخر في تسميتها هو أن اسمها آرامـي ومعناه اللـبن أو البياض، سميت به لبياض تربتهـا أو لغزارة لبنها، لكن تحليلاً علميـاً يمكـن أن يلقي ضـوءاً ساطعاً على الجانب اللغوي لكلمة «حلب».

يـرى الأب انستاس الكرملـي أن أصل كلمـة «ح ل ب» هو «ل ب» باعتبار أن جميع الألفاظ الثلاثية السامية هي ثنائية التركيب في أصلها الأول، توجت بالحرف الحلقي ح. والعودة إلى أصلهـا الثنائي «لب» والاهتداء بمعنى «اللـب». في العربية يمكـن أن يبين معناهـا. يقول: (وعليه فمعنى مدينة حلب: المدينة الخصبة الأرض المكتنزة التراب).

إلا أن العودة إلى الآثار تعرض لنا أن لفظ حلب القديم جاء بتضعيف اللام «حلَّب».

وفي مقدمة شريعة حمورابي قائمة بأسماء ٢٤ مدينة منها «حلَّبو» Khallabu.

والحثيون دعوا أهـل «حلب» «حلاَّبيز» أي Hallapijail.

وفي رقيم Ri-Mi-Us الأكدي ورد اسم حلب باسم Hallab Ki وكي تعني مدينة أو موضع، وكذا الرقم المارية المحفوظة في حلب وباريس تدعوها Hallap وبفك التضعيف يكون تركيب اسم حلب (حل. لب)، وفي آثار أخـرى (آشور، شلمنصـر)، تدعى بـ (حل-وان)، و(وان) ملحق خاص بالأعلام.

وهكذا فلا صحة لقـول ابن العديم أن اسـم حلب عربي وكان لقبـاً لقلعتها. يقول في الزبـدة: (اسم حلب عربـي لاشك فيه، وكان لقباً لتل قلعتها، وإنما عرف بذلك لأن إبراهيـم الخليل «صـ» كان إذا اشتمل من

الأرض المقدسة ينتهي إلى هذا التل فيضع بـه أثقاله، ويبث رعاءه إلى نهر الفرات وإلى الجبل الأسود).

من هذه الإشارات انطلق العلامة خير الدين الأسدي في تحليله لكلمة «حلب». إنه يبني على مقدمة أساسية علمية اعتمدها الكرملي أيضاً وهي إعادة الألفاظ السامية إلى تركيبها الأصلي الثنائي، ويخالفه فيما قال بأنها مفأمة تفثيم التتويج.

لكن اسمها جاء على تمثال زمريليم ملك ماري والمهدي إلى «حـدّد» إله حلب هكذا: حـا- لا- ا ب كي فهل هي مركبة من ثلاثة أم من اثنتين؟

يحسم الأسدي الأمر في كتابه حلب الجانب اللغوي من الكلمة بقوله: (لفظ حلب القديم هو «حلَّب» وإن شئت فارسم (حل- لـب) فهو إذاً كلمتان أصليتان هما حل ولب مزجتا معاً فكان منهما حلَّب... كانت مضعَّفة، وإن إزالة التضعيف محدث، دفع إليه التسهيل في كلمة عم استعمالها لتجري مجرى الثلاثي الطاغي في معظم الكلمات السامية). وهذا الحسم في التحليل اللغوي إنما يلجأ إليه كما يقول نزولاً عند ما يفرضه المذهب الثنائي الذي تعتد به مدرسة القرن العشرين). على أن الأسدي يوغل في الاستنتاج إلى حد التخيل، فيتجاوز ما تسوقه الآثار حول (حل. لب) إلى ما يسوقه إليه خياله العلمي الخصب، وهو المعروف بانطلاقاته خارج حدود الحدس العلمي إلى حدود الحدس الصوفي، والذي نلمسه في الكثير من كتاباته. يقول: (إني لأشم في الألب «يقصد لب»، رائحة الجمع لأمر خطير لعله الحرب، نعم هو الحرب، فقد حدثتني عنه عشيرة الكلمة كثيراً فأنست به. هذا الآن ظن، لا يقين نستقبله، لكنه عندي ظن قوي يشارف تخوم اليقين، ذلك أن لب أصلها رب بدليل المواءمة بين مدلول الكلمتين... فالراء. يا نفس!.. صوت طبيعي للتعبير عن الكثرة...إننا إذا استثنينا لثغة المصريين القدماء في تسمية حلب: حـرب لا نجد أي نص أثري يورد الحرف الأصلي المبدل منه... إذاً فقد اجتاز لفظ حلب المراحل الثلاث التالية:

١-(حل رب) يعتوره الإدغام فيقال: (حر ر ب)، ٢-(حل لـب)، ٣-حلب. وقد سجلت الآثار لهجات الشعوب في المرحلتين الثانية والثالثة).

ولسنا نظلم الأسدي إذا قلنا أنه خرج عن حدود التحليل العلمي، فهو الذي يقول عن ذلك: (حق وحق، وظن قوي، هكذا كنت قلت، وهذا تخيل نستقبله، لا يسعد بحجج العلم، إنما تسعد المخيلة بتصوره، ذلك أن

الباعث على إبدال الراء لاماً إنما هودلع الأوانس آنذاك، فلطفن الراء جرياً على لثغ الأطفال بها حتى اليوم). مع اعترافنا بأن بحثه في هذا المجال هو أعظم وأغنى ما كتب حتى الآن.

أما مدلول حلب، فلابد لمعرفته من العودة إلى ثنائية اللفظة السامية (حل-لب)، وحل: تعني المحل، ونزول القوم بمحله وهو نقيض الارتحال، ولها المدلول نفسه في العبرية، إذا أبدلت اللام نوناً، ومثل هذا الإبدال معروف في العربية وسائر اللغات السامية، وفي البابلية لفظة قريبة من حل هي «ألي» وتعني المدينة، ومثلها في الأكدية «ألو» وفي اللفظتين أبدلت الحاء بالهمزة.

أما «لب» فتعني التألب، والتجمع، والقلب.

وقد وردت في العبرية والسريانية والأكدية بمعنى القلب.وعلى هذا يكون معنى حلب هو مكان التجمع والتألب، أو مكان القلب. وكانت حلب مكان القلب بين ماري وإيبلا وكركميش ويره بوليس وأوغاريت وآراسا وكانس وآراباد.

-٣-

قبل أن يلقي التاريخ أضواءه على منطقة التلال الصغيرة شرقي نهر قويق، كانت حلب قائمة تستحم بأنوار الشمس، وقد لعبت مع سورية الشمالية دوراً بارزاً في الأحداث التي شهدتها المنطقة، فقد كان امتلاكها يؤكد للغزاة في حمى الصراع المستمر الإشراف على ممرات طوروس ومخاضات الفرات وطريق مصر. كانت القلب، وكانت نهاية السهم في مسارات القوى الغازية كالحثيين الذين اجتازوا البوسفور من البلقان باتجاه الأناضول حوالي ٢٠٠٠ ق.م. والحوريين الزاحفين من القفقاس باتجاه الجنوب الغربي والذين انضم إليهم الميتانيون.

والمصريين الذين تقدموا نحو الفرات عام ١٥٣٦ ق.م، وبلغ الغزو أوجه في عهد تحوتمس الثالث ١٤٨٢ ق.م. حتى بلغ كركميش ونهاريا.

والآشوريين أكبر قوة عسكرية تجتاح منطقة مابين النهرين عام ١٢٨٠ ق.م.

والأخيين الذين اجتازوا البوسفور وأدالوا بحركة صاعقة الإمبراطورية الحثية حوالي عام ١١٨٠ ق.م.

والساميين الذين قدمت موجاتهم من الجزيرة العربية.

والميديين والفرس والسيت الهابطين من إيران.

والبابليين الثائرين الذين احتلوا نينوى ودمروها وزحفوا نحو الفرات يبسطون نفوذهم على شمال سورية.

وفرس قورش الذين أسسوا باحتلالهم لسورية وقضائهم على بابل عام ٥٣٩ ق.م. إمبراطورية واسعة الحدود، ودفعهم طموحهم إلى الاحتكاك العسكري بالمدن الإغريقية.

والإغريق الذين اكتسحت جيوشهم بقيادة الاسكندر المكدوني منطقة شمال سورية فيما اكتسحت من بلاد.

لكن موقع حلب في طريق الغزوات المتعاقبة لم يعد عليها بالوبال، وإنما أدى لها خدمات حسنة، وكان أحد أسباب استمرار وجودها، فقد أكد أهميتها الاستراتيجية والتاريخية من جهة، ولم يجعلها محط رحال الغزاة من جهة أخرى، إذ لم يتخذها أحد من الملوك القادمين من الشمال أو الشرق أو الجنوب سكناً له، ولم يكن قصر المرزبان في العهد الفارسي نفسه في موقع حلب وإنما في موقع قريب من بلدة الباب. وانطياخوس ملك الروم غزاها وهدم قسماً منها ثم رحل. وأوغسطوس قيصر بن ميوخس مر بها وعسكر في موقع قنسرين، وكسرى قباذ، كما يذكر ابن العبري في تاريخه، افتتحها في عهد الدولة السابعة ثم رحل، كما افتتحها كسرى بن هرمز في عهد الدولة الثامنة ولم يستقر فيها... وغيرهم من الملوك الذين اكتسحت جيوشهم حلب، أو مروا بجانبها ولكنهم لم يتخذوها سكناً لهم.

هكذا شهدت حلب فترات نهوض وسيطرة، أو خمول ونسيان، لكنها استمرت في الوجود، وأفادت من مختلف التفاعلات السياسية التي مرت على المنطقة لتحافظ على بقائها، وتؤكد استمراريتها وتصبح في العهود العربية الإسلامية فيما بعد المدينة الأولى في شمال سورية.

* * *

هذه حلب أقدم مدينة في التاريخ

حلب..

وأنت التي حضرت ولادة التاريخ، وعرفته في طفولته وشبابه، تشهدينه في كهولته.

حلب..

وأنت أقدم مدينة معمورة في العالم، تتنفس الحياة مابين المغاور الحوارية والقصور الاسمنتية.

كلما عسكر أمام أسوارك غاز ارشقيه بسهام الحضارات التي ساهم أبناؤك في صنعها، وارفعي في القلعة شاهداً جديداً على رحيله أو انهزامه.

وكلما هز طاغ في وجهك السيف، يسفك دماء أبنائك، ويزرع الفساد، وينهب، ثم يتغنى بشعارات المجد!.. وأمام بابه يسجد المداحون يباركون طغيانه بزنيم الشعر،

احفـري له بئـراً في ثراك، يهـوي فيه عبر طبقات الأرض والتاريـخ، إلى حيث استقر الطغاة الذين سبقوه.

هلكوا... وعشت
ودثروا.. وبقيت
ونُسوا.. وخلّدت

وستظل شمـس الحضـارة تشرق على وجهـك التاريخـي الناضر، وأهلـك الذين مازالوا يجبلون حماة الزمن الأسود، يصنعون منه حياة وتاريخاً.

وستظل ذكاء في كل شروق وغروب تغسل أقدامك الحوارية، وقلعتك الشامخة بأشعتها الدافئة.

هوامش ومصادر و كتب ألفت عن حلب

١- كتب ألفت عن حلب

١- بغية الطلب في تاريخ حلب: كمال الدين بن العديم متوفى عام ٦٦٠ ويقع في أربعين جزءاً.

٢- زبدة الحلب في تاريخ حلب: كمال الدين بن العديم، وهو مختصر بغية الطلب ومرتب على السنين حتى عام ٦٤١هـ.

٣- تحـف الأنبـاء في تاريخ حلب الشهباء: هو زبدة الحلب نفسه انتحلـه الطبيب بيتشوف الجرماني، أما الحوادث التي ذكرها ما بين ٦٤١ . ٩٢٢ فهي منتحلة أيضاً لبعض مؤرخي حلب. مطبوع في المطبعة الأدبية ببروت عام ١٨٨٠م.

٤- تاريخ ابن العظيمي «عن حلب» ولد عام ٤٨٣هـ، ولا يعرف عنوان الكتاب.

٥- حضرة النديم من تاريخ ابن العديم: ابن حبيب الحلبي المتوفى عام ٨٠٨ هـ، وهو مختصر عن زبدة الحلب.

٦- الزبدة والضرب في تاريخ حلب: رضي الدين محمد بن الحنبلي، متوفى عام ٩٧١هـ.

٧- الدر المنتخب في تاريخ حلب: علاء الدين بن خطيب الناصرية، متوفى عام ٨٤٣هـ، ويقع في مجلدين.

٨- المنتخـب من الدر المنتخب: أحمد بن محمد الشهير بالملا، متوفى عـام ١٠٠٣هـ، وولده محمد، متوفى عام ١٠١٠هـ، ويقع في مجلدين.

٩- كنوز الذهب في تاريخ حلب: موفق الدين أبو ذر، متوفى عام ٨٨٤هـ، وهو تذييل على كتاب الدر المنتخب.

١٠- الكواكب المضيئة: أبو ذر بن الرهان.

١١- در الحبـب في تاريـخ حلب: محمد بـن إبراهيم المشهور بابن الحنبلي، متوفى عام ٩٧١هـــ، وهو ليس خاصاً بأعيان الشهباء، وإنما يترجم لمن نزلوا بها.

١٢- شفـاء السقيـم بآيات إبراهيم: محمد بن أحمد. الملا، متوفى عام ١٠١٠هـ تعرض فيه لحكام حلب من الصحابة إلى زمن إبراهيم باشا.

١٣- إنعاشـ الـروح بمآثر نصوح: إبراهيم بن أحمد المعروف بابن المـلا الحلبي متوفى عام ١٠٣٠هـ، ويتحدث عن وقائع نصوح باشا حين ولايته على حلب مع عسكر الشام.

١٤- الـدر المنتخـب في تاريخ مملكة حلب: أبو اليمن البتروني متوفى عام ١٠٤٦هـ، والمنسوب إلى محب الدين أبي الفضل محمد بن الشحنة، والمنتقى من كتاب نزهة النواظر في روض المناظر تأليف محمد بن الشحنة، متوفى عام ٨٩٠هـ.

١٥- معـادن الذهب في الأعيان الذين تشرفت بهم حلب: ابـن عمر العرضي، متوفى عام ١٠٧١هـ، وهو ذيل لدر الحبب، ترجم فيه أعيان عصره.

١٦- تاريخ عبد الله ميرو: متوفى عام ١١٨٤هـ، لم يكمله المؤلف، وأضيف إليه تراجم بعده.

١٧- نهر الذهب في تاريخ حلب: الشيخ كامل الغزي، متوفى عام ١٩٣٣، ويقع في أربعة مجلدات طبع منها ثلاثة.

١٨- أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: الشيخ محمد راغب الطباخ، متوفى عام ١٩٥١. ويقع في سبعة مجلدات، قسمه إلى

مقدمة وقسمين، ذكر في القسم الأول من ملك حلب تولاها من ١٦هـ «الفتح الإسلامي» إلى نهاية ١٣٢٥هـ «الانقلاب العثماني» القسم الثاني ويقع في أربعة مجلدات وذكر فيه تراجم أعيان الشهباء من وزراء وأمراء ومحدثين وفقهاء وأدباء... إلخ. ولا يذكر إلا من ولد في الشهباء أو توفي فيها.

١٩- طرائق النديم في تاريخ حلب القديم، ولطائف الحديث في تاريخ حلب الحديث: ميخائيل أنطون الصقال، وهو قسمان: الأول عن سورية قبل الطوفان وحتى المسيح ويقع في ثلاثة أجزاء والثاني من المسيح إلى العصر الحاضر.

٢٠- ثلاثة مقالات منفصلة، وكتاب، كلها بعنوان حلب الجانب اللغوي من الكلمة: للعلامة خير الدين الأسدي، متوفى عام١٩٧١.

٢١- أقدم ما عرف عن تاريخ حلب: صبحي الصواف.

A- Sauvaget: Alep.

B- Russel: Natural History of Aleppo.

C- Baurain: Alep autrefois – Aujourd'hui.

D- S. Saouaf: Alep – Guide du visiteur.

٢. مصادر أخرى للبحث بالإضافة إلى بعض ما جاء في الفقرة ١:

١- معجم البلدان: ياقوت الحموي.
٢- معجم الخارطة التاريخية للممالك الإسلامية: أمين واصف.
٣- دائرة المعارف الاسلامية.
٤- تاريخ سورية: المطران الدبس.
٥- أساطير الأولين: غبرئيل ميخائيل.
٦- خطط الشام: محمد كرد علي.
٧- نشوء اللغة: الأب أنستاس الكرملي.
٨- كتاب البلدان: أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه.
٩- مقدمة لدراسة لغة العرب: عبد الله العلايلي.
١٠- اتجاه الموجات البشرية: محي الدين الخطيب.
١١- التنبيه والإشراف: المسعودي.
١٢- المسالك والممالك: ابن خرداذبة.
١٣- الأعلاق الخطيرة: ابن شداد.
١٤- تاريخ اللغات السامية: إسرائيل ولفنسون.
١٥- القاموس المحيط- الفيروز ابادي.
١٦- مجلة العاديات السورية.
١٧- مجلة المشرق.
١٨- مجلة الضاد الحلبية.
١٩- مجلة سومر.
٢٠- مجلة المجمع العلمي العربي.

الدراسات والبحوث

مدن البنتابول[1] التي كانت في فترة زمنية تسمى مدن الهيكسابول[2]

د. خليل المقداد ⊙

العـرب الفينيقيون هم من أسس مدن البنتابول ومملكة إقليم سيريناتيك – برقة .

كنا دائماً ومنذ بداية دراستنا عن مدينة بصرى الأثرية ومعسكرها الشمالي نقرأ ومن خلال النصوص الأثرية الكتابية التي اكتشفت في المدينة ومعسكرها أن هذا المعسكر هو مقر الفرقة العسكرية السيرينائيكية (البرقاوية)، وجاءت الفرصة بعد عشرات السنين وفي عام ١٩٩٧ أن زرت المنطقة لفترة زمنية

⊙ باحث ومؤرخ سوري.

استمـرت عدة أيام درسـت خلالها المسارح الأثريـة في مدن البنتابـول والتي تعتبر في عددها من أغنى مناطق العالم رغم صغرها أحياناً. ففـي مدينة سيرين (شحات) حالياً يوجد داخل الحيز التنظيم العمراني خمسة مسـارح، وكانت هـذه الفرصـة حافزاً لي لكي أعود مـن جديد لتدريـس علم الآثار في مدينـة البيضاء مركـز المنطقة الرائعة بجمالها وعاصمـة لبيبا الثانية وفي جامعة عمر المختـار بالتحديد بين أعـوام ٢٠٠٠ – ٢٠٠٣م.

والشـيء الملموس الـذي لا بد من ذكره هـو التشابه الطبيعي والجغرافي بين مدينة سيرين (شحات) عاصمـة إقليم سيرينائيك (برقة) ومدينة درعا عاصمة جنوب سورية وحوضـ اليرموك. ومن جهـة أخرى أيضاً التشابه بين منطقة سيرينائيك (إقليم برقة) في ليبيـا وحوض اليرمـوك في سورية[٣] أو بلاد الشام حيث يكون صلة الترابط بين كل من سورية ولبنان والأردن وفلسطين.

ففـي وادي الكـوف أو الكهوف وجدت دلائل تشـير إلى أقدم الحضارات والتواجد البشري في شمال أفريقيا، وبفترات مختلفة منها كهف هوا فتيح على الحواف الصخرية التي تشرف على مدينـة أبوللونيا (سوسة) والذي يعود بتاريخه إلى فترة ما قبل التاريخ ويستمـر حتى فترة قبيل التاريخ وبالتحديد وحسـب المعطيـات الأثريـة إلى مئة ألف عـام وهو عصر الصناعة الآشولية أو عصر الباليوليتيـك القـديم في الجبـل الأخضر حيـث نموذج كهـف هوا فتيـح في منطقة سيرينائيك، وفي منطقة الحماد الحمراء في وادي العجال (فزان) لفترة ثمانين ألف عام ق.م.

وكذلك الأمر بالنسبـة إلى كهوف وادي الكوف التي تتراوح أعمار اللقى الأثرية فيها بـين ٥٠ و ٤٠ إلى ١٧ ألـف عام ق.م. وهي بذلـك تتشابه مع كهوف بـلاد الشام التي تعتبر الكهوف الأقدم ليس في منطقة حوض البحـر الأبيـض المتوسط وإنمـا في العالم قاطبة، وهـذا ما أكدته أعمـال التحريات والأسبـار واللقـى الأثريـة في العديد من المواقع التي تتواجد بها هذه الكهوف والتي دلت على أن إشغال هـذه الكهوف من قبل الإنسان يعود إلى ما قبل مئة ألف عام.

والدليل علـى ذلك تلـك الأدوات التي خلفها ذلك الإنسـان والتي سوف نفرد لها بحثـاً خاصاً في الدراسـات اللاحقة، وهي دليل وبرهان يؤكـد على التقنيات الخاصة والمتقدمـة للعصور التاريخية التي تعود إلى ما قبل وقبيل التاريـخ في الحضارات التي تولدت في مناطق العالم العربي.[٤]

ومــن هــذه الأدوات المتقدمــة تلــك الصوانيــات من بلطــات وأدوات حادة من الصوانيــات ذات الاستعمــالات المتعــددة وغيرها والتي تعــود إلى عصر الباليوليتيك بكافة مراحلــه وخاصةً الشفــرات الحادة والأدوات العظميــة ومنها تلــك التي كانت تصنــع من عظام الغــزلان والتي تم العثور عليها في الكهوف المذكورة والتي تدرجت في تواريخهــا بــين ٨٠ – ٥٠ – ٤٠ عاماً قبل الميلاد.

تأسيس مدن إقليم سيرينائيك (برقة):

سمي الإقليــم تاريخياً ومنذ تأسيسه في بدايــة العصر الكلاسيكي وحتى فترة دخول القوات العربية الإسلامية في عام ٦٣٤م باسم إقليــم سيرينائيك نسبــةً إلى مدينة سيرين، وهي أول مدينــة أسسها العرب الفينيقيون القادمون من جزر البحر التيراني وجزر بحر إيجة ومعهم عدد مــن الإغريق الذين كانوا يقومون بخدمتهم في قيــادة السفن والمهام الحياتية المختلفة.

وكانت أولى طلائع هؤلاء القادمين الجدد سكان جزيرة تيرا Théra[٥] التي كانت قبل أعمارها من قبل الفينيقيين العرب في مطلع الألف الأول قبــل الميلاد ذات جفاف ملفت للنظر كمــا هي جزيرة ديلوس التي عمرتها نفس القبائل الفينيقية قبل قدوم الإغريق. وكما هو معروف أن كل حدث كان يتم سابقاً كان يعــزى إلى استشــارة الآلهــة لذلك تم ذهاب أول جماعة استطــلاع إلى الشاطئ الليبي القريب بمسافة تقارب ٣٠٠كم، وكان الإلــه الذي تمت استشارته هــو إله مدينة دلفس أبوللو، كما خصص هذا الإله لا حقاً ليكون إله مدينة سيرين الرئيس.

وقد أصبحت سيرين مقــر إقامة عائلة Battiadesباتياد، واستمرت طيلة تاريخها الطويل أكــبر مدينــة فينيقية/إغريقية في أفريقيا. وبقيت لمدة ثلاثة قرون تحت حكم البطالمة اللاجيد في مصر. ومن ثم دخلت في إمبراطورية أوكتــاف/ أغسطس وانخرطت في تاريخ المنطقة الجنوبية الشرقية من حوض البحر الأبيض المتوسط بكامــل مراحله التاريخية. وحسب ما جاء به الشعراء في تلك الفترة أن مدينة سيريــن تعتبر هي الأفضل من بين جميع المدن الأخرى في الإقليم.

وفي الحقيقــة يعتــبر الوصــف الــذي جاء فيــه هيرودوتس الــذي زار المدينة في منتصف القــرن الخامس ق.م هو الأفضل في تلــك الفــترة التاريخية، حيــث ترك لنا شرحاً وتاريخاً مفصــلاً بشكل خاص حول تأسيسها وعن القرنين الأوّلين في هذا المركز الحضاري الكبير apoikia.

وقد جـاء تاريخ المدينة مـن مصدرين مختلفـين، أحدهما من مدينة سيرين نفسها وكذلك من عاصمتها السابقة تيرا Théra، بالإضافة إلى ما ذكـر عن هذا الموضوع في جزء من التاريخ اللامـع والبراق عن تاريخ سيريـن ménéklés المرتبط مع برقة التي عاشت في القرن الثاني ق.م، وكذلك القسم والعهـد الذي تم اعتماده من قبل المؤسسين الذين تركوا لنا كتابةً تشهد على ذلك وتعود إلى النصف الأول من القرن الرابع ق.م وقد تم الكشف عنها وقراءتها لاحقاً[٦].

وقد عانت جزيرة Théra تيرا التي قدم منهـا المهاجرون من جفـاف شديد استمر سبـع سنوات متتالية، وترافـق هذا الوضع الخطير مـع الانهيار الاقتصادي الذي خيم علـى المنطقـة وكان المسبب لذلـك الوضع الـذي كانت له نتائج سلبية على كامل العالم الإغريقـي خلال القـرن السابع ق.م. وكان الحال هنا كما هـو الحال في مختلف المدن الإغريقية.

وقد هاجر قسم من السكان بحيث يمثل مختلف العائلات، بمعنى تولد من كل عائلة شخصـص حسب ما جـاء في مسلة المؤسسين الذين خرجوا وبلغ عددهـم ٢٠٠ شخص. وقـد وُضع هـؤلاء تحت قيـادةQécistes Aristotélés كيسيـت أو قيسـ أرسطو طاليس والذي سمي أيضاً Battos باتوس، وكانت الانطلاقـة إلى أفريقيا، أو بالأحرى إلى ليبيـا. وكما ذكر عند الإغريق فقد كان هذا الأمر مقرراً من قبل الكاهن وكيل الإله أبولو في دلفس وربما كان ذلك في عام ٦٤٠ ق.م.

وقـد كان دليل المستوطنـين صياد من جزيـرة كريـت الـذي كانت لديـه الخبرة المعتـادة في الذهـاب لإلقـاء شباكـه على السواحل الليبية، أي بمسافة ٣٠٠كم. وعند ذلك تم الوصول إلى مدينة المستقبل سيرين في منطقة سيريناتيـك وبالتحديد في خليج بمبا حيث تم الاستقرار والحلول في جزيرة بالقرب مـن ساحـل platéa بلاتيا. وفي روايـة أخرى جاء فيهـا أن الغراب الأبيض هو الـذي كان قد أرشد المستوطنين الأوائل على موقع سيرين إلى الغرب من بومبا.

وفي هذا القطـاع الجاف وغير منسجم مع القادمـين الجدد الذين كانـوا حذرين جـداً في مواجهـة القبائل الليبيـة[٧] فقد عاشوا بخمول ومـن دون إنتاج لمدة سنتين، إلا أنهـم في النهاية رجعوا إلى Théra تيرا حيث تعرضوا هناك إلى الضرب بالحجارة؛ بمعنى الاستهـزاء بهم، عند ذلك عادوا إلى مدينتهم دلفي حيث استقبلهم الإله بسخرية لعملهم هذا وما حل بهم.

وعمليــة السخرية والتهكــم بهم جاءت بعد عودتهم من الهجرة خاصةً بعد تعرفهم علــى ليبيا التي لم يذهبــوا إليها مطلقاً من قبل. عند ذلك فهم المهاجرون التيرانيون أنه يتوجــب عليهم ترك جزيرة بلاتيا platéa والعودة والإقامة فوق أرض القارة الجديدة نفسها التي تركوها.

وهذا يعني الإقامة في حوض الأزيريس Aziris المتحضــر والغني بالماء وذي الظل الدائم وبالوقت نفسه ليس بعيداً عن جزيرة بلاتيــا، ومــن دون شك عنــد مصب وادي الخليج. وقد بقــوا هناك تسع سنوات حتى الوقت الــذي جاء فيه الليبيــون المجاورون لهــم واصطحبوهــم إلى المــكان الذي كان يسمــى : «المكان الذي تدخله الشمس» هذه العبــارة تشير إلى المــكان أو المنطقة المعنية في الاستشــارة الإلهية، وهــي الغنية بالمياه والأمطار.

وفي بعضــ الأحيــان كان يتطلب الأمر اصطحابهــم في الليل خوفاً أن يختار هؤلاء الجدد مكاناً آخر، وهــذا بالطبع سيغضب أو يثــير غضب كامل شرائح القبائل الليبية. علماً أن الشعــور بالخطر لدى الليبيين من قبــل القادمين الجدد مــا زال غير مهم ولا يلفت النظــر بشكلٍ كبــير؛ وعند ذلك وفي عام ٦٣١ ق.م حــل التيرانيون القادمون من تــيران باتوســ Théréen de Battos بالقــرب من نبع كيرا، نبع النباتات الزنبقية asphodels والذي كان وجوده ضرورياً من أجل تأسيس مدينة سيرين المستقبلية وتأسيس الولاية لتكون هذه المدينة عاصمةً لها.

وبعد هــذا الموقف وهذا الاستقرار بقي علــى المستوطنــين أن يبحثوا عــن أراضٍ جيدة في منطقة تكــون قريبة من مواطنهم الأصليــة والتــي عرفت لاحقــاً بجزر بحر إيجة وبحــر تيران أو جزر اليونــان، إلا أن معرفتهم في المنطقــة كانت غير كافية، كما يؤكد ذلــك خجلهم وخشيتهــم في المحاولة الأولى، وكذلــك التاريخ المتأخر الذي توصل إليه المستوطنون، أي بعد قرن من الزمن من حلولهم في المدن الكــبرى في جزيرة صقلية وفي اليونان الكبرى.

وبالمقابــل فإن الجاذبيــة وسحر المكان والإغــراء الحاصل مــن خــلال التأسيس الجديد الذي جرى مباشرةً حيث أخذ هؤلاء الفينيقيون/الإغريق مباشرةً في التوسع على الساحــل في اتجــاه الغــرب وأسسوا مدين توخيرا(توكرا) في العشــر سنوات التي تلت وجودهم في مدينة سيرين، وجاء الأمر بشكلٍ اعتيــادي، ثم لحق بهــم جماعات من جزر

منطقــة البيليوبونيز ورودوس، وهي الأرض التــي أصبحت أغلبية سكانهــا من القبائل الدورية كما هو الحال في تيرا نفسها.

تأسيس السلطة الحاكمة والأسرة الملكية:

بعــد أربعين عامــاً مــن إدارة السلطة في مدينــة ومنطقة سيريــن من قبل العاهل باتوس الأول أصبــح هذا الشخص المؤسس الحقيقي والملــك الجديد للمدينة الحديثة، وهذا يعني أنه أســس أسرة وسلالة حاكمة أصبحت تتربع على العرش في المدينة وعلى دفة القيــادة والسيادة في المنطقة التي أخذ يطلق عليها المؤرخون ليبيا الإغريقية خلال ماينوف عن قرنين من الزمن حتى عام ٤٤٠ ق.م، وقد تناوب على السلطة والمملكة خلال هذه الفترة ثمانية ملــوك جاءت تسمياتهم بالتعاقب بين باتوسBattos و أرسيزيلاس Arcésilas.

وقد حصل الملك باتوس الثاني والذي عــرف باسم باتوس البطل علــى المباركة الإلهية من قبل الإله أبوللو من أجل تشجيع وتنشيط مستقبل المستوطنة الجديدة. وقد أيقظ هذا الأمر وأثار قلق ومخاوف القبائل الليبية التي أجبرت على تقسيم أراضيها مع المستوطنين الجدد، وبشكلٍ خاص الجماعات التي تنتمي إلى منطقــة البليوبونيز أو جزر البليونيز.

ونتيجــةً لهذه الأحــداث المستجدة لجأ الليبيون إلى المصريين وخاصة إلى الفرعون Apriés أبريســ مما أشعــل الحرب بين الطرفين، إلا أنهم خسروا الحرب وانهزموا أمام جيش سيرين في معركة إيراسا التي تقع إلى الشــرق من سهل سيرين. وقد رسخ هذا الانتصار ومتن الاستيطان النهائي والسيادة للسيرينيين وتم تشكيــل سلطة ريفية محلية واسعة في المناطق الخضراء. كما أن التوسع والامتداد ســار بشكل سريع وانتصارٍ شهير، إلا أن هذا الازدهار الذي تحقق بشكلٍ سريع لم يحدث مــن دون أن يسبب خلق مشكلات سياسية واجتماعية.

وبمــا أن الأراضــي الليبيــة الشاسعــة والواسعة قد سمحــت للمستوطنين الجدد بتأسيس وتشكيــل سلطات واسعة وتحصيل ثــروات هائلة، إلا أن هــذا الأمر ولد ثروة وطبقــة أرستقراطية ملحوظة؛ وهذه الثروة الارستقراطية كانت ناتجة عن الموارد المالية والعقاريــة والاقتصاديــة الجديــدة، وهنا أصبحت تتشابــه مع ما كان عليه الحال في بقية العــالم الفينيقــي والإغريقي مما ولد وجر المتاعــب للسلطة الحاكمة وكبل بشكلٍ متصاعد السلطة الملكية.

وقــد انفجــرت الأزمــة في عهد الملك أرسيزيلاســ الثــاني Arcésilas الصلب والقاسي، حتى إن المشكلة وصلت إلى العائلة المالكة نفسها بحيث أخذ أخوة وأشقاء الملك يتوسعون إلى الغرب من مدينة ومنطقة برقة في ظل الأزمــة الداخليــة وكذلك المخاطر الخارجية.

وبما أن الجيشــ السيريني عانى وواجه إخفــاق وانهيــار وخســارة في leukôn لوكون، وهذه الخسارة والإخفاقات ترجمت وأظهــرت الفوضى والانحــلال الذي أخذ ينمو ويــزداد مولداً ومحدثــاً أزمة خطيرة متناظرة ومتماثلة مع كامل المنطقة؛ بمعنى أن الأزمة كانت متشابهة مع ما حصل وحل في كل المناطق بما في ذلك كل المدن.

لذلك أخذ السيرينيــون يبحثون وبشكل ملــح لحل المشكلة والأزمــة وإيجاد حل عن طريق نداء ودعوى من قبل الهيئة التشريعية واللجوء إلى التحكيم من قبل سلطة مدنية. وقد حافظ ديموراكســ Démorax de Mantiée علــى السلطــة، أو بمعنى آخر استطــاع أن يرمم ويعيــد للسلطة اعتبارها وينقلهــا إلى السلطات الدينيــة، أو تقليص السلطة السياسية لصالح السلطات الدينية وتحويل ما يخصــ السلطات السياسية إلى «Démos» الديموســ حســب ما ورد عند هيرودوت. وهذا التعبير المبهم والغامض من قبل هيرودوت لم يؤكد لنــا أو يعطينا مجالاً للتفكــير إلا منذ منتصف القــرن السادس حيث ظهرت الديمقراطية في سيرين.

وفي الحقيقــة فإن تعبير الديموس حدد فقــط بمن وضعوا أيديهــم على السلطات المدنيــة، أو مــن حصــرت سلطاتهــم في السلطات المدنيــة، أو بمعنى محدد أكثر من قبــل الأرستقراطيين الذين يعتــبرون كبار الملاكين العقاريين أو كبار أصحاب الأراضي. وقد كان التحكيم والتسوية أصيلة وجوهرية لأنها أرضــت الجميع ونالــت القبول ممن كانوا المتسببين في مخاطر عدم الاستقرار. ولكن على الرغم من قبول الملك باتوس الثالــث لهــذا الأمر وحسب مــا ظهر ذلك لاحقاً وبهذه الوضعية، إلا أن الرضا والقبول لم يتم بنفس القدر وبنفس الوضعية من قبل ابنة أرسيزيلاســ الثالث الملك الطاغية ذي الاستبداد الحقيقي، وقد حاول هذا الأخير أن يقــاوم ويناضل من أجل أن يتسلم الحكم ثانية أو يعيــد استلام السلطة التي خسرها والده، إلا أنه لم يحقق نجاحاً بل انهزم.

وهــذا الانهــزام أجــبره علــى الهجرة والعيشــ وحيداً في الاغــتراب، وقد اختار وبشكل عرضي أن يطلب اللجوء إلى الحاكم بوليكــرات polycrae مغتصــب السلطة

وحاكم ساموس samos، بينما وجدت أمه pheretimee فيريتيم لاجئة عند الملك إيفيلتون Evelthon في مدينة Salamine سالامين في جزيرة قبرص.

وأخذ هذا الملك إيفيلتون يتنقل ليحث ويثير الحماس لإيقاظ محاولات الثأر عند الملكة الأم، بينما كان الأمر عند أرسيزيليس الثالث على العكس من ذلك، فقد أخذ يوقظ ويشجع أتباعه ومرتزقته في ساموس وباشر في إعادة الترميم والاستيلاء أو العودة إلى السلطة، وأخذ منذ ذلك الوقت في استشارة كاهن مدينة دلفس أو وسيط الآلهة في دلفس حيث كان الجواب المنقول إلينا عن طريق هيرودوت من خلال إحدى روائعه وكتاباته الشهيرة في كتابه logoi.

وجاء القسم الأول من الاستشارة الإلهية على الأرجح مفتعلاً أو مزوراً، حيث تدعو الاستشارة الملك إلى الإصلاح في حياة العائلة المالكة من أجل قرن آخر من الزمن. أما القسم الآخر من الاستشارة وهو الموثوق الصحيح والمصدق فهي نصيحة إلى الملك بعدم وضع النار في الفرن المليء بالجرار، وإذا حصل خرق على حين غرة وغفلة ونتيجة خطأ أو سهو أو مكث هذا النهي والمنع دون تطبيق، وإذا امتنع منذ الآن وصاعداً من الدخول في «المحيط المائي» فعند ذلك سوف يغضب الآلهة.

وإذا كانت العبارة الأولى واضحة فإن الأمر يتطلب مجاملة ومحاباة ومراعاة الأرستقراطية، بينما لم يفهم الملك ذلك إلا في وقت متأخر عندما طفح الكيل من الزجر والعقاب الذي لحق الإصلاح وسود بالدخان مجموعة من الأرستقراطية، وبذلك فقد خشي وخاف إذاً من عقاب عادل تفرضه عليه الآلهة.

وقد اعتقد أو فكر أن المحيط المائي كان موقع سيرين المحصور والمحاط في مسيلين أو واديين مزودين بالمياه التي تجري فيهما هذه المياه القادمة من مسيلات مختلفة في فصل الشتاء، وكذلك من خلال كمية قليلة من مسيلات المياه البسيطة، ولذلك فقد لجأ إلى برقة عند صهره الآزير Alazeir ملك المدينة حيث تم قتله أو اغتياله هناك. ولمعرفة حقيقة ما جرى فهناك تفسير آخر مفاده أن المياه عندما تجري وتفيض شتاءً في مجرى المياه في مدينة برقة المنخفض الحقيقي تصبح المدينة في ذلك الوقت عبارة عن جزيرة.

أما بالنسبة إلى الملكة الأم pheretimee فيريتيم فلم تُلقِ السلاح ولذلك قررت الاستنجاد بالفرس الذين سبق لابنها أن

قام بإجـراء تحالف معهم عنـد احتلالهم لمصر من قبل قمبيز في عام ٥٢٥ ق.م. وقد نظر الوالي الفارسـي «الساتراب أرياندس Aryandes» إلى أن إبعـاد وطـرد عـدو ومنافس للملك الكبير يشكل هدفاً له، وبنفس الوقت يكون وسيلة لبلوغ الهدف في الوصول إلى داخـل سلطة وسيادة هذا الأخير، ولهذا جهز حملة تأديبية نحو عام ٥١٤ ق.م.

أمـا بالنسبـة إلى مدينـة سيرين فقد تمت المحافظـة عليها، ولكـن بالنسبة إلى مدينة برقـة فقد دمرت، أمـا بالنسبة إلى سكانها فقد أبعدوا وتمَّ نفيهم إلى آسيا وفي منطقة Bactriane باكتريان، وبذلك فقد سقطت سيرين في أيدي المحتلين الجدد، أما المنطقـة فقد بقيت خاضعة إلى أسرة باتياد BATTIADES ممثل باتوس الرابع.

وقد تبيَّن من خـلال مجريات الأمور أن السلطـة الفارسيـة كان مستوجباً عليها أن تتجنـب هـذا الحاكم نفسه بعـد الحروب الميديـة في بدايـة القرن الخامـس، بينما بقيت الهيبـة والقوة الأرستقراطية موجودة بشـكل دائم وبقوة كبـيرة، إلا أنها أصبحت شيئاً فشيئاً تنظر إلى استلام السلطة الملكية كشيء مهمل وليس له قيمة تذكر.

ونحو عام ٤٤٠ ق.م فإن الغراب الأبيض الذي كان قد أرشد المستوطنين الأوائل على موقع سيريـن فقد ظهر مـن جديد، وهذا يعنـي أن اللحظات قد أنجـزت وكل شيء أصبح على ما يرام والملك الذي كان قد نفي أو التجـأ لوقت قصير إلى الغرب من مدينة أو موقـعEuhespérides أوهسبيريد - Berenike (بنـي غازي اليـوم) فقد توفي تاركاً المكان للجمهور.

وإذا كانت الفترة الزمنية في بحر القرن الخامـس تتميز بالفوضى بحيث تسببت في عـدم الاستقرار ضمـن التسلسل التاريخي الواضح، إلا أن الأمـر لا يقتضي أن يوضع القناع على قوة ليبيا الفينيقية/ الإغريقية، وخير دليل على ذلك التحول والتطور المنفذ مـن خلال العدد الكبير للمـدن الفينيقية/ الإغريقية الكبرى والمتعددة.

قمة وذروة مجد سيرين الجمهورية :

لقد انتهى القـرن الخامس قبل الميلاد وأصبـح القرن الرابع يمثـل المرحلة الأكثر ازدهـاراً ولمعاناً في تاريخ سيرين ومنطقتها، ومنها أربع مدن هي: مدينة Barka (برقة - المرج) ومدينة توخيرا Taucheirā (توكرا) ومدينة هسبيريدسـ Euhespérides أو بيرينيك Berenike (بنـي غازي) ومدينة بتوليمائيك Ptolemais (طلميثة)، وشكلت هذه المدن ما يسمى ليبيـا الإغريقية، وكل واحدة مستقلة عن الأخرى، كما كانت دائماً

في صراع وعداء بين بعضها البعض، وكانت غير متماثلة ومتساوية بشكل كبير وذلك بما يخص السلطة والنفوذ والأهمية.

ولكن كان يتوجب عليها جميعاً الاعتراف في استعلاء وتفوق مدينة سيرين وبشكل خاص بعد عام ٣٧٥ ق.م أي في الفترة التي شهدت فيها عدوتها ومنافستها الرئيسة مدينة برقة فترةً من التراجع. ومن المرجح أن يكون ذلك بعد انتصار سيرين.

ولم يكن بالشيء المدهش والغريب أن يكون مفهوماً لدى الجميع بأن هذه المدينة كانت تخضع وبشكل دائم تقريباً للسلطة الأرستقراطية، ولذلك يصبح من الصعب استبعادها في فترةٍ وجيزة من الثورة والاضطراب كما حدث في عام ٤٠١ ق.م. ومع ذلك نجد وبشكل عام أن حكومة سيرين كانت ترتكز على طاقم مدني مقلص ومحدد ويعرف باسم الأميال les Mille.

وفي منتصف القرن الرابع كان يترأس السلطة في المدينة أحد كهنة الإله أبوللو الذي كان ينتخب بشكل اعتيادي سنوياً من بين المواطنين الذين يبلغون عمراً يتجاوز الخمسين عاماً. وبعد هذا الكاهن يأتي خمسة قادة برتبة stratéges استراتيجي يمارسون السلطة السنوية بشكل متعاقب مع الحاكم إيفور Ephore ومع مساعدة ومؤازرة مجلسين هما مجلس الشيوخ la Boulé ومجلس المستشارين Gérousia، إلا أننا نجهل بدورنا المهام والوظائف المحددة لكل منهما.

ثم هناك مجلس الكهان des demiurges أو مجلس الكهنوت اللاهوتيين الذين كانت مهامهم إدارة سلطات الإله أبوللو، وهي السلطات الملكية السابقة. ومن المعتقد أيضاً وجود مختصين ماليين واقتصاديين أكفاء. وهذا الأمر أو النمط من السلطة فمن المعتقد أن يكون نموذجاً إسبارطياً معتاداً، وخاصة في حال معرفتنا عن الجذور والأصل البيليونيزي للقسم الكبير من الشعب.

وكذلك الأمر الاقتباس من النموذج الأثيني من نواحي الالتزام والامتياز والتنسيق مع المطالبات والادعاءات والمتطلبات الديمقراطية مع الزمن. إلا أن الصفات المميزة والتنويع الأرستقراطي كان ينفذ ويمر عبر تصنيف ووظائف ومهام المجلس البلدي corps civique، وكذلك شروط العمر المفروضة على الشيوخ (الماجيسترات magistrats).

كما خصص أيضاً مقعداً للإدارات والمصالح الرياضية التي كانت تلعب دوراً هاماً هنا كما هو الحال في المناطق الأخرى

حيث كانت تلعب دوراً أساسياً وعميقاً وذلك بما يخص الأجيال الصاعدة وبناء المواطنين في المستقبل. أما المراهقين والشباب les éphébes فكانوا يشكلون جسم وهيكلية ما يعرف باسم الثلاثمئة trios cents أو الكتائب وذلك تحت قيادة وإدارة Triacatiarque. وكان اللون الوردي المختص بهم ظاهراً بوضوح وهذا ما يذكر بجزيرة من الجزر الفينيقية في البحر الأبيض المتوسط وخاصة جزيرة كريت القريبة جداً من الشاطئ الليبي والتي التحق قسم من سكانها بالمستوطنين في إقليم سيرينائيك.

أما بالنسبة إلى باقي شرائح الشعب أو الجماعة المدنية من هذا الشعب فقد أصبحت في بحبوحة من العيش وبشكل سريع وشهدوا كذلك أربحية في تصريف أعمالهم ومصالحهم الكبرى حيث سنحت لهم الفرصة المتاجرة بالحبوب التي كانت تباع في الأسواق عند نضوجها المبكر أو فترة ما يعرف باسم «soudure» أي فترة الاستجابة لحاجات المنتجين والمستهلكين لكامل التشكيلات الزراعية المحلية والمحيطة والتي تعود إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط.

وفي تلك الآونة نشطت تجارة الخيول وكذلك النباتات البرية المتنوعة وعلى رأسها النبات المشهور باسم السلفيون silphion والذي كان يستعمل في معالجة جميع الأمراض ثم أصبح رمزاً للولاية، وكذلك الترياق panacée الذي كان يستعمل لنفس الأغراض ولكن بشكل أقل شهرة من السلفيون، وكذلك البهار والخردل الصافي والنقي.

وكانت تقدم هذه المنتجات على شكل ضريبة من قبل الليبيين. والسبب في ذلك أن قوة هذه الارستقراطية المرتبطة مع العائلات الليبية الكبرى اقتضت أن لا تخفي هذه الأسر وجود مجتمعات فلاحيه إغريقية أو ليبية كانت تعيش في القرى التي كانت تعرف باسم الكوماي[8].

وكانت هذه القبائل تعيش أغلب أوقاتها بعلاقة حثيثة واتفاق حسن مع المواطنين سكان المدن والقرى، وكان هذا الأمر يتم على الأقل بخصوص القبائل القاطنة شمال المنطقة، ولم يكن يعني القبائل التي تسكن في الجنوب والتي حقق السيرينيون انتصارات حقيقية عليهم في منتصف القرن الرابع ق.م. وكان هذا الصراع والمنافسة يتكرران بشكل خاص ضد النازامون les Nasamons و الماكيين les Maques، إلا أن هذا الصراع لم يترك أي إثارة للفضول، كما أنه لم يُثر الاهتمام بقدرٍ معين لدرجة يتوصل فيها الأمر إلى شن حرب ضروس ومدهشة

ومذهلة كما تم الأمر ضد السلطة الفينيقية في مدينة قرطاج البعيدة.

وفي الحقيقة فإن المسافات الشاسعة والواسعة خارج نطاق الجبل الأخضر وكذلك الطبيعة القاسية للمنطقة كانت تمنع حتى التفكير أو إثارة الرغبة في استثمار المنطقة في المجالات الزراعة، لذلك كان السيرينيون يبحثون بكثرة وبشكل مؤكد على ضمان تأمين أمن وحماية تجارة القوافل التي تعبر الصحراء والتي تكون حركتها بشكل عام غير مستمرة وإنما بأوقات محددة، كما أنها كانت مأجورة ولها عاداتها الواضحة والمحددة.

وكانت هذه القوافل محملة دائماً بالمنتجات القادمة من الواحات أو البضائع التجارية المنقولة عن طريق الواحات والمتجهة إلى البحر الأبيض المتوسط والمحملة بمادة الذهب والعاج والنعام ... إلخ، وكذلك التجارة القادمة من المناطق الداخلية في القارة السمراء.

وهذا الأمر يوضح وبجلاء سبب المنافسة والعداء المدهش الذي واجه العدائين السيرينيين والعدائين القرطاجيين والأخوة Philénes فيلين من أجل تعيين وتحديد الحدود أو التخوم والتي حددت ليس بعيداً عن سيرين بالمقارنة مع بعدها الكبير عن قرطاج، وفي عمق خليج سرت. وهناك في ذلك الموقع قبل الأخوة الفيلينيون التضحية من أجل المحافظة على موطنهم الذي اكتسبوا الحصول عليه والنصر في اقتتاله[٩].

ومما زاد في التأكيد على ذلك الصدق في الشرح والتوضيح عن أهمية الحركة العمرانية وإشادة الأبنية الضخمة والمجملة والفاخرة في مدينة سيرين انطلاقا من منتصف القرن الرابع، وجاء ذلك أيضاً مترافقاً مع النهضة الثقافية في المدينة التي شملت مختلف العلوم الفلسفية والأدبية والطبية وغيرها حيث الأطباء هناك بنفس المستوى والكفاءة بالمقارنة مع أولئك الأطباء الذين ينتمون إلى مدرسة كوس Cos منذ القرن الخامس، وكذلك علماء الرياضيات الذين كان لهم شهرة كبيرة مثل تيودوروس théodoros السيريني وأفلاطون platon الذي جاء لزيارته في عام ٣٩٩ ق.م. وكذلك الأدباء والفلاسفة الذين كانوا يستلهمون أفكارهم ومبادئهم من المنطقة مثل aristippe أرستيب تلميذ سقراط الذي أسس مدرسة سيريناثيك والذي اشتهر وشهر وعظم البحث عن الرغبة في قمة أوجها وتعاليها.

وبهذا استطاعت سيرين منذ ذلك الوقت أن تتربع على مركز عالمي من خلال لمعانها

وازدهارهـا، وظهـر ذلك أيضاً من خلال الانتصارات التي كانت تحققها في المسابقات العالمية التي كانت تجري في الألعاب الأولمبية في مدينة دلفس Delphes أو نيمة Némé، وقد تفوقت على تلك المدن ومدن أخرى بين أعوام ٣٦٠ - ٣٣٠ ق.م.

وبفضل الثروات الهائلة والكنوز الكبيرة التي كانت تمتلكها المدينة فقد أخذت في سك المجوهرات والمسكوكات المعدنية في مدينة دلفس في الربع الثالث من القرن الرابع وتخصص ريعها وأرباحها لبناء روائعها الهندسية والمعمارية بفضل براعة المهندسين في علم الرياضيات، وقد ارتكز الأمر كلياً على مركز العدد pi بي؛ وهو رمز يمثل نسبة محيط دائرة إلى جزء قطرها، أي زهاء ٣٠١٤١٦ ومضاعفاته.

وبذلك فقد أصبحت سيرين ومنطقتها جزيرة من الأزهار في عالم إغريقي تآكل وهلك من جراء الحروب. وقد استطاعت سيرين كسب ثقة وصداقة الإسكندر الكبير من دون أن تقع تحت احتلاله كما أنها لم تتعرض إلى خطر جيشه، إلا أنها كانت حذرة من طموحات أحد قادته تيبرون thibron الذي استغل واستعمل ومن دون شفقة ورحمة الكنز السري والمختلس وبخفية وسراً عن الإسكندر الكبير من أمين الخزينة Harpole من أجل تجهيز حملة ومحاولة احتلال المنطقة.

وهذه التصرفات الفردية كانت تعبر عن طموحات الجنرالات أو قادة الأسكندر، إلا أنها كانت محاولات من دون أن تحقق أي تقدم ونجاح خلال ثلاث سنوات في المنطقة، ولم تنجح في تحقيق أي نجاح مستمر، إلا أنها أيقظت وخلقت الانفساخ الداخلي في سيرين، وكذلك العداء بين المدن الإغريقية الليبية. وقد أنهك هذا الأمر المنطقة خلال ثلاث سنوات من الصراع من دون انقطاع مما دعا إلى الاستنجاد بوالي مصر بطليموس الذي نجح وبسهولة في السيطرة على المنطقة بفضل ضابطه الماهر أوفيلا Ophélla في عام ٣٢١ ق.م.

وبذلك وللمرة الأولى خسرت سيرين استقلالها وأصبحت تحصل على ذلك عرضاً، ولم تعد لديها الفرصة للعودة إلى الوراء للوصول إلى لمعانها وازدهارها الذي عاشته خلال قرن ونصف من الزمن في ظل ملوكها الثمانية من أسرة مؤسسها باتوس.

سيرين وحكام مصر البطالمة اللاجيد:

كان بطليموس (حاكم مصر) حكيماً جداً وحذراً ومتبصراً وثاقب الرؤية والفهم الجيد في ماهية الإجراءات والترتيبات المستوجب أخذها وتهيئتها بما يخص علاقاته مع

سيريــن، لذلك أصدر مرسوماً في نهاية عام ٣٢١ ق.م. وسمي هــذا المرسوم الدياقراما diagramma أي الرســم التخطيطــي أو البياني يحدد من خلاله الخطوط العريضة لمهمة ووظيفــة المؤسســات المدنية و يحدد فيه أيضــاً مكان ومهمة القائــد العسكري الساتــراب، وهــو قائــد استراتيجي يعيش ويقيم في المدينة ومن ثم ممثل عنه من قبل ضابطه ووكيله Ophéllas أوفيلاس.

وقــد بــرز ولمــع بسرعــة مــن خلال انطلاقــة حثيثة وجادة حيث أخذ أوفيلاس Ophéllas ينظــم مهامـــه ذات الاستقلال المتســع والعريضــ، وعقد اتفاقــاً مع والي وحاكم سيراكوس أقاتوكل Agathocle من أجــل محاربة مملكة قرطــاج في عام ٣٠٩-٣٠٨ ق.م. لذلك باشر في التوجه نحو الغرب ووضــع مركــزه في وضعية الحصــار أمام قرطاج بعد مسيرة ألفــين ٢٠٠٠كم. إلا أنه سقــط بسرعة تحت قبضــة حليفه القديم الذي استولى علــى الجيش وخصص قواته لنفسه.

وقد وضعت هذه الخســارة حداً نهائياً للذبذبات وبينت ضعف الإدارة السيرينية في تشكيل إمبراطورية أفريقية كبرى. وعند ذلك قلصت المدينة طموحاتها وانحصرت ثورتها وعداؤها منذ ذلك الوقت ضد بطليموس في عام ٣٠٥ ق.م.، إلا أنها سقطت في عام ٣٠٠ تحــت قبضة قواته، ومن ثم وبناءً على ذلك خضعت تحــت سلطــة وإدارة حاكم جديد وهو ماقاز Magas صهر الملك الجديد في الإسكندرية. وكان عمر هذا الحاكم الجديد حوالي العشريــن عاماً حيــث أصبح يحكم ليبيــا الإغريقية لحساب حمــاه حتى عام ٢٨٣ ق.م. وعند وفاة بطليموس الأول أعلن استقلاله مع الاحتفــاظ بعرشه حتى وفاته في عــام ٢٥٠ ق.م. أي بمعنــى أن سلطتــه دامــت نصف قرن مــن الزمن، وقد حافظ خلالها على الاستقرار والهدوء للمدينة.

وأثنــاء توليــه العرش أخــذ يفكر بمن يخلفه في الحكم، لذلك أخذ في تزويج ابنته الوحيــدة بيرينيــس Bérénice مــن والي عهد مصر بطليموس الثالث. وهذه المبادرة أدخلت سيرين في حلقــة التبعية البطلمية، إلا أن هذا الأمر لم يتم من دون توليد مآسي ومتاعــب وأحزان لذلك أخــذت الملكة الأم أفاميا تبحث عن عــدو وخصم لبطليموس الثالث في سيرين ووجدت ذلك في شخصية أمــير مقدوني وهو ديمتريوس الجميل الذي أصبح مهيئاً لزواج ابنتها بيرينيس.

إلا أن صهرها المستقبلي المتيم والولهان أثــر على بيرينيس، ولكــن للأسف فقد كان ثمن هذا الحب التضحية بحياته ثمناً لذلك

حيث مات مقتولاً، وبذلك اخفت لديها الرغبات الأبوية، إلا أنها بالمقابل حصلت على الشهرة العالمية والصيت والسمعة الأسطورية والسيرة الحميدة بفضل قصيدة bonum facinusأو القصيدة الشعرية التي ألقيت وغنيت وأنشدت من قبل الشعراء، مثل الشاعر السيريني كاليماك Callimaque والشاعر اللاتيني كاتول Catulle.

وقد ذكر أن هذا الحدث كان من المبررات الهامة للسيطرة البطلمية على سيرين، يضاف لذلك أن السيطرة البطلمية بصورتها الحقيقية كانت نتيجة حملة عسكرية من أجل إعادة الترتيبات الأمنية، وبشكلٍ خاص أخذت طابعاً حساساً وخاصاً في القسم الغربي من سيرين، وهو الإقليم الأكثر عزلة والأكثر عناداً ومعصية وصعوبة في المراس.

أما مدينة برقة القديمة فقد مسحت وتلاشت أو حذفت وحل محلها كمدينة هامة واستراتيجيةمينائها القديم مدينةبتوليمائيس (طلميثة) نسبةً للملك اللاجيدي بطليموس، أما مدينة برقة الجديدة فقد نقلت وأصبحت تحت اسم مدينة جديدة أخذت اسم توخيرا والتي أخذت اسم Arsinoé أرزينوية، كما تركت أوهسبيريدسEuhespérides الموقع لحساب بيرينيكة Bérénikė.

ومنذ ذلك الوقت وضعت سيرين تحت سيطرة السلطة والسيادة لحكام الإسكندرية، إلا أنها حافظت على وجود أمير كحاكم داخل حصونها عندما أصبحت مقاطعة أو إقطاعية لبطليموس الفتى الذي أصبح في المستقبل يعرف باسم بطليموس الثامن وسيد سيرين منذ عام ٢٦٣ ق.م.

وكان يختلف كلياً عمن سبقه بسبب مقدرته العالية وميزاته المعتبرة، إلا أنه أصبح ضحية محاولة اغتيال وقتل في عام ١٥٥ ق.م. ولهذا السبب اتخذ قراراً أعلن من خلاله أنه في حال موته من دون خلف تتبع مملكته إلى الرومان، و دعم الحصانة وعزز المناعة ضد محاولة الاغتيال الجديد أو المتوقع مستقبلاً والتي أدينت أيضاً من قبل أخيه أو أكثر احتمالاً من قبل مرؤوسيه.

وهؤلاء بالطبع لم يكن لديهم أي اعتراض أو شكاوى ضد الملك. وترافق ذلك مع تنشيط الحركة العمرانية في سيرين بشكلٍ واسع بإعادة تطوير المدينة(١٠) وإضافة حي جديد في المركز و إشادة مركز رياضي (جيمناز) في المدينة؛ وهو عبارة عن بناء كبير مع أروقة بأبعاد ٩٢×٨٢م كما كان في مخيلته حيث كان يتذكر بفخر واعتزاز الوليمة الفاخرة

والاحتفال الضخم الذي أقامه الكاهن في أبولونيا احتفاءً بالأجداد وأسلافه بمناسبة احتفالات أرتاميتيا Artamitia(١١).

ولم يقتصر التقديم أثناء المأدبة على تشكيلة من المأكولات الشهية والفاخرة من الدواجن والأسماك، ولكن أضيف إلى ذلك أن كل مدعو كان بإمكانه أن يحمل معه الأواني الفضية، ويعتلي حصاناً أو جواداً مزيناً بأجناد ذهبية ومرافقة عبد صغير كسايس للخيل.

وقد كان هذا الحاكم شخصية غريبة عما كانت عليه العادة أو شخصية جديدة عما هو مألوف حيث وازن بين العيوب والأخطاء البديهية على الأقل. وقد اضطر بطليموس الثاني أن يترك سيرين للرحيل إلى الإسكندرية في عام ١٤٥ ق.م، أما بطليموس أبيون الذي أصبح حاكماً مؤقتاً لمدينة سيرين حتى وفاته في عام ٩٦ ق.م فقد ترك مملكته إلى الرومان، وبذلك ترك سيرين ومدناً استطاعت أن تحافظ على استقلالها وخاصةً استقلالية مجلس الشيوخ.

وفي عام ٧٤ ق.م فقد قرر هذا أن يقلص ليبيا الإغريقية لتكون على شكل ولاية، وهنا نجد أن القرون الثلاثة من الحكم البطلمي اعتبرت في ذلك الوقت أنها فترة زمنية شهدت خلالها مدينة سيرين ومنطقتها لمعانها وازدهارها، إلا أن الاستقلال والازدهار لم يكن يخلو من دفع الثمن الباهظ. إذ إن الحكم التعسفي للمدن الغربية ونزف الدماء التي هدرت والخسارة التي لحقت بالمنطقة بسبب نزوح الكثير من السكان يمكن أن لا يكون موازياً لذلك الازدهار واللمعان.

سيرينائيك ومدن البنتابول والرومان الجدد:

كما هو الحال بالنسبة إلى جميع مناطق البحر الأبيض المتوسط والقارات المحيطة فيه وخاصةً المناطق العربية والإغريقية والفارسية وغيرها فقد شهدت ليبيا وخاصةً منطقة الجبل الأخضر وعلى رأسها مدينة سيرين فترات صعبة ومؤثرة خلال القرن الأول ق.م بسبب الخلل والفوضى التي تطورت وتوسعت في مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقية.

وفي خضم هذه القرينة التاريخية والأحداث المضطربة في المنطقة حصلت مدينة أبولونيا والتي تعتبر ميناء مدينة سيرين على مركز مدينة ميتروبول وانضمامها إلى مدن الميتروبول الأم، وسمحت للمنطقة أيضاً أن تحصل على لقب حلف مدن البنتابول. وقد نظر بومبي إلى منطقة سيرينائيك في بداية الأمر نظرة خاصة تنطلق من خلال

مصلحــة توفير الأمن لجيوشــه التي كانت تطمــع في تشكيل إمبراطوريــة واسعة على حساب جميع الممالك السابقة.

وتنحصر هذه السياسة في تقليص أطماع كل من يطمع في الاستيلاء على هذا الإقليم وخاصة مــن جهة مصر أو قرطــاج، وبعد أن عالــج القضية حســب ظروفها المؤرخة جهــد في توحيد منطقة سيرينائيك وجزيرة كريــت المجاورة لها ولسنــوات طويلة ضمن نطاق العمل ضد القراصنة، وكذلك إصلاح وتحســين الإرهاصات السابقــة في منطقة بتوليمائيك (طلميثة).

وضمن هذا التنظيم وهذه الاستراتيجية الجديــدة استمــرت كل من جزيــرة كريت وسيرينائيــك متحدة وتدار من قبل مستشار بمرتبــة بروقنصل يتــم اختيــاره من قبل مجلس الشيوخ من بين أحد أعضائها ولعام واحد، ويوضــع هذا المستشار تحت المراقبة الإمبراطورية مباشرةً.

وقــد أفلحت هذه السياســة في إحلال الســلام علــى معظــم المناطــق. وكان من محاســن هذا السلام نتائج فورية رفعت عن منطقة سيرينائيك المتاعب التي كانت تعاني منها نتيجــة الحروب ضد المارماريديينles Marmarides في مطلــع القــرن الأول للميلاد، إضافةً إلى إعادة بناء الحياة المدنية وإعــادة ترميم وإشادة الأبنيــة الكبرى مثل معبــد أبوللو ومعبد زيوس وكذلك الجيمناز الذي عرف باسم السيزاريوم والذي يؤكد قوة وعظمة ونشاط التطور في المنطقة. وبذلت المساعي الحثيثة في إعــادة البناء والأعمار وعودة النهضة العمرانيــة والتنظيمية كما كانت.

وقد لفتت هذه المشاريع اهتمام وإعجاب الأباطــرة ممــا شجعهم على بــذل الدعم والعــون، ومن هــذا المنطلق لاقــت مدينة سيرين ومدن الحلف دعمــاً وعوناً من قبل الإمبراطــور أورليان والذي قــام بدوره في كسب لقــب راعي الرعية في مدينة أبولونيا التي تحمل اسم الإله أبوللو. وتأسيس مدينة علــى شــرف الإمبراطــور هادريــان والتي عرفــت باســم hadrianopolis مدينــة هادريان (driana دريانا حاليا) والتي تقع بين مدينــة توخيرا(توكرا) /أريزونا ومدينة بيرينيكة (بنغازي).

وبذلــك فــإن انطلاقــة مــدن سيرين وبيرينيكــة الجديدة كانت قويــة لدرجة أن هــذه المدينة الثانية استمــرت في الازدهار حتى تربعت وبلغت درجة نافست فيها مدينة سيريــن لتصبح مدينة الميتروبــول الأولى أو المدينــة الكبرى في ليبيا في عهد الإمبراطور أنطونين، وفي سيرين نفسها فقد أعيد إنشاء

كامل الأبنيـــة في نهاية القـــرن الثاني، كما شهدت تحسيناً جديداً شمل المنهج العمراني الذي غطى كامـل الحيز التنظيمي وكذلك التوسع خارج الأسوار.

ولا بــد مــن الإشــارة أيضــاً إلى عهد الإمبراطـــور سبتيموس سيفيروس ابن ليبيا، وإلى الازدهـــار الذي ظهـــر في مطلع القرن الجديـــد وعبر عن الغنـــى والتاريخ الطويل لمدينة سيريـــن والمدن العربيـــة الفينيقية/ الإغريقيـــة في ليبيا التي ظهـــرت دائماً في مظهر اللمعان في بنائهـــا الكلي. وإن ركائز الازدهـــار في المنطقـــة كانت دائمـــاً سليمة وثابتة وغير متبدلة.

كمـــا أن التـــوازن بين البـــداوة والمدنية والتحضـــر لم يعرض المنطقـــة دائما إلى أي مشكلة، كما أن قوة وثقة سيرين في ماضيها العريق استمرت لامعـــة على الدوام، وظهر ذلك واضحاً في النصوص الكتابية الرسمية، وأن سيريـــن المدينـــة العربيـــة الفينيقيـــة/ الإغريقيـــة الليبيـــة عبارة عـــن مثل واضح وفريـــد من نوعه على النجاح المثالي في عالم البحر الأبيض المتوسط.

سيرينائيـــك ومدن البنتابـــول في العهد الإمبراطوري المتأخر والعهد البيزنطي:

إن الشـــيء المميز في تاريـــخ سيرين في العهـــد الإمبراطـــوري المتأخر هـــو وضوح وتحديد الحياة العامة بـــين ولايتين تشكلتا في ليبيـــا العليا وهما ولاية مـــدن البنتابول وولاية ليبيـــا الداخلية التي ظهرت في عهد الإمبراطـــور ديوقليسيـــان واستمـــرت حتى وصول الفتوحـــات العربية الإسلامية. وهي عبارة عن فـــترة زمنية هامة استمرت أربعة قرون تقريبـــاً، إلا أنها تميـــزت في إطارها العـــام بأنها فترة مغلقـــة ومظلمة ومكتئبة بسبب الغـــزوات البشرية أو بسبب المصائب والكـــوارث الطبيعية التـــي حلت في البلاد، إلا أنها كانت تضاء بـــين حينٍ وآخر وتتنور باللمعان والانطلاقة التي تتوقد من الإيمان بالحياة والتمسك بالتاريخ الحافل بالأمجاد والازدهـــار. وخلاصة القول إنها فترة زمنية تعبر عن نفسها وتدل وتظهر عالماً إما يكون متنامياً أو مهجوراً أو زاهداً أو عالماً يحمل في داخلـــه مستقبلاً أو تاريخـــاً للمستقبل القـــادم أو مـــا يمكـــن أن نسميـــه ظاهرة الحضارة البيزنطية.

وحتى تاريخ قريب جـــداً كان المؤرخون والأثريـــون الذين كانـــوا يكتبون عن التاريخ العربي بشـــكلٍ عام والتاريـــخ الليبي بشكلٍ خاص يعتقدون بـــأن إقليم سيرينائيك بقي مـــن القرن الرابـــع وحتى السابـــع للميلاد منطقة يخيـــم عليها الانحطـــاط. والسبب في ذلـــك أنها كانت ضحيـــة استباق الحكم

وبغير دراية عن طريق استنتاجات المؤرخين بموجب ذاكرة وعرف متوارث منذ القرن الثامن عشر.

وكان ينظر إلى الولاية على أنها إحدى الأجزاء الممزقة من الإمبراطورية الرومانية التي تجزأت وتمزقت خلال هذه الفترة من القرون التي نحن بصدد الحديث عنها مما حول زينتها إلى ظلمة، ومن خلال هذه النظرة فإن دراسة المنطقة دراسة منطقية منذ نهاية المرحلة الكلاسيكية تكون لها قيمة اعتبارية من أجل فهم المراحل التي سبقتها والمراحل اللاحقة. ويظهر من خلال ذلك بأن المفهوم أو التصور التاريخي للأحداث لم يكن حتى الآن شيئاً مكتسباً، وفي هذه الحالة يكون من السيئ جداً الحكم على الأمور بهذه البساطة، وأن التعرف على التاريخ الحقيقي هو المنطلق الأساسي ليعود هذا التاريخ ويتكلم من جديد وبشكل مستمر ودائم عن حقيقة الأحداث.

والسبب في ذلك أن المقارنة بين المصادر الكتابية والأدبية والنصوصية والتاريخية والأثرية جميعها تثبت أن هذه المنطقة كانت ضمن إمبراطورية منحطة ومتفسخة في فترات معينة، ولذلك يجب أن تتبدل الصورة ويحل محلها المفهوم الصحيح عن تلك المنطقة المزدهرة وعلى الأقل المنفتحة على الخارج وذلك حسب منطق الزمن وكذلك بما يخص أهلها وموقعها وأماكنها، وليس بشعور التخلي والحرمان وإنما بنظرة التبدل والتحول والتجديد المستمر.

ومن منطلق الصدق في إظهار حقائق الأمور وبالاعتماد على الدلائل المادية الملموسة والثابتة فقد تأكد منطلق التغيير والإصلاح بعد كل أزمة أو مصيبة أو كارثة، وكان هذا المنطلق يشمل النواحي الإدارية التي تعتبر في حقيقة الأمر الشيء الجوهري في حياة كل مجتمع، ولهذا السبب فقد بادر الإمبراطور ديوقليسيان في السنوات العشر الأخيرة من القرن الثالث للميلاد في إعادة تشكيل الإدارات وإجراء التغييرات الضرورية في كامل مناطق الإمبراطورية من أجل أن يتسنى له تعيين مصلحين جديرين ومراقبين مخلصين في ولايات الإمبراطورية.

وبهذه السياسة تم فصل الولايات المدنية عن الولايات العسكرية التي كانت سابقاً متمركزة في أيدي الحكام المحليين. ولهذا أصبح منذ ذلك التاريخ في كل ولاية حاكم مدني وحاكم عسكري مرتبطين جوهرياً بإدارة السلطة في روما، وكذلك الحال بالنسبة إلى جزيرة كريت فقد انفصلت بدورها عن ولاية سيرينائيك وانضمت منذ ذلك التاريخ إلى شبه جزيرة البلقان وأصبحت تبعيتها

إلى أبرشية الشرق حيث الحكام المدنيين، كما أصبح الحاكم العسكري المختص في الشرق يقيم في مدينة أنطاكيا.

أما بالنسبة إلى سيرينائيك فلم تعد بعد ذلك تنحني إلى الغرب والعاصمة روما ولكن تحولت نحو الشرق وأصبحت تحت إدارة القسطنطينية وحكامها وخلفائهم وورثتهم في القرن الرابع. وهذا التحول حُدد قبل كل شيء وتزامن مع تأسيس مدينة القسطنطينية كمقر للإمبراطور الذي كان يحكم القسم الشرقي من الإمبراطورية، ولكن كان يترافق ذلك أيضاً مع حاكم الولاية هذه.

وبعد ذلك تأسست ولاية مصر نحو عام ٣٧٠م. ومنذ ذلك التاريخ احتلت مركز الصدارة وأصبحت تقود المنطقة ضمن المخطط المدني وبنفس الوقت بموجب القانون السادس الصادر عن المجمع الكنسي الأول في مدينة نيسة عام ٣٢٥م والذي أقر واعترف بسيادة أسقف أو بطريرك الإسكندرية على كامل أراضي أفريقيا الإغريقية والرومانية، أي من حدود خليج سرت غرباً وحتى الحدود المحاذية إلى فلسطين شرقاً.

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت منطقة سيرينائيك ذات علاقة جيدة مع الشمال الغربي ومركزه مدينة القسطنطينية ومع الشرق ومركزه مدينة الإسكندرية، وهذا يعني عودة المنطقة إلى الوضعية التي كانت عليها قبل وصول الرومان في الوقت الذي كانت منطقة سيرينائيك لها ارتباطات حادة مع شبه الجزيرة اليونانية والجزر المرتبطة والمتعلقة فيها في العهود الفينيقية والإغريقية الكلاسيكي بين القرنين السابع والرابع ق.م. وبعد ذلك أصبحت تحت تبعية المملكة البطلمية في الإسكندرية من القرن الثالث وحتى القرن الأول ق.م.

وقد ظهرت الأعمال والمساعي والإنجازات الإيجابية التي شملت إصلاحات ديوقليسيان بوضوح ودامت أكثر مما دامت عليه إصلاحات أغسطس نفسه وأضفت على منطقة سيرينائيك استقراراً ثانوياً لم تعرفه مدى حياتها. وتم تنفيذ التنظيم ووضعه موضع التطبيق من قبل الحاكم (تيترارك) الذي أبدى مقاومة عتيدة وصلابة قوية من أجل أن تستمر الولاية والمقاطعة وحتى بعد نهاية تاريخها ضمن العالم المؤثر والمتأثر في عالم البحر الأبيض المتوسط الشرقي.

وخلال القرن الخامس للميلاد فلم نعد نسمع الحديث عن المنطقة إلا نادراً وبمناسبة الأزمات الدينية في البداية وعلى رأسها مشكلة الهرطقة النسطورية التي أدينت واستنكرت في عام ٤٣١م والتي من خلالها

ظهرت معارضـة أوبوسيـونEuoption شقيق مطران منطقة سيرينائيك Synésion سينيسيـون ومن خلال معارضـة الآخرين أيضاً. وقد أصبح سينيسيون لاحقاً مطران المـدن الخمس البنتابول. ومـن ثم هرطقة أوتيشيانeutychienne والمونوفيست التي استنكرت وأدينت عـام ٤٥١م والتي سببت إلى استحقاق صامت من أجل تحديد نطاق وحدود كنيسـة الإسكندرية، وكذلك مشاكل وأزمـات عسكرية ومن ثم غارات وهجمات بربرية جديدة على منطقة سيرينائيك، وكان ذلك في فترة تسبق قليلاً عام ٤٤٨م.

ويمكـن من خلال هـذه الظاهرة وهذه الأحداث تفسـير التحول من مدينة طلميثة (بتوليمائيك) عاصمة ليبيا العليا إلى مدينة أبولونيـا (سوسة)؛ بمعنـى أن الثانية حلت محل الأولى. ولكن بقيت المشكلة قائمة حيث أن المسألـة الدينية لم يوجد لها حل وخاصةً عام ٤٨٢م سواء من خـلال صدور المرسوم أو قانون الوحدة الـذي أصدره الإمبراطور زينون عام ٤٧٤-٤٩١م والذي حدد فيه الأمر بالإصلاح والتوفيق بـين الكنائس المتنافسة والمتعارضة أو المتضادة.

ويبدو أيضاً أن عقد المصالحة والتحالف مع الأرثوذوكس لم يتم إلا في زمن الإمبراطور جوستينيـان، أما بالنسبـة إلى الضغوطات البربرية فيبـدو أنها أوقفـت أيضاً عندما أعلـن صدور مرسوم الإمبراطور أناستاز في عـام ٤٩١-٥١٨م حول الإدارة العسكرية في حلـف البنتابول، أي المدن الخمس في ليبيا. وقد جاء ذلك من وثيقة تاريخية مالية تبين لنا تفاصيل محددة وتبـين هيكلية التنظيم وعودة ظهور الكتائب العسكرية في الولاية. كما تبـين أن الإمبراطـور جوستينيان كان يستحسن في عـام ٥٣٩م تحويل القطاعات العسكرية من أبرشية مصر وتخصيص قسم منها وتحويله إلى منطقة سيرينائيك.

ويستخلص من عرض الوثائق أن منطقة الجبل الأخضر كانـت تتعرض إلى هجمات قادمة من الداخل، لذلك كانت الرغبة لدى السلطات حماية المنطقة والدفاع عنها ضد الهجمات التي كانت تشنها القبائل القادمة من المناطق الداخلية أو البوادي، وقد تأكدت هذه الرؤية من خلال الإشارات التي جاءتنا نحو عـام ٥٥٠م من قبل المـؤرخ السيزاري بروكوب procope. وقد أظهر هذا المؤرخ وشرح الكثير والعديد من القضايا المختصة في الحركة العمرانية والتجديدات العسكرية التـي كان الإمبراطور قد كرس اهتمامه من أجلها ليس فقط في منطقة سيرينائيك وإنما شمل ذلك البرنامج والنشاط كامل الأراضي الأفريقية بما فيها الأراضي الداخلية.

وتبقى الإشارة إلى أن هذه البرامج الإصلاحية لم تكن محددة فقط في اهتمامات وبرامج جوستينيان الإستراتيجية، وإنما شمل الأمر المجال الديني على اعتبار أنه كان من المستوجب عليه إصلاح وبناء العديد من الكنائس في منطقة سيرينائيك، وكان ذلك الأمر عكس ما هو عليه الحال في القرن الرابع حيث كانت هيكلية الأبنية وزينتها الهندسية وغيرها ذات أهمية بسيطة جداً.

ويبقى عصر جوستينيان هو العصر الذي نجد فيه من جهة المخطط الأكثر تحديداً وكذلك الأبنية ذات الديكورات والتزيينات الأكثر دقة ونعومة وجمال. ولم يبخل في الأمر بأي عنصر من العناصر سواء كان ذلك بما يخص استعمال الرخام وتوظيفه والذي استخدم ووظف بشكل مفرط سواء في الأعمدة أو في تصفيح الجدران والمستعمل في الكنائس المحلية، أو بما يخص الفسيفساء الذي كان يركب دائماً على شكل سجاد يغطي الأرض بمظهر ومنظر رائع وجميل.

وقد أصبحت مدينة سوسة عاصمة الولاية مزينة في كنائسها الثلاث العائدة لجوستينيان، كما أصبحت مثالاً يحتذى به، كما شملت النهضة العمرانية التجمعات السكنية الريفية والقرى الصغيرة.. ومما يدل على ذلك كنيسة رأس الهلال التي كانت تعرف قديماً باسم نوستاتموس Naustathmos ، وكنيستين في العترون أو إيريترون Erythron القديمة، أو كنيسة قصر ليبيا حيث يقدم فسيفسائها الرائع والبهي والبراق أجمل اللوحات.

وكان هذا الأمر ينطلق من ثقافة إقليمية وقومية شاملة، فنجد في لوحات الفسيفساء التي فرشت أرضية الكنائس في قصر ليبيا لوحة تصور منارة الإسكندرية، ولوحات تصور آلهة الأنهار الكبرى مثل إله نهر النيل في مصر والسودان وكل من آلهة الأنهار الرئيسة الأربعة في بلاد الشام : الفرات – دجلة – العاصي – بردى. إضافة إلى لوحات تعبر عن مناظر تدل على عالمية الثقافة المنطلقة من منطقة سيرينائيك.

إن تزايد وتكاثر الكنائس ذات المظهر الترفي والمعبر عن البذخ والسخاء والمزينة بالرخام وتحوي أيضاً الفسيفساء الثمين في منطقة سيرينائيك في القرن السادس فهي تعبير واضح ومن دون شك على سلطة جوستينيان وعلى إيمانه وقوته وغناه الاقتصادي والمالي في الإمبراطورية الشرقية في ذلك التاريخ، كما يبرهن ويشهر الغنى لدى التجمعات والمجتمعات العربية المحلية في المنطقة في كثافتها وكذلك تطور وتنامي

الكاثوليكية على حساب المذاهب الأخرى.

وتظهر الحركة العمرانية تنامي البرامج التزيينية من فسيفساء وتيجان وأعمدة وملحقاتها، وهذا يعني بالطبع التأثيرات المستعارة من سورية ومن الأبنية السورية، وكذلك على الازدهار والتطور المتنامي في المنطقة في القرن السادس وانفتاحها على العالم الخارجي.

وأخيراً تبقى المسألة الاقتصادية، فقد بقيت منطقة سيرينائيك وعلى الأقل من القرن الرابع وحتى القرن السادس كما كانت عليه الحال سابقاً عبارة عن منطقة زراعية غنية ومزدهرة، وبلد رعي وتجارة، بمعنى منطقة استيراد وتصدير وعبور للقوافل التجارية البرية والبحرية.

ومهما تكن المعلومات المتوفرة حتى الآن عن المنطقة في العهد الأخير، إلا أنها لم تكن كافية، وتبقى خرساء وناقصة ولم تف بالغرض وذات فجوة كبيرة بما فيها المعطيات الأثرية فلم تسمح بإعطاء فكرة واضحة عن الوضعية التي عرفتها الولاية، أي ولاية ليبيا العليا في الفترة الواقعة بين ٥٧٥ و ٦٥٠م والتي سبقت العهد العربي الإسلامي. ويبقى الشيء الوحيد وهو الدلائل الأثرية التي تغني المعرفة عن هذه الفترة التي تعتبر مجهولة حتى الآن.

أما ما يخص قضية الدين والعقيدة فإن المنطقة والتي شهدت منذ القرن الثالث انتصارا على الوثنية ولم تتوقف مطلقاً عن التطور المتلاحق ، و هذا الأمر كان باعثاً أدى إلى رغد العيش وتمتين اللحمة القومية والعقائدية مما سهل ويسر في دخول القوات العربية الإسلامية بقيادة عمر بن العاص وانتشار الإسلام بسهولة.

الهوامش

١- وهي حلف المدن الخمس Pentapole في منطقة الجبل الأخضر في ليبيا وهي مدن : - (توخيرا Taucheirã (توكرا) - Euhespérides أوهسبيريديس (بني غازي) - سيرين Cyrene (قورينا - شحات) - أبولونيا Apollonia(سوسة) بتوليمائيك Ptolemais(طلميثة)

٢- حلف المدن الست Hexapole أي نفس حلف المدن الخمس السابقة مضافاً إليها مدينة برقة Barca (المرج).

٣- خليل المقداد. درعا مدينة المدائن مدينة الديكابولس - دمشق ١٩٩٨ - ص ص ٢١- ٤٦.

4- F. Hours. Le paleolitique en Syrie. In au pays de Baal et d,Astarte 10,000 ans d,art en Syrie. Paris 1984. pp 2731-.

٥- Théra ثيرا وهو الاسم الحديث لهذه الجزيرة في بحر إيجة في القسم الجنوبي من أرخبيل desCyclades سيكلاد و Santorin سانتورين، وهو الاسم الذي استعمله اللاتين في العهد البيزنطي اشتقاقاً من اسم القديسة غيرين. وثيرا الذي أعطى اسمه في العهد الكلاسيكي القديم إلى هذه الجزيرة قد كان وحسب القصة أو الأسطورة أحد المنحدرين أو أحفاد قدموس الفينيقي مؤسس مدينة طيبة، وقد ذهب على رأس جماعة من المنيويين لتأسيس وأعمار الجزيرة التي كانت قبل ذلك الوقت مستوطنة فينيقية تتبع أجداد قدموس، وربما أن هذا التاريخ يعود إلى نهاية القرن الثامن ق.م، أي فترة غزو قبائل الدوريين.

6- André Laronde. La Cyréne grecque et romaine. Les dossiers d,archeologie no 167. 1992. pp 6 – 15.

٧- كانت أهم القبائل العربية الليبية الكبرى الموجودة في الحيز الجغرافي الممتد من شرق مصر وحتى خليج سرت بما فيها منطقة الجبل الأخضر وجنوباً حتى الواحات الداخلية هي: التتحو – المشواش – الجرمنت.

٨- kômai الكوماي وهو تجمع قروي لتقاسم محصول الكورة chôra أمع القبائل الليبية البدوية منها وكذلك سكان البوادي الذين يمارسون من جهة الزراعة ومن جهة أخرى الرعي.

٩- ملخص الموضوع على الشكل التالي: عندما اشتدت شوكة مملكة سيرين أصبحت المنافس الأكبر لمدينة ومملكة قرطاج على الأراضي الليبية مما ولد عداءات وكاد الطرفان الدخول في الحرب من أجل ترسيم الحدود بينهما، ولكن في النهاية قبل الطرفان الرضوخ إلى التحكيم بحيث يسير عداؤون من مدينة قرطاج باتجاه الشرق وعلى رأسهم أحد الأخوة الاثنين من أسرة فيلين، وبالمقابل يسير عداؤون من مدينة سرت وعلى رأسهم الأخ فيلين الثاني باتجاه الغرب، وفي الموقع الذي يلتقيان فيه يكون موقع ترسيم الحدود بين الطرفين، وبذلك يتوقف الأمر على سرعة وهمّة كل عداء، وفي حال الغش أو الخداع يقتل الأخوة فيلين Philénes، علماً أن المسافة بين مدينة سرت وقرطاج تتجاوز الألفين كم، إلا أن نقطة التلاقي كانت بالقرب من مدينة سرت والتي لم يتجاوز بعدها عن مدينة سيرين أكثر من ٥٠٠كم، بمعنى أن سيرين حصلت على ربع المساحة من الأراضي الليبية مقابل ثلاثة أرباع لمملكة قرطاج، لذلك شعر أهل سيرين بالغبن وأيقنوا أن الموضوع جاء بسبب الغش لذلك قتل الأخوة فيلين واشتعلت الحرب بين الطرفين.

١٠- سوف يتبع هذا المقال إن شاء الله بحث آخر نخصصه إلى مدن البنتابول وأبنيتها الأثرية في الأعداد اللاحقة.

١١- نسبةً إلى الإلهة أرتيميس.

الدراسات والبحوث



الثقافة العربية والثقافة الأفريقية

عبد الباقي يوسف ⊙

الثقافــة العربية ثقافــة منتشرة في سائــر البلاد الأفريقيــة، والثقافة الأفريقيــة منتشرة في سائر الدول العربية، ولذلك عندما نقرأ أدباً أفريقياً، لانشعــر بأننا نقرأ أدباً غربياً بالمعنى الكلمة بقدر مــا نشعر بأننا نقرأ أدباً عربياً، ولذلك كانت اللقاءات المستمرة بين الثقافتين.

يتطرق هــذا البحث إلى خصائص وميزات العلاقــات الثقافية العربية الأفريقية، ويسعى إلى بيان تكامليتها .

⊙ كاتب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

ويبيّن أهمية بناء كيان ثقافي عربي أفريقي في سبيل مواجهة نزعات التهميش التي تتعرض لها الثقافتان.

كذلك يتطرق إلى إيقاع الحياة المشتركة بين المجموعتين، مثل اللغة العربية التي يتحدث بها خمس سكان القارة الأفريقية، وانتشار الإسلام في كثير من الدول منذ القرن السابع الميلادي، ويبيان أن الشعوب الأفريقية هي شعوب مسالمة آمنة لم يسبق لها أن غزت أحداً.

والتاريخ الثنائي بين العرب والأفارقة هو تاريخ سلمي مشجع على إقامة هذا الكيان الثقافي.

ثم تتبيّن عوامل حدود القارة الأفريقية الغنية التي تجعل الأبواب مشرعة للتبادل الثقافي العربي الأفريقي.

من جانب آخر يتحدث هذا البحث عن أهمية دور المثقف في بناء هذا الكيان الثقافي ويتم ذكر بعض أهل الثقافة والإبداع الذي تتجلى في إبداعاتهم ووقائع الحياة المشتركة بين العرب والأفارقة مثل وول سوينكا، ونادين جوريمر، وتشينوآتشيبي، وسنغور، وكذلك يأتي الوقوف مع شخصية لقمان الحكيم التاريخية التي ولدت في أفريقيا وانطلقت إلى رحاب العالم لنشر الحكمة عبر الزمن.

ويرى البحث أن دور المثقف هو دور بالغ الحساسية في قيام المعاهدات والاتفاقيات والكيانات حيث تنعقد عليه آمال المشاريع الإنسانية التنويرية، والوطنية الكبرى.

كذلك يرى البحث أن بناء مثل هذا الكيان يحتاج إلى دعائم وقوائم كي يقف عليها، ويشرح البحث جانباً من ذلك مثل إقامة قناة فضائية ثقافية عربية أفريقية مشتركة، وتبادل الآداب والعلوم في مختلف مراحل المناهج الدراسية بين طلاب الثقافتين.

وعقد اتفاقيات بين اتحادات الكتاب العرب، واتحادات كتاب أفريقيا من أجل تفعيل دور الثقافة من خلال الزيارات الثقافية المتبادلة، وإقامة الأنشطة الثقافية واستقطاب رموز الثقافتين. ويرى البحث ضرورة وجود مجلة فصلية تعنى بالآداب العربية والأفريقية تترجم إلى اللغة العربية واللغات الأفريقية، ويصدر مع كل عدد كتاب إبداعي أو فكري لأحد أعلام أو أدباء الثقافتين.

يرى أن هذا الكيان هو حصانة للثقافة التي لم يعد يهمها ما يمكن أن تتعرض له من تهميش، وأول ما يحققه هذا الكيان هو تعزيز مشاعر الانتماء، وإزاحة مشاعر الغربة واللاانتماء بالنسبة لأبناء الثقافتين، وهو

يحقق لهم قوة وتفاعلاً وحضوراً في المشهد الثقافي العالمي.

رسالة الثقافة

تؤدي الثقافة رسالة إنسانية هامة، ومن خلالها يتعرف الناس على بعضهم البعض، ويقتربوا من بعضهم البعض.

الثقافة هي الموسيقى الروحية التي يعزفها نبض الإنسان من أجل أن يسمعها إنسان آخر، فيشعر بنشوة وأنس، وينتابه إحساس ولو للحظات بأن هذا العالم ليس موحشاً.

إذاً، الثقافة هي حالة حب من إنسان تجاه إنسان آخر، والمجتمع الذي يخلو فيه المثقفون- بكسر القاف- والمثقفون- بفتحها- سوف يؤذي بعضه بعضاً لأنه سوف يبقى في حالة متدنية من الارتقاء الثقافي، وسوف يبقى في شتات أبدي في هوة مطفأة المصابيح تحتضر ارتجافاً من قوة البرد الروحي، وهول حلكة الظلام.

علمتنا دروس التاريخ الإنساني خلال ثلاثة آلاف سنة ماضية من تاريخ الحركة التثقيفية الفعلية أن البقع الجغرافية تكون قوية قدر ما يتمتع مثقفوها بقوة الحرية



وقوة التلاحم، ويمكن لمثقف حر أن يمثل عصراً بأكمله.

لذلك كنت أنظر في مراحل متعددة أن مهمة ممثل الثقافة في أي بلد ما، أو في أي مدينة، تكون من أكثر المهمات حساسية، وربما إحراجاً لذاك الشخص الذي قَبِل أن يكون ممثلاً لهذه الحساسية الثقافية في مجتمعه.

وكنت دوما أنظر أن ممثل الاقتصاد في

أي بلد ما من العالم، لايكون مسؤولاً عن خيمة احترقت على منعرج نهر، وممثل المواصلات لايكون مسؤولاً عن سائق مشاكس خطف فتاة جميلة، وممثل الزراعة لايكون مسؤولاً عن سيارة دهست قطة على طريق عام، وكنت أرى أن ممثل الثقافة في ذاك البلد، يتحمّل حصة جيدة من تلك المسؤولية، ذلك أن مهمته هي مهمة تنويرية عامة.

إذن، تكمن مهمة ممثل الحالة الثقافية في قوة مسؤوليته حتى عن عامل يذهب مبكرا إلى معمله، عن عاشق يلتقي حبيبته في صالة سينما لأنه رسول الإشراق الروحي في مجتمعه.

إنه رسول القيم، رسول الأخلاق، رسول الحرية، رسول العشق، رسول الفن، رسول الإبداع، رسول الرقي، رسول الحضارة، وحامل إرث التاريخ على كتفيه، والذي يستقبل ممثل الثقافة يشعر بشيء من الخصوصية،

فهو إذاً في حضرة رجل استنارة أجلّ، يستأنس ويستمتع بحالة الجلوس إليه، إنه أمام كائن معرفي يخبر عن الحياة ما قد لايخبره غيره، ويمكن له أن يؤوّل كل حدث تأويلا ثقافيا بما ليس بمَلكة سواه.

إنه يحمل ويتفوّح بجمال روحي، لذلك كنت دوما أرى أن ممثل الثقافة هو إمام الثقافة يؤم مثقفي وثقافة بلاده.

من هنا أقول إن علاقات التلاحم والتكاتف الإنساني هي علاقات فطرية طبيعية بين سائر سكان الأرض، لأن الإنسان هو للإنسان مهما كان موقعه،

أو زمنه، أو لونه أو مذهبه، أو لسانه، وللإنسان حق في الإنسان، وله حق عليه.

إذا كان هذا التكاتف طبيعياً وفطرياً بين أبناء الكرة الأرضية بصفة عامة، فإنه يكون واجباً وفرضاً بين أهل الديار الملاصق، أو المجاور لبعضه البعض، أهل التراث المشترك، أهل الرؤية المستقبلية المشتركة.

لقد أتيح لي أن ألتقي برئيس اتحاد كتاب عموم أفريقيا، وكذلك برموز الثقافة الأفريقية من خلال مشاركتي في ندوة الثقافة العربية الأفريقية التي أقيمت في ليبيا بين ٢٤ - ٢٦ من شهر تشرين الأول ٢٠١٠، وألقيتُ بحثاً في جامعة قاريونس في بنغازي بهذا الصدد بعد أن كلفني اتحاد الكتاب العرب للمشاركة في هذا المؤتمر مع وفد الجمهورية العربية السورية الذي تم فيه لأول مرة الإعلان عن تأسيس اتحاد الكتاب العرب والأفارقة بحضور وفود الدول العربية والأفريقية، وكذلك بحضور الأمين العام لاتحاد الكتاب والأدباء العرب،

وحضور رئيس اتحاد عموم أفريقيا .

أجـل، إننا نشعر بصلة رحـم تاريخية، وجوارية، واجتماعية بيننا وبين سائر الدول التـي تستقر في القـرن الأفريقي الذي هو ثاني أكـبر قرن على سطح الكـرة الأرضية حيث تضم هذه القارة أكثر من خمسين دولة مستقلة تتمتع بسيادتها وتتحدث بنحو ألف لغـة، وتقف على تاريـخ متأصل من الكفاح والإبداع، والثورات، وقد قدّمت لمختلف دول العالم عقولاً نيرة عبر العقود البشرية، وقدمت ثقافات وفنوناً وأيديولوجيات غاية في الغنى والتنوع والخصوبة وهي دول مشرعة الأبواب والنوافذ على الثقافة العربية تلقياً وإرسالاً. والدول العربية مفتوحـة الأبواب والنوافذ علـى ثقافتها إرسـالا وتلقيـا حيث توجد الكثير من النقـاط المشتركة التي من شأنها أن تيسّر سبل التلاقي والتلاقح الثقافي بين أبناء الثقافتين.

إيقـاع الحيـاة الثقافيـة العربيـة الأفريقية المشتركة

كما كان العرب بصفة عامة لا يستغنون عـن أفريقيا، فإنها كذلـك لا غنى لها عن العرب.

لقد شاءت الظـروف أن يتقاسم العرب قارتـي أسيـا وأفريقيـا، والعـرب الذين يقطنون الجناح الآسيوي ينظرون إلى ذويهم في الجناح الأفريقي، ومنهم إلى سائر البقاع الأفريقية، وكذلك، فإن الدول الأفريقية غير العربية، تنظر إلى الدول الأفريقية العربية، ومنها إلى أخواتها في القرن الآسيوي.

انطلاقاً من هذا الواقع المعاش، تمتعت العلاقات الثقافية العربية الأفريقية بمزايا وخصائص تكاملية.

لقد قرأنـا أفكار أهل الفكـر والثقافة والأدب مـن أبناء القـارة الأفريقية، ورغم أننا قرأناهـا مترجمة إلى اللغة العربية، إلاّ أننا لم نشعر بغربـة اللغة المترجمة، بل نقرأ أدبا بلسان قريب إلينا، ولذلك فإننا لم نشعر بخلاف كبير عنـد ما فاز الكاتب النيجيري ووسوينكا بجائـزة نوبل لـلآداب، وعندما فـازت كاتبة جنوب أفريقيـا المتألقة نادين جورديمـر بجائزة نوبل لـلآداب، حين فاز نجيب محفوظ بهذه الجائزة، ولذلك عندما نقـرأ (سنوات الطفولة) لـ سوينكا، أو (سهم الله) لـ(تشينو أتشيبي)، أو (العالم البرجوازي الزائل) لـ جورديمر.

يمكننا أن نرى فيها إيقاع الحياة المشتركة كما لـو أننا نقرأ الطيب صالـح، أو توفيق الحكيم، أو غادة السمان.

لذلك تشكلت لدينا فكـرة واضحة عن مزايا وخصائص أبناء القارة السمراء سواء أكانوا في بوتسوانـا، أو في غينيا، أو أنغولا،

أو الصومــال، أو سيراليــون، أو مدغشقر، أو زيمبابــوي، أو موريتانيــا، أو أثيوبيا، أو جيبوتي.

عرفنــا مواضع القــوة التــي يتمتعون بهــا دون غيرهم، وهم يقفــون على جذور حضــارات قديمــة تؤهلهم ليقفــوا موقف الندية مع كبرى حضارات العالم المعاصرة.

لذلك تحــدث الكثير من أهــل الثقافة والمعرفــة والحكمــة عن ضــرورة التلاحم الاجتماعــي بين الأفارقة عامة، وبين عموم العــرب، لأن المستقبل المشــترك بينهما هو مستقبل إيجابي، وكان ليوبولد سنغور يدعو إلى توثيق العلاقــات الثقافية والاجتماعية بــين الأفارقــة والعرب، وأن تحــدث بينهم علاقــات النســب والمصاهــرة والروابــط الأسريــة الحميمة، والمصالــح المتبادلة لأنه كان يــرى أن الأفريقانية تتكون من العروبة والزنوجة.

أمــا بالنسبة إلى اللغة، فهــي أيضاً من العوامــل الحياتية التــي تقرّب بــين أبناء المجموعتــين، لأن اللغــة العربية منتشرة في أنحاء القارة الأفريقية إلى جانب لغات أبناء القارة التي تُعد من أكثر قارات العالم غنى في لغاتها، وقد وضــع الإسلام الحنيف جذوراً ثابتــة لتعزيز وتوثيق هــذا التلاحم الثقافي عندما وصل العرب في القرن السابع الميلادي إلى شمــال أفريقيا، مما ولّــد ثقافة عربية أفريقية أفادت العرب، كما أفادت أفريقيا، فقــد انتشر الإســلام في أفريقيا ورحب به الأفارقــة، وبذلــك انتشرت اللغــة العربية مما أدى إلى ارتباط سكان القارة بروحانية الإســلام، وروحانية لغته العربية، وروحانية الجغرافيا العربية التي تحتوي على الرموز الإسلامية المقدسة ليس في الحجاز والقدس فحسب، بل في سائر الدول العربية.

لقد اغتنى التاريــخ العربي والإسلامي بشخصيــات عديدة من أفريقيا، وغدت من نسيج المجتمع العربي، بل غدت رموزاً بالغة الأهمية في التراث العربي.

أريــد أن أقول إن هــذا الانفتاح، وهذا الترحــاب بذاتــه أسهم بفعاليــة عالية في تداخل ألفاظ اللغــة العربية في نسيج عدد من لغــات اللسان الأفريقي، مما مخض إلى ولادة لغات أفريقية جديدة مثل السواحيلي في شرق أفريقيا.

إن إشــادة كيــان ثقافي عربــي أفريقي مشــترك هو حاجة ملحــة لأبناء الثقافتين، وهو بذاتــه من شأنــه أن يضفي على هذا التاريخ المشترك غنى وتفاعلاً وقوة وحضوراً لمواجهة بعضــ نزعات التهميشــ التي قد تتعرض لها خصائص ومقومات الثقافتين.

الثقافة العربية الأفريقية تاريخ مشترك

يتمتع المثقف بخصائص ومقومات تؤهله لإشاعة أنماط الأفكار والثقافات والمفاهيم ووجهات النظر الجديدة، وهو يؤدي دوراً بارزاً وفعالاً في تعزيزها وجعلها واقعاً معاشاً.

عبر الأحقاب والعقود الزمنية كان المثقف هو منظّر المعاهدات والكيانات التحولية الكبرى في تاريخ الشعوب، وكان السياسي يستأنس بوجهات نظره وما يراه من تحليل مستقبلي، لأنه يمتلك المخيلة المتقدة التي هي ركن أساس من أركان عمله الإبداعي، ولذلك هو قادر على التخيل والتحليل والتكهن بشكل قريب إلى الدقة.

لذلك فإن عمليات التحول الهامة في تاريخ الشعوب والدول، اشترك الثقافي والسياسي في صناعتها.

المثقف كان دوماً يمتلك البلاغة في التأثير، وكان يستخدم ثقافته، وحججه وبراهينه في سبيل إقناع الآخرين بمشروعه التنويري الذي يدعو إليه. لقد أدى دوراً أساسياً هاماً إلى جانب دور السياسي الذي يمتلك صلاحية اتخاذ القرارات المصيرية، والأمر بتنفيذها بشكل مباشر حتى تغدو واقعاً يومياً ملموساً ومعاشاً.

إن المثقف هو الشخص المنظّر، والعقل المدبر، وهو واضع المواثيق، والمعاهدات، والأناشيد الوطنية، والفنون، وهو مصمم الرايات الخفاقة، وصانع الإعلام المسموع والمقروء والمرئي، ومبتكر الفلسفات والأيديولوجيات، وهو صانع ثورة الملتي ميديا، إنه بشكل مختصر مشكّل هوية البلاد والعباد في موطنه.

منذ الأزل فإن اسم الثقافي يكون بارزاً وحاضراً إلى جانب الاسم السياسي، منذ أرسطو طاليس، وسقراط، وشكسبير، ومروراً بالمتنبي، وابن رشد إلى سنغور، وسوينكا، وغورديمير، وطه حسين، وليس انتهاء بفوكوياما، وهنتغتن، سواء أكان هذا الدور إيجابياً أو سلبياً لأن المثقف يمكن له أن يؤدي دوراً سلبياً ويكون شريكاً للسياسي في كوارث كبرى، بل قد تسهم أفكاره في تكوين شخصية سياسية سلبية كما الأمر بالنسبة لأفكار نيتشه عن الإنسان الجبار والقوي والسوبرمان، وتمثيل بعض الشخصيات القيادية الكبرى التي تمثلت هذه الأفكار وتأثرت بها بشكل سلبي، وبالتالي قادت العالم إلى حروب ومعارك كان الإنسان بغنى عنها.

من هنا فإن الأفكار السياسية هي أفكار بالغة الحساسية، وتحتاج إلى الكثير

من التفسير والتأويل والشرح، وكذلك تحتاج إلى المناسبات والأسباب التي فجرت تلك الأفكار، سواء أكانت أسباباً شخصية للكاتب، أو أسباباً جماعية، ولذلك فإننا لانستطيع أن نفرّق بين الثورات الفكرية التي ظهرت في العالم، وبين الحربين العالميتين، سواء أكانت أفكاراً ومذاهب عدمية، أو وجودية، أوفانتازية، أوتنويرية.

بناء على هذه العلاقة يمكننا أن نرى تهاوي الكثير من الأفكار في وقتنا الراهن، أو تعرضها للحرج الشديد، مثل ما يمكن تسميته بفلسفة الإنسان النفعي، أو الإنسان القبلي، أو الإنسان الطائفي، أو الانسان القومي، أو الإنسان الأبيض مقابل الإنسان الأسود، أو الإنسان الأيديولوجي، أو الإنسان البراجماتي، أو الإنسان المكيافيلي، وغيرها من الأنماط الإنسانية التي أحدثت آثاراً سلبية في الرصيد الحضاري للأمم والشعوب.

يتمتع المثقف بسحرية التأثير، ويحالفه النجاح غالباً في مسألة الإقناع لأنه يعيش أفكاره وقناعاته ويتغلغل في دواخلها.

ولذلك رأينا في العالم وفي مختلف الأحقاب الزمنية ثنائية الأديب السياسي، والسياسي الأديب، فكان الأديب يعمل في الحقل السياسي، وكان السياسي يكتب أدباً، وكما أن الأديب يخلّف مواقف سياسية، فإن السياسي يخلّف أعمالاً أدبية.

من هنا، فإن دور المثقف -وهنا أعني مبدع الثقافة، المثقف بكسر القاف- هو دور بالغ الحساسية في الحركات والثورات والكيانات، وتتعقد عليه آمال المشاريع الإنسانية التنويرية، والوطنية العظمى.

بيت الثقافة العربية الأفريقية

إن بناء أي بيت يحتاج إلى أرضية صلبة مقاومة للهزات التي يمكن لها أن تحدث مع مرور الزمن، ومانعة ضد الشروخ والتصدعات، وحقيقة الأمر فإننا إذا استدرنا إلى الوراء قليلاً، وألقينا نظرة خلفية إلى ماضي العلاقات العربية الافريقية، سنرى بأن أجدادنا أولئك وضعوا قوائم أساسية لبناء علاقات عامة في مختلف مناحي الحياة بين أبناء القارتين، ولم يتركوا ماضياً سلبياً مشحوناً بيننا، بل تركوا صفحة ناصعة البياض فيما بيننا.

تبيّن لنا صفحات التاريخ الثقافي والاجتماعي المشترك بأنهم التقوا وتعارفوا خلال عقود مديدة من الزمن أكثر مما نحن عليه الآن، وأرسوا قوائم بناء علاقات جوارية، واقتصادية، ودينية، وتراثية، وثقافية، ومعرفية بين سائر العرب، وسائر أبناء القارة الأفريقية سواء أكانوا عرباً، أو

مسلمين، أو من سائر ألوان وأطياف المجتمع الأفريقي.

إن أفريقيا تتمتع بعوامل الغنى والخصوبة في حدودها من كل الجهات، من المحيط الهندي، والمحيط الأطلنطي، والبحر الأحمر، والبحر المتوسط، وقناة السويس.

وتُعد أفريقيا من أقدم البقاع الجغرافية المأهولة بالسكان على سطح الأرض، حيث تم اكتشاف حفريات تدل على الوجود البشري فيها منذ سبعة ملايين سنة، وترى بعض الآثار بأن هذه الأرض التي رأت أن تتخذ من أفريقيا اسماً لها إلى جانب تسميات أخواتها من قارات الأرض، أن هذه القارة هي أصل الوجود البشري.

لقد بدأت كتابة أولى صفحات سجل التاريخ البشري منذ ٣٣٠٠ ق.م تقريباً في شمال أفريقيا ببزوغ نجم الحضارة الفرعونية في مصر القديمة، وهي تُعد واحدة من أقدم الحضارات بقاءً في تاريخ الحضارات البشرية.

ولعلّ تحقيق الاتحاد الأفريقي الذي ضم الدول الأفريقية في ٢٦/ يونيو ٢٠٠١م كان منجزا انعطافياً هاماً بالنسبة لهذه القارة التي تفاقمت فيها ألوان وأشكال المعاناة بسبب التشتت، وبسبب التدخلات التي أسهمت في نشوب نزاعات حادة بين أبناء اللون الواحد، وأصحاب الأرض الواحدة، والاتحاد هو رد فعل على تلك المحاولات التي عملت في سبيل إضعاف هذه القارة، الاتحاد هو قوة، وهذا الاتحاد ييسّر بناء علاقات قويمة بين القارة الأفريقية وبين مختلف أبناء العالم، فأنت تدخل إلى ولايات أفريقية متحدة، تدخل إلى دول أفريقية متحدة، تدخل إلى ممالك أفريقية متحدة، تدخل إلى جمهوريات أفريقية متحدة.

الأمر لا يختلف كثيراً، لأنك تبني علاقة مع /اتحاد أفريقي/ وهذا بذاته من العوامل الميسرة لبناء كيان ثقافي عربي أفريقي، وأظن أن الأمانة العامة لاتحاد الأدباء والكتاب العرب يمكنها أن تلعب دوراً هاماً إلى جانب مجلس وزراء الثقافة والإعلام العرب من أجل ولادة هذا الكيان لأن العمل في هذا المسعى يحتاج إلى جهد جماعي.

تُعد الثقافة من المرتكزات الأساسية في سبيل التقارب والتلاحم الإنساني، وأنت يمكنك أن تميل إلى دولة، أو إلى شعب من خلال التعرف على ثقافته، ودوماً فإن العقائد والأيديولوجيات تتشكل وتتعزز في العقول والنفوس من خلال التلقي الثقافي والفكري والفني والمعرفي.

إن المرسل الذي هو المثقف -بكسر القاف- يصنع ذائقة ومفاهيم المتلقي

المثقف -بفتح القاف- لقد أتيح لي أن أكتب روايتي الأخيرة «إمام الحكمة» عن أحد أهم أقطاب الحكمة في التاريخ البشري، وهو لقمان الحكيم الذي ولد وانطلق إلى سائر أنحاء العالم من رحم هذه البيئة الأفريقية.

لقد تعرّفت على خصائص هذه البيئة، وعلى خصائص القوة التي يتمتع بها إنسانها، لاأعني القوة العضلية فحسب، بل قوة الجَلد، والصبر، قوة تحمّل القسوة، قوة النضج، قوة الحكمة، قوة دفق المشاعر الإنسانية.

إن هذا الإنسان يتمتع بقوة حب هائلة ليس نحو قارته فقط، بل نحو البشرية جمعاء، وقلبه بالفعل يتسع لهذا الحب الإنساني الكبير، وهذه هي إحدى خصائصه.

ولولا كل هذا الحب نحو الإنسانية، وهذا القلق على مصيرها من النعرات والنزعات، لما أقبل على الحكمة، وملأ العالم ببديع هذه الحكمة، ولذلك فإن سيد الحكمة المولود على الأرض الأفريقية، والمتمتع بخصائص إنسانها هو رجل عالمي وسطي حظي بتقدير كل الأديان والمعتقدات والألوان، واللغات، والأقوام، وبالنسبة لنا فقد احتفى به القرآن الكريم إلى درجة أن حملت سورة كاملة اسمه، واحتفى به الفقه.

أريد أن أقول بأن وجود مثل هذا الرجل يمكن له أن يعزز دعائم بناء هذا البيت الثقافي العربي الأفريقي.

إنه ينشر رسالة الإخاء الإنساني ومن أفكاره على سبيل المثال قول رجل له: أي علم أوثق في نفسك؟

قال: تركي مالا يعنيني

جاء صوت آخر: أي الناس شر؟

أجاب: الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئا.

ثم أضاف بعد شيء من صمت: لا تعاشر الأحمق، وإن كان ذا جمال، انظر إلى السيف ما أحسن منظره.

تقدم إليه ثلاثة رجال من بعيد، وما إن دنوا منه حتى سبق أحدهم صوته:

أي الخصال خير للإنسان يا حكيم؟

تمهّل في الإجابة إلى أن بلغه الرجال الثلاثة فقال: الدين.

قال الصوت ذاته: فإذا كانت اثنتين.

أجاب: الدين والمال.

قال الرجل الثاني على الفور: فإذا كانت ثلاثة يا حكيم

أجاب: الدين، والمال، والحياء.

أردف الصوت نفسه: إذا كانت أربعة

قال: الدين، والمال، والحياء، وحسن الخلق.

قال الرجل الثالث: فإذا كانت خمساً؟

قال: الدين، والمال، الحياء، وحسن الخلق، والسخاء.

قال الصوت ذاته: فإذا كانت ستاً؟

قال: مَن اجتمعتْ فيه الخصال الخمس، فهو تقي نقي، والله ولي.

قال ذلك ومضى في سبيله، عند ذاك لحقه صوت رجل يهرول

إليه قائلاً: انصحني يا لقمان

توقف لقمان حتى لحق به الرجل فقال: أشكر لمن أنعم عليك، وانعم على شكرك، فإنه لابقاء للنعمة إذا كفرت، ولا زوال لها إذا شكرت.

في أثناء ذلك تقدم إليه جمع آخر من الناس، عند ذاك تقدم رجل إلى لقمان فقال له: أنت لقمان، أنت عبد بني الحساس

قال: نعم

قال: فأنت راعي الغنم الأسود؟

قال: أما سوادي فظاهر، فما الذي يعجبك من أمري؟

قال الرجل: وطء الناس بساطك، وغشيهم بابك، ورضاهم بقولك.

قال: يا بن أخي، إن صنعت ما أقول لك كنت كذلك

قال: ما هو؟

قال: غضي بصري

قال الرجل: وأي؟

أجاب: كفي لساني

قال الرجل: وأي؟

أجاب: عفة مطعمي

قال الرجل: وأي؟

أجاب: حفظي فرجي

قال الرجل: زدني

قال: قيامي بعدتي

قال الرجل: زدني

قال: وفائي بعهدي

قال الرجل: زدني

قال: تكريمي ضيفي

قال الرجل: زدني

قال: حفظي جاري

قال الرجل: زدني

قال: تركي مالا يعنيني، فذاك الذي صيرني كما ترى.

إنه رسول الحكمة التي انطلقت من هذه الأرض واتسعت لها رحابة العالم.

إن وجود مثل هذه الشخصيات التاريخية العالمية تزيح الكثير من الحواجز التي يمكن أن تُنصب بين الطرفين، خاصة وأنها شخصيات ثقافية بامتياز، وهي كنوز ثقافية وإرث ثقافي تتمتع به هذه القارة.

وحقيقة الأمر فقد تعرفنا على سيكولوجية الإنسان الأفريقي أيضاً من خلال قراءاتنا لأعمال روائية بيّنت معاناة

الإنسان الأسود، وهي أعمال أدبية كتبها مبدعون ومبدعات من شتى أنحاء العالم، ولعلي أذكر الروائية الأمريكية السوداء / توني موريسون/ التي استطاعت أن تقدم سيكولوجية الإنسان الأسود بشكل روائي تحليلي بارع.

وقد دعت الروائية موريسون إلى التصالح بين الأسود والأبيض، ومن ذلك دعت إلى عالم سلمي عام بين جميع سكان الأرض.

السلام فكرة إنسانية يؤمن بها أشخاص، ويسعون ما بجهدهم في سبيل نشر السلام في الناس، كما أن الحرب فكرة يؤمن بها أشخاص، ويسعون ما بجهدهم في سبيل نشر القتال في الناس.

ويمكن للإنسان أن يكون من دعاة السلام، أو من دعاة الحرب مهما كان موقعه، ولكن على الأغلب نرى أن الذين تعرضوا للظلم والقسوة والحروب هم أكثر الناس دعوة للسلام لأنهم ذاقوا وبال الحروب، ولايريدون أن يروها ويعيشوها ثانية، كما أنهم يسعون لتأمين حياة مسالمة لأولادهم وأحفادهم.

والأدب طريق فعال للدعوة إلى السلام.

الروائية الأمريكية الحاصلة على جائزة نوبل للآداب توني موريسون تُعد من دعاة السلام في العالم من خلال أعمالها الروائية التي تطالب فيها بتطبيع العلاقات بين السود والبيض في أمريكا والعالم، وتطالب بأن يمارس الأسود حقوقه إلى جانب أخيه الأبيض.

وهي كاتبة عانت هذه العنصرية شخصياً كونها امرأة سوداء.

الروائية السوداء التي تكتب بقلب أبيض

امرأة مسنة تبدو واثقة من خبرتها في الحياة، قرأت كثيراً، وأتاح لها عملها في كتابة الرواية التعرف على الكثير من المجتمعات والعادات والتقاليد والمفاهيم.

تمتلك موريسون مقدرة على تقييم الناس من خلال النظر إلى وجوههم وهي بذلك تشبه العرافات والكاهنات والحكيمات.

تعد /كلو أرديلياووفورد/ وهذا اسمها الحقيقي من سيدات الرواية في أمريكا وتحظى رواياتها بإقبال شريحة كبيرة من القراء الذين يبحثون عن قيمة المعرفة، وقيمة الحكمة، وقيمة الاعتدال مع النفس ومع الآخرين.

رغم مشاهد العنف التي تصورها في رواياتها، يشعر القارئ بأنها تكتب بقلب أبيض، وتدعو إلى تصحيح الأخطاء التاريخية، لأن الإنسان بوسعه أن يفتح صفحات جديدة في علاقة إنسانية جديدة.

تقديم تجربة أمريكا السوداء روائياً

فتحت موريسون عينيها على ألوان الاضطهاد التي يتعرض لها أبناء وبنات قومها من السود في أمريكا. حدثها والدها قصصاً كثيرة عن المعاناة، عندئذ مالت إلى القراءة تقول: /لقد عشت في المكتبة تحت في الطابق الأرضي لأن كل كتب الأطفال كانت هناك/.

عندما بلغت الثانية عشرة منحتها الكاثوليكية الاسم المعمداني أنتوني الذي اختصرته إلى توني. بعد ذلك تزوجت من المهندس المعماري هارولد، وتم الفراق بينهما بعد سنوات قليلة من الزواج وإنجاب طفلين.

عندئذ خطر لها أن تعبر عن نفسها من خلال الكتابة وتقدم /تجربة أمريكا السوداء المحددة إلى العالم/ بقلم نسوي لأنها أدركت أن: /كل الأعمال القصصية حول العبودية كتبها رجال/.

لم يكن أمام الروائية توني موريسون أن تدافع عن أبناء قومها إلا من خلال الرواية، ولذلك فإن معظم أعمالها تتحدث عن العلاقة بين السود والبيض في أمريكا، وهذا ما أكسب هذه الروائية شهرة عالمية.

تحاول موريسون من خلال أعمالها الروائية أن تقدم حالة من اللاتوازن في العلاقات الإنسانية في كثافة مجتمع متنوع، وهي بالوقت ذاته -سواء عمدت، أو لم تعمد- تسلط الضوء على الميول الإنسانية غير السوية، ربما لأنها عانت بقسوة في طفولتها، وعندما انفتحت على الحياة بدأت تلحظ شيئاً من التميز اللوني، أو ربما العرقي، وهنا أظن بأن الدخول إلى عالم الأدب بالنسبة لموريسون كان بمثابة المحاولة لإثبات النفس، وأن الإبداع لا يقتصر على جنس أو لون أو عرق بقدر ما يقتصر على النبوغ، والذكاء، والموهبة البشرية، وهنا مرة أخرى نرى الإخلاص الشديد للأدب، ولا صوت لديها يعلو على صوت القلم، فاستطاعت هذه الروائية الأمريكية الزنجية أن تنتزع الاعتراف العالمي بموهبتها لتُتَوَّج، أو لقل لتُكَلَّل بجائزة نوبل للآداب.

أبطال موريسون، أو بالأحرى بطلاتها يعانين من حالة الاغتراب حتى وهن في حضن الأسرة. ويبدو أن التمييز العنصري بحق السود بلغ مع موريسون ذروته إذ إنها لم تعد ترى في العالم إلا السواد، وبهذه القوة تمد يديها إلى يدَي القارئ لتُدخله إلى رحاب عالمها الروائي.

العنف الرهيب

تصور موريسون أهوال العنف بحق السود في رواياتها، وهذا يجعلها تؤدي

وظيفة سياسية بامتياز من خلال الأدب كما الحال مع غابرييل غارسيا ماركيز.

شخصياتها تعاني حتى من أقرب الناس إليها، ولعلّ /بيكولا لابريد لوف/ هي النموذج الأكثر ألما وفجيعة في روايتها /أشد العيون زرقة/.

في هذه الرواية تعبر موريسون عن حالة التيه الأسروي حتى بين السود أنفسهم، بسبب المعاناة الشديدة التي يتعرضون لها، والتي تؤدي إلى ولادة نزعات غاية في السلبية، وبالطبع فهي حالات لاتقع مع الأسوياء، بقدر ما تقع مع الذين يعانون أمراضا نفسية بالأصل، فتضخم هذه المعاناة هذه الحالة لديهم.

بتقديري فإننا نحتاج إلى انتباه شديد ونحن نقرأ هذه الحالات في كتابات موريسون.

الظلم في /أشد العيون زرقة/ يقع من أقرب الناس، ألا وهو الأب، وأي شكل من الظلم القاسي هذا الذي يحيل البطلة إلى كائنة مهووسة في النهاية لتتعلق بعيني دمية زرقاوين.

تقول موريسون: /أعي العنف الرهيب والجهل المتعمد والجوع لإيلام الآخرين، أعي ذلك دائماً رغم أني أقل وعياً به تحت ظروف معينة/.

والواقع فإن موريسون تسقط آلام ووقائع المقربين لها على شخصياتها في بعض مواقع كتاباتها تتحدث عن عالم رواياتها: / في أشد العيون زرقة أعتقد أني استعملت إيماءات وبعض الحوار مما أذكره عن أمي في أماكن معينة وبعض الجغرافيا/.

عندما أحست بجدوى الكتابة، تواصلت معها وأخذت الأمر على محمل الجد بشكل أكبر بحيث اقترنت حياتها بالكتابة خاصة بعد احتفاء النقاد بها، ومنحها جوائز دولية ومحلية عديدة ومقارنتها بكبار الروائيين. ولعل روايتها «أغنية سليمان» فتحت لها آفاقاً رحبة للدخول إلى عالم الرواية بقوة، وقد فازت بجائزة مجموعة نقاد الكتاب الوطنية سنة ١٩٩٧ وهي ملحمة ريفية جعلت النقاد يقارنونها بأجواء غابرييل غارسيا ماركيز.

تأتي روايتها /سولا/ لتعطي نموذجاً حياً عن حالة الاغتراب في مجتمعها إلى درجة أن الصديقة وهي مع صديقتها القريبة تشعر بالاغتراب عنها، فـ سولا بيس تلتقي بـ نيل رايت في أوهايو، ومن خلال هذه العلاقة نتعرف على العزلة التي تفرض عليهما حتى من قبل الرجال، فلاتجدان من يشاركهما حياتهما.

إن توني موريسون تتعرض لأكثر المواضيع حساسية في كتاباتها وبالتالي تفتح صفحات

المجتمع الأمريكي بذكاء وخبرة ونضج، ودوماً تطرح العلاقة مابين البيض والسود نفسها بقــوة. ولعــل الأهمية التي تكمــن في هذا الطــرح هي أن القــارئ يستنتج بعد تفرغه من روايات موريســون أن الأفراد لايملكون إلا أن يكونــوا أبناء المجتمــع الذي يعيشون فيه ويتأثروا بمعطياته، وأي خلل في المفهوم الاجتماعي، أو في التركيبة الاجتماعية يدفع ضريبته هؤلاء الأفراد، وبالطبع فإن الكاتبة تكتب بجرأة عن وقائــع الحياة /الأفريقية الأمريكيــة/ كمــا تسميها ولذلــك عندما أثارت رواياتها /الفردوس/ نقاشات حادة في الأوســاط الثقافية والاجتماعية أجابت عن كل تلك الأسئلة بأنها لاتبالي مادامت تمسك بقلمها وتواصل الكتابة.

ترجمة التاريخي إلى الشخصي

وضعت توني موريسون بعض الشروحات حــول كيفية الكتابة لديها في كتابها النقدي /اللعــب في الظــلام/ وهو كتــاب يضيء جوانب هامة من أسلوبها السردي الروائي. تروي فيــه تفاصيل عمليــة الكتابة لديها، وممــا تقول: لقد كان ذلــك.. أردت ترجمة التاريخي إلى الشخصي، قضيت وقتاً طويلاً محاولة فهم ماجعل العبودية بتلك البشاعة، وبقراءة بعضــ الوثائق لاحظت الإشارة إلى شــيء لم يوصف أبدا بشــكل كاف: اللجام، ذلك الشيء الذي كان يوضع في أفواه العبيد لعقابهم وإخراسهم دون أن يمنعهم ذلك من العمل.

قضيــت وقتاً طويلاً محاولــة اكتشاف شكل ذلك الشيء.

كنت أقــرأ عبارات متكررة مثل: وضعت اللجــام في فم جيني، أو كما يقول إيكويانو: ذهبت إلى المطبخ ورأيــت امرأة تقف قرب الفرن وكان في فمها لجام. فقلت: ماذاك؟

فأخبرني أحدهم.

فقلــت: لم أر شيئــاً أرهــب من هذا في حياتــي كلها. لكنــي لم أستطــع تخيل ذلك الشيء.

هل كان كلجام الحصان أم ماذا؟

وتضيف موريسون موضحة بأنها تعتمد في بعضــ المواقع على وثائــق ووقائع لدعم مواضيعها: أخيراً وجدت بعض الاسكتشات في كتــاب /في هذا البلــد/ وقد كان سجلاً لتعذيب رجل لزوجتــه في أميركا الجنوبية، لكــن بينما كنت أبحث حــدث لي شيء آخر وهــو أنني اكتشفــت أن هذا اللجــام، أداة التعذيــب الشخصيــة هذه، كانــت الوريثة المباشــرة لمحاكــم التفتيشــ.. هناك مقطع يقول فيه بــول د.لسيثي: لم أخــبر به أحداً عنه، إنــه يحاول أن يخبرها عــن إحساسه بلبس اللجام، لكنــه ينتهي إلى الحديث عن

ديــك يحلف أنه ابتسم له عندما لبسه، لقد شعر بانحطاطه وأنه لايساوي ديكاً يقف في ضوء الشمس.

أشــير أيضــا بشكل متكــرر إلى الرغبة بالبصاق، بمص الحديــد وهكذا، لكن بدا لي أن وصــف الحالة سيصرف نظر القارئ عمــا أردته. أن يجــرب كيفيــة الإحساس بذلك.. ذلك النوع من المعلومات بين سطور التاريــخ، ويبدو وكأن أشياء كهذه تسقط من الصفحات.. إنه هنــاك عند ذلك التقاطع الحاصــل، عندما تصبــح المؤسســة شيئاً شخصياً، عندما يصبــح التاريخ أناساً لهم أسماؤهم.

سيدة الواقعية السوداء

يمكن ملاحظة بأن الخيال الأدبي يلعب دوراً بــارزاً في معظم روايــات هذه الكاتبة، وهـــي تستخدم في بعض مراحل الكتابة لغة شاعرية بالغــة الرهافة حتــى وهي تعالج موضوع التفرقة العنصرية، ولكن ماذا تريد أن تقــول هذه الروائية مــن خلال أعمالها الروائية؟

إنها تدعــو إلى أن يتعامــل الإنسان مع الإنســان بإنسانية بالدرجــة الأولى، وتدعو إلى أن يتعامــل الرجل مع المــرأة على أنها إنسانة وشريكة له في الحياة.

أمــا إذا مالت المرأة إلى طــرق ملتوية، فإن موريسون تحمّل الرجل سبب تخليه عن المرأة، بل إنها في جوانب أخرى تحمّل حالة التمييز العنصــري مسؤوليــة تفاقم الفقر والفاقــة، وبعض الميول الشــاذة لدى هؤلاء الذين يعانون بأنهم من درجة أدنى.

يمكــن تلخيص أن موريســون تدعو إلى /المجتمع المتماسك/ في واقع متفتت يعطي صــورة جميلة عــن شكله، لكنــه ينهار في مضمونه.

حققت موريسون مجداً أدبيــاً وانتشاراً واسعــا علــى قدر مــا تمسكــت بواقعيتها المحلية، و نجاحهــا في تصوير وتقديم هذه الواقعية للعالم.

موريسون تعد بطلة ورائدة للدعوة إلى أن يأخذ السود حقوقهم في كافة مواقع الحياة في المجتمع الأمريكــي، وأظن بأنها نجحت في وضــع تلك اللبنة بعــد كل هذه السنوات من العمل.

أقــول بوضوح بأننا نحتــاج إلى مشاريع ثقافية تنويرية تتفاعل على الواقع، أن نصل إلى بعضنــا البعض، أن نقرأ بعضنا البعض في مختلــف الأماكــن والمناسبات، ومن ذلك أرى أهمية تبادل الآداب والعلوم في المناهج الدراسيــة في مختلــف مراحلها بين طلاب المجموعتين،وهذا من شأنه أن يعرّف الطلبة بالثقافة المتبادلة.

كذلك يمكن العمل على برامج تخصصية من خلال الاتفاق مع قنوات فضائية عربية، وأفريقية تروّج لثقافة التلاحم، وتشير إلى علامات التقارب، وإلى بعض الوقائع والرموز في التاريخ العربي الأفريقي المشترك.

كما أرى أهمية وجود قناة فضائية ثقافية عربية أفريقية مشتركة بين الطرفين يعمل فيها ويديرها أهل الاختصاص من الدول العربية والأفريقية في وحدة عمل ثقافي مشترك.

ثم يمكن تعزيز العمل نحو ترجمة الآداب العربية إلى اللغات الأفريقية، والعكس، وكذلك إيصال المطبوعات العربية إلى منافذ البيع الأفريقية والعكس.

عقد اتفاقيات متواصلة بين اتحادات الكتاب العرب، واتحادات كتاب الدول الأفريقية بغية تبادل النشاطات الثقافية والملتقيات الأدبية، وإقامة الأمسيات والأصبوحات الثقافية، وكذلك توجيه الدعوات للأدباء والمثقفين من أجل الكتابة في الصحف والمجلات بين الأدباء العرب والأفارقة، وتخصيص بعض الملفات الثقافية الدورية التي تخص آداب وثقافات المجموعتين.

كما يمكن الاستفادة من الشبكة العنكبوتية في استقطاب الأقلام والمدونات العربية والأفريقية لتتلاقى في مواقع ثقافية واجتماعية وتواصلية تنشأ لتعزيز قوائم هذا البيت الثقافي العربي الأفريقي الرحب الذي يزيدنا تألقا وانفتاحا وقوة وحضورا في المشهد الثقافي العالمي.

الأمر الآخر الذي لا يقل أهمية هو تبني إصدار مجلة فصلية كبيرة تختص بنشر الأدب العربي والأفريقي، تُترجم إلى اللغة العربية، وكذلك إلى اللغات الأفريقية.

ويلحق مع كل عدد فصلي من هذه المجلة كتاب إبداعي، أو فكري لأحد أعلام أو أدباء الثقافتين.

إن العمل الثقافي كلما كان تكاملياً، كلما تمتع بالقوة والسيادة والحضور، وبالتالي اكتسب الاعتراف به من قبل الآخرين، وتمتع بكيان وبمكانة مرموقة إلى جانب الكيانات الثقافية في العالم، ومرة أخرى أبيّن بأن الكيان هنا هو البيت، هو الهوية.

هو الشخصية الثقافية المعتبرة، وأول ما يحققه لأبنائه هو أنه يبعد عنهم مشاعر الغربة واللاانتماء، وينمّي فيهم المشاعر الانتمائية، والوطنية، والإنسانية.

ترسيخ العلاقات الثقافية العربية الأفريقية

إن روح العلاقات الطبيعية بين الناس هي باب مفتوح كبير لولادة علاقات فرعية

أخرى تستند إلى طبيعية العلاقات المتبادلة بين هؤلاء الناس، وثمة مجتمعات تجد من الصعوبة التلاقي بسبب بعض الفوارق والمنعطفات التاريخية المزلزلة الكبرى التي حدثت بينها، ولكن ثمة مجتمعات يمكنها أن تمارس علاقات طبيعية بين بعضها البعض، وخاصة إذا كانت هذه العلاقات معرفية وتنويرية وثقافية، وإشادة كيان أو بيت ثقافي كبير مشترك للعرب والأفارقة يحتاج إلى ما يمكن تسميته بـ تعزيز أواصر التطبيع الثقافي بين مثقفي الجناحين، وكما أننا أبناء هذه الضفة نحتاج إلى أن تكون العلاقات بيننا وبين الدول العربية الإسلامية التي تقع في ضفة الجغرافيا الأفريقية طبيعية، فإننا كذلك نرى أن تكون العلاقة بيننا وبين سائر الدول الأفريقية بذات السوية العالية التي تربط بيننا، وذات الميثاق.

أن ننفتح على إيقاع تلك البيئة، ننفتح على تلك اللغات، تلك المفاهيم والأيديولوجيات، أن نغتني بالاطلاع على تلك التيارات الفكرية والثقافية والمعرفية، أن نشاهد الفلكلور، وإيقاع الرقصات والدبكات، وطقوس تفاصيل الحياة اليومية.

ولاأريد هنا أن أبسّط الأمور وأقول بأن الطرق جميعها سالكة، وسوف نمشي حفاة على طريق من حرير حتى نصل إلى بعضنا البعض كحالة وواقع ثقافي، لكن علينا أن نفكر بذهنية أكثر انفتاحاً، وأكثر نضجاً، ونمتلك شجاعة التجاوز عمّا قد يقف عائقاً بيننا، ولايكون الحوار الجاد بين المتفقين في الآراء فحسب، بل يكون أيضاً بين المختلفين فيها حتى يغتني كل مختلف بوجهة نظر المختلف الآخر، ذلك أن محطات الحوار بيننا هي أكثر من محطات اتخاذ المواقف المتشددة اللاحوارية، وأن وجود تلك الشخصيات التاريخية الكبرى من مختلف الميادين التي انطلقت من رحم وزخم هذه القارة البالغة الغنى، وقدمت لنا ولشتى شعوب الأرض عبر الحقب التاريخية، لهي قادرة أيضاً أن تقف إلى جانبنا اليوم في سبيل بناء هذا الصرح الثقافي التنويري الإنساني الطيب والذي فيه نفع وتلاقح للثقافتين.

إن قوة التطبيع الثقافي سوف تزيح الكثير من العوائق التي ربما تقع، فنحن على سبيل المثال عندما نقرأ ناظم حكمت، وعزيز نيسن، لانشعر بأننا نقرأ أدباً مترجماً، أو حتى ثقافة مترجمة، أو طبائع اجتماعية مترجمة، قدر شعورنا بأننا نقرأ أدباً انبثق بين ظهرانينا، وكذلك الأمر عندما نقرأ الشيرازي، والخيام لأن طبيعية العلاقات الثقافية بيننا حققت هذا التذوّق والتقارب الثقافيين.

أريد أن أنفذ إلى القول بأن مسار التطبيع -الذي هو موجود بالأصل بيد أنه يحتاج إلى قوة دفع بغية تفعيل كافة عروقه وتفرعاته- سوف يجعلنا نقرأ سلسلة الآداب والثقافات الأفريقية من شتى اللغات الغنية الألف وكأننا نقرأ نجيب محفوظ، والطيب صالح، ومالك بن نبي، وابن باديس، وهذا بذاته يتحقق عندما يقرؤون آدابنا مترجمة إلى تفرعات لسانهم، فينتابهم شعور بأنهم يقرؤون أدباً مكتوباً في ظهرانيهم.

عند ذاك سوف يكون بإمكان هذا الكيان الثقافي أن يتطلع إلى إنشاء خيوط أولى للإعلان عن جائزة أدبية عالمية كبرى لايقتصر منحها لأحد مبدعي الثقافتين فحسب، بل تمنح لهم ولسائر المبدعين في العالم كما هو الأمر بالنسبة للجوائز العالمية الرفيعة الاعتبار.

عندما نقول تطبيع فهذا يعني بأننا نريد أن نزيح الحواجز، التي تقف حائلا بيننا وبين من نسعى كي تأخذ العلاقة بيننا وبينه، وبيننا الصفة الطبيعية.

والأمر الطبيعي، هو خلاف الأمر غير الطبيعي، وحقيقة فإن العلاقات الإنسانية على سطح الأرض كلها عليها أن تأخذ صفة الطبيعية، لأن الإنسان هو ملك للإنسان، وليس هناك إنسان هو خارج المنظومة الإنسانية،

وكما يقول كانط، فلو كانت سعادة البشرية كلها تقف على قتل طفل بريء، لكان قتل هذا الطفل البريء عملاً غير أخلاقي، ولذلك فإن العلاقة الطبيعية بين العرب وأفريقيا هي علاقات ضرورية، وعلى الطرفين العمل الجاد للتغلب على عوائق طبيعية في هذه العلاقة الثقافية العربية الأفريقية لأن الثقافة هي البوّابة الكبرى إلى تطبيع سائر العلاقات الحياتية الأخرى، وإذا لم ننجح في تطبيع العلاقات الثقافية أولا، فإن الإخفاق سيحالف الخطوات الأخرى في الكثير من المساعي.

إن ما ييسر طبيعة العلاقات هو عدم وجود صراعات تاريخية أو معاصرة بين المجموعتين، وبالنسبة للعرب، فإنهم استطاعوا أن ينسوا الماضي مع الكثير من الدول التي احتلت دولهم لسنوات طويلة، واحتدمت بينهم حروب وصراعات طويلة، استطاعوا أن يتسامحوا، ويبنوا علاقات حديثة مع تلك الدول، والوطن العربي في غالبيته عانى سنوات الاحتلال.

وكذلك القارة الأفريقية عانت الاحتلال، ونجحت في تجاوز الماضي وبناء علاقات طبيعية مع الدول التي احتلتها.

إذا كان الأمر كذلك، فإن العلاقات الثقافية الطبيعية بيننا تتمتع بخصائص

ميسرة أكثر لأنها تستند على إرث الصداقة والعلاقات الإيجابية، ولا تستند على الاحتلال والنزاعات، فأفريقيا لم يسبق لها أن احتلت بلداً عربياً، والعرب لم يسبق لهم أن احتلوا دولة أفريقية، إننا نقف من ذلك على صفحات بيضاء.

قد يتساءل البعض عن جدوى بناء مثل هذا الكيان، الكيان هو البيت الكبير الذي يجمع أكبر عدد من الناس رغم اختلاف لغاتهم ومعتقداتهم، وطبائعهم، ولذلك فإن الناس عندما يدخلون هذا البيت سوف يشعرون بشيء من القوة الجماعية، ينتابهم إحساس بأن قوة الآخرين هي قوة لهم، وأن قوتهم هي قوة للآخرين في علاقة قوة تبادلية تكاملية.

إن الكيان من هذا المنظور، هو الواقع، وهو المستقبل، وهو حصانة ضد التنازلات الكبرى التي يمكن لثقافة ما أن تتعرض لها نتيجة هيمنة قوة أخرى، وكذلك حصانة للمبدع بشكل فردي لأن المبدع لم يعد يهمه التهميش الذي قد يتعرض له نتيجة مواقفه وأفكاره التي يؤمن بها.

من هنا، وبتقديري، فإن أول ما يحققه هذا الكيان لأبنائه وحفدته المثقفين هو تحقيق الحرية الإبداعية، وتحقيق نشر هذا الإبداع بسوية عالية، وبقدر ما يمارس المبدع حريته ضمن أركان هذا البيت، فإنه يشعر بقوة الانتماء إليه.

أمام هذا الواقع الثقافي الجديد الذي ستفرزه ولادة الكيان الثقافي العربي الأفريقي بشكله التفاعلي القوي، سوف تسعى الثقافات المهيمنة إلى التقرّب إلى هذا الكيان هذه المرة، بدل رفضها وتهميشها، وفرض شروط عليها.

سوف تعترف بها ككيان ثقافي عالمي مستقل، وسوف يستمد الكاتب العربي مشروعية عالمية من صلب هذا الكيان الثقافي.

إن الثقافة يمكنها أن تقدم الكثير للإنسانية، وهي تقف على تاريخ غاية في الغنى والعطاء، ودوماً فإن المشاريع الثقافية، هي مشاريع تنويرية تمد الجسور من أجل أن يلتقي الإنسان بأخيه الإنسان في رسالة أخوية مشتركة يغتني فيها الإنسان بالإنسان، ويكون الإنسان قريباً من الإنسان.



الدراسات والبحوث



الممانعة الثقافية للتنمية في العالم العربي

د. علي أسعد وطفة ⊙

يعــرف كانــط الثقافة «بأنهــا مجموعة من الغايات الكــبرى التي يمكن للإنسان تحقيقها بصورة حــرة وتلقائية، انطلاقا من طبيعته العقلانية»[1]. وهكذا تكون الثقافة في نظر كانط أعلى ما يمكن للطبيعة الإنسانية أن ترقى إليه وذلك عندما تأخذ الثقافة الإنسانية صورة فلسفة تنموية ترقى بالإنسان إلى أعلى ما يمكن للطبيعة الإنسانية أن ترتقي إليه من سمو أخلاقي وروحي. فالإنسان لا يصير إنسانا إلا بالثقافة، بل هو ما صنعت منه الثقافة.

⊙ أستاذ التربية في جامعة الكويت.

(ف) العمل الفني: الفنان عماد كسحوت.

فالإنسان يشكل غاية التنمية ومنطلقها في جميع الشرائع التنموية المعاصرة، وهذا يعني أنه يجب على العملية التنموية أن تخاطب البعد العقلاني والأخلاقي في الإنسان. وهذا يُلزم التنمية، في أية صيغة أو تعريف تأخذه، أن تتخذ الإنسان غايتها بوصفه الكائن الأسمى في الوجود. فغاية التنمية تكمن في تفجير الطاقات الإنسانية الكامنة في الإنسان وتحقيق مطلق الازدهار والتكامل في شخصه الإنساني. ومن هذا المنطلق فإن تنمية الجوانب المادية والاقتصادية والأمنية تشكل الإطار الموضوعي لهذه الأنسنة الثقافية التي لا تكون، ولا يمكن أن تكون، إلا فعلا ثقافيا يتجلى في منظومة من القيم الأخلاقية والإنسانية التي تحقق التوازن بين الإنسان والوجود.

الجوهر الثقافي للتنمية الإنسانية:

يقول دانييل باتريك موينيهان Daniel Patrick Moynihan إن «الثقافة هي التي تحدد وتقرر نجاح وتقدم المجتمع وليس السياسة»[٢]. فالثقافة تتفاعل جوهريا مع التنمية وتشكل المناخ الحيوي لكل فعل تنموي. وقد ألح ماكس فيبر على أهمية البعد الثقافي للتنمية والحضارة حيث كان يقول «إننا لو استطعنا أن نتعلم شيئا من تاريخ التنمية الاقتصادية فإن ذلك الشيء هو أن الثقافة هي التي تصنع كل التغيرات والاختلافات».

وتأسيسا على هذه الرؤية فإن الثقافة لا تلعب دورا حيويا في إنجاز التنمية الشاملة بنجاح فحسب، بل تشكل جوهر العملية التنموية ومحورها بوصفها دينامية إنسانية غائية يكون الإنسان فيها هدف التنمية وغايتها. وكان قد سبق لماكس فيبر أن أعلن عن هذه الغائية الثقافية في كتابه «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» عام ١٩٠٤، لقد ذهب في إعلانه هذا أن القيم البروتستانتية كانت منطلق التنمية الاقتصادية الحديثة في أوروبة، وأن النهضة الحضارية في أوروبة تدين للقيم البروتستانتية التي حضّرت المجتمع الغربي لنهضته الصناعية عبر القيم الثقافية الجديدة التي أوجدتها في مجال العمل والزمن والمسؤولية والمغامرة والمطالعة والتثقيف.

ومهما يكن الأمر فإن التنمية تأخذ جوهرها في مضمونها الثقافي، حيث يرتهن نجاحها أو إخفاقها بالمضامين الثقافية السائدة في المجتمع، ولاسيما في منظومته القيمية في العادات والتقاليد السائدة فيه، وفي معايير الفلسفات التي تحدد

موقف أفراده من الحياة والوجود. وتأسيسا على هذا التصور أرجع ماكس فيبر نجاح عمليات التحديث التي شهدتها أوروبة والعالم الجديد في عصر النهضة إلى القيم التي رسختها البروتستانتية كقيم: الفردية، والادخار، والنجاح، والربح، والمغامرة، والإحساس بالمسؤولية، والنظرة الائتمانية، وكانت هي القيم التي شكلت الجدار الاستنادي للتطور الاقتصادي والاجتماعي الذي شهدته المجتمعات الأوروبية في عصر النهضة، وكانت مرتكزا للثورة الصناعية الكبرى ومؤثلا للنظام الرأسمالي الجديد. ومن هذا المنطلق الحيوي، لأهمية التكوينات الثقافية والقيمية، يدعو عالم الذرة الباكستاني عبد القادر خان، المشرف على برنامج باكستان النووي، الدول الإسلامية للمزيد من الإنفاق في مجال الثقافة والتعليم حيث يقول «كنت أكرر دائما وما زلت أكرر بأن على العالم الإسلامي أن يتجه نحو الاستثمار في الثقافة والتعليم وفي رأس المال البشري إذا أراد أن يسترجع هيبته المفقودة وحماه المستباح. فالتعليم في الإنسان وتشكيل الإنسان وفقا



لروح ثقافية جديدة يمثل رأس المال الذي يجب إنماؤه والسهر عليه بوصفه الثراء الذي لا يضاهيه ثراء في العالم المعاصر»[٣].

الممانعة الثقافية للتنمية في الوطن العربي:

تشكل الثقافة الجدار الاستنادي لأية عملية تنموية، ولا يمكن لأية محاولة تنموية أن تحقق أهدافها ما لم تنطلق من الثقافة

وترتد إليها في صيغة تفاعل بين الغايات والوسائل، بين الإنسان كغاية ثقافية عليا، وبين متطلبات وجوده المادي والمعيشي، حيث تكون الثقافة منطلقا للعملية التنموية ترسم لها غاياتها وأهدافها من أجل التحضير لعملية بناء الإنسان في أكمل وجه وأبهى صورة.

لقد أصبح من الصعوبة بمكان تحقيق نجاحات فعلية في مجال التنمية من دون التركيز على البعد الثقافي للعملية التنموية، فثقافة التنمية تشكل مهمازا لانطلاق الحداثة والتقدم والحضارة. وهذا يعني أن الثقافة الحقيقية -أي ثقافة الانطلاق- تشكل الضمان الحيوي للعملية التنموية والحضارية برمتها.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: ما الثقافة التي يمكن أن يعوّل عليها في عملية التنمية الإنسانية المنشودة؟ وفي معرض الإجابة عن هذا السؤال الجوهري، يميّز الباحثون بين نمطين من الثقافة، أحدهما يحضّ على التنمية ويعزز مسارها، بينما يكبح الآخر متطلباتها ويعرقل تقدمها. فهناك ثقافات دينامية تتميز بقدرة عناصرها على الحركة والتوالد والانتشار خارج إطارها الجغرافي، حيث تتميز بقدرتها على الإقناع والتحدي وتلبية حاجات الأفراد. وهناك ثقافات تقليدية، وهي ثقافات جامدة منغلقة مناهضة للتغيير متشبعة بعناصر قيمية مضادة للتنمية والتطوير، كالتواكل، والاتكالية والتعصب، والعصبية، والجمود، والسلفية، والقداسة والقدسية، والتقشف والتصوف، والتمييز العنصري والاجتماعي، والإيمان بالسحر والخرافة.

هذا وتبين الدراسات الجارية حول التجارب التنموية في مختلف أنحاء المعمورة، أن البيئة الثقافية قد تمارس دورا سلبيا يعطل عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ويضعف مسارها، وقد تُشكل هذه البيئة نفسها مناخا مواتيا ومشجعا لنجاح العملية التنموية.

لقد مارست الثقافة التقليدية دورا سلبيا في عملية منح الحقوق السياسية للمرأة في كثير من البلدان العربية والإسلامية، حيث كان القرار السياسي بمنح المرأة حقوقها السياسية، متقدما على الثقافة التقليدية السائدة في المجتمع، أي هذه التي تبخس المرأة هذه الحقوق؛ ولاحظنا بأن صدور التشريعات الخاصة بالحقوق السياسية للمرأة قد مرّ في أتون عاصفة كبيرة من الجدل السياسي والثقافي في كثير من البلدان العربية انتهت أخيرا بانتصار المدّ الحضاري لحقوق المرأة السياسية، ومع أن

المرأة تتمتع اليوم بحقوقها السياسية تحت الضغوط السياسية للدولة، فإن الدراسات تبين بأن وصول المرأة إلى المجالس النيابية والمناصب الوزارية ما زال يعاني من مقاومة كبيرة لثقافة استلابية راسخة ورافضة لحقوق المرأة في العمل السياسي التشريعي.

وفي هذا السياق، يرى كثير من المفكرين، بأن هيمنة الثقافات التقليدية تعيق عملية التنمية الحقيقية وتؤدي إلى استمرار التخلف والجمود، وقد وصفت هذه الثقافات التقليدية بالغيبية أو القدرية أو السلبية أو الأبوية أو السلطوية أو التواكلية، ووفقا لهذا التصور فإن الثقافة التقليدية تشكل ثقافة الممانعة بامتياز بوصفها ثقافة جامدة منغلقة ومتشبعة بعناصر قيمية مضادة للتنمية كالتي أشرنا إليها مثل: التعصب والعصبية والجمود والسلفية والتقشف والتصوف والتمييز الاجتماعي والإيمان بالسحر والخرافة.

وعندما ننظر إلى الثقافة العربية من منظور أنثروبولوجي، أي، بوصفها مجموعة قيم وتصورات ومفاهيم وعادات وتقاليد ومعتقدات ومعايير ورؤى وذهنيات ومواقف، سنجد بالتأكيد أن العناصر المعطلة للتنمية والمقاومة للنهضة تسود وتهيمن وتسيطر على العناصر الحافزة والميسرة للعملية التنموية وتبزها.

وتتمثل الأزمة التنموية الثقافية العربية في التناقض ما بين القيم والعادات والتقاليد ومتطلبات التنمية الشاملة، فالثقافة التقليدية، المشبعة بعناصر ثقافية مضادة للتنمية، تناهض أي فعالية تنموية وتتناقض مع معطياتها، وذلك لأنها تمثل نمطا من وعي التخلف في جوهرها وبنيتها الأنثروبولوجية، وهذا ناجم عن وضعية التخلف الفكري الراسخ في الحياة الاجتماعية التقليدية الذي يتبلور في نسق من القيم والعادات والتقاليد السلبية التي تعرقل مسار النماء الإنساني في مستوى الفرد والجماعة والمجتمع. ويمكن تفسير هذه الوضعية بما تركته عصور الانحطاط الطويلة من مفاهيم متخلفة ومن مقومات نفسية واجتماعية تحول دون التقدم. من مثل التواكل، والتفسير السحري للأشياء، وسيطرة الشكل والمظهر على المضمون والجوهر في شتى جوانب السلوك، وتعطيل دور المرأة، وسيادة التسلط والقسر والإحجام عن العمل اليدوي وغياب النزعة العقلانية، وغير ذلك من أنماط السلوك السلبية في المجتمع(٤).

يعلن عدد كبير من المفكرين العرب في هذا السياق عن هيمنة كبيرة لثقافة الممانعة في مختلف البلدان العربية، وتتمثل ثقافة الممانعة في أنماط الثقافات التقليدية التراثية الماضوية العشائرية القبلية التواكلية التي تنطوي على عناصر ثقافية مضادة لعملية الأنسنة والتنمية بمختلف تجلياتها وتنوعاتها.

وفي هذا الصدد يقول أحمد مجدي حجازي: «في المجتمعات العربية نجد ثقافة غير مبدعة لا تقوى على خلق فكر اجتماعي مستقل قادر على التجديد على رغم وجود مظاهر التحديث المادي مثل: زيادة أعداد المتعلمين، وتنامي ظاهرة الاستهلاك الترفي، بل إن قيم الثراء أصبحت قيما كمية لا نوعية، حيث أصبح الثراء سلطانا على الثقافة والمعرفة والقيم»[٥]. فالشخصية العربية شخصية تقليدية محافظة نتيجة لهيمنة القيم الاجتماعية القبلية والعشائرية المضادة للحضارة والمدنية، وقد أدت عوامل التغير السريع إلى تشويه القيم الإيجابية في الشخصية العربية فتحول الكرم إلى تبذير، والرجولة إلى رفض لدور المرأة في المجتمع، والاعتدال إلى تطرف، والجدّ إلى الكسل، والتوكل إلى تواكل، وقوة العزيمة إلى مهادنة، والاعتماد على الذات إلى الاعتماد على الغير. ومثل هذا التصور نجده لدى علي خليفة الكواري الذي يقرّ بوجود أزمة قيم في الخليج العربي تتمثل بظهور قيم جديدة قوامها استشراء الروح الاتكالية، والانتهازية، والارتزاق، والمضاربة، والبطالة المقنعة، وشعور اللامبالاة، والانغماس في ماديات الحياة على حساب إمكانيات السمو المعنوي والأدبي للأفراد والجماعات[٦].

«فالثقافات التقليدية العربية ما زالت تدور في فلك المحافظة والجمود الثقافي على الرغم من طفرات التنمية الاقتصادية، والحق يقال إن ظاهرة المحافظة ورفض التغير والتجديد من أخطر ظواهر التخلف وأعمقها لكونها ظاهرة يصعب تغيرها، ذلك أنها تضرب بجذورها في أعماق حياة الإنسان إذ ترتبط بما ألفه الفرد وما عرفه وما تأصل فيه، وبما ألف آباؤه وأجداده وعرفوه، وتحمل بالتالي جانبا من القدسية أو ضربا من نشوة الحنين إلى الماضي».[٧]

والثقافة الخليجية كنموذج لثقافة عربية، تنطوي على مجموعة من القيم والمعايير والبنى الذهنية التي تناهض عملية التنمية ومنها: رفض العمل اليدوي والحر ولاسيما أعمال المخابز والمتاجر وخدمة الآليات وأعمال النظافة وغيرها[٨]. فكيف تكون التنمية في مجتمع يرفض القيام

بخدمة نفسه وأداء الأعمال الحيوية في مجال الحياة الاجتماعية.

وفي هذا الخصوص، يرى فوستر Foster George في أبحاثه حول الثقافات التقليدية وصدمة التغير التكنولوجي والحداثي، أن القيم والاتجاهات الثقافية التقليدية مثل: الكبرياء والكرامة والتمركز حول الذات، تشكل أخطر المعوقات في وجه النماء الحضاري لهذه المجتمعات[٩].

يقول أحمد خضر أبو هلال مؤكدا الدور السلبي للثقافة التقليدية «الإنسان التقليدي يخضع للطبيعة، ولا يعشق التغيير بل يخشاه، إنه يؤمن بالسحر والغيبيات، ويرغب في الابتعاد عن السلطة وعن مراكز المسؤولية، إنه متواكل إلى درجة التخاذل ولا يبحث في المستقبل لأنه يعيش بالماضي وينعزل به[١٠]. وعلى خلاف ذلك فإن الإنسان في المجتمعات المتطورة نشيط يحب العمل وتحمل المسؤولية، ويخطط للمستقبل ويعتقد بإمكانية التحكم فيه، يؤمن بالتغيير ويعشق المغامرة»[١١]. ومما لا شك فيه أن التكوين الثقافي للإنسان العربي تقليدي فرضته عوامل وظروف تاريخية ضاربة الجذور والأبعاد، وهذا يعني أن الثقافة السائدة في الغالب هي ثقافة ممانعة لعملية التنمية الحقيقية التي يجب أن تكون في هذه المراحل التاريخية من تطور هذه المجتمعات.

فالثقافة العربية التقليدية السائدة «ثقافة خرافية تميل إلى الإعجاز أكثر من ميلها إلى العلم، وتميل إلى الاستسلام أكثر من ميلها إلى المنحى التحريري... والبرجوازية العربية تشيع هذا النمط الخرافي من التفكير وتساعد على بثه بهدف إضعاف الفكر العلمي لدى الطبقات الشعبية، فيسهل تخويفها والسيطرة عليها»[١٢].

وباختصار يمكن القول بأن الثقافات التقليدية السائدة في العالم العربي قد غرست نسقا من القيم السلبية المناهضة للتنمية مثل: الخضوع للأمر الواقع، القدرية، الاتكالية، القبلية، العشائرية، الطائفية، القبول بما هو قائم، وأن هذه الثقافات تعمل على تجريد الفرد من روح المبادرة، وتغييب حس المسؤولية، وإضفاء الطابع القدسي على أغلب جوانب الحياة وتغيب الروح النقدية.

مفارقة النمو والتنمية:

لقد شاع في العالم العربي ولاسيما في الخليج العربي عدد كبير من مظاهر التحديث الذي اتخذ صورة من التسابق في تشييد الأبراج العملاقة الشاهقة كأبراج دبي، وبناء منشآت ضخمة هائلة،

ومبـاني رائعة تأخذ أحـدث أشكال وطراز العمـارة الأجنبية الحديثـة، وفي التأسيس للمجمعات التجارية التي تفوق ما عداها في أوروبة وآسية. لقـد انطلقت هذه التغيرات الحضارية المادية الهائلـة بوتائر متسارعة دون أن يرافقها تنمية ثقافية وعقلية وذهنية في الكيان الاجتماعي وهذا قد ولد شروخا وتصدعات كبيرة في بنية الحياة الحضارية بين ثقافـة تقليدية ساكنة جامدة، وبين نمو مالي واقتصادي بنيوي هائل متسارع يتميز بالعمق والشمول، وقـد أدت هذه الوضعية إلى انشطـار كبير بين الوعـي الاجتماعي والتقـدم المـادي بين ثقافـة تقليدية ونقلة حضاريـة مادية نوعية تفوق حدود الوصف من حيث قوتها وسرعتها وتقدمها، وأخذت الحضارة صورة ماديـة صنعية لا روح فيها ولا معنى أو دلالة إنسانية.

وإذا كان العلم يشكل وعيا بالحضارة، فإن النقلة الطفرية النوعية للنمو الاقتصادي في العـالم العربي لم يترافق حتـى اليوم بتوطين العلـم والمعرفة العلميـة، أو بتكوين العقول والخـبرات الوطنية المبدعة كما يجب حيث بقـي العقل الأجنبي هو مبتدأ هذه النهضة وخبرها.

ولو سألنا اليوم مَن المهندسون والخبراء الذين قامـوا بتشييـد أبراج دبـي والمآثر العمرانيـة في العالم العربي؟ لمـا تردد أحد بالإجابة قـولا بأن الخـبرات والعقول هي خبرات وعقول أجنبيـة بامتياز، فهم ليسوا عربـا أو خليجيين على الأغلـب، فالأبراج والمنشآت صناعـة أجنبية ونحن نفخر بكل مـا هو أجنبي ولا فخر. وأريد هنا أن أسوق مثالا يوضح هذه المفارقة بين برج دبي وبين برج إيفيل في فرنسا، فعندما تصعد إلى برج إيفيل ترى أن الفرنسيين يفتخرون بمهندسهم إيفيـل أكثر بألف مرة من البرج نفسه ككيان مادي، أي أنهم يفخرون بالعبقرية الفرنسية في مجـال الهندسة العمرانيـة، وليس ببرج إيفل نفسه، وقد خصصـوا في البرج مكانا شامخـا للمهندس وزوجتـه ومساعديـه وظروف عملـه وتاريخه، وذلك هو الجانب الأهم ربمـا في برج إيفيـل، فهل نجد مثل هذا في الأبراج العربية التي تصدم الخيال بقوتها وعظمتها؟

لـو كان الأمر في مساره الصحيح لوجب علينـا أن نفخر بعـدد العلمـاء والمبدعين والمفكريـن من أبنـاء الوطـن والمؤسسات العلميـة والفكريـة والأكاديميـة الوطنية التـي يمكنها أن تنهض بالتنمية الحقيقية وأن تتجـاوب لمتطلباتهـا. ولو كان من فخر لكان علينـا أن نعمل علـى توطين المعرفة والخبرات العلميـة واستثمار بعض المال في

بناء العقول والأدمغة والخبرات الوطنية التي تشكل مبتدأ النهضة وخبرها. لو كان علينا أن نفخر! لكان علينا أن نفخر بعملية بناء الإنسان العربي والاستثمار في بنائه الثقافي على صورة الإنسان الفاعل المبدع المخطط المنتج المغامر الخلاق الذي يرسم الحضارة ويؤمن بالقيم الخلاقة المؤسسة للنهضة الإنسانية وهنا تكمن روح الحضارة وعبقريتها.

تنمية مشوهة: صدام التحديث والحداثة.

لقد عملت الدول العربية منذ عهد الاستقلال، على تحديث مجتمعاتها وتنميتها، وقد شهدت هذه المجتمعات في حقيقة الأمر عملية تنموية اقتصادية وعمرانية لا مثيل لها، فرضتها عوامل متعددة أهمها الوفرة الاقتصادية المتمثلة في الثروة الطبيعية لهذه البلدان، ورخص اليد العاملة. واستطاعت هذه البلدان، ولاسيما الخليجية منها، خلال عقود قليلة أن تؤسس لعملية نمو عمراني واقتصادي واضحة المعالم، وأن تنتقل بمجتمعاتها - في مستويات التطور العمراني والمادي- عبر عملية حرق المراحل من مجتمعات بدوية صحراوية إلى مجتمعات تضاهي أحدث دول العالم عمرانا وبناء ومؤسسات لتختصر مسافات حضارية بلغت مئات السنين بمقاييس الحضارة الإنسانية، حيث أصبحت المنشآت الاقتصادية والمالية والتجارية تضاهي باريس ولندن وروما. ولكن المشكلة هي أن هذه النقلة الحضارية لم ترافقها نقلة حضارية فيما يتعلق بالحداثة الفكرية والثقافية، حيث بقيت الثقافات التقليدية البدوية المحلية والصحراوية تحتل مكان الأهمية والصدارة في الحياة الاجتماعية دون تغيير يذكر. بل وعلى خلاف ذلك كله فإن المؤشرات الثقافية تدل على أن حركة التجديد هذه قد أدت إلى تحديث القديم وتطويره من دون تغييره جذرياً، وما يراد بهذا القول إن ثمة قيم تقليدية ممانعة قد وجدت نوعا من التأصيل تحت ضغط مبررات أيديولوجية متعددة أبرزها قيم الانكفاء والانغلاق والعودة إلى النماذج الأصولية[١٣].

فالوطن العربي يعيش حالة تناقض وانشطار وجودي كبير، يتمثل في التصادم بين أحدث مظاهر الحياة الحضارية الغربية المتقدمة، وبين ثقافات تقليدية ما قبل صناعية تحكمها الروح القبلية السابقة للحضارة بمعاييرها وقيمها وتجلياتها المختلفة، وهذا يعني وجود انشطار كبير بين روح الحضارة وكينونتها المادية، ومن الواضح أن هذا التناقض يمثل صورة المفارقة القائمة

بين منتهى التقدم الحضاري ومبتداه، حيث يأخذ هذا التناقض في وجهه صورة ثقافة تقليدية من غير أسس مادية، كما يأخذ في وجهه الثاني صورة حضارة مادية من غير أسس ثقافية حداثية. وهذا التناقض المزدوج يولد بالضرورة مشاعر التناقض الكبير والتصادم الثقافي الذي يؤسس لأزمة هوية تتسم بالعمق والشمول.

فالإنسان العربي يعيش خصوصياته الثقافية التقليدية حتى العظم في الوقت الذي يرفل فيه بمعطيات الحضارة الغربية حتى الثمالة، فنحن كما يقول علي حرب «عرب أو مسلمون فيما يتصل بالمقدسات والمحرمات؛ ولكننا غربيون فيما يتعلق باستيراد الأدوات والسلع والصور والمتع التي توفرها أجهزة الفيديو وأفلام البورنو... أي في كل ما يتصل بمادة الحياة وأسباب الحضارة»[١٤]. فثقافة الحداثة تركز على العقلانية والفردية والإيمان بالعلم والقيم الديمقراطية، أما ثقافتنا التقليدية فهي ثقافة ما قبل الحضارة الزراعية ثقافة البداوة، وهي ثقافة جمعية عاطفية ترفض مبدأ الفردانية وتستمد نسغ وجودها من الإيمان بالأساطير والخرافات والقيم التقليدية التي لا تتوافق مع قيم الحضارة المادية الغربية.

لقد عبر أحد الكتاب العرب خير تعبير عن هذا الانشطار وتلك الإشكالية في طبيعة العلاقة بين الحداثة والتحديث بين النمو والتنمية حيث يقول: «في القبيلة تسود قيم قد لا تتماشى مع كينونة الدولة وتراكيبها، فقيم الدخالة والعصبية والفزعة والنخوة والفخر والهجاء والطاعة والنصر والحماية والحلف وغيرها من قيم القبيلة لا يمكن أن تتحمل فكرة الدولة العصرية وتواجدها». وفي إشارة منه إلى واقع التطور في الكويت[١٥] يرى النفيسي - وهذا الرأي يعود إلى مرحلة الثمانينات من القرن الماضي ولكنه برأينا ما زال يحمل دلالة معاصرة تشمل معظم دول الخليج العربي ما زالت في طور الانتقال من كونها القبلي إلى كونها العصري في شكل الدولة. حتى الآن لم تحقق (بعض هذه الدول) العبور الكامل من القبيلة إلى الدولة[١٦].

إنه لمن البساطة بمكان القول بأن التنمية الحقيقية تقاس بمدى حضور القيم الثقافية التنموية في سلوك الناس، ومدى تجليها في أنماط حياتهم ووجودهم، ووفقا لهذا المعيار يمكن القول بأن ثقافة التنمية في مجتمعاتنا لا تأخذ موقع الهيمنة في الحياة العامة للناس، فأنماط السلوك ما زالت تستمد وجودها من ثقافات تقليدية

قبليـــة إثنية أو طائفيـــة وإقليمية في غالب الأمـــر، ويتمثل ذلك في ضعف الولاء للدولة وقيمهـــا بالمقارنـــة مع قيم الـــولاء للطائفة والقبيلة وغيرها من الولاءات الصغرى. هذا وينبئنا واقع الحـــال أن التنمية لم تتجز بعد كثقافة حيـــاة ووجود وبقيت تنمية تنظيمية للحياة مرهونة بمؤسسات الدولة وقوانينها وممارساتها اليومية.

وهذا يعني أن التنمية الحقيقية في العالم العربي ما زالـــت في أمس الحاجة إلى دمج النبضة الوجدانيـــة والروحية الحداثية في بنية الحياة المادية والاقتصادية، وباختصار يمكـــن القول هنـــا إن هـــذا الانشطار بين الحضـــارة المادية وروحها يشـــكل التحدي التاريخـــي الأول الذي يواجـــه عملية تنمية وطنية حقيقية متكاملة وشاملة، حيث تعمل هذه التناقضـــات الكبرى، ما بـــين الثقافة التقليدية البدوية الشرقية والحضارة المادية الغربيـــة، على توليد مشاعر القلق والضياع والتوتـــر في العمـــق الإنســـاني للإحساس بالهوية والانتماء. وأخيرا فإن المصالحة بين روح الحضارة وجسدهـــا، يشكل اليوم أحد أكبر وأهـــم وأخطر التحديات التي تواجهها المجتمعات العربية، ولا تكون هذه المصالحة إلا بترسيخ ثقافة العقلانية والروح التنويرية التي يمكنها أن تشكل منطلق هذه المصالحة الحضاريـــة مع الـــذات والوجـــود والهوية. وعلى هـــذا النحو فـــإن العـــرب مطالبون اليوم باستخدام الطاقة النقدية والعقلانية والديمقراطيـــة، مطالبـــون بتوظيف العلم والمعرفـــة العلميـــة، وتوظيـــف كل القيـــم الإنسانيـــة الخلاقـــة في مواجهـــة تحديات التنميـــة وغيرهـــا مـــن التحديـــات الكبرى للمحافظة على الهويـــة والكينونة والوجود وتحقيق تنمية شاملة متكاملة.

فثقافة التنميـــة تحتاج إلى «عقل منفتح غـــير متعصـــب، ونقـــدي يقبـــل الاختلاف ويتبع الاختلاف، ويسعى للاتفاق على أسس مقبولة عقلية وعقلانية، فنحن إذا محتاجون إلى تفتـــح فكري إلى روح نقدية، ومحتاجون إلى فكر يحارب الإحبـــاط الذي في أنفسنا أو الـــذي في نفوس بعضنا»[١٧]. إننا «بحاجة إلى التحديـــث والانخـــراط في عصر العلم والثقافـــة كفاعلين ومساهمـــين. كما نحن بحاجـــة أيضا إلى مقاومـــة ثقافة الاختراق وحمايـــة هويتنـــا القوميـــة وخصوصيتنـــا الثقافية من الانحلال والتلاشي تحت تأثير موجـــات الغزو الثقافي الـــذي يُمارس علينا وعلـــى العالم أجمع بوسائـــل العلم والثقافة. والوسيلـــة في كل ذلك واحـــدة هي اعتماد الإمكانيات اللامحدودة التي توفرها العولمة نفسها، أعنـــي الجوانب الإيجابية منها وفي مقدمتها العلم والتقانة»[١٨].

ثقافة الانطلاق:

لقد رَسخ في مختلف التجارب التنموية أن رأس المال وحده لا يمكنه أن يكون كافيا في العملية التنموية، أو حتى في عملية الإنتاج ذاتها، وبات واضحا أن النشاط الذهني بمادته وقدراته المعلوماتية هو أساس الإنتاج في حين أصبح رأس المال مجرد عنصر من عناصره، وهو بذلك قد فقد عنصر الأولوية الرئيسية كما كان الاعتقاد في العصر الصناعي[١٩]. وقد كان للاقتصادي الإنكليزي آدم سميث فضل السبق على معاصريه في الإشارة إلى أهمية رأس المال البشري ودوره في الدخل الاقتصادي القومي، والذي سبق له القول: «إن الرجل المؤهل علميا يمكن أن يقارن بإحدى الآلات المتطورة والحديثة والمكلفة في مجال الإنتاج والتوظيف والاستثمار»[٢٠]. وهذا يعني أنه لا يمكننا أن نتحدث عن تنمية حقيقية من دون الاستثمار في مناجم العقول وبناء البشر، وهو ما لا يتم من دون التطوير الجذري للتعليم كي يصبح تعليماً منتجاً للمعرفة ومنتجاً للثقافة، وكي يكون سلاح الأمة الذي تواجه به كل تيارات الغزو الثقافي ومحاولات التغريب وطمس الهوية وهو صمام الأمان في أمنها الثقافي ومستقبلها[٢١]..

إن أخطر ما يمكن أن يستقر في العقل العربي هو الاعتقاد بأن توافر المال والرجال يضمن في حد ذاته مستقبلا مشرقا للعالم العربي، وهذا يعني أن البلدان العربية في الخليج العربي وغيرها تحتاج إلى ترسيخ ثقافة تنموية جديدة تنهض بالإنسان والمجتمع ثقافة تنموية تقوم على أنقاض الثقافة التقليدية المناهضة للتقدم والتنمية وتتجاوزها. فكل النهضات الإنسانية المعروفة تاريخياً بدأت بنوع من الثورة الإبيستيمولوجية التي غيرت من نظرة الإنسان إلى نفسه ومجتمعة وإلى العالم من حوله، سواء تحدثنا عن النهضة الإسلامية أو النهضة الأوروبية أو النهضة اليابانية، ابتدأت هذه النهضات بثورة إبيستيمولوجية غيرت من العلاقة الذهنية بين الكائن والمحيط الذي يعيش فيه فكانت النهضة والإبداع والعقل الخطابي[٢٢]. لم تتم نهضة في التاريخ إلا وكانت مسبوقة بثورة إبيستيمولوجية غيرت من نسق القيم والمفاهيم والتصورات السائدة في هذه المرحلة أو في ذلك المجتمع.

وهذا هو حال الثورة الثقافية التي شهدتها الصين، في عصر ماوتسي تونغ في السبعينات من القرن الماضي، أي عندما أعلن ماوتسي الثورة على الثقافة التقليدية

القديمة الممانعة لنهضة الصين وحركتها، وأسس لخارطة ثقافية جديدة تعلي من قيم العمل والجد والنظام وترفض قيم الاتكالية والهزيمة والكسل والقداسة والخرافة والسحر والشعوذة من أجل بناء ثقافة تنموية كبرى تمهد لعملية النهضة الحضارية الشاملة. وهذا هو حال الصين اليوم أمة تفوق الأمم في مدى قوتها وحضارتها وعظمتها.

ونحن في العالم العربي اليوم في أشد الحاجة لثورة ثقافية جديدة من أجل بناء ثقافة تنموية تنطلق بنا جميعا إلى مشهد حضاري إنساني يسمو بالأفراد والمجتمعات إلى آفاق حضارية إنسانية جديدة.

ومن أجل بناء هذه الثقافة أي ثقافة الانطلاق، يمكن «للتعليم أن يلعب دورا كبيرا في تصحيح الخلل الذي يعانيه نسق القيم الراهن، وإرساء قيم تنموية واتجاهات مجتمعية تساعد المنطقة على مواجهة التحدي الذي أفرزه تصدع القيم المتعلقة بالعمل والإنتاج من تغييب الارتباط بين الحوافز والإنتاج، والجهد والإنتاجية، وتراجع القيم المعنوية والمجتمعية لصالح القيم المادية والفردية والأنانية ولاسيما نمط الإنتاج التفاخري الراهن[٢٣].

إن تغيير الذهنية لا يمكنه أن يكون تحولا شكليا يتم من الخارج، بل هو حالة تغير ذاتي تتم في داخل الجسد الاجتماعي، وهذا يعني أن إحداث التحول في داخل الذهنية لا يمكنه أن يكون تحولا في الثقافة بل هو تحول في داخل الثقافة نفسها. ومن أجل ذلك يجب البحث في الجذور الثقافية عن مفاتيح التغير في الذهنية. إن تغيير الذهنية يعني تنشيط منطق ثقافي مضمر من أجل تعزيز طرق جديدة في التفكير عن طريق القيم والمشاعر.

إن الثقافة التي تقتضيها هذه المرحلة التاريخية هي الثقافة العلمية، ثقافة الانطلاق التي ترتكز إلى العقل والتجربة والحرية والقيم الإنسانية الخلاقة، إنها الثقافة التي تنطوي على قيم الحق والخير والعدالة والجمال، ثقافة الإيمان بقيمة العمل والإبداع والمغامرة، ثقافة الرفض لجميع مظاهر الترف والإسراف والمباهاة والاستهلاك والتملك والتزلف والتصنع والاستكبار والغش والخداع والواسطة والمحسوبية والفساد والمفاخرة والاعتزاز والفزعة والتعصب والانكسار واحتقار المرأة والمتعة، إنها ثقافة المواطنة والإيمان بالوطن، ثقافة العدالة والتضحية والمعرفة والإيمان بالعلم رفضا للخرافات والسحر،

إنها باختصار ثقافة النهضة بل ثقافة الانطلاق في مواجهة ثقافة الممانعة والجمود والانغلاق.

إن تنمية حقيقية في العالم العربي يجب أن تأخذ اليوم توجهات ثقافية بالدرجة الأولى، لقد حققت هذه الدول انتصارات هائلة في مجال تراكم الثروة والمال، وانعكس ذلك على مختلف مظاهر الحياة في الصحة والدخل والتعليم والخدمات، ولم يبق أمام الشعوب العربية غير التنمية الثقافية، وهي تنمية في البشر والإنسان، وتلك هي التنمية التي تشكل أسّ الحضارة الحقيقية ومنطلقها، وهذا كله لا يتحقق إلا بإرساء قيم العدالة والحق والخير والحرية والمساواة والإيمان بالقيم الإنسانية الخلاقة جميعها.

فالتنمية الحقيقية التنمية الشاملة تحتاج اليوم إلى تثوير العادات والتقاليد لتنسجم مع معطيات التنمية ومتطلبات الحضارات ودواعي التقدم الإنساني، وهذا يتطلب بالضرورة رفض منطق التعصب والتحزب والمباهاة والإسراف والبذخ والتبذير والتبديد واللامبالاة، إذ لا بد من تنمية الإحساس بالمسؤولية والإيمان بالوطن فوق كل الانتماءات، وبناء الإنسان على قيم التسامح والمواطنة، ورفض الطائفية والعشائرية والانتماءات الصغرى، والإيمان بقيمة العمل اليدوي والفكري والإنساني، والنظر إلى الكون بعقلانية راسخة وإيمان عظيم، وتلك هي صورة عامة لثورة ثقافية تنموية خلاقة تقتلع أورام التخلف وتطهر الثقافة الوطنية من أعشاب الثقافة المرضية التي تثقل على الحياة والوجود في مجتمعاتنا العربية.

الهوامش

1- Kant , critique de la raison pratique trad. J.Giblin. Paris , 1965.

٢- أحمد أبو زيد، الثقافة: الإنسان والتنمية، بحث منشور على موقع المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مهرجان القرين الرابع عشر.

www.kuwaitculture.org/qurain14/word/drahmed_bozed.doc

٣- محمد عباس نور الدين، التمويه في المجتمع العربي السلطوي، قراءة نفسية للعلاقة بين الذات والآخر، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٠، ص ١٢٤. (عن صحيفة الحياة تاريخ ١٩/٥/١٩٩٨، ص٦).

٤- عبد الله عبد الدايم، العرب والعلم بين صدام الثقافات وحوار الثقافات، المستقبل العربي عدد٢٠٣، كانون

الثاني/يناير، ١٩٩٦، صص(٢١-٣٣) ص٢٣.

٥- أحمد مجدي حجازي، أمية المثقف العربي: الإبداع وأزمة الفكر السوسيولوجي، المستقبل العربي، عدد ١٥١، أيلول/سبتمبر، ١٩٩١(صص ٩٧-١١٣) ص ١٠٤.

٦- علي خليفة الكواري، نحو استراتيجية بديلة للتنمية الاجتماعية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٥، ص٢٣.

٧- عبد الله عبد الدايم، نحو فلسفة تربوية عربية. الفلسفة التربوية ومستقبل الوطن العربي. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩١ ؟ ص ٢٥٤.

٨- علي عبد الله خليفة، التراث الشعبي والتغيرات الاجتماعية السريعة في الخليج، ضمن محاضرات الموسم الثقافي الثاني ٨٥/١٩٨٦، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٨٦.

٩- Foster George M.. Traditional culture and the impact of technological change. New York . Harper Row publisher . ١٩٦٢ . pp ٢٥-٣١.

١٠- أحمد خضر أبو هلال، دراسة أنتربولوجية لدور الجامعات العربية في تطوير المجتمع العربي: المؤتمر العام الثاني لاتحاد الجامعات العربية: الجامعات العربية والمجتمع العربي المعاصر ٧-٤ شباط ١٩٧٢، صص(١١٣-١٤١)، ص١٣٣.

١١- أحمد خضر أبو هلال، دراسة أنتربولوجية لدور الجامعات العربية في تطوير المجتمع العربي: المرجع السابق، ص١٣٣.

١٢- عبد الرحمن حمادي، أزمة الثقافة العربية المعاصرة، المعرفة السورية، السنة ٢٠، حزيران/يوليو، ١٩٨١، (صص ١٩٢-٢٢٥) ص٢٠٣.

١٣- ماهر الشريف، رهانات النهضة في الفكر العربي، دار المدى، دمشق ٢٠٠٠-ص١٤٩

١٤- علي حرب، غزو ثقافي أم فتوحات فكرية الفكر العربي، المرجع السابق، ص٦٤.

١٥- عبد الله النفيسي، الكويت: الرأي الآخر، لندن، ١٩٧٨، ص ١٤.

١٦- عبد الله النفيسي، الكويت: الرأي الآخر، لندن، ١٩٧٨، ص ١٤.

١٧- محمد عابد الجابري، مستقبل الثقافة العربية في ظل العولمة الثقافية، الكلمة، العدد ١٨، السنة ٥، شتاء ١٩٩٨، صص ١٣٧-١٣٨، ص ١٣٨.

١٨- محمد عابد الجابري، مستقبل الثقافة العربية في ظل العولمة الثقافية، المرجع السابق، ص ١٣٨.

١٩- تركي الحمد، الثقافة العربية أمام تحديات التغيير. دار الساقي، بيروت، ١٩٩٣، ص٨.

20- Watfa Ali, l'interallié sociale dans l'enseignement supérieur français, université de Caen Comparée aux universités françaises, Thčse de doctorat, Université de Caen, Caen. 1988, P51.

٢١- كـريم أبو حـلاوة، دور الثقافة في التنمية البشرية المستدامة، موقع كتـاب من أجل الحرية، الأربعاء، ٢٦ مايو ٢٠١٠ ١١:١٠.

http://iwffo.org/index.php?option=com_content&view=category&layout=blog&id=6&Itemid=7

٢٢- تركي الحمد، الثقافة العربية أمام تحديات التغيير. دار الساقي، بيروت، ١٩٩٣، ص٧٧.

٢٣- علي خليفـة الكواري، نحو استراتيجية بديلة للتنمية الاجتماعية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٠٠.

الدراسات والبحوث



صراع البروتينات

في داء الزهايمر ودوائه

د. ماري شهرستان ⊙

هل تشعر بنوبة من التوهان المفاجئ وأنت تتحدث مع الآخرين فتنسى ما هو الهدف من حديثك..؟ تلتقط سماعة التليفون ثم تتساءل من الذي كنت أرغب في محادثته..؟ تنسى معظم الوقت أين ركنت سيارتك..؟ وتخشى أن تكون على وشك الإصابة بالزهايمر..؟

إن دماغنا هو كباقي أعضاء جسدنا يتغير مع تقدم العمر. وغالبيتنا تلاحظ بعضاً من بطء في التفكير وبعض الصعوبات بتذكر الأشياء. لكن

⊙ مترجمة وباحثة.

فقدان الذاكرة الشديد والتغيرات الكبيرة في أسلوب التفكير وعمل العقل ليست جزءاً من تقدم السن، بل قد تكون إشارات بأن خلايا المخ مخربة وآخذة بالانحلال كما في الأنماط الأخرى من الاختلال العقلي لكنها في الحقيقة أعراض مرض قائم بحد ذاته ويسمى الزهايمر.

اكتسب هذا المرض تسميته نسبة إلى طبيب العلوم العصبية الألماني الدكتور آلويز الزهايمر.[1]

كان الدكتور الزهايمر يدرس أدمغة الأشخاص المصابين بالاختلال العقلي بوساطة تقنية جديدة في التلوين بالأنيلين مع تشريب بالفضة. وفي عام ١٩٠٧ وصف لأول مرة التغيرات التشريحية التي لاحظها في دماغ مريضة عمرها ٥١ عام وهي أوغست ديتر المصابة بالاختلال العقلي، حيث كانت أيضاً تعاني من اضطراب في التوجه ومعرفة المكان مع هذيان وهلوسة واضطرابات في الرؤية. وبعد معاناة مع المرض لسنوات عديدة، توفيت حيث قام بتشريح دماغها، فوجد أن نسيجه يحتوي على كتل غير طبيعية وعقد غير منتظمة من الخلايا الدماغية تسمى اليوم الصفائح والعقد وتعتبر السمات الأساسية لمرض الزهايمر.

مرض الزهايمر ليس له أي علاقة مع الشيخوخة الطبيعية للدماغ، إنه نوع من الخرف المرضي أو نقص الوظائف العقلية الذي يؤدي إلى تدهور عقلي متزايد لدرجة تتعارض مع العمل الاجتماعي والوظيفي، ويمحي الذاكرة الحديثة ويوقف العمليات الفكرية، كما يخرّب المحاكمة بشكل يطيح بالاستقلالية الذاتية ويبلبل الحياة العائلية.

الإصابة بالزهايمر مرض معقد ربما تلعب فيه مجموعة متنوعة من العوامل دورا في تطوره منها التقدم في السن. ويعتبر مرض الزهايمر مرضا منتشراً الآن وقد كشفت دراسة أمريكية حديثة أمام مؤتمر الجمعية الأمريكية للزهايمر بواشنطن أن عدد المصابين بمرض الزهايمر المسؤول عن تدمير القدرات الذهنية للكبار، سيتضاعف أربع مرات خلال العقود الأربعة المقبلة ويصيب واحداً من أصل كل ٨٥ شخصاً على مستوى العالم. وهو نادراً ما يصيب الشباب، بل يصاب غالباً بهذا المرض الكبار في السن، الستين في العمر فما فوق، حيث تنتشر الإصابات بين سن٦٥-٧٤ سنة، وذلك بمعدل شخص واحد من بين كل ٢٥، أما من تجاوزوا الـ٨٠ من العمر فإن النسبة تصبح على الأقل شخصاً واحداً في كل خمسة أشخاص، أي حوالي ٢٠٪ للأفراد

الذين تجــاوزوا سن الـ٨٠ عامــاً لكن هذا يعني أن ثلاث أرباع من تجاوز الثمانين ليس لديهم أي عرض من هــذا المرض[٢]، وهذا دليل على أنه مرضــ مستقل استقلالاً تاماً عن الشيخوخة؛ وفي عمر التسعين، حسبما يقول الخــبراء، تصل نسبة الذيــن يعانون مــن أعراض الزهايمر إلى النصف. وتشير الإحصائيات إلى أن النساء أكثر عرضة من الرجال للإصابــة بالزهايمر. وهناك عامل الوراثة، حيــث تقول التقاريــر إن احتمال إصابة الشخص بالزهايمر يكون مرتفعاً في حال كان أحد أقارب الدرجة الأولى مصاباً بالمرض .ورغــم أن الآلية الجينية للزهايمر غــير مفهومة بشكل جيــد حتى الآن، تمكن الباحثــون من تحديد عدد مــن (الطفرات الوراثيــة) التي تزيد من احتمالات الإصابة بالزهايمــر في بعض العائــلات. وعلى ما يبدو فــإن البيئة تلعــب دورا مهما في هذا الأمــر، وعليه يعمل الباحثــون على دراسة العوامل البيئية بهدف التوصل إلى الأسباب المحتملــة التي تكمن وراء تطــور الزهايمر وبالتالي الوقاية منه.

ومرضــ الزهايمر الــذي يتسم بتطوره التدريجــي، هو مرض دماغي يذهب إلى ما بعــد مسألة النسيان. وقــد يبدأ مع فقدان خفيــف في الذاكرة والارتبــاك، ولكنه يقود بالنهايــة إلى إعاقــة عقلية حــادة لا يمكن إصلاحها، تقوم بتدمير قدرة الشخص على التذكــر والتعلم والتخيــل والتفكير. ويعاني معظم مرضى الزهايمر من أعراض مشتركة تشمل:

النسيان المتواصل والمتزايد، حيث يتسم المرض في بدايته بنوبات من نسيان الأحداث القريبــة، والاتجاهــات، ومــن ثــم تتفاقم الظاهرة وغالبا ما يميل المصابون بالزهايمر إلى تكرار الأشياء ونسيان فحوى المناقشات والمواعيد. كما أنهم يضعون الأشياء في غير مكانهــا الصحيح بل يضعونها في أماكن تتم عن الافتقار إلى التفكير المنطقي، إضافة إلى ذلك فإنهم ينســون الأسماء،ومن ثم أسماء أفراد العائلة وأسماء الأشياء التي يتعاملون معها يوميــا مثل مشط الشعر أو الساعة أو تنظيف الأسنان بالفرشاة. كما يعاني المريض من صعوبــة في التفكير التجريدي، وبالتالي يصعــب عليه في البداية التعامل مع الأرقام وفي فهمها وإدراكها؛ كما يعاني المريض أيضاً من صعوبــة في إيجاد الكلمة الصحيحة، إذ تمثل عملية إيجاد الكلمات المناسبة، تحدياً كبيراً بالنسبة لمرضى الزهايمر، للتعبير عن أفكارهــم، حتى إنه قد لا يتمكن من متابعة محادثة ما الأمر الــذي يقود في النهاية إلى تأثــر القدرة علــى القــراءة والكتابة وربما

يفقد مريض الزهايمر القدرة على إدراك المكان والزمان، وقد يجد نفسه تائها في الأماكن التي كانت مألوفة حتى إنه قد يضل طريق العودة إلى المنزل يضاف إلى ذلك، عدم التمكن من حل المشكلات اليومية إذ لن يتمكن من معرفة ما الذي يجب فعله في حال بدأ الطعام الموجود على النار بالاحتراق على سبيل المثال.

ومن سمات مرض الزهايمر، صعوبة القيام بالأشياء التي تتطلب تخطيطا أو التوصل إلى قرار أو المحاكمة العقلية، كما تظهر تغيرات في الشخصية تشمل تقلبات في المزاج، ما قد يؤدي إلى فقدان الثقة بالآخرين، فضلا عن الميل أكثر إلى العناد والانعزال عن المجتمع. وربما يعود هذا الأمر إلى الشعور بالإحباط الذي ينتاب المريض نتيجة إدراكه للتغيرات اللاإرادية في الذاكرة. وغالبا ما يكون الاكتئاب جنبا إلى جنب مع الزهايمر ومع تفاقم المرض ينزع المرضى إلى التوتر والعدوانية والسلوك غير المناسب. كما يصاب هؤلاء المرضى بعدم القدرة على التركيز أو التواصل مع الآخرين، وعدم القدرة على السيطرة على التبول والتبرز، إضافة إلى أن الصحة والعمل سرعان ما يتدهوران حتى يصبح الشخص عاجزاً تماماً عن عمل أي شي، وهو يؤدي إلى الوفاة بعد عشر سنوات إذا لم يعالج.

لهذا المرض مراحل(٣) ومسارات، وسرعة التغيرات الناجمة عنه تختلف من شخص إلى آخر. فتطور المرض من مرحلة النسيان الخفيف إلى مرحلة الخرف، قد يستغرق عند البعض خمس سنوات، في حين قد يستغرق عند البعض الآخر عقدا أو أكثر من الزمن. ويتطور مرض الزهايمر بشكل عام عبر ثلاث مراحل الخفيفة ثم المتوسطة وأخيراً الحادة.

المرحلة الأولى: وهي المرحلة المبكرة والخفيفة فتمتد من العام الأول إلى العام الثالث من بدء المرض، وهي غالباً ما تأتي دون الانتباه لها، فيتجاهلها الأقرباء والناس وقد يرجعونها لتقدم العمر وخلالها يكون بإمكان المرضى تدبير حياتهم من دون مساعدة، ويلاحظ في هذه المرحلة ظهور بعض الأعراض مثل الصعوبة في التعبير، فقدان ملحوظ في الذاكرة خاصة لفترات معينه مع ضعف طفيف في تذكر الأحداث القديمة، عدم تقدير الوقت، نسيان الأماكن المعروفة أو المألوفة إضافة إلى الاكتئاب أو الغضب، وضعف في أداء المهارات وصعوبة في تعلم المعلومات الجديدة ونوبات من الهياج ثم اللامبالاة.

والمرحلة الثانية: أو ما تسمى بالمرحلة

المتوسطة تمتد من العام الثاني إلى العام الثامن من بدء المرض، وهي عبارة عن فقدان الذاكرة بشكل حاد ولافت للانتباه وعدم تذكر أسماء الأشخاص بسهولة، وعجز المرضى عن القيام بنشاطاتهم بسهولة، حيث يجدون خلالها صعوبة في تدبير أمورهم من دون مراقبة أو رعاية؛ لأنهم يصابون بضعف أشد في تذكر الأحداث القريبة والبعيدة إضافة إلى عدم القدرة على الذهاب في نزهة وإيجاد طريق العودة إلى المنزل.

كما يصاب المرضى بضعف في أداء المهارات وعدم القدرة على الكلام وعلى إجراء العمليات الحسابية البسيطة وعلى أداء الأعمال المركبة التي تستلزم تنسيقاً بين الفكر والحركة كإشعال الموقد، ونوبات من الهياج ثم الهذيان، وبطء النشاط الكهربي في رسم المخ وأخيراً ضمور المخ. وفي هذه المرحلة يزداد المرضى تعلقاً بالآخرين حيث يحتاجون إلى المساعدة للحفاظ على نظافتهم.

أما المرحلة الثالثة: أو المتقدمة فتمتد من العام الثامن إلى الثاني عشر من بدء المرض، يصبح المرضى فيها غير قادرين على رعاية أنفسهم البتة بدءاً من صعوبات في تناول الطعام إلى عدم القدرة على التمييز ومعرفه الأقارب والأشياء المألوفة، كذلك عدم القدرة على الحركة وصعوبات في فهم الأحداث وتفسيرها بالإضافة إلى عدم القدرة على التحكم عند قضاء الحاجة، فهم يصابون بتدهور شديد بالوظائف العقلية، وتيبس بعضلات الأطراف وانحناء الجسم وتفاقم البطء المنتشر في النشاط الكهربي للدماغ وبضمور متزايد مع توسيع بطون الدماغ، ونقص التمثيل الغذائي.

قد لا تؤدي الإصابة بالزهايمر إلى الموت في العديد من الحالات ولكن الوفاة قد تحدث بسبب الأمراض المصاحبة التي قد يصاب بها المريض مثل ذات الرئة أو عدوى ما، فصعوبة ابتلاع الطعام والسوائل قد تؤدي بمريض الزهايمر إلى استنشاق بعض مما يتناوله من طعام وسوائل ودخوله في مجرى التنفس ما يقود إلى الإصابة بذات الرئة؛ كما أن عدم القدرة على ضبط البول والغائط يستوجب تزويد المريض بقسطرة، الأمر الذي يزيد من احتمالات الإصابة بزعزعة النظام البولي. والمعروف أن إهمال هذا النوع من الأمراض، يؤدي إلى مشكلات صحية أكثر خطورة بل ومميتة. قد يفقد مريض الزهايمر القدرة على إدراك الزمان والمكان مما يجعله أكثر عرضة للسقوط لما قد يؤدي إلى الإصابة بالكسور، ناهيك عن

إمكانيــة التعرض للإصابــات الرأسية مثل النزف الدماغي. ولا يوجد في الوقت الحالي علاج شاف بشكل كامل من مرض الزهايمر، ولذلك فإن الرعاية والأدوية المتوفرة حاليا والتي تمثل العلاج الرئيسي لا تستطيع وقف العمليــة التحتية للمرض ولكنهــا تستطيع إبطاءها وتخفيف الأعراض.

مثال عن الأعراض يبــوح به أحد أبناء مريض بالزهايمر فيقــول: يقول لقد دخل الزهايمر بيتي من الشباك وخرجت السعادة من الأبواب.. قال: هل تعرف والدي الرجل صاحب العقل الراجح الذي كان يستشيره الناس في مشاكلهم لكي يحلها لهم، والذي كان يدلي برأيه فنسمــع رأي الحكمة والموعظة، هذا الرجل بدت عليه منذ شهور علامات غريبة مثل النسيان، وعدم إيجاد الكلمات المناسبة ليضعهــا في مكانهــا الصحيــح وتدهورت حالته بسرعــة فأصبح البكاء من دون سبب هو سمته منذ الصبــاح وحتى المساء. وهل تتصــور معنى أن تعيش تحت سقف واحد مع إنسان تحبه يبكي ليل نهار ومن دون أي سبب وأحياناً يكرر جملة أنا ما عملت شيئاً أنا ما عملت شيئــاً، وأحياناً يخطر لوالدي أن يقوم ليفتح الباب ويخرج إلى الشارع وإذا أراد أحــد أن يمنعه فإنــه يثور ويعلو صوته ويتشنــج.. إنه يصحو كل يوم من نومه على مزاج مختلف أحيانــاً يشكو من ألم في ظهره وعلى الفور لابد أن تعطيه أي دواء وتمثل له أنك تدلك ظهــره بالمرهم وهو يصرخ ويتألم ويبكــي وعليــك أن تعطيه علبة الــدواء أو المرهم ليحتضنها كابنته ويظل طوال النهار يخفيهــا ثم ينسى أين وضعهــا ويبدأ البكاء حتى تحضرها لــه مرة أخرى وهكذا طوال النهار، ويوماً آخر يصحــو من نومه ليسأل أين نقوده ولابد له أن يذهب إلى البنك رغم أنه لم يعد يفرق بين الجنيه أو القرش ويظل يبكي حتى تعطيه أي نقود.. وأحياناً أخرى يصحــو في منتصف الليل ويتوجه إلى الباب الخارجي لكــي يخرج.. لم يعد يعرف الناس وأحياناً يدعوني وأنــا ابنه: يا بابا. وأحياناً لا يعرف أحفــاده أو أبنــاءه وأحياناً أخرى يطالبنــي ألا أتحرك من جانبــه.. وأحياناً أخرى يظل يكرر المناداة على والده ووالدته (رحمهما الله).

التشخيص التفريقي

الضرورة الملحة حالياً هي الكشف المبكر عن المرض ووضع التشخيص الدقيق للتمكن من التأثير على الإصابة قبل تطورها. فعلى هــذا الصعيد حقق العلمــاء الألمان خطوة كبيرة من خــلال جهاز مسح شعاعي يعينهم في تشخيــص المرض قبل ظهــور أعراضه. ويستخدم الجهاز هو من النوع الذي يستخدم

الرنين المغناطيسي، حقلاً مغناطيسياً من قوة ٣ تيسلا في الكشف عن المرض. ويأمل العلماء في تطوير نسخة منه تعمل بـ٩،٤ تيسلا. وممكن لجهاز بهذه القوة من الحقل المغناطيسي أن يصوِّر أي تغيير في أنسجة الدماغ يهدد بالتحوّل إلى تراكم زهايمري.

أما بالنسبة إلى وسائل التشخيص الأخرى فهي تتم من خلال استراتيجية معينة تسمى «عملية الإقصاء» أي بمعنى إقصاء الأمراض والحالات الأخرى التي يمكن أن تسبب فقدان الذاكرة. فالسكتات الدماغية الصغيرة وغير المرصودة على سبيل المثال يمكن أن تسبب الخرف وذلك بسبب التوقف المؤقت لوصول الدم إلى الدماغ. فاضطرابات الذاكرة لا تنذر دوماً بحدوث الزهايمر[٤] وذلك وفق البروفسور جان-جاك هوفا[٥] Jean- Jacques Hauw.

والاكتئاب أيضا يمكن أن يسبب هفوات في الذاكرة. وكذلك، فإن العديد من كبار السن يضطرون إلى تناول العديد من الأدوية التي يمكن أن تؤثر في قدرتهم على التفكير بشكل طبيعي. وعليه يعتمد الأطباء في تشخيص الزهايمر بعيداً عن الأسباب الأخرى لفقدان الذاكرة والتي غالبا ما تكون قابلة للعلاج.

غير أن السؤال يظل مطروحاً للمطالبة بمزيد من الوضوح: هل هناك إشارات منذرة لهذا المرض يمكن الاستعانة بها قبل حصول اضطرابات الذاكرة المزعجة؟

من أجل التشخيص يطلب الأطباء ما يلي:

التاريخ العائلي: يحاول الطبيب تشكيل صورة واضحة عن الصحة العامة للمريض والمشكلات الطبية التي كان يعاني منها في السابق إن وجدت. ومن المهم جدا أن يكون الطبيب مطلعا على أية مشكلة يعانيها المريض خلال ممارسة نشاطاته اليومية. وقد يحتاج الطبيب إلى الاجتماع بعائلة أو أصدقاء المريض للحصول على أكبر قدر من المعلومات.

كما يتم إجراء اختبارات للدم والبول لمساعدة الطبيب على إقصاء أي أسباب محتملة للخرف. وفي بعض الأحيان يحتاج الأمر إلى إجراء اختبار على كمية صغيرة من السائل الشوكي. ويتم إجراء اختبارات الحالة العقلية، الهدف منها هو تقييم مستوى القدرة على التذكر ومهارات الحساب واللغة، وقد يلجأ الطبيب إلى اختبار الذاكرة القصيرة والذاكرة البعيدة، فيوجه أسئلة للمريض مثل: متى وقعت الحرب العالمية الثانية؟ أو ما هو التاريخ اليوم؟ ويطلب الطبيب صوراً للدماغ، إذ من

الممكن من خلال هذه الصور تحديد ما إذا كانت هناك أي أشياء غير طبيعية. وهناك عدة تقنيات لتصوير الدماغ منها المسح الدماغي المقطعي بالكمبيوتر والتصوير بالرنين المغناطيسي وتقنية التصوير المقطعي بالبوزيترونات.

كما ظهرت الآن أهمية تقصي وكشف المرض بقياس مناطق القشرة الدماغية. ومن خلال هذه الأساليب والتقنيات، باستطاعة الأطباء تشخيص الإصابة بدقة تصل نسبتها إلى ٩٠٪. بيد أن تشخيص الزهايمر بشكل قاطع لا يمكن أن يتم إلا بإجراء تشريح للدماغ بعد الموت، للكشف عن الصفائح والعقد. وأما بالنسبة إلى الاختبار الجيني فلا يزال في المرحلة الأولى من التطوير.

وفي البحث عن أسباب وآليات حدوث هذا المرض ينبغي دراسة تكوين دماغنا ووظائف مكوناته: ففي المخ البشري خلايا عصبية تسمى العصبونات. وكل خلية عصبية تتصل مع العديد من الأخريات لتشكيل شبكة. ولشبكات الخلية العصبية وظائف خاصة، بعضها تقوم بالتفكير والتعلم والتذكر، وبعضها الآخر تساعدنا على النظر والسمع والشم. وأخريات تأمر عضلاتنا متى تتحرك.

أما عن شرح التبدلات المرافقة للزهايمر[٦] فوفق الدكتور فريديريك شيكلر[٧] قد تم وصف هذا المرض منذ أكثر من مئة عام ولسنوات طويلة، حيث كانت الإضافات الوحيدة الهامة حول معرفة هذا المرض تتناول الوصف التشريحي للإصابات المخية التي تجتاح دماغ الأشخاص المصابين بتاذر الانحلال العصبي، فسميت بالصفائح الشيخوخية والانحلال العصبي - الليفي.

وتظهر هذه الصفيحات الشيخوخية غالباً قبل ظهور العجز المعرفي، بينما الانحلال العصبي - الليفي يكون أكثر تأخراً ومترافقاً مع انحلالات مرضية نسيجية متعددة، دون تمايز باتجاه مرض الزهايمر. سمحت البيولوجيا الخلوية قبل عشرين عاماً فقط بتحديد ماهية المكونات الرئيسية للصفائح الشيخوخية وهي البيبتيد آميلويد peptide amyloïde وبتحديد السبب الرئيس للانحلالات العصبية - الليفية الذي هو البروتيئين تو Tau.

وقد تمكن باحثون في المجلس الأعلى للأبحاث العلمية في إسبانيا من اكتشاف الآلية التي تؤدي إلى انتشار تدهور الخلايا العصبية في جميع أجزاء المخ عند المصابين بمرض الزهايمر. وذكر المجلس في بيان أصدره أمس أن الزهايمر، الذي لم تحدد أسبابه بعد، يتسم بموت الخلايا العصبية

بعد فترة زمنية طويلة تتضرر من خلالها مختلف بنيات المخ بشكل تدريجي.

وأشار البيان إلى أن أصل المرض يكمن في العقد العصبية القاعدية، وهي مجموعة من نوى المخ الخلفي، تتحكم في قدرة المرء على البدء والتوقف عن الأفكار. وقال العلماء إن الإجهاد التأكسدي المرتبط بالسن يعمل على تقوية دورة خبيثة تؤدي إلى امتداد تدهور الأعصاب بقشرة الدماغ والحُصين. واكتشف الباحثون أن هذا الإجهاد يؤدي إلى تحفيز دورة إنتاج وتراكم بروتينات شاذة تدعى «بيتا – أميلويد bêta-amyloïdes» وهي سلسلة حوامض أمينية في الدماغ تعمل على زيادة الإجهاد التأكسدي في مناطق أخرى بالمخ لتبدأ الدورة من جديد بشكل صفائح بين خلايا الدماغ. تمنع العصبونات وعلى الأخص المختصة بالذاكرة، من أن تتصل بشكل طبيعي فيما بين بعضها بعضاً. أما البروتينات «تو tau» داخل الخلايا، فهي تتراكم على شكل خيوط أو شعيرات تؤدي إلى اختناق العصبونات.

والمعروف أن في الدماغ السليم تقوم العصبونات بتوليد إشارات كهربائية وكيميائية تنتقل من عصبون إلى آخر، الأمر الذي يتيح للشخص التفكير والتذكر والشعور بالأشياء. وتنتقل هذه الإشارات بوساطة مواد كيميائية تسمى النواقل العصبية. ويقول الخبراء إن العصبونات في أدمغة الأشخاص المصابين بالزهايمر، تموت ببطء، ما يؤدي إلى انخفاض كثافة النواقل العصبية، وبالتالي إعاقة انتقال الإشارات في الدماغ.

ويقوم الخبراء أيضا بدراسة الدور الجيني في الإصابة بالمرض حيث يقولون إن وجود جينات معينة معطوبة يرفع من احتمالات إصابة الشخص بالزهايمر. وهناك من يعتقد أن العدوى الفيروسية التي تنمو ببطء وتؤدي إلى التهاب دماغي ربما تكون متورطة في ظهور المرض.[^8]

تجدر الإشارة إلى أنه لو أن البيبتيد أميلوئيد يساهم بحدوث المرض إلا أن هناك عوامل عديدة خارجية يمكنها أن تزيد وتفاقم أو أن تخفف من شدة سميته. والدليل؟: هناك مرضى يحملون التغيير الوراثي الفجائي نفسه يمكن أن يتطور المرض لديهم قبل عقود عديدة نسبة إلى غيرهم. هناك إذاً عوامل بيئية وعوامل وراثية تجعل الأفراد أكثر عرضة لتطوّر المرض.

غير أن كل استراتيجية هادفة إلى تثبيت مستويات البيبتيد أميلوئيد أو إيقاف إنتاجه توفر قوة كامنة في تأخير أو إيقاف ظهور أو تطور المرض. ومن جديد أتاحت البيولوجيا

الخلوية والجزيئية حصول تقدم هام في فهم آليات الداعمة لتشكل الببتيد آميلوئيد. وكان معلوماً أن الببتيد آميلوئيد يتشكل انطلاقاً من بروتين أكبر مقطع بخميرة أو من عدة خمائر.

ففي أعوام ١٩٩٥ و١٩٩٩ تم وصف واضح وقطعي للخمائر الضرورية لإنتاج الببتيد آميلوئيد. ومنذ هذا الاكتشاف، مرت ١٥ سنة بمعية هذه الاكتشافات الأساسية حول بيولوجيا هذه الخمائر التي سمحت بتشكل نماذج حيوانية مخلصة للمرض. غير أن هذه الأعمال لم تؤد بعد إلى «الجزيئات العلاجية» المرجوة والهادفة إلى إيقاف تشكل الببتيد آميلوئيد عند الإنسان.

التحدي هو في تطوير «أدوية» قادرة على إنقاص نشاط هذه الخمائر ومن دون تأثيرات ثانوية قوية المفعول. البديل هو في تحييد الببتيد آميلوئيد الذي يتم إنتاجه بكثافة كبيرة أثناء المرض. هناك أيضاً جهود كبيرة تتناول مقاربات ممكنة لاختراع لقاحات ضده، وهناك بحوث عديدة تجري الآن حيث ينبغي أن تصلنا نتائجها في غضون بضعة أشهر.[9]

آمال العلاج والتحكم بالمرض

لا يوجد حتى اليوم معالجة شافية من مرض الزهايمر. يجتهد الأطباء محاولة في تأخير تطوره والتخفيف من أعراضه والمحافظة قدر الإمكان على قدرات المريض. فالمعالجة تتناول التخفيف من القلق والعدوانية والتهدئة.

تكمن الآمال الرئيسية العلمية في تطوير المناعة وفي إنقاص تراكمات الآميلوئيد المسؤولة عن تشكل الصفائح الشيخوخية في أدمغة المرضى.

كما يتركز البحث الحالي حول الوسائل التي تؤدي إلى إتلاف هذه الصفائح. فمن بين الـ٢٠ جزيء قيد التجربة حالياً في المختبرات ربما تخرج أدوية الغد. كما أن هناك دراسة مع معالجة موجهة ضد هذه الترسبات ستعرف نتائجها في غضون ثلاث سنوات، وتهتم البحوث في إيجاد سبيل للتخلص من شعيرات البروتين «تو- tau» وهدف كل هذه الأدوية المستقبلية سيكون: الحيلولة دون موت العصبونات النفيسة.

ويخطط العلماء الأمريكان من معهد هيلث- بيرد للزهايمر في جامعة فلوريدا[10] في الوقت الراهن لإجراء تجربة مرشدة قد تضع علاجاً للزهايمر تحت الاختبار في نهاية هذا العام.

فقد أثبتت اختباراتهم بأن الأشخاص الذين يعانون من التهاب المفاصل عندهم وقاية داخلية ضد مرض الزهايمر قوامها

بروتيني أيضاً بحيث يمكن أن يصبح دواءً جديداً واعداً لأمراض المخ. إن البروتين GM-CSF يلعب دوراً في ضعف استجابة الجهاز المناعي الذي يؤدي إلى الاضطرابات المفصلية. وقد برهنت البحوث والدراسات أن هذا البروتين يستطيع أن يقلب أعراض الزهايمر خلال ٢٠ يوماً فقط.

العلماء الذين دهشوا لهذا الاكتشاف يعتقدون أنه يمكن أن يقود بسرعة إلى دواء جديد عملي للزهايمر الذي هو الشكل الأكثر شيوعاً للاختلال العقلي.

لقد تمّ استعمال البروتين GM-CSF بتركيب مخبري تحت اسم «لوكين- Leukine» لأعوام مضت من أجل تقوية جهاز المناعة لبعض مرضى السرطان، ولأن صيغته آمنة غير مؤذية فهو قد انتشر سريعاً وسوف لن يمضِ وقت طويل حتى يصنعوا منه علاجاً للزهايمر. وفق رئيس الباحثين البروفسور هنتيغتن بوتر[11] «إن دراستنا لهذا الدواء وتدقيقنا في سلامة سجله في الاستعمال، تقترح أن لوكين ينبغي أن يتم اختباره على الإنسان كعلاج محتمل وممكن لمرض الزهايمر».

وحسب مجلة «ايمبو جورنال» العلمية، توصل الطبيب جيرد مولتهاوت إلى مادة تبطل عمل بروتين أميلوئيد- بيتا الذي يسبب موت الخلايا، ونال الاكتشاف براءة الاختراع ويتهيأ العلماء لإنتاجه كعقار ويفترض أن يؤدي البروتين المكتشف إلى تجزئة أميلوئيد- بيتا إلى بيبتيدات Peptides بطريقة غير ضارة بجسم الإنسان.

وتأتي دراسة في أعقاب أخرى حيث وجد الباحثون أن للأنسولين القدرة على إبطاء أو منع فقدان الذاكرة، التي يتسبب بها مرض الزهايمر. كما وجد باحثون من جامعتي «نورثويسترن» في ألينوي و«ريو دي جانيرو» بالبرازيل، أن العقار المستخدم لتنظيم معدلات السكر في الدم، يحمي الخلايا المسؤولة عن تكوين الذاكرة وتدعم الدراسة النظرية القائلة بأن الزهايمر قد يتسبب به نوع من السكري المرتبط بفشل الجسم في إنتاج أو معالجة الأنسولين بفعالية، هو الصنف الثاني من السكري.

كشف الدكتور إيتين- إميل بوليو Etienne-Emile Baulieu من إينسيرم Inserm في فرنسا عن التفاعلية بين اثنين من البروتينات الموجودة في الدماغ الـ«FKBP٥٢» وبين البروتيئين «تو TAU» الذي باضطراباته يتدخل في الآلية للعديد من أمراض الاختلال العقلي ومنها مرض الزهايمر.

إن الشكل والكمية الطبيعية للبروتين

تـو Tau يلعبان دوراً هامــاً في حسن سير وظيفة العصبونات. والبروتين FKBP٥٢، الغزيــر في الدمــاغ، هو جزء مــن العائلة المناعية «immunophyllines»التي هي بروتينات قادرة أن تجتمع وترتبط مع أدوية كابتة للمناعة Immunosuppresseurs مثـل التاكروليموســن tacrolimus أو الرابامايسين rapamicyne

بعــد أن أقــام فريــق العلمــاء العلاقة بــين البروتينين برهـــن الباحثون في المخابر أن كميـــة كبــيرة من البروتــين FKBP٥٢ منعت تراكم البروتــين تو Tau في الخلايا العصبيــة. إذ إن الوظيفة التي تسير بشكل ســيء لهذا البروتــين تكون ضــارة لنشاط النبيبات المجهريــة microtubules التي تنقل العناصر الغذائية إلى العصبونات.

الأمل العلاجي سيكــون ربما باستعمال البروتين FKBP٥٢ لكبــح نشاط البروتين تو Tauالــذي شذ عن طبيعتــه ولحماية النبيبــات المجهرية الــ microtubules الضرورية لحياة العصبونات.[١٢]

هناك دراسة جديدة أخرى قد تؤدي إلى إيقاف تطـور المرض لكن الدواء مازال قيد التجربة والاختبار وهو مبني على ما يسميه الباحثــون «الفرضيــة الاميلوئيدية» فحوى هذه النظرية هو أن الأنزيم غاما- سكريتاز gamma-sécrétase قد يكون وراء نشوء تراكم بروتين المسمى بيتا – أميلوئيد الذي يتحـوّل إلى صفائح في الدماغ ويقتل خلاياه مؤديــاً إلى الزهايمر. فالدواء LY٤٥٠١٣٩ تم تركيبه لكبــح الأنزيم الــذي يثير الآلية الارتكاسية وبذلك يؤدي إلى إبطاء المرض.

وفي ألمانيــا أعلن عن نجــاح تجارب في إمكانية غسيل معين للدم يحرر الدماغ من التراكمات الخبيثة.[١٣]

حقــق العلمــاء في جامعــة كاليفورنيا الأمريكية قفزة مهمة في مجال علاج مرض الزهايمر، فقد تمكن هؤلاء من إيجاد طريقة تمنع الألياف العصبية الضرورية في الدماغ والتــي تنقــل السيالة العصبيــة إلى خارج الخلية العصبية والتي تعرف باسم المحاوير أو الأكسونــات axones من التحطم الذي يعتقــد أنه يسبب أعراض المرض. واستطاع الباحثــون مــن خــلال إجــراء الكثير من الأبحاث والدراسات تطوير طريقة تساعد على إبطاء تحطم هذه الأكسونات أو وقفها بل وحتى تجديد نموها.

ويكمن السر في هذه العملية فيما يعرف بعامل النمــو العصبي فقد حصل الباحثون على أدمغة جديدة شابة في القردة بعد حقن أدمغتها التي تشيــخ بالطريقة نفسها التي تشيخ بها خلايا الدماغ البشري بخلايا جلد

خاصة تم تعديلها بحيث تطلق عامل النمو مما أدى إلى إصلاح العصبونات التالفة ونموها من جديد.[14]

ساعدت البحوث في العشرين سنة الأخيرة على التقدم في معرفة كيف يتراكم هذا البروتين وكيف يتم استقلابه métabolisée، ومعرفة الأنزيمات الأخرى المتورطة في هذا الداء[15]. حدود المعرفة الحالية تسمح لنا ببناء آمال بأنه من الممكن أن يكون لدينا إمكانية عملية وملموسة لإيقاف هذا المرض.

ولكن... إعطاء الأمل[16]... وفق الدكتور جاك توشون[17] «بين الاكتشاف المخبري والتجربة الحيوانية مسافة كبيرة، وبين التجربة الحيوانية والاختبار العلاجي على المريض هناك أيضاً خطوة عملاقة...».

عوامل بيئية وطبية متهمة بالزهايمر

ويقوم الخبراء أيضاً بدراسة الدور الجيني في الإصابة بالمرض حيث يقولون إن وجود جينات معينة معطوبة يرفع من احتمالات إصابة الشخص بالزهايمر. وتقول التقارير بشأن العامل الوراثي أن احتمال إصابة الشخص بالزهايمر يكون مرتفعاً في حال كان أحد أقارب الدرجة الأولى مصاباً بالمرض. ورغم أن الآلية الجينية للزهايمر غير مفهومة بشكل جيد حتى الآن، تمكن الباحثون من تحديد عدد من الطفرات الوراثية التي تزيد من احتمالات الإصابة بالزهايمر في بعض العائلات. وهناك من يعتقد أن العدوى الفيروسية التي تنمو ببطء وتؤدي إلى التهاب دماغي ربما تكون متورطة في ظهور المرض[18]. ويبدو أن من أهم العوامل في حدوث هذا المرض هي العوامل البيئية التي تلعب دوراً مهماً في هذا الأمر، وعليه يعمل الباحثون على دراسة العوامل البيئية بهدف التوصل إلى الأسباب المحتملة التي تكمن وراء تطور الزهايمر وبالتالي الوقاية منه.

ويعتبر بعض الباحثين أن الزئبق هو من بين العوامل المسببة لهذا المرض. وفي يومنا هذا يطرح الزئبق مسألة بيئية عالمية إذ إن تركيزه المتوسط يزداد عند الأسماك في جميع المحيطات وعند اللبونات في جميع القارات، كما أن توزيعه في المحيطات وفي القارات يختلف من منطقة لأخرى. فوفق دراسة حديثة، يزداد معيار الزئبق في أمريكا الشمالية من الشرق إلى الغرب؛ وهناك ظاهرة تسمى «أمطار الزئبق» هي في الوقت الراهن قيد الدرس في القطب الشمالي «Arctique».

وفي جزء كبير من الولايات المتحدة

تحتوي الأمطار الأقل تلوثاً على كمية من الزئبق تفوق المعيار المقترح من أجل سلامة مياه الشرب.

ويصدر سنوياً عن نشاطات الإنسان في العالم حوالي ٣٥٠٠ طن زئبق، يكون ٥٠ إلى ٧٥ ٪ من هذه الكمية ناتج عن احتراق الفحم.

هناك كميات غير مباشرة وغير محسوبة تصدر عن الأراضي الغنية بالزئبق الناجم عن الممارسات الزراعية وعن إزالة الغابات أو عن الرعي أو السقاية الزائدة، أو عن التقاط الذهب من التراب.

ويصدر سنوياً أيضاً بين ١٤٠٠ إلى ٢٤٠٠ طن زئبق من البراكين ومن ينابيع المياه الحارة المتدفقة بشكل متقطع ومن التبخر الطبيعي والتحرك الجوي أي تنقل طبقات الهواء في الجو.

تتعلق نسبة سمية الزئبق بدرجة أكسدته، ومفعول سمية الزئبق عند الإنسان تتجلى بشكل بخار عن طريق الطرق التنفسية، لينحل في البلاسما، والدم والهيموغلوبين. فعن طريق الدم يصيب الكلى والدماغ والجهاز العصبي. كما هناك مخاطر عند المرأة الحامل: لأن هذا السم ينتقل بسهولة ويخترق المشيمة ليصيب الجنين، وحتى بعد الولادة حيث تستمر خطورته طالما أن حليب الأم ملوث أيضاً.

وقد برهنت الدراسات العديدة على الخروف والقرد والإنسان عن تراكم الزئبق خصوصاً في الكلى والدماغ والكبد أو في نسج الفكين ١٠٪ وهو من أبخرة الزئبق التي تذهب إلى الرئتين حيث يمتص منها ٨٠٪ من الزئبق. ثم يتأكسد هذا الزئبق في الخلايا حيث يتم امتصاصه بشكل أفضل.

وعلى غرار الأشكال العضوية، فإن الزئبق المعدني ينحل في الدهون ويستطيع أن يجتاز الغشاء الخلوي والحاجز الدموي- الدماغي barrière hémato-encephalique وهذا ما يفسر انتشاره في الدماغ وفي المشيمة أو في حليب الأم. يحوّل النشاط الجرثومي في وسط مائي جزءاً من الزئبق المنحل إلى مونوميتل الزئبق HgCH٣ حيث بهذه الصيغة يصبح الزئبق ساماً جداً وشديد التراكم.

على الرغم من كل التقارير البيئية التي تحدد كميات الزئبق التي يتعرض لها الإنسان بدءاً من الهواء الذي يتنفسه إلى المزروعات ومختلف الأطعمة الملوثة به التي يتناولها، يعتبر بعض الباحثين أن بخار- الزئبق الذي يصدر عن حشوات الأملغم السنية هو المصدر الأول لتعرض الشعوب الغربية للزئبق، لأنهم يعتبرون أن الأملغم

يفقد حوالي ٥٠٪ من الزئبق (أي حوالي ٢/١ غرام بالاملغم) خلال عشر سنوات!..

فمادة الأملغم هي مادة مرممة مستخدمة بشكل شائع في مداواة الأسنان في جميع أنحاء العالم (عدا النروج) وهي مكونة كما هو معروف من مادتين، مادة مسحوق ذرات الفضة ومادة الزئبق السائل حيث يتم مزجهما الذي ينتج عنه مادة جديدة تماماً تسمى الأملغم. تبدأ هذه المادة بالتصلب في غضون ربع ساعة ولم يعد للزئبق فيها لا قوامه السائل ولا خواصه السابقة المضرة، ومادة الأملغم amalgame سهلة التطبيق ومقاومة لقوى المضغ الكبيرة وساهمت بشكل كبير في ترسيخ المداواة المحافظة في طب الأسنان. أما عن تسرب الزئبق منفرداً إلى الفم فيعود إلى حوادث فردية جانبية نتيجة عدم التقيد بالكميات الزئبقية بشكل دقيق وعدم احترام النسبة المطلوبة بينها وبين ذرات الفضة.

صحيح أن الزئبق معدن ذو سمية عالية لكن كان له في كل العصور استعمالات عديدة في الصناعة وفي الطب والأدوية. وقد استعمل منذ الألف الثالث قبل الميلاد لالتقاط الذهب والفضة أو المعادن الأخرى بطريقة الأملغم، ثم يتم وضع هذا الأملغم بحرارة قدرها بين ٤٠٠ إلى C ٥٠٠ درجة مما يؤدي إلى تبخر الزئبق، ثم يتم استرجاعه بمرور أبخرته ضمن أنبوب بارد. فإذا كان تبخر الزئبق يستوجب حرارة بهذا القدر من الارتفاع أي ينبغي له أفران خاصة عالية الحرارة فكيف يتم تبخره من فم الإنسان الرطب بحرارة ٣٧C؟؟؟ سؤال يقلق الطبيب والمريض على حد سواء.

أما بالنسبة إلى العوامل الأخرى المسببة للزهايمر فقد أثبتت الدراسات أن الضغط المرتفع وتناول الأطعمة عالية الدهون عوامل خطيرة تسبب الإصابة بالمرض؛ بالمقابل فإن سوء التغذية هو عامل مسبب للزهايمر وخاصة نقص الأغذية التي لا تحتوي على فيتامينات b1 وb12 والزنك.

لقد أجريت دراستان تثبتان أن المرضى المعرضين لسوء التغذية هم معرضون أكثر من غيرهم للإصابة بأمراض الانحلال العصبي. وقد أثبتت هاتان الدراستان عن دور الفيتامين د Vitamine D الذي تم اكتشافه عام ١٩٣٠ في الوقاية من هذه الأمراض أي مرض باركنسن والزهايمرز. كما له مفعول واقي تجاه الكسور والأمراض القلبية- الوعائية وبعض السرطانات والسكري والانهيار العصبي... هناك مليار شخص في العالم مصاب بنقص هذا الفيتامين.

هناك علاقة بين مستوى الفيتامين د في الدم وبين التراجع المعرفي عند ٨٥٨ إيطالي عمرهم يزيد عن ٦٥ عاماً. فبعد مضي ست سنوات على الدراسة بدا أن الأفراد الذين لديهم نقص حاد في الفيتامين د أي يكون معياره في الدم أقل من ٢٥ نانومول باللتر - nmol/l، معرضين للإصابة أكثر بـ١.٦ من الذين لديهم معيار طبيعي لهذا الفيتامين أي nmol/l٧٥ نانومول باللتر. كما تبين أن المرونة الذهنية قد تأثرت واضطربت عند الأشخاص المصابين بسوء التغذية.

هل على الأطباء أن ينصحوا مرضاهم بتناول الفيتامين د بشكل منتظم في سن ٦٥- ٧٠؟ لكن الباحثين لا يعرفون حتى الآن المعيار الأفضل للفيتامين (د) كي يكون له مفعول واقي للأعصاب، كما لا يحددون المعيار الذي فيه يكون ساماً[١٩]....

هناك أيضاً المعالجة المختبرة باستخدام مضادات الالتهاب غير ستيروئيدية أو الاوستروجين.

ويؤكد الباحثون أن أمراض الهضم وسوء الهضم وخصوصاً عند كبار السن، وتعاطي المشروبات الكحولية وبعض الأدوية التي تستنزف الفيتامينات والمعادن، لأن نقص معادن البورون والبوتاسيوم والسيلينيوم، هي من الأسباب الهامة في تدمير الخلايا العصبية. وكذلك نقص مضادات الأكسدة ويلعب فيتامين «سي» دوراً أساسياً كعامل مضاد للتأكسد يحمي الخلايا العصبية. وكذلك الأغذية التي تحتوي على فيتامين «e» لها دور كبير في تأخر تدهور المرض وظهور الأعراض المتقدمة، ومنها: (القمح الكامل - المكسرات - الخضروات ذات الأوراق الخضراء).

في خلاصة الأمر، أصبح لدى العلماء كم هائل من المعرفة التي تخص هذا المرض، لكن الحل ليس مؤكداً بعد رغم أن الاستقصاء يسير بخطى سريعة لأن المجتمع العلمي والمقررين السياسيين فهموا الأهمية الأساسية والاجتماعية والإنسانية للإحاطة بآفة تهدد الصحة العامة للأجيال القادمة في مجتمعاتنا.

الهوامش

١- تعود أصول الدكتور ألزهايمر (ألويز ألتسهايمر) إلى مدينة ماركتبرايت في بافاريا جنوب ألمانيا. أتمّ دراساته في الطب في جامعات: توبنغن وبرلين وفورتسبورغ وأخيراً فرانكفورت - ماين، التي قدم أطروحته فيها عام ١٨٨٧ وتمّ تعيينه طبيب مشفى الأمراض النفسية في هذه المدينة. أسس مدرسة الأمراض العصبية

في ميونيخ ومات بعمر ٥١ سنة اثر اختلاطات كلوية وقلبية من جراء التهاب مفصلي رثيوي حاد.

٢- وفق الأستاذ الدكتور برونو دوبوا Bruno Dubois- مدير معهد مرض الزهايمر في أحد مشافي باريس. لوفيغارو.

٣- الدكتور عبد اللطيف موسى عثمان أستاذ المخ والأعصاب بطب الأزهر.

٤- جان- لوك نوتياس Jean- Luc Nothias صحيفة لوفيغارو ٢٠١٠/٥/١٠.

٥- طبيب الأمراض العصبية وعضو الأكاديمية القومية للطب في فرنسا.

٦- فريديريك شيكلر Frédéric Checler- Le Figaro ٢٠١٠/٦/١٤.

٧- الدكتور فريديريك شيكلر، أخصائي البيولوجيا الخلوية والجزيئية للشيخوخة الدماغية في معهد الصيدلة الجزيئية والخلوية في نيس- فرنسا.

٨- الدكتورة ميشيل ميكا Michelle Micas نائبة رئيس جمعية الزهايمر الفرنسية- تقديم الكاتب الصحفي تريستان فه Tristan Vey- صحيفة لوفيغارو، Journaliste Web;le figaro:fr

٩- فريديريك شيكلر Frédéric Checler- Le Figaro ٢٠١٠/٦/١٤.

10- Health Byrd Alzheimer's Institute at Florida State University

11- Journal of Alzheimer's Disease. – online- Huntington Potter.

١٢- موقع البروفسور بوليو Baulieu.

١٣- صحيفة دي فيلت الألمانية- بعنوان زويتر.

14- http://www.9119.com/vb/82948.html

15- Dr Martin Farlow, professeur de neurologie l'Université de Médecine de l'Indiana

١٦- ٢١ أيلول «اليوم العالمي لمرض الزهايمر» منذ عام ١٩٩٣.

17- Jacques Touchon, professeur de neurologie au CHU de Bordeaux et vice-président du conseil scientifique de France Alzheimer.

١٨- الدكتورة ميشيل ميكا Michelle Micas نائبة رئيس جمعية الزهايمر الفرنسية – تقديم الكاتب الصحفي تريستان فه Tristan Vey- صحيفة لوفيغارو، Journaliste Web;le figaro:fr

١٩- البروفسور ماريان إيفات Pr.Marian Evatt من جامعة إيموري Emory في الولايات المتحدة الأمريكية.

المصادر

- صحيفة لوفيغارو le figaro.fr.

- telegraph.co.uk.
- SBS.com.au.
- The Press Association.
- Alzheimer-conseil.fr.
- Health News.com 242010/8/.
- www.rmc.fr/une-lueur.
- TF1News.
- money.ninemsn.com.au
- d-alzheimer.

- شبكة النبأ المعلوماتية ٢٢ آب.

الدراسات والبحوث



المخطوطات العربية المترجمة

د. محمد ياسر زكور ⊛

(غاية الغرض في معالجة المرض) نموذجاً

الحكمة ضالة المؤمن، أخذها أينما وجدها، والحضارة العربية الإسلامية بدأت بالترجمة عن اللغات الأخرى: اليونانية والهندية والقبطية والسريانية وغيرها ....، كما هو معروف، وتأثرت بها وطورتها وأضافت إليها الكثير من العلوم والاكتشافات، وامتزجت الحضارات وانصهرت كلها في بوتقة الحضارة العربية الإسلامية، فتلتها فترة ظهور إبداعات العرب في العلوم

⊛ باحث في تاريخ العلوم الطبية - سورية.

كافة، والتصانيف الغزيرة التي أمدّت العالم بحضارة هي فريدة عصرها، حتى غدا الكثير من العلماء المنحدرين من جنسيات غير عربية يكتبون ويتعلمون ويعلمون باللغة العربية، هذه اللغة التي أضاءت الكون بإشعاع حضارتها وغزارة مفرداتها في التعبير عن كل ما يكنّه العقل.

وحركة الترجمة التي بدأها ماسرجويه البصري في عصر مروان بن الحكم، والتي بلغت أوجها وازدهرت في عصر المأمون على يد ابن ماسويه وحُنين وهلال الحمصي... وغيرهم، هذه الترجمات يبدو أنها لم تتوقف على الرغم من غزارة التواليف العربية، وخصوصاً عندما يكون الكتاب مهماً، غزيراً في معلوماته، غني الفائدة.

أما في بداية عصر التباطؤ وشح المؤلفات العربية في ظل الحكم العثماني، وبداية النهضة الأوروبية، فلم تعدم بعض المؤلفات بين حين وآخر، إضافة إلى ترجمة الكتب المهمة عن اللغات الأخرى إلى العربية، كما بدأت الترجمة من اللاتينية أيضاً، بعد أن كانت جل المؤلفات العربية تترجم إلى اللاتينية وغيرها. وكان هناك الكثير من الكتب التي ترجمت من الفارسية إلى العربية، فمثلاً من أوائل هذه الكتب كان كتاب «الذخيرة الخوارزمشاهية» للشريف شرف الدين إسماعيل الجرجاني الخوارزمشاهي (ت٥٣٥هـ/١١٤٠م).

والآن سوف نقدم كتابنا هذا موضوع البحث، والذي كان يحمل عنوان «المنهج» لنجيب الدين محمد بن علي السمرقندي، ثم وضع له عنوان آخر بعد ترجمته إلى العربية باسم «غاية الغرض في معالجة المرض» والذي ترجمه الشريف منصور الحسيني الحسني.

مخطوط

«غاية الغرض في معالجة المرض»

إن المؤلف الأساسي لهذا الكتاب هو نجيب الدين السمرقندي، صاحب المؤلفات العديدة باللغة العربية، لم نجد له في كتب التراجم ما يشير إلى أي من المؤلفات بغير اللغة العربية إلا كتابه هذا المسمى «المَنْهَج» والذي هو مؤلف على ما يبدو باللغة الفارسية، لغة أهل سمرقند وخراسان، التي عاش فيها، وهذا الكتاب لم تذكره المصادر التي تحدثت عن السمرقندي، وإنما أخذ اسمه من المخطوط ذاته.

والكتاب لأهميته ترجم إلى العربية من قبل الشريف منصور الحسيني الحسني، الطبيب الذي بدوره لم نجد له ترجمة خاصة في كتب التراجم، وإنما استقينا المعلومات عنه من المخطوط الذي بين أيدينا، والذي قمنا

بتحقيقه أيضاً، والذي تحول فيه العنوان إلى «غاية الغرض في معالجة المرض».

ولا عجب من ذلك، فالكثير من المخطوطات، والكثير من الأعلام ما زلنا نجهلهم، والكثير منهم ليس لدينا معلومات عنهم إلا من خلال مخطوطاتهم التي ألّفوها، وكنت قد قدّمت في ندوات سابقة أعلاماً وكتباً لم نكن نعرفهم لولا دراسة المخطوطات التي ألّفوها، مثل علي بن إبراهيم بن بختيشوع الكفرطابي من خلال كتابه «تشريح العين ومداواة أعلالها»، وجمال الدين محمد ابن إبراهيم المارديني من كتابه «الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية»، واليوم أقدم هذا الكتاب نموذجاً لأحد الكتب المترجمة إلى العربية، والكتاب لم يكن معروفاً لنا من قبل، ومترجمه كذلك.

وبداية سنقدم لمحة عن مؤلف الكتاب الأساسي، ثم مترجمه.

نجيب الدين السَّمَرْقَنْدي[1]
(توفي ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م)

هو نجيب الدين أبو حامد محمد بن علي بن عمر السَّمَرْقَنْدي، ذكره ابن أبي أصيبعة بين طبقات الأطباء الذين ظهروا في بلاد العجم، وقال: «إنه طبيب فاضل بارع وله كتب جليلة وتصانيف مشهورة، وقتل مع جملة الناس الذين قتلوا بمدينة هَراة لما دخلها التتر، وكان معاصراً لفخر الدين الرازي بن الخطيب[2]».

عاش نجيب الدين السمرقندي في هَراة؛ وهي من أمهات مدن خراسان، زارها ياقوت الحمَوي سنة ٦٠٧هـ وقال إنه لم يرَ أجمل ولا أعظم منها، هاجمها الكفار من التتر سنة ٦١٨هـ فخربوها، وتوفي السمرقندي شهيداً فيها سنة ٦١٩هـ. ويقول الذهبي في كتابه تاريخ الإسلام: «النجيب أبو حامد السمرقندي الطبيب، نزيل هَراة...». وهذا يشير إلى أن معظم حياة السمرقندي كانت في هَراة.

مؤلفاته[3]:

ذكر ابن أبي أصيبعة من مؤلفاته بقوله: «ولنجيب الدين السمرقندي من الكتب:

١- كتاب أغذية المرضى وقسمه على حسب ما يحتاج إليه في التغذية لكل واحد من سائر الأمراض.

٢- كتاب الأسباب والعلامات (أو النجيبيات في الطب) جمعه لنفسه ونقله من القانون لأبي علي بن سينا، ومن المعالجات البقراطية لأحمد بن محمد الطبري، ومن كامل الصناعة لعلي بن عباس المجوسي، ويذكر فيه أسباب الأمراض وعلاماتها ومعالجتها، وكيفية استخلاص الدواء من النبات. وللكتاب ثماني عشرة نسخة خطية

في مكتبات العالم، كما أحصاها زهير حميدان في أعلام الحضارة.

٣- كتاب الأقرباذين الكبير.

٤- كتاب الأقرباذين الصغير.

وأضاف على تلك المؤلفات البغدادي في هدية العارفين:

٥- أصول التراكيب في الطب.

٦- الأغذية والأشربة للأصحاء.

٧- رسالة في مداواة وجع المفاصل، وغير ذلك.

وذكر خير الدين الزركلي من مؤلفات السمرقندي، واعتماداً على ما ذكره بروكلمان في تاريخ الأدب العربي بين مؤلفات نجيب الدين السمرقندي:

٨- وله غاية الغرض في معالجة الأمراض (كذا كتبها بروكلمان)، وأضاف: وهو بالأصل باللغة الفارسية بعنوان «المَنْهَج» ترجمه منصور الحسني، في مكتبة برلين برقم (٦٢٨٨).

وأضاف زهير حميدان في «أعلام الحضارة»، على هذه المؤلفات ما ذكره بروكلمان وفهارس المكتبات:

٩- كتاب الباه مما وصفه الفلاسفة والحكماء لساداتها، نقله من اليونانية إلى العربية.

١٠- مقالة في كيفية تركيب طبقات العين.

١١- كتاب في الطب.

١٢- الإرشاد في الطب النافع لجميع الأمراض.

١٣- أطعمة المرضى.

١٤- قوانين تركيب الأدوية القلبية.

١٥- المعاجين والأشربة.

١٦- كتاب الأدوية المفردة المستعملة وذكر خواصها.

١٧- الأدوية المسهلة.

١٨- أبدال الأدوية التي وردت في كتاب الأدوية المفردة.

١٩- متن أدب البحث.

٢٠- نوادر الحكمة.

الشريف منصور الحسيني الحسني

(كان حياً سنة ١٠٨٥هـ)

لم تذكر المصادر أي ترجمة لهذا الطبيب العلم، بل إن المعلومات التي استقيناها عنه هي من مخطوطه «غاية الغرض في معالجة المرض» حيث ذكر اسمه في فاتحة المخطوط بهذا الشكل: الشريف منصور الحسيني الحسني. أما العصر الذي عاش فيه فكان اعتماداً على ما ذكر في نهاية مخطوط نسخة الأزهرية، حيث ذكر فيه أن هذا الكتاب تم تأليفه سنة ١٠٨٥هـ.

عائلة منصور الحسيني:

إن هذه العائلة تتمتع بعراقة في الطب وفي علم الحديث، فمن خلال البحث توصلنا

إلى مصطفى بن منصور الطبيب (ولعله ابن المترجَم)، ومنصور بن مصطفى بن منصور المحدث (ولعلــه حفيد المترجَم)، وسنورد ما وجدنا من قرائن، وهي لشمول البحث وليس لتأكيد النسب.[4]

أولاً: مصطفى بن منصور الطبيب

(١١١٥- بعــد ١١٤٥هـــ/١٧٠٣- بعد ١٧٣٢م) لم يترجمــه إلا الشيخ راغب الطباخ في «إعلام النبلاء» بقوله:

ومصطفـــى بـــن منصـــور الطبيب كان حاذقاً مصيبــاً ذكياً جداً، قــرأ على العالم الفاضل الشيخ قاسم البَكْرَجي[5] وعلى العالم الكامل علــي الميقاتي[6]. وقرأ علــى والده فريد عصره علــم الطب، وألف «رسالة في علم النبض». خرج مصطفى بن منصور من الشهباء سنــة ١١٤٥هـ وهو في الثلاثين من العمر، ودخل دار الخلافة في إستانبول،.... وله رحلة ذكر فيهــا من لقي في طريقه من الأفاضــل والأدبــاء، ولم يلبــث إلا قليلاً في إستانبول حتى انتقل إلى رحمة الله مطعوناً، فرحمه الله تعالى.

فلا يستبعد إذاً أن يكون هو ابن الطبيب الشريف منصور الحسيني الحسني، فالاسم والفترة الزمنية مطابقة، والله أعلم.

ثانيــاً: منصــور بــن مصطفــى بــن منصور بــن صالح زين الدين، السرميني الحسينــي الحسنــي الحلبــي[7]، الخلوتي النقشبندي المحدّث، الذي ولد بسرمين سنة ١١٣٦هـ/١٧٢٣م، ثم ارتحل بين حماة ومصر وحلب ودمشق، وهو صاحب «كشف الستور المسدلة عن أوجه أسرار البسملة»، و«كشف اللثام والستور عن مخدرات أرباب الصدور»، وتوفي سنة ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م ودفن بمدرسته التي بناها في حلب بمحلة الفرافرة.

كذلــك هنا الاســم والفــترة الزمنية لا تتعارض أن يكون هــو حفيد المترجَم، والله أعلم.

ثالثــاً: ذكــر أمين المحبــي في خلاصة الأثر، وفي نفحة الريحانة، في ترجمة والده فضل الله المحبي (١٠٣١- ١٠٨٢هـ/١٦٢١-١٦٧١م)[8]:

ففي «خلاصــة الأثر» يقول: ومن رسالة له أرسلها إلى منصور الطبيب العيسوي، أما في «الريحانــة» فيقول: وله رسالة كتبها إلى منصور الطبيب الغزواني[9]، يشكو إليه علة لزمته وبرداً وقــع في ذلك العام خارجاً عن معتاد أهل الشام:

أنــا أصبحــتُ لا أطيــق حــراكــاً
كيــف أصبحــتَ أنــتَ يــا منصــورُ

قد طالت العلــة، وطابت العزلة، فليس في الحركة هــذا الآن بركة، والانقطاع أربح متاع، والاجتماع جالب الصداع.....

ولعل هنا أيضاً يكون المترجم منصور الحسيني من معاصري فضل الله المحبي، وأن المقصود في الرسالة هو ذاته، فالاسم والفترة الزمنية متوافقة أيضاً، والله أعلم.

النتيجة: للمحقق في حال كهذه أن يأخذ بظاهر ما في النسخة الخطية، ويهمل سائر الأقوال والقرائن فلا يدخلها في الاعتبار، ويتحفظ في ذكرها لشمول البحث فحسب. فإذا فعلنا كان مصدر ترجمة الشريف منصور الحسيني الأصيل هو المخطوطة عينها.

حياته: نستنتج من المخطوط أن حياة الطبيب منصور الحسيني كانت أكثرها في مصر، حيث تكرر في المخطوط ذكر القاهرة أو ما يدل على أنه كان يعيش فيها حين ترجمته للمخطوط، فمن ذلك قوله:

- في فاتحة الكتاب وفي نسخة دار الكتب (١٣٢) بالقاهرة يقول فيها بأن ترجمة هذا الكتاب كانت بأمر من: الأمير مجد الدين القاهرة، الذي لم نتوصل إلى شخصه بالتأكيد أيضاً.

- في الباب التاسع والثلاثين يذكر نوعاً من الجبن يقول عنه: (المسمى في هذه البلاد بمش...) وهي كلمة مصرية.

- استخدم كثيراً كلمة السنانير، وهي تطلق في مصر على الأملح، ينظر الباب الخامس.

- استخدم كلمة «الماجور» وهي كلمة محلية مستخدمة في صعيد مصر، بمعنى «وعاء» أو «قدر». في الباب التاسع والعشرين.

نسبة المخطوط إلى مؤلفه

إن عنوان المخطوط ذكر في ثلاث نسخ خطية وهي نسخة برلين، ونسخة مكتبة الإسكندرية، ونسخة الأزهرية، وكان العنوان فيها «غاية الغرض في **معالجة المرض**» للشريف منصور الحسيني الحسني، أما النسختان في دار الكتب **بالقاهرة** فلم يذكر فيهما عنوان «غاية الغرض...» بل بقيتا على عنوان الكتاب الأساسي قبل ترجمته باسم «المنهج» لنجيب الدين، ولكن المحتوى ذاته.

إن ما يرجح كون الشريف منصور الحسيني قد عاش في نهاية القرن الحادي عشر الهجري عدة أمور منها:

- إن النسخ التي بين أيدينا هي مؤرخة بعد هذا التاريخ وهي؛ نسخة الإسكندرية المؤرخة سنة ١٢٠٣هـ، ونسخة دار الكتب بالقاهرة ١٣٢ نسخت سنة ١٢٤٨هـ، نسخة دار الكتب ١٣٩٧ لا يوجد فيها تاريخ النسخ ولكن يتبعها نسخة من كتاب (مغني اللبيب

حيث لا يوجد طبيب) لإبراهيم الأزرقي وهي منسوخة سنة ١١٨٠هـ، ونسخة مكتبة برلين مؤرخة سنة ١٢٠٩هـ. والأهم من ذلك كله نسخة المكتبة الأزهرية كما ذكرنا أكدت تاريخ تأليف الكتاب سنة ١٠٨٥هـ.

- إن المؤلف أضاف الكثير من المعالجات على المخطوط الأساسي الذي ترجم عنه، وهذا طبيعي لأن المؤلف الذي ترجم هو طبيب وأَمَـرَه الأمير مجد الدين (الذي لم نتوصل إلى ترجمة له) في القاهرة لترجمة هذا الكتاب، فترجمه وشرحه وأوضح خفاياه كما قال في المقدمة، ونحن لاحظنا أنه أضاف الكثير من خبرته فيه، وهذا كان واضحاً من خلال قوله في العديد من المواضع: وقد جربنا ذلك.... وهذا ما جربناه.....

وأهم تلك الإضافات والتي ثبتت في كل النسخ هو ما جاء في الباب الثامن والخمسين: **دهن لحب الإفرنجي**، ونحن نعلم أن الحب الإفرنجي لم يكن معروفاً قبل عهد داود الأنطاكي (توفي ١٠٠٨هـ) الذي ذكره لأول مرة في كتابه «نزهة الأذهان في إصلاح الأبدان» ثم في «النزهة المبهجة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة»، وأخيراً في تذكرته «تذكرة داود»، وهذا ما يرجح أن مؤلف «غاية الغرض...» كان بعد الأنطاكي.

- لقد نسب المخطوط خطأً في بعض المراجع إلى غير مؤلفه، يستحسن أن نذكرها:

- جاء في إيضاح المكنون للبغدادي ج٢ ص٩٩: غاية الغرض في معالجة المرض للشريف منصور بن أحمد الحسيني الحسني صاحب «عمدة المتطببين» أولها الحمد لله الذي إذا مرضت فهو يشفين... إلخ. في مجلد. وذكر في الكتاب ذاته (ج٢ ص٨٧) عمدة المتطببين في فن الصيدلة المعروف بالأقرباذين تأليف منصور بن أحمد المصري الحسيني المتوفى سنة.... أولها الحمد لله مدبر الكائنات... إلخ في مجلد مطبوع.[١٠] أما منصور بن أحمد هذا فكان حياً سنة ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م، وهو كيماوي صيدلي من أهل مصر، درّس بالمدرسة الطبية ومدرسة الهندسة، من آثاره: عمدة المتطببين في فن الصيدلة المعروف بالأقرباذين طبعت ببولاق سنة ١٢٨٣هـ في حياة المؤلف في مجلدين، وله اللآلئ السنية في الفوائد الكيماوية، وغاية الغرض في معالجة المرض. كذا ذكره كحالة في معجم المؤلفين، وحميدان في أعلام الحضارة، اعتماداً على ما جاء في فهرس البلدية بالإسكندرية والله أعلم.[١١]

بالطبع يستبعد أن يكون كتاب غاية الغرض لهذا المؤلف لأن أكثر النسخ مؤرخة

قبلـه؛ فمثـلاً نسخـة مكتبـة الإسكندرية مؤرخة سنة ١٢٠٣هـ وناسخها عبد الرحيم القفاوي. والأهم مـن ذلك أيضاً كما ذكرنا أن تأليف الكتاب كان سنة ١٠٨٥هـ كما ثبت في نسخة الأزهرية. كما ويستبعد أن يكون منصور هذا في العصر الحديث ويضع كتاباً يتحدث عن صناعة الجوارش وما أشبهه من مركبات الطب القديم.

هناك أيضاً الشريف منصور (توفي سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م): منصور بن ناصر بن محمد الحسني التهامي أمير صَبيا وكانت تابعة لأبي عريش، وفي أيامه استولى آل سعود على صَبيا فرحل إلى الشمال سنة ١٢٣٠هـ مغاضباً عمه ودخل في طاعة الأتراك بمكة وعاد مع جيش منهم لقتال عمه فانهزم الأتراك وقتل الشريف منصور.[١٢]

ونستبعد أن يكون هذا أيضاً له علاقة بالكتاب، للأسباب السابقة الذكر وهي أنه هناك نسخ خطية للكتاب قبل هذا التاريخ، والأهم طبعاً أن تأليف الكتاب كان سنة ١٠٨٥هـ، والسبب الآخر أن الشريف منصور هذا لا علاقة له بالطب. وإنما ذكرناه هنا لأن نسخة دار الكتب ١٣٢ المؤرخة ١٢٤٨هـ جاء في مقدمتها: «... يقول العبد الضعيف.... شريف بن ناصر الحسني الحسيني...» وهو خطأ من الناسخ والله أعلم.

النسخ الخطية لكتاب غاية الغرض في معالجة المرض

إن النسخ الخطية لهذا الكتاب التي استطعنا أن نتوصل إليها والحصول عليها كانت خمس نسخ:

١- نسخة مكتبة الإسكندرية، برقم ٤٧٧٥، (٣٦ ورقة). غاية الغرض في معالجة المرض، النسخة مؤرخة سنة ١٢٠٣هـ على يد عبد الرحيم حمد طايع القفاوي.

٢- نسخة دار الكتب بالقاهرة برقم ١٣٩٧ طب، مصورة على شريط بمعهد التراث بحلب تحت رقم (١٠٥٠)، (٢٦ ورقة) بعنوان «غاية الغرض في معالجة المرض» ذكرت في فهرس الخديوية[١٣]. يحتمل نسخت سنة ١١٨٠هـ، وقد نوهنا لذلك سابقاً، وهي مفهرسة باسم «المنهج» للشيخ نجيب الدين ونقله للعربية الشريف منصور الحسيني الحسني.

٣- نسخة أخرى برقم ١٣٢طب- ف٤٤٠، مصورة على شريط بمعهد التراث بحلب تحت رقم (١٠٥١)، (٥١ ورقة)، مؤرخة سنة ١٢٤٨هـ على يد صاحب الكتاب، ولعله مالك الكتاب.

٤- نسخة مكتبة برلين برقم ٦٢٨٨، (٥٠ ورقة)، كتاب غاية الغرض في معالجة المرض لمنصور الحسيني السيد الشريف، النسخة

مؤرخة سنة ١٢٠٩هـ/١٧٩٤م، الناسخ محمد بن الشيخ مصطفى الكفتاني.(١٤)

٥- نسخــة المكتبة الأزهرية برقم (٣١٨ مجاميــع) ١٠٢٩٥، (٢٤ ورقــة)، بعنــوان «كتــاب غاية الغرض في معالجة المرض وما يتعلق بالبدن من الأمراضـ» تأليف الشيخ منصور الحسيني الحسني، من ورقة ١-٢٦، وفي نهايتهــا ذكر تاريــخ تأليف الكتاب سنة ١٠٨٥هـ.(١٥)

يحتــوي المجمــوع أيضــاً علــى عدة مخطوطات منها: «الوقف والابتداء» لم يعرف مؤلفها، برقــم (٣١٨ مجاميع) ١٠٢٩٥، من ورقــة ٨٨-٩٤. و«ذخر المتأهلين والنساء في تعريف الأطهار والدماء» لزين الدين محمد بن بير علــي، وهذا المخطــوط ضمن هذه المجموعة التي كتــب بعضها سنة ١٢٧٨هـ، برقم (٣١٨ مجاميع) ١٠٢٩٥، من ورقة ٦٩-٧٧. وفي المجمــوع أيضــاً مخطوط «حاشية حجــازي»- وهو العلاّمة حجــازي بن عبد المطلب العــدوي المالكي مــن علماء القرن الثالــث عشر الهجري- علــى شرح الدردير على رسالته (تحفة الإخوان)، أولها: نحمدك يا من تعــالى عن التشبيــه والتمثيل...إلخ، نسخــة ضمن مجموعة في مجلد بقلم معتاد، سنة ١٢٧٨هـ مسطرتها ٢٥ سطراً (من ورقة ٤٧-٦٨) - ٢٤ سم.(١٦)

توصيف الكتاب

الكتــاب كمــا ذكرنــا عنوانــه بالأصل «المنهج» لنجيب الديــن السمرقندي، ترجم من قبــل الشريف منصــور الحسيني تحت عنوان «غاية الغرضــ في معالجة المرض»، وكانت ترجمته بنــاء على طلب الأمير مجد الدين في القاهرة.

يبــدأ الكتــاب بالفاتحة، بعــد البسملة والحمد، والتي يقول فيها:

«... أما بعد فيقــول العبد الضعيف... الشريــف منصــور الحسينــي الحسني: لمّا كانت طاعــة أولي الأمر واجبــة... وأمرني الأمير المطاع... مولانا الأمير مجد الدين... بتعريــب كتــاب في الطب بلســان أعجمي، المسمــى «بالمنهــج»، أن أترجــم عنه بكلام عربي غير ذي عوج، فأطعته».

ثم يتابع منصــور الحسيني في الفاتحة قوله مبيناً ما قام بعمله في هذا الكتاب؛ فهو لم يترجمه فحسب بــل شرح ما فيه، وأوضح الغامض منه بقوله:

«وشرعــت فيه مريــداً أن أشرح ما فيه، وإن قصر الجهد عمــا يوافيه، وأكشف عن وجــوه المخدورات نقابهــا، وأبرز ما اختفي من الأسرار وأذلــل صعابها، لتظهر خباياه، وتشهر خفاياه، فيهتدي إليه كل هاد ...».

ثم يتحدث الحسيني عن شرف الطب والمؤلفات التي صنفت فيه، ويقول:

«وفيه مصنفات كثيرة ومؤلفات عديدة غزيرة، ومن جملة ما صنف فيه كتاب «المنهج» للشيخ الإمام... نجيب الدين، تغمده الله بغفرانه...».

وفي نهاية الفاتحة يصف السرميني هذا الكتاب بقوله:

«... وهو كتاب مبوب بحسب **الأمراض والأغراض** والأدوية التي تناسبه، وجعله عدة أبواب، فمنها ...».

وهنا نلحظ أنه اختار من هذه الأبواب إحدى وستين باباً، ثم أتبعها بخاتمة تضم أقوال بعض القدماء أمثال سقراط، والشريف إسماعيل الجرجاني الخوارزمشاهي والرازي.

ينقسم الكتاب إلى قسمين: الأول يضم ٤٧ باباً في معالجة أمراض الجسم كلها مبتدئاً بأمراض الرأس ثم العين والأذن... إلخ، حيث يذكر اسم المرض فقط والعلاج المناسب له، دون ذكر أسبابه أو أعراضه أو علاماته، وهو ما يشبه الكتب التي تدعى حاليا «بدليل المعالج». والقسم الثاني: من الباب الثامن والأربعين حتى الحادي والستين يتحدث فيه عن الأدوية المركبة: الترياقات والبادزهرات، والمعاجين، والأقراص... إلخ، وينهي بخاتمة فيها أقوال بعض المتقدمين كما ذكرنا.

أهمية الكتاب العلمية والتاريخية

أولاً- ترجم الكتاب من الفارسية إلى العربية بعد فترة زمنية طويلة بين تأليفه وترجمته التي تمتد إلى حوالي خمسمئة عام، فهذه القفزة الزمنية الطويلة تثير تساؤلات كثيرة؟؟

ثانياً- لقد ترجم الكتاب بأمر من أحد الأمراء، الأمير مجد الدين، الذي لم نتوصل إلى ترجمته، وهذا ما يزيد في أهمية الكتاب والاهتمام به.

ثالثاً- لعل كتاب «المنهج» هو الوحيد الذي كان بلغة غير العربية لنجيب الدين السمرقندي، والذي يعتبر من مشاهير الأطباء في عهد الحضارة العربية الإسلامية.

رابعاً- إن مخطوط «غاية الغرض..» أظهر لنا علماً من أعلام الطب العربي كنا نجهله، كغيره من الكثيرين الذين ما زالوا مجهولين من قبلنا، وهو الشريف منصور الحسيني.

خامساً- يبدو لنا من خلال المخطوط أن منصور الحسيني كان من الأطباء المشهورين في عصره، فلقد أضاف إلى الكتاب الكثير من خبراته الطبية والكثير من الأدوية المركبة، سوف نستعرض بعضها لاحقاً.

سادساً- غناه بالمعلومات الطبية والأدوية المركبة الفريدة، والتي سوف نذكر بعضها لاحقاً.

سابعاً- ولأهمية الكتاب فلقد كان له عدة نسخ خطية موزعة في المكتبات العربية والأجنبية، أحصينا خمساً منها.

مقتطفات من الكتاب

- التفريق بين الإسهال الحقيقي، وبين الإسهال الكاذب، حيث يقول في الباب الستين، في الحديث عن أحد الأدوية المقبضة للإسهال: «... ولكن لا يستعمل إلا لثلاثة أيام تمضي من الإسهال، حتى يعرف أن الإسهال صادق أو كاذب، وطريقة معرفته أن يسقى المستهسل بزر قَطُونا بالماء البارد، فإن خرج من الدبر مع الإسهال، يكون الإسهال صادقاً، وجب قطعه، وإن لم يخرج البزر قطونا، يكون الإسهال كاذباً، فلا يجوز قبضه، فإنه يورث الحمى أو مرضاً يكون أكبر ضرراً من الإسهال».

- معالجة الجروح باللصقات أو بالفتيلة حسب نوع الجرح، فيقول في الباب الحادي والستين في الحديث عن مرهم للجراحات الخبيثة: «... يستعمل في وقت الضرورة فتيلة واحدة على قدر الجراحات؛ إن كانت غائرة بطريقة الفتيلة، وإن كانت ظاهرة بطريقة اللصقة...».

- طريقة معالجة ضعف الشم بالرذاذ الأنفي، حيث يقول في الباب الرابع: «... أو يؤخذ من الحبة السوداء كل يوم مقدار درهم، تدق وتنخل، وتنفخ على الخشم (الخيشوم وهو أقصى الأنف) في قصبة».

- كان المؤلف يستند في الكثير من الأحيان على حجج من السنة النبوية في الكتاب، منها ما جاء في الباب الخامس والثلاثين، في الحديث عن مرض عرق النَّسا بقوله: «... والنَّسا في اللغة العرق نفسه، وفي الاصطلاح هذا المجموع اسم لذلك المرض الذي ذكرته، وصححه الحديث، وهو ما روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: شفاء عرق النَّسا في ألية شاة أعرابية، تذاب ثم تجزأ...». وفي الباب السابع عشر وفي الحديث عن مرض الاستسقاء يقول في معالجته بلبن الإبل وبولها: «... كما ورد في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن أناساً من عُرَيْنة قدموا المدينة فاجتووها[١٧]، فبعثهم النبي صلى الله عليه وسلم في إبل الصدقة، وقال اشربوا من ألبانها وأبوالها».

- جاء في الكتاب الكثير من الأدوية المركبة، ولعل منها لم يذكر في غيره من الكتب، منها: حب النبات، دهن الثوم والبصل،

المرهم الكافوري، جوارشن المصطكي... وغيرها.

- ومن المعالجات النادرة التي وجدت في الكتاب مثلاً: معالجة اليرقان بالحيتان، حيث يقول في الباب السادس عشر: «... أو يأخذ حيتاناً صغاراً ثلاثة، ويبلعها بلا طبخ، والله أعلم». وكذلك أيضاً معالجة القوباء (وهي الحزاز حالياً) بوسخ الأسنان، حيث يقول في الباب الثامن والثلاثين: «يؤخذ على الريق من وسخ الأسنان ويمسح بها الموضع».

- كان الحسيني يستخدم الكثير من المعالجات التي وجدها في هذا الكتاب، فجربها على المرضى، حيث تكرر في الكتاب عبارات: «أنا بحمد الله وتوفيقه أعالج أكثر الأمراض بذلك المعجون... والذي جربته مراراً متعددة... ولقد جربته تجربة تامة... وهذه العلاجات جربناها مراراً... وقد جربناه غير مرة...».

- من الإضافات التي وضعها الحسيني على الكتاب مثلاً ما جاء في الباب الخامس قوله في تركيب الإطريفل: «... وجعل له صفة أخرى في منهاج الدكان غير هذه، ونصه...». ومعلوم أن منهاج الدكان صنفه ابن أبي نصر سنة ٦٥٨هـ أي بعد وفاة نجيب الدين السمرقندي.

- ومن الإضافات المهمة أيضاً لمنصور الحسيني ما جاء في الباب الثامن والخمسين، وهو دهن **للحب الإفرنجي**، والداء الإفرنجي لم يكن معروفاً في عهد نجيب الدين السمرقندي، بل أول من ذكره داود الأنطاكي (توفي ١٠٠٨هـ)، وهذا مما يزيد احتمال كون الحسيني كان من أهل القرن الحادي عشر الهجري، وهو يقول في هذا الموضع: «وهذه العلاجات جربناها مراراً فما تخلفت قط، ولبسنا عليها خلعاً كثيرة من السلاطين والأمراء، ولا فخر».

خاتمة

إن تمازج الحضارات كان وما زال عمدة الارتقاء بالبشرية إلى ما هو أفضل، والتأثير والتأثر فيما بينها يبقى موئل كل باحث وكل عالم في المعمورة، ما دام الهدف والغاية دائماً هو الإنسان وسلامته وتأمين أفضل حياة أمينة له. وقد سبقنا أجدادنا الأعلام في توطيد تلك العلاقة السامية ما بين العلماء، وللأسف فما نزال نجهل الكثير من هؤلاء الأعلام ومخطوطاتهم، لذا يترتب علينا أن نبحث في مخزون المخطوطات العربية دائماً، لأن فيها الكثير الكثير مما لم يكتشف بعد، ولا يمكننا معرفته من خلال ما تحدث عنه المؤرخون فقط، بل يجب علينا أن نتوجه إلى هذا المخزون الحضاري الزاخر، لأن فيه

غايتنا ومبتغانا مما قد نجهله، ولانتوصل إليه إلا من خلال دراسة المخطوطات المتناثرة هنا وهناك في بقاع الأرض، والله الموفق.

الهوامش

١- أخذت ترجمته عن المصادر والمراجع التالية: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص٤٧٢. الصفدي، الوافي بالوفيات ج٤ ص١٨٤. الحموي، معجم البلدان ج٥ ص٣٩٦. الذهبي، تاريخ الإسلام وفيات ٦١١-٦٢٠هـ ص٤٢٥. البغدادي، هدية العارفين ج٢، ص٨٨. الزركلي، الأعلام ج٦، ص٢٨٠. كحالة، معجم المؤلفين ج٣ ص٥٢٤. حميدان، أعلام الحضارة ج٤ ص٢٦٦.

٢- هو الإمام فخر الدين أبو عبد الله محمد بن العمر بن الحسين الرازي، ويدعى بابن خطيب الري (٥٤٤-٦٠٦هـ). ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص ٤٦٢. حميدان، أعلام الحضارة ج٤ ص٢٧٨. الزركلي، الأعلام، ج٦ ص٣١٣.

٣- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص٤٧٢. البغدادي، هدية العارفين ج٢ ص٨٨. الزركلي، الأعلام، ج٦ ص٢٨٠. Brockelman ١: ٦٤٦. أعيان الشيعة، جلد ١٠. حميدان، أعلام الحضارة، ج٤، ص٢٦٧.

٤- الطباخ: إعلام النبلاء ج ٦ص ٤٥٠؛ ج٧، ص١٣٨. الزركلي: الأعلام، ج٧، ص٢٠٤. كحالة: معجم المؤلفين، ج٣، ص٩٢٠. البغدادي: هدية العارفين ج ٢، ص٣٦٩. المحبي: خلاصة الأثر ج٣، ص٢٨٥. المحبي: نفحة الريحانة ج ٢ ص ٣١٣. المرادي: سلك الدرر ج ٣ ص١٩٤. مردم بك: أعيان القرن الثالث عشر ص ٣٣، وفيه ولادة منصور السرميني سنة ١١٣٤هـ. كيالي: تاريخ الطب في حلب ص١٢٤ وما بعد.

٥- قاسم البكرجي (١٠٩٤-١١٦٩هـ) (١٦٨٣-١٧٥٦م)

قاسم بن محمد الحلبي، الحنفي، عالم أديب ولد بحلب. من آثاره: العيون الغمزية والإرشادات الرمزية على القصيدة الهمزية للبوصيري، الفوائد البكرجية على القصيدة الخزرجية في العروض، حلية البديع في مدح النبي الشفيع والمطلع البدري على بديعية البكري. (الزركلي: الأعلام ج٥ ص ١٨٣).

٦- علي الميقاتي (١١٠٤- ١١٧٤هـ/ ١٦٩٢- ١٧٦٠م)، علي بن مصطفى الدباغ، المعروف بالميقاتي: فاضل من أهل حلب، له «شرح البخاري» و«حاشية على شرح الدلائل للفاسي» وله نظم ونثر. (المرادي: سلك الدرر ج٣ ص٢٤٨-٢٦٠. الزركلي: الأعلام ج٥ ص٢٢).

٧- الطباخ، إعلام النبلاء، ج٧ ص١٣٨، ١٤٠. المرادي، سلك الدرر ص٣٣. البغدادي، هدية العارفين ج٢، ص٣٦٩ وفيه اسمه السيد منصور بن عبد الله السرميني.

٨- المحبي: خلاصة الأثر ج٣ ص٢٨٥. المحبي: نفحة الريحانة ج٢، ص٣١٣.

٩- حاشية في نفحة الريحانة تقول: الغـزواني: في نسخة القرواني، وجاء اسمه في خلاصة الأثر (منصور العيسوي) ولم يترجم فيها.

١٠- البغدادي، إيضاح المكنون (ج٢ ص٨٧، ٩٩).

١١- كحالة، معجم المؤلفين، ج٣، ص٩١٢. حميدان، أعلام الحضارة ج٦ ص٣٠٤.

١٢- الزركلي، الأعلام، ج٧، ص٣٠٥.

١٣- فهرس الكتبخانة الخديوية ج٦ ص٢٥. الطهراني، الذريعة، ج١٦ ص ١٤ رقم ٥٤.

14- Ahlwardt catalogue p: 552.

١٥- فهرس المكتبة الأزهرية، ج٦، ص١٢٤.

١٦- فهرس المكتبة الأزهرية ج١، ص١٣٥، ج٢ ص٢٦، ج٤، ص٣٦٥.

١٧- أي اجتووا المدينة: كرهوا المقام فيها لسقم أصابهم من الجوى؛ وهو داء في الجوف. (ينظر الطب النبوي لابن قيم الجوزية ص ١٥٢، وينظر قاموس الأطبا للقوصوني ج٢ ص ٢٢٢).

المصادر والمراجع

- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت، ١٩٦٥م.
- ابن أبي نصر، أبو المنى العطار الإسرائيلي الهاروني، منهاج الدكان ودستور الأعيان في أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان، طبع سنة ١٢٨٧هـ في عهد الخديوي إسماعيل، على ذمة الشيخ حسن زغلة، بمطبعة حسين بك حسني.
- الأمين، حسن، أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات- بيروت ١٩٨٦م.
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي الشهير بالملا كاتب الحلبي والمعروف بحاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ٦ مجلدات، دار الفكر، بيروت- لبنان ١٩٩٢م. المجلدان الثالث والرابع هما (إيضاح المكنون للبغدادي)، والمجلدان الخامس والسادس هما (هدية العارفين أسماء المؤلفين للبغدادي).
- الحموي، ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٩٩٥م، ٧ مجلدات.
- حميدان، زهير، أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق ١٩٩٥م. ٦مجلدات.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى ٧٤٨هـ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي ١٩٩٣م.
- الزركلي، خير الدين، الأعلام، الطبعة الرابعة عشرة ١٩٩٩م، دار العلم للملايين بيروت. ٩ مجلدات.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، الطبعة الثانية باعتناء محمد الحجيري، دار صادر بيروت ١٩٩١م.

- الطبـاخ، محمـد راغب: إعلام النبـلاء بتاريخ حلب الشهباء، صححه محمد كمـال، دار القلم العربي بحلب ١٩٨٨م.
- الطهراني، آقابزرك: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، الطبعة الثانية، بيروت، دار الأضواء.
- فهرس الكتبخانة الخديوية، طبعة مصر ١٣٠٨هـ.
- فهرس مخطوطات المكتبة الأزهرية.
- القوصـوني، مديـن بن عبد الرحمن، قاموس الأطبا وناموس الألبّا، مصـورات مجمع اللغة العربية بدمشق، أوفست دار الفكر، دمشق ١٩٧٩م. من جزأين.
- ابـن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر: الطب النبـوي، توثيق عبد المعطي قلعجي، دار قتيبة- دمشق وبيروت ٢٠٠٠م.
- كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٣م.
- كيالي، طه إسحق: تاريخ الطب والأطباء في حلب.
- المحبي، محمد أمين (١٠٦١ – ١١١١ هـ) بن فضل الله بن محبّ الله بن محمد محبّ الدين بن أبي بكر تقي الديـن بن داود المحبي الحموي الأصل، الدمشقي المولد والـدار، الحنفي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ٤ أجزاء، دار صادر- بيروت.
- المحبـي، محمـد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحبـي: نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٦٨م.
- المرادي، محمد خليل، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، تحقيق أكرم حسن العلبي، دار صادر – بيروت ٢٠٠١م، ٤ مجلدات.
- مردم بك، خليل: أعيان القرن الثالث عشر، لجنة التراث العربي، بيروت- لبنان ١٩٧١م.
- AHLWARDT (W.), verzeichniss der Arabischen Handschriften der koniglichen Bibliothek zu Berlin, A. Asher & C, Berlin 1893.
- Carl Brockelmann, Arabischen Litterature, Leiden 1943.

الدراسات والبحوث



المترجمون ناشرون للمعارف

ترجمة د. ملكة أبيض ◎

أدت الترجمة فيما يتعلق بالثقافة العربية. الإسلامية دوراً كبيراً في حقبتين تاريخيتين:

الأولى، في بداية تكوّن الثقافة في القرون الأولى للهجرة، وكانت آنذاك تعمل من خارج الثقافة إلى داخلها، وكان مركزها الرئيس بغداد، أما الثانية، فقد قامت في أواخر ازدهار هذه الثقافة، في القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين. وكان مركزها الأندلس،

◎◎ باحثة وأديبة ومترجمة من سورية.

(◎) العمل الفني: الفنان علي الكفري.

حيث بدأت بعض دويلاته النهوض والإفادة من منجـزات الثقافة العربيـة ـ الإسلامية لتحقيق ذلك.

وهكذا سارت هـذه الترجمة في الاتجاه المعاكس، من اللغة العربية إلى اللاتينة أولاً، ثـم إلى اللغـة المحلية التي كانـت في طور النشوء.

وفي هذا المقال المترجم نقتطف ما يتعلق بهذا الدور المزدوج.

منـذ اخـتراع الكتابة والبشـر يبحثون عن اكتساب المعـارف التقنية والعلمية التي يمتلكها جيرانهم.

مـن هنا يأتي قيـام الترجمات الكثيرة، منذ أمد بعيد، لامتلاك معرفة «نفعية».

لقـد نقلـت التقنيات والعلـوم وطورت بالاقتباس إلى حد كبير.

ولكـن الترجمـة لم تتـم بغرضـ دمج معلومات جديدة بتراث قومي، وإعادة إنتاج المكتسبـات فحسب، بل تمـت أيضاً بغرض تطويـر الأبحاث. وإذا كانت المعارف تهاجر عن طريق الترجمة، فإن المترجمين وهم أناس مثقفون يعلّمون الآخرين، يغتذون منها بغية إبعاد حدود المجهول.

وسيكون من الخطأ الخطير أن يُنظر إلى مترجمـي الأمس على أنهم أدوات سلبية في نقل نصوص متخصصـة. ذلك أنهم نذروا أنفسهم كلياً للأعمـال التي أعادوا صوغها بلغة أخرى.

«لقد كانت الترجمة مفتاح التقدم العلمي، لأنها سمحت للمخترعين والباحثين المتعاقبين بالدخـول إلى الفكر المجدّد لأسلافهم، على الرغم مـن أن ذلك الفكر كان مصوغاً بلغة أخرى» (Fischbach، ١٩٩٢). إن الترجمة التقنيـة ـ العلمية عمليـة تحويل وأداة مزج وتقدم، أكثر من أي نـوع من أنواع الترجمة الأخرى، ومن دونها لم يكن من الممكن تصور أشـكال الانتقال التقني ـ كما نسميها اليوم. وهذا ما جعل فيلسـوف النهضة الإيطالية جيوردانـو برونـو (١٦٠٠-١٥٤٨) يقول: «إن الفضـل في تطـورات كل العلـوم يعود للترجمة».

فالترجمـة تدفع للتأمـل، وتساعد على الاختمـار الفكـري. وهـي إذ تشكل نقطة انطلاق للتأمـل المتعمق في أحد موضوعات المعرفـة غالباً مـا تذوب في الشـروح التي تصاحبهـا. ومن الصعوبة بمـكان عزل ما يدخـل في نطاق إعادة الإنتـاج عن الإبداع في عمل المترجمين القدامى للوثائق التقنية ـ العلميـة. ومـن المكـن ـ في الحقيقة ـ أن نقول عنهم ما قاله المؤلف ـ المترجم الروسي فاسيلي كيريلوفيتش تريديا كوسكي (١٧٠٣-



١٧٦٩) من أن: «بين المترجم والمؤلف لا يوجد فارق إلا الاسم».

هكذا ينشر المترجمون الأفكار والمعارف.

إنهم كما قال هنري فيشباس (١٩٩٢ Fischbach): «الملقّحون الكبار للعلم». وربما لم يكن العلم ليكتسب صفة الكلية من دونهم. ثم ألا يمكننا تتبع هجرة المعارف والتجول في المخزونات الثقافية ووضع خارطة بالأماكن التي شهدت تفتح الفكر عن طريق تحليل أنشطتهم؟ إن بياناً دقيقاً بأعمال الترجمة التي تحققت في المراكز الكبرى لثقافة الماضي يقودنا من آسيا (الصين والهند) إلى بلاد اليونان، ومن الشرق إلى أوروبة، ومن ثم إلى أمريكا.

ومنذ العصر اليوناني الكلاسيكي، كانت بعض المدن تمثل أماكن تجمع للعلماء والمترجمين. ونستطيع القول ببساطة وعلى وجه التقريب إن مشعل المعرفة سار في الطريق التالي:

أثينا. الإسكندرية. روما. بيزنطة. أديسا (وهي أورفة الحالية في تركيا) جنديشابور أو (جند يسابور في إيران). بغداد وقرطبة. طليطلة وساليرن. فلورانسه. باريس. لندن.

وفي عصرنا الحالي تنتشر ثمرة عمل الباحثين، الماضين أو المعاصرين، على كوكبنا بأكمله.

إن ندرة المخطوطات على البَرديّ أو الرق أو جلد العجل وغلاءها شكّلا منذ

وقت طويل عقبات أمام تقدم الدراسات وأبطأ حركة الترجمة بشكل عام والأعمال العلمية بشكل خاص. من هنا تأتي أهمية الورق، وهو ابتكار صيني يعزى إلى «كي لآن»، في نشر الترجمات. وعندما احتل العرب سمرقند (في أوزبكستان الحالية) في ٧١٢ تعلموا ضرب الكتان ليعملوا منه عجينة تتحول إلى ورقات رقيقة. وقد وُجد المعمل الأول للورق في بغداد في ٧٩٤م. وهذه الصناعة تطورت بسرعة نتيجة التأثير المزدوج لمضاعفة الترجمات والولع الجديد بالكتب. ولم يتأخر الورق في الانتشار في كل العالم الإسلامي، الذي امتد من جبال البرينه إلى نهر الهندوس.

وعلى كل حال يجب انتظار ثلاثة قرون لينتقل الورق إلى أوروبة الغربية التي دخل إليها في القرن الثاني عشر عن طريق أسبانيا. لقد ظهرت المصانع الفرنسية الأولى للورق في منتصف القرن الرابع عشر، وهذا يتوافق مع اختراع الطباعة. فهذه التقنية الجديدة في إنتاج المخطوطات لم تكن تستطيع التطور لو لم يكن الورق منتشراً بصورة كافية وقد أعطت اندفاعاً قوياً لصناعته، ولمضاعفة الترجمات في الوقت ذاته. هل نحتاج إلى التذكير بأن الترجمات . على الأخص . هي الطباعات الأولى؟

ومن وجهة نظر نشر الأعمال المترجمة فإن الورق حصل في الإمبراطورية العربية على التأثير نفسه، الذي أحدثتُه الطباعة في أوروبة. فبفضل الورق والطباعة، أصبح وصول المترجمين . العلماء . إلى الأعمال العلمية وإغناؤها بإسهاماتهم الشخصية أكثر سهولةً مما مضى. إن نقل التقنية (وهو مصطلح بال لكنهُ ملائمٌ هنا) ذلك النقل الذي حصل بين الصين وروما قبل بدء العصر المسيحي (Needham ١٩٥٤) تطلّب مشاركة المترجمين. كما كانت الإسكندرية (مصر ٣٢٢ قبل الميلاد) مركز تبادل بين أوروبة والشرق الأوسط والهند، ومركز دراسات هيلينية لعبت فيه الترجمة دوراً لا يمكن إهماله. وإلى الشرق وبالتحديد في الجنوب الغربي، (إيران الحالية) شكل المسيحيون النسطوريون، المطرودون من الإمبراطورية البيزنطية بعد حرمان بدعة البطريرك نسطوريوس في مجمع ايفيز (٤٣١م)، انطلاقاً لترجمة المؤلفين الكبار في الثقافة اليونانية القديمة. وقد تُرجمت أيضاً نصوص طبية هندية وصينية. ثم جاءت بغداد و«بيت الحكمة» فيها الذي حمى المخطوطات اليونانية والسريانية، وركز الجهود على ترجمة هذه النصوص إلى اللغة العربية، وذلك في القرن التاسع،

فمدينـــة «طليطلة» في القـــرن الثاني عشر. حيـث أن هــذه الترجمــات العربية عاشت بعد فقــدان أصولها ومن ثم نقلت إلى اللغة اللاتينية.

إن عدداً كبيراً من هذه الوثائق اللاتينية، وبالأخص المقالات الطبية، نقلت إلى اللغات المحليــة في العصور الوسطــى وحتى بداية عصــر النهضة. ومن الناحيــة اللغوية كتب هنري فان هوف عام ١٩٩٣م يقول:

«إن عصر النهضة تأثر باتجاهين: الأول: الرغبة في زيــادة الاهتمام باللغات القديمة وكان ذلــك ضرورياً لتسهيــل ارتقاء اللغات المحلية التي حظيت بالاهتمام نتيجة ظهور النزعات القومية».

ويضيف مؤرخ الترجمــة: إن العلم منذ القرن السادس عشر شهد تنافساً مع الدين، ومنــذ بداية القرن الثامن عشر لم يعد حكراً على النخبة، بل أصبح يهم كل العقول. لكن هــذا الجمهــور نفسه كان يريــد قراءة كل شــيء بلغته الخاصة. وينتج عن ديمقراطية المعرفة هذه، وعن اتساع جمهور القراء، أنه وبالتدريــج، مع بداية عصــر النهضة، لكن علــى الأخص في القرنــين السابع والثامن عشر، اتخــذ نشــاط الترجمــة في المجال العلمي والتقني بعداً تربوياً.

لقد أصبح المترجم ناشراً للمعرفة مبسطاً لها. إنــه يعمل جاهــداً للإفهــام والتعليم وتثقيــف غير المختصــين والجاهلين باللغة اللاتينيــة: كالمخبريــين أو المبتدئين الذين يعملــون جنباً إلى جنب مع معلميهم في علم الصيدلة وعلم الكيمياء والفيزياء. لقد كان المترجمون إلى حــد بعيد في مقام المدرّسين والمقدّمين للمؤلفات التي يترجمونها.

ومــن العصــور القديمــة إلى أيامنــا هــذه، أصبحت لغــة العلــم في الغرب وفي الشرق الأوسط يونانيــة، فعربية، فلاتينية، فإنجليزيــة على التــوالي. والآن لا يستطيع أي بلــد مهما بلغ من القوة، ولا تستطيع أية مدينة مهمــا بلغت من النفــوذ، أن تتباهى بكونها المستــودع الوحيد للمعارف العالمية. فقد أدى عمــل المترجمين الطويل إلى تعدد مراكز الثقافة.

علــى أن البحث الحــالي سيتوقف عند المراكز العربية.

«بغــداد مركــز الترجمــة في العصــور الوسطى»:

في القرنين التاسع والعاشر، كانت بغداد في العراق مركز مشروع ضخم طموح لترجمة الكتابــات العلمية والفلسفيــة القديمة إلى اللغة العربيــة، لغة الإمبراطورية الإسلامية الجديــدة. هذا المشــروع الذي تــرك أثراً عميقاً في تكوين النظــام الفلسفي والعلمي

للعالم العربي والإسلامي، لا يمكن فصله عن امتزاج الشعوب والثقافات والأفكار الذي يميز هذه المنطقة من الكرة الأرضية في ذلك الحين. وفي الحقيقة إن التشجيع الذي لاقاه هؤلاء المترجمون من أنصار الأدباء والعلماء ومن الخلفاء تحت شكل أجور سخية أو حتى رواتب كما يروي المؤرخون العرب يندرج في تقليد طويل للدراسة والترجمة السريانية (الآرامية القديمة) لكنوز اللغة اليونانية. كما ساعد انتشار الكتابة الواضح جداً في الحضارة الإسلامية على تطور هذا النشاط. وقد تمت أيضاً ترجمة عدد كبير من المؤلفات السريانية والفارسية والسنسكريتية.

إن وظيفة النقل التي أداها هؤلاء المترجمون والحجم الهائل للمادة المترجمة، لا يجب أن تنسينا جانب الإبداع الذي ندين لهم به. فالعمل المترجم أصبح مصدراً للتفكير والمعرفة من دون أن يكون ذلك مقصوراً لذاته. والترجمة الأولى ترافقت غالباً مع التفسير والشرح مما أدخل معارف جديدة وغذى مباحث أخرى. وباختصار يمكن القول إن المترجمين باستنادهم إلى المؤلفات التي يترجمونها قاموا بتمرين عبقرية الابتكار الخاصة لديهم.

لقد ظهرت النصوص الأولى المترجمة إلى اللغة العربية في نهاية القرن السابع أي بعد الفتوحات العربية بقليل. وهي تتعلق بالمجال الإداري على الأخص (وثائق وسجلات) وهذا أمر يمكن فهمه. كان المطلوب وضع بنى جديدة، وفرض اللغة العربية كلغة للدواوين. أما ترجمة النصوص العلمية فقد تأخرت بعض الشيء. إن حركة الانتفاع بالتراث الثقافي اليوناني والتي استهلها المترجمون العرب غالباً بواسطة ترجمات سريانية موجودة سابقاً، عرفت ذروتها في القرن التاسع والعاشر وذلك بفضل جهود مترجمي بغداد، ومنهم المترجم الشهير حنين بن اسحق، المعروف أيضاً بالاسم اللاتيني Jo Hannitius. (٨٠٩-٨٧٥). ويلاحظ أن أعمال الطب والفلسفة هي التي أثارت القدر الأكبر من الاهتمام عند العرب. وهناك أيضاً علم الفلك، مما يشير إلى اتصالات أقامها المسلمون مع الهند، هذا البلد الذي ارتبطوا معه بعلاقات تجارية متصلة. وإذا كان اختيار النصوص المقدمة للترجمة مفروضاً أحياناً بحسب مصلحة الدولة (تعريب بنى الإمبراطورية)، فهو يتعلق أيضاً إلى حد بعيد باهتمامات الخلفاء والشخصيات الكبيرة في البلاط. وهكذا فإن الخليفة المنصور، الذي اعتلى السلطة عام ٧٥٣ والذي كان مولعاً بعلم الفلك، وكان

قد حصل على مخطوطات هندية تعالج موضوعه المفضل، عمل على ترجمتها. كما أن الخليفة المأمون المؤيد والنصير للحركة (اللاهوتية) للمعتزلة، عمل على التوفيق بين العقل (بمعنى الأرسطوطالية) والإيمان، وشجع بقوة ترجمة الكتابات الفلسفية اليونانية إلى اللغة العربية، وشرحها.

إن حنين ومعاونيه العديدين ترجموا أو أعادوا ترجمة نسخ عربية أو سريانية قديمة لعدد كبير من المؤلفات الهامة: (لأفلاطون: الحوارات والجمهورية)، و(لأرسطو. المنطق الذي عرف تحت اسم Organon الذي تتضمن موضوعاته فيما تتضمن المقولات، والتحليلات ما وراء الطبيعة) و(لفورفيريوس ٢٣٤-٣٠٥م) وهو أحد المؤسسين الرئيسيين للأفلاطونية الحديثة كتاب «الايساغوجي» وهو مقدمة لمقولات أرسطو، وأخيراً كتاب «الأسباب» الذي كان يعزى إلى أرسطو في القرون الوسطى، ولكنه يستمد وحيه في الواقع من «مبادئ اللاهوت» لآخر الفلاسفة الأفلاطونيين الحديثين اليونانيين الكبار وهو بروكليس ٤١٢-٤٨٥م. وكان يحدث أن تتم الترجمات مباشرة من اليونانية إلى العربية، إذا توافرت للمترجمين المخطوطات اليونانية وكانت كفاءاتهم اللغوية تسمح بذلك.

وفي الحقيقة إن عدد المترجمين الذين كانوا يتقنون اليونانية والعربية معاً إلى حد كاف كان قليلاً وخصوصاً في بداية الفترة المدروسة. وكانت اللغة السريانية تعمل غالباً كلغة وسيطة بفضل أعمال الترجمة السابقة من اليونانية إلى السريانية، والتي أنجزها النسطوريون المنفيون من بيزنطة في القرن الخامس. وفي المجال العلمي كان اهتمام المترجمين ومعاونيهم ينصب على مجموع آثار ابيوقراط وجالينوس وعلى أعمال لا يمكن الاستغناء عنها كـ «العناصر» لاقليدس و«المجسطي» لبطليموس وأعمال أخرى أقل أهمية.

كان المترجمون عديدين، والترجمات العلمية والفلسفية الأولى إلى اللغة العربية تعزى إلى مترجمين محترفين من القرن الثامن مثل «يوحنا ماسويه» و«ابن البطريق» و«ابن جبريل».

وفي القرن التالي تظهر في قائمة المعاونين أسماء: «الحجاج بن مطر» و«ابن لوقا» (٨٢٠-٩١٢) و«ابن ناعمة الحمصي» و«ثابت بن قرة» (٨٣٤-٩٠١). وهناك تلميذان مبتدئان ومترجمان وهما «اسحق ابن حنين» و«حبيش الأعسم» وهما على التوالي ابن حنين وابن أخيه اللذان عملا تحت إشرافه. ثم يأتي مترجمون مثل «يحيى

ابن عدي» و«متى بن يونس» اللذين عملا في مراجعة الترجمات السابقة، من حيث المضمون والشكل.

وقد أسفر هذا النشاط عن إنماء اللغة العربية العلمية وتقويتها. لذلك يمكن القول إن الترجمة كانت إبداعاً بمعنى أنها أسهمت في وضع الأسس لنظام فكري متكامل هو نظام الحضارة العربية ـ الإسلامية، على صعيد الأدوات الفكرية ومن حيث إنماء اللغة العربية. وهي إبداع أيضاً لأن المترجمين أنفسهم فهموها على هذا النحو، فراحوا يرفقون ترجماتهم بالتعليقات والملخصات والنصوص التفسيرية. هذه التقديمات الشخصية تهدف لا لجعل العمل المترجم أكثر قابلية للفهم فحسب، بل إلى إكمال عملية النقل بتقديم إجابات للأسئلة التي يثيرها. ومن المناسب التوضيح بأن المترجمين كانوا على وجه العموم مختصين في المجال الذي يترجمون فيه، في الحدود التي كان من الممكن الحديث فيها عن «التخصص» في تلك الفترة، فالمعرفة لم تكن مجزأة كما هي عليه اليوم. وهكذا فإن «يوحنا ماسويه» و«حنين بن اسحق» كانا يتمتعان بشهرة مرموقة في مجال الطب. وقد أبرز المؤرخون كفاءات حنين الطبية ليوضحوا المستوى الجيد لترجماته. فبالإضافة إلى كونه مترجماً لجالينوس، كان له أيضاً مؤلفات شخصية وهي: المسائل الطبية، مسائل العين، وكتاب عن الأسنان. وربما كان قد وضع أسس طب العيون التي استند إليها الرازي في قسم كبير من عمله.

وجدير بالذكر أن المترجمين السريان كانوا قد أضافوا قبل قرن أو اثنين معلومات من قبلهم في النصوص الفلسفية اليونانية التي طبعوها بمفاهيم من الافلاطونية المحدثة. وفي القرن الثاني عشر رغب الفيلسوف والمترجم لأرسطو «ابن رشد» (١١٢٦-١١٩٨) في إعادة الفكر الارسطاليسي الأصلي بتخليصه من تفسيره الأفلاطوني المحدث الذي أثقله به المترجمون السريانيون والعرب.

إن الترجمة إبداع أيضاً على صعيد خطة تكوين المفاهيم، وعلى الأخص عندما يجب أن يكون على النص المترجم أن يندمج في نظام فكري ما. وهكذا فإننا نجد في الترجمة العربية لعمل «بروكليس» أن اسحق بن حنين يتكلم عن الله ويصفه «بالعالي المقام» وذلك بدلاً من استخدام المفهوم اليوناني «السبب» أو «المبدأ» (Badawi ١٩٦٨).

إن إبداع المترجمين يظهر كذلك على صعيد المصطلحات. فقد لجأ المترجمون العرب الأوائل غالباً إلى تثبيت الكلمة

الأجنبية بحروفها لأنهم لم يكونوا يتقنون اللغة العربية بدرجة كافيـة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأن اللغة العربية نفسها لم تكن قد كوّنت بعد مصطلحاتها الفلسفية والعلمية. ولـدى مراجعة هذه الترجمـات بعد مضي قرن واحد، جـرى التخلي عن المصطلحات العلمية المنقولة لحساب المبتكرات التي هي أكثر مطابقة للبنـى الأساسية للغة العربية. ومثال ذلـك أن حنين اقترح لـدى مراجعة الترجمـة العربية لكتاب «المـادة الطبية» لـ «ديوسكوريدس»، مصطلحات عربية مقابلة لتحـل محـل المصطلحـات المنسوخـة عن اللغة اليونانية والتـي أدخلها المترجم الأول «استيفان بن باسيل».

إن المترجمـين، عمـلاء نشـر المعارف، قامـوا بهذا الدور أيضـاً عن طريق بحثهم عن المخطوطات الثمينة. والمؤرخون يقدمون أمثلـة كبيرة تبـين أن المسؤولين والمترجمين بذلـوا جهـوداً هائلـة من أجـل الحصول على مخطوطـات يونانية قديمـة وتحقيق أصالـة النصوص وشرعيتهـا قبل المباشرة بالترجمة.

بقي أن نذكر أخيراً أن المترجمين العرب لم يتوجهـوا إلى القـراء المتعلمـين فحسب. فبالتأكيـد أن الترجمات تحققت في الغالب بطلـب من شخصـ معين. (نصـير للأدب والعلـوم أو أحد رجال العلـم) لكن كان لها في بعضـ الأحيان هدف إرشـادي تعليمي أيضاً. فالمترجم الطبيـب حنين على سبيل المثـال كثيراً مـا وجّه ترجماتـه لطلابه في الطب، ونصح معاونيه بإعطاء أهمية خاصة للوضوح وقابليـة الفهم في ترجماتهم. وهو يؤكد في إحـدى رسائله أنه «أضاف تفسيراً لتوضيح بعض المقاطع الصعبة»، في ترجمة سريانية لتعليـق على (قَسَـم) ابقراط. إن اهتمامـه بالتعميم يظهر أيضـاً في رغبته بإنتاج ترجمات بأسلوب «يستطيع أن يفهمه غير المختص بالطـب أو من لا يعرف شيئاً مـن طرائق الفلسفـة» (ابن أبـي اصيبعة، ١٩٨٢).

ولنقـل على سبيـل الخلاصة، عن هذه الفـترة، إن تأسيس «بيـت الحكمة» في عام ٨٣٠م أعطـى إشـارة الانطـلاق للعـرب لفهـم التراث الثقـافي للصينيـين والهنود والفرس، لكن علـى الأخص لليونانيين. هذا النشاط الكبـير للترجمة استمر في كل أنحاء الإمبراطورية حتى سقوطها في القرن الثالـث عشـر. فالمؤلفـات المترجمة زودت المترجمـين والعلمـاء العرب بالمـادة الأولى التي استنـدوا إليها في ممارسـة إبداعهم الخاصـ، وموهبتهم الخلاقـة في البحث، وعملـت على تقدم المعارف العلمية، قبل أن

يوروثها بدورهم للعالم الغربي. وتلك الخطوة الجديدة في نقل المعارف البشرية من حضارة إلى أخرى ستتم في أسبانيا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وتنتقل الترجمة وعاصمة الترجمة بذلك من بغداد إلى طليطلة.

طليطلة ملتقى التبادل الثقافي والتجديد الفكري:

إن «أعمال مدرسة طليطلة» صيغة تطلق عامة على الأعمال المترجمة والمنفذة في أسبانيا في منطقة «طليطلة» على الأخص، لكن أيضاً في «بارشلونه» و«تاراقون» في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. هذه الأعمال تُكوّن واحدة من المعالم الهامة لنقل المعرفة الفلسفية والعلمية في العصور الوسطى. وهي تستند إلى الكتابات الفلسفية والعلمية للتراث اليوناني ـ العربي، ويشغل الطب والرياضيات وعلم الفلك وعلم التنجيم مكانة مميزة فيها.

هذه الأعمال تمت بشكل جوهري من العربية إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر، ومن العربية إلى اللغة الأسبانية العامة في القرن الثالث عشر. ولا يوجد خلاف في أن هذه الأعمال طورت الوضع العلمي في جميع المجتمعات الغربية. فإعادة اكتشاف أرسطو بوساطة تفسيرات ابن رشد وابن سينا غذّت التفكير الفلسفي المدرسي الذي جرى في أوروبة في الجامعات الناشئة. وارتياد المؤلفات العلمية العربية الكبيرة سمح لهؤلاء الغربيين بتوسيع معارفهم وفهمهم للعالم. وعن طريقها تمكنوا من الإلمام بالحساب العربي وبعلم الجبر واكتشاف نظام العالم لـ «بطليموس» والاتصال بمجموعة مؤلفات ايبوقراط وجالينوس في الفكر الطبي اليوناني ـ العربي. لقد بلغ تجديد الفكر واتساع المعارف اللذين حدثا بفضل هذه المؤلفات حداً كبيراً حتى إنه يمكن الحديث عن «نهضة القرن الثاني عشر».

على أنه يجب الاعتراف بأن تأثير هذه المؤلفات المترجمة عُرفَ على الأخص بفضل الأبحاث التي تمت منذ منتصف القرن التاسع عشر بوساطة مؤرخين أمثال «أمابل جوردن»، وهي قليلة لئلا نقول نادرة. هذه البحوث أعطت للصناع الرئيسيين لهذه النهضة كل المكانة التي ترجع لهم. ويجدر بنا، أن نضع في مقدمة هؤلاء «أنطوان بيرمان» وهو الذي أسماهم «المنسيين الكبار» في كل الجدل الدائر بشأن الترجمة، وقال إن من الضروري تحديد الطبيعة الحقة لدورهم بصفتهم الرواد لكل خلق، ونشر، وتعميم للمعارف، والتنبيه إلى الضغوط المادية والمعنوية التي عانوا منها.

إن الصلة بين الترجمة والإبداع تعد

أساسية نظـراً لأن الأعمـال التي نتحدث عنها هنا تتـم في سياق تاريخي يتسم بخلل كبـير في التـوازن بـين وضع المعـارف في المجتمع الأصلي «أسبانيا العربية» والمجتمع المستقبل لهـا «أسبانيا العائدة إلى السيطرة الأسبانية».

وفي الحقيقــة يجـب أن نذكر أن مكتبة «ديركلـوني» المسيحية لا تـكاد تضم بضع مئات من المجلدات، بينما كانت المخطوطات العربية في طليطلــة، تعد بالآلاف، حتى إن البعض يرفع هــذا الرقم إلى ثلاثمئة ألف. ويمكننا أن نفهـم أن المتعلمين الذين أخذوا علــى عاتقهم نقــل هذه المـادة الغزيرة إلى اللاتينيــة يشكلون جزءاً هامــاً في العملية: فقــد كان عليهم اكتشاف هــذه المكتسبات العلميــة واستثمارها من جهــة، ونقلها في الوقت ذاتــه، من جهة أخــرى. ولكن عدد المتعلمــين، في المجتمـع المستقبِـل، الذين يستطيعــون فهم المعارف العلمية، كان قليلاً جــداً. أضف إلى ذلــك، أن الشروط المادية التــي كان المترجمــون يعملــون فيها لم تكن دومــاً مساعدة على اكتساب المعرفة أو على نشرهــا، وكانت تتوقف بصــورة عامة على علاقات المترجمــين بالسلطة. ولنذكر بهذه المناسبــة أن المجتمــع والثقافــة التي تمت هــذه الأعمــال في إطارها كانــت ترزح في القرن الثاني عشر تحــت سيطرة الكنيسة، واحترام النصوص المقدسة الذي فرضته، أعني النصوص الأساسيــة التي تنتمي إلى التقاليد اليونانية ـ اللاتينية: الكتّاب الكبار في العصور القديمــة، العلماء واللاهوتيون وآباء الكنيسة.

إن الشخصية البارزة لـ «الفونس» العاشر (١٢٢١-١٢٨٤)، وهو نصير للآداب والعلوم شديد الإيمــان، تسيطر على تلك الأعمال. وفي هذا الصدد فإن تطور مكانة المترجمين اليهود بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر أمــر شديد الدلالة ففي القرن الثاني عشر، كان هــؤلاء الآخــرون إذا وجــدوا أنفسهم خارج شبكــة الكتّاب، يحاولون إيجاد السبل للاندماج بها عن طريق اعتناق المسيحية، أو القبول بدور الوسيط، سواء أكان معلناً أم لا، بإتاحة الوصــول إلى النصوص العربية عن طريق ترجمتها إلى اللغة المحلية.

أما في القرن الثالث عشر فإن المترجمين اليهود لعبــوا دوراً رئيسياً في تلك الأعمال، ولو ظهــروا في علاقة مكشوفــة بالسلطة. وتتجلى هــذه العلاقــة في التسميات التي أطلقــت عليهم بصــورة عامــة في مقدمة المؤلفات «يهودينا» «طبيبنا».

إن الأسلــوب المتبع لــدى المترجمين في تنــاول النصوص يتمثل في ذلــك الأسلوب

المبدع البنــاء الذي يستند في جزء كبير منه إلى الروابط القائمة بــين المعرفة والسلطة ومن ثم إلى خضوع المترجم لهذه السلطة.

إن دوره كوسيــط نشط يقوده في القرن الثــاني عشــر إلى استعادة جملــة المعارف والعلــوم الإغريقيــة ـ العربيــة، وفي القرن اللاحق إلى وضع المعرفة التي حصل عليها عــن طريق الترجمة في خدمــة أحد أنصار الآداب والعلــوم، ثم التصــرف بالمادة التي جمعت على هذا النحو بحسب رغبات هذا النصير. أمــا بخصوص أساليــب اكتساب المعارف ونقلها، فهــي تستند في تلك الفترة إلى الاقتباس والتفسير. أما الإبداع فلم يكن يحصل إلا بصفته تقليداً لنماذج معترف بها: ذلك أن رجل الفكــر كان عليه الاستناد إلى سلطة مثل القديس أوغسطين، أو أرسطو.

وهكــذا فــإن التبديلات التــي أجراها المترجمــون في النصوصــ ليست تعبيراً عن الإرادة الشخصية بقــدر ما هي دلالة على الضغوط المادية والمعنويــة المحيطة بالنقل إلى اللاتينية أو إلى اللغة الإسبانية المحلية: كانت هذه التبديلات شكلية في القرن الثاني عشــر بغية إنتــاج كتابات تطابــق الطريقة اللاتينية في تقديم المعارف بإسقاط مقاطع تتصــل بحقائق تاريخية أو جغرافية خاصة بالتقاليد العربية، مما يجعلها غير مناسبة.

وفي القــرن الثالث عشر كان هناك عمل هام للتعريف والإبداع اللغوي. على أنه يجب رؤيــة أنه إذا كانت التوجيهات تحت إشراف الفونســ العاشر فإنها – نــادراً – ما كانت تــترك مجالاً للمترجم الذي كان عليه تقديم النسخــة التي ستصبح «كتــاب الملك». فإن الضغوطات المفروضة على عمل المترجم في القرن الثالث عشر لا تمارس بنفس الطريقة ولا بنفس الدرجة في جميع الحالات. ونحن نريــد إثبات مقدار الاختــلاف في المقاربة بملاحظــة عملين مترجمــين لنفس النص، بسبب الانتقــادات أو التحذيرات المصاغة من مترجم ما ازاء زميل له.

ونستطيع تحديد مثال لنموذجين باللغة اللاتينية أنجز الأول في عام ١١٣٣ بوساطة «جــان دوسيفــل» (١١١٠–١١٨٠) والثاني عام ١٢٤٠ بوساطة «هيرمان الدلماسي». إن مقدمة Tractatus Primus في الترجمة الأولى المتقيــدة بحرفية النص تتضمن مئة صفحة بينما يقتصــر النص الثاني Libre Primus علــى أربــع وعشريــن صفحة. وبصدد «هيرمان» نعرف أن معاونه «روبرت دوريتــين» وجه إليه تحذيــرات شديدة إزاء الاقتطاعــات الكبــيرة في النصــ الأصلي. وهذا الإغراء بالاقتطاع كان يحصل في تلك الفترة لأن المترجــم اللاتيني يجهل النماذج

التاريخية والبيانية للتقاليد العربية. وكان يبرر اقتطاعاته بما يعتبره إطناباً في الكتابات العربية. ويذكر «روبرت دوريتين» بأن كل قارئ يحق له أن يشكك بأمانة المترجم حين يراجع الأصل.

والخلاصة، إذا كانت أساليب نقل المعرفة، المتمثلة في النسخ وهو الأسلوب الوحيد في إعادة الإنتاج في تلك الفترة، أو في المبدأ الفضفاض للملكية الفكرية؛ إذا كانت تلك الأساليب تسهم في جعل الترجمة نشاطاً إبداعياً مستنداً إلى نص ما، فإنها لا تقتصر عليها. ذلك أن هناك السياق السياسي الذي تنفذ فيه هذه الأعمال وهو الذي يحدد الطريقة التي يقارب بها المترجمون النصوص الأصلية.

إن مسألة انتشار المعارف تطرح بعبارات مختلفة بعض الشيء في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. ولنقل بادئ ذي بدء إن الظروف المادية للمترجمين في القرن الثاني عشر إضافة إلى طريقتهم في العمل تشجع نشر المعارف. ومن المعروف على سبيل المثال أن على المترجم في تلك الفترة، نظراً لعدم انتشار المادة التي يريد الوصول إليها، أن يبحث عنها بنفسه. وقد ترك بعضهم بلده الأصلي وسافر بحثاً عن «المجسطي» لبطليموس، كما فعل الإيطالي جيرار الكريموني (١١١٤-١١٨٧) والاسكتلاندي «مايكل سكوت» (١٢٧٥-١١٣٤) والإنجليزي «اديلارددوبات» المتوفى سنة ١١٣٠، وهناك آخرون يعودون بعد حصولهم على دراسة في الخارج مثل «مارك دوتوليد». وإذا كان المترجمون اللاتين أسهموا في تنقلاتهم بنشر النصوص (ولا سيما أنهم كانوا يعودون أحياناً إلى بلادهم الأصلية ويعلّمون ما اكتسبوه)، فإن الطريقة التي تم إنجاز قسم كبير من هذه الأعمال، (وهي العمل المشترك) تتضمن مجالاً للتبادل وتسهم في نشر المعرفة. والمهم في هذا الصدد، على وجه الخصوص هو نموذج المشاركة بين «ابراهام بارهيه» و«بلاتون دجوتيفولي»: اللذين أنجزا على منوال طواقم أخرى من نفس العصر، ترجمات عربية. لاتينية لكنهما نقلا أيضاً من العبرية إلى اللاتينية بوساطة اللغة الإسبانية الدارجة، كتاباً في علم الهندسة لابراهام نفسه (Liber Embadorum). هذا النوع من الإنجاز يظهر بصورة متزايدة بصفته تعبيراً عن المصالح الشخصية، وشاهداً على الصلة بين الترجمة والبحث (فكل يغذي الآخر) أكثر منه دليلاً على سياسة منهجية لنشر هذه الأعمال.

وفضلاً عن ذلك، فإن تحليل أصناف

متنوعة من الأعمال التي كُتبت على يد (اديلاردوبات)، وهو أحد المثقفين اللاتينيين الأكثر شهرة في هذا العصر، يتيح التمييز بين أعمال الترجمة وأعمال الإبداع: فالأولى تظهر كنسخ خام أقل صقلاً، وأقل جهداً، أو كوثائق عمل موجهة بالدرجة الأولى إلى المترجم نفسه أو إلى المختصين، وهم على ما يبدو الطلاب. أما الثانية فهي أعمال منجزة ونهائية. وهذا التمييز يتجلى لدى مترجمين. مؤلفين آخرين في تلك الفترة ومنهم «دومنيك كونديسالفي». فالترجمة من العربية إلى اللاتينية ظهرت كوسيلة لنقل معرفة ما بين المختصين، أكثر منها عملية انتشار كبير وتعبير سابق لأوانه في ذلك العصر.

في القرن التالي، ومع تطور ظروف ممارسة الترجمة وتوزيع المهام الذي نتج عنها (التمييز بين المترجمين الأساسيين والمعاونين)، يظهر اهتمام متزايد بالتعميم. وتذكر المقدمات بكثرة الفائدة الكبيرة لنص ما مكتوب بلغة مألوفة للمتعلمين. وبعد إعلانات المبادئ هذه، تجدر ملاحظة أن النقل إلى اللغة الأسبانية يشكل خطوة في سبيل تكوين ما سيظهر في النهاية تحت اسم «كتاب الملك». وبصفتها نماذج، تشكل الترجمات إلى اللغة الإسبانية التي أجريت بإشراف «الفونس العاشر» أحد المشاريع الكبيرة الأولى للترجمة إلى اللغة العامية في الغرب.

بقي أن نرى إلى أي حد كان المترجمون في هذا العصر معممين للمعرفة. مع أخذ الفترة المدروسة بالحسبان، يجب أن نفهم مبدأ تعميم المعرفة بشكل محدود. فإن مفهوم «الجمهور الواسع» الحالي لم يكن له أي صدى في مجتمع القرون الوسطى. وفي الواقع فإن أعمال القرنين المذكورين تدور بشكل خاص حول هذه النقطة. ففي القرن الثاني عشر، لا تكشف لغة الوصول المتبناة. وهي اللغة اللاتينية لغة الكنيسة والمتعلمين. ولا استراتيجيات الترجمة المطبقة، أقل اهتمام بتعميم مادة الدراسة، يعني تسهيل الوصول إليها. فالرجوع المكثف إلى النسخ (أي كتابة الكلمة المنقولة من لغة الترجمة بحروف اللغة المترجم إليها) أدى إلى ظهور عدد كبير من المفردات غير المعروفة وغير المفهومة في اللغة اللاتينية. إن كثرة الاقتباس اللغوي (وهو إجراء يقضي بإعطاء معنى علمي خاص لكلمات موجودة في اللغة المترجم إليها) ووجود الكلمات المختصرة مع (عدم وجود معجم أو مسرد يساعد على فهمها)، إضافة إلى عدم إبداء اهتمام بالوضوح. كل ذلك يشير، على العكس، إلى أن المترجم يجد

في نشاطه وسيلة لإغناء معارفه الخاصة. على أننا نجد في القرن التالي أن تبنّي اللغة الإسبانية كلغة للترجمة يفيد في تعميمها على الآخرين. وأن متطلبات الوضوح التي يفرضها نصير الآداب والعلماء أمثال «ألفونس العاشر»، الذي يصرُّ على أن النصوص يجب أن تكون سهلة الفهم، تمثل عناصر شاهدة على الرغبة في عدم حصر المعلومات المنقولة عن طريق الترجمة بطائفة الكتّاب وحدها. كما أن الأفضلية الممنوحة في هذا العصر لوضع المصطلحات، لا يمكن فصلها عن السياق السياسي الذي نُفِّذت فيه هذه الأعمال: إنها إرادة توكيد الهوية القومية.

والخلاصة:

إن تحديد مبادئ الإبداع، والنشر، والتعميم المطبق على أعمال مترجمي طليطلة يعيدنا إلى مفهوم امتلاك المعرفة عن طريق الترجمة. وأمام نقص المؤلفات اللاتينية في مجالات العلم والفلسفة، فإن المسؤولين عن أعمال الترجمة «رجال الكنيسة في القرن الثاني عشر والملك في القرن اللاحق» والمترجمين الذين يخدمونهم، عملوا في القرن الثاني عشر على صب معرفة أجنبية في قالب التقاليد اللاتينية. أما في القرن الثالث عشر فإن هؤلاء المترجمين بذلوا قصارى جهدهم لتكوين ثقافة إسبانية استناداً إلى تلك المعرفة المتراكمة.

الحواشي

- Fischbach (1992), «Translation, The Great POllinator of science», Babel, 38,4.
- Needham (1954) Science and civilization in China, Cambridge University Press, T.1
- Badawi A. R. (1968) La Transmission de la philosophie grecque au monde arabe, paris, Vrin.
- ابن أبي أصيبعة (١٨٨٢)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، القاهرة.

المصدر:

Delisle, jean et woodsworth, Judith (1995) Les tradu cteurs dans L'histoire, Les presses de l'universite d'Ottawa.



الدراسات والبحوث



حروف الجر
من خلال معجم لسان العرب

أحمد بن عجمية ⊙

تعد دراسة حروف الجر من أهم القواعد التي يحتاجها كل متعلم ودارس للغة العربية، ولا يستقيم من دونها المحتاج إليها.

وقد تختلف معاني الأفعال بتعدد استعمالات هذه الحروف معها، ومن أمثلة ذلك الفعل. رغب. فإذا وظفناه مع الحرف (في) مثلا. دل على طلب العمل به نحو: (رغب في الشيء)[1] أراده، فهو راغب، والشيء مرغوب فيه، أما إذا وظفناه مع الحرف (عن) دل على الترك نحو: (رغب عن الشيء)[2] أي تركه متعمدا.

⊙ أستاذ مساعد بجامعة حسيبة بن بوعلي/ الشلف/ الجزائر.

أعـــددت هذا المقـــال للتعريف بحروف الجر، وما يتعلق بها من أحكام ووظائف في استعمالاتهـــا المتنوعـــة في اللغة العربية من خلال معجم لسان العرب لابن منظور.

أولا- تعريـف الحـرف لغـة: الحرف: الطـــرف، وحرف كل شيء: حـــده كالسيف وغـــيره، ومنه الحرف: الوجه، وهو عند ابن منظور: «حرف كل شيء طرفه وشفيره وحده، ومنه حـــرف الجبل، وهو أعـــلاه المحدد... وحـــرف الشيء ناحيتـــه، وفلان على حرف مـــن أمره، أي ناحيته، كأنـــه ينتظر ويتوقع، فـــإن رأى من ناحية مـــا يحب، وإلا مال إلى غيرها»[3] ومن هذا المعنى قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾[4] أي يعبـــده على الســـراء دون الضـــراء، فيؤمن بالله مادامـــت حاله حسنة، فإن غيرها الله وامتحنه كفر»[5].

ثانيـا - تعريفـه اصطلاحـا: «الحرف الأداة التـــي تسمـــى الرابطـــة، لأنها تربط الاســـم بالاســـم والفعـــل بالفعل، كـ (عن) و(على) ونحوهما» كل كلمة بنيت أداة عارية في الكلام لتفرقة المعاني فاسمها حرف، وإن كان بناؤها بحرف أو فوق ذلك مثل: (حتّى، وهل وبل)[6]

وحده احدهم فجعل سواه فاسدا بقوله «وعنـــد النحاة ما جـــاء لمعنى ليـــس باسم ولاالفعل وما سواه من الحدود فاسد»[7].

يعـــد التعريفـــان السابقـــان مـــن أشهر التعريفات لأصحـــاب المعاجم، أما تعريفات النحويين، فنقتصر على اثنين هما:

١/ سيبويـــه (تــ ١٨٠ هــ) القائل «وأما ما جـــاء لمعنى وليس باســـم ولا فعل، فنحو ثم وســـوف وواو القسم ولام الإضافة ونحو هذا»[8]

٢/ابـــن جني(ت٣٩٢هـــ) القائـــل عـــن الحـــرف ((فالقول فيـــه كان من لفظة. أن: ح. ر. ف أينمـــا وقعت في الـــكلام يراد بها حرف الشيء وحدته من ذلك حرف الشيء الواحدة وناحيته))[9]

ثالثـــا - تصنيـــف الحـــرف مـــن حيث تعريفـــه الاصطلاحـــي: قال أبـــو القاسم الزجاجـــي في تبيينه للحـــروف وأنواعها: الحروف ثلاثة أضـــرب حروف المعجم التي هي أصل مدار الإنســـان عربيها وعجميها وحروف الأسماء والأفعال التي هي أبعاضها نحـــو العين من جعفـــر، والضاد من ضرب، ومـــا أشبه ذلك نحو النون مـــن: أن، واللام من: لم، وما أشبه ذلك، وحروف المعاني التي تجيء مـــع الأســـمـــاء والأفعال لمعـــان، فأمّا حروف فأصوات غير متوافقة ولا مقترنة ولا

دالة على معنى من معاني الأسماء والأفعال والحروف إلا أنها أصل تركيبها»[10].

وتوضيحا لما ورد في القول، يمكننا أن نصنف الحرف من حيث تعريفه الاصطلاحي إلى ثلاثة أضرب:

١/ من حيث المبنى: إنّ كل حرف من حروف المباني الثمانية والعشرين التي تدخل في تركيب الكلمة، وتسمى الحروف الهجائية وهي حروف تعليمية.

٢/ من حيث المعنى: وهو «ما دل على معنى في غيره» نحو من إلى... وشرحه أن من تدخل في الكلام للتبعيض، فهي تدخل على تبعيض غيرها لا على تبعيض نفسها، وكذلك إذا كانت لابتداء الغاية، كانت غاية غيرها»[11].

وهو كذلك «ما جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل[12]، نحو: لام الجر وبائه و(هل) و(قد) و(ثم) و(سوف) و(حتى) و(أما) أو جاء لزيادة ضرب من التأكيد» أو «لفظ يدل على معنى مفرد لا يمكن أن يفهم بنفسه وحده دون أن يقرب باسم أو كلمة»[13].

إن المقصود من التعاريف هي حروف المعاني، وليست حروف الهجاء، ولذا فإن حروف الجر من أقسام حروف المعاني لأنها أحد أقسام الكلام.

٣/ من حيث الوظيفة التركيبية: يعرف ابن منظور الحرف بقوله: «الأداة التي تسمى الرابطة، لأنها تربط الاسم بالاسم والفعل بالفعل كعن وعلى ونحوها»[14].

يتضح من التعريفات السابقة أن الحرف نوعان: حرف مبني ويشمله التعريف الأول، وحرف معنى وينطبق عليه التعريفان الثاني والثالث، وحرف المعنى قد يأتي لإضافة معنى جديد أو يأتي لتوكيد معنى موجود.

والنحاة حينما يقسمون الكلمة إلى ثلاثة أقسام: اسم وفعل وحرف جاء لمعنى[15] «يقصدون النوع الثاني، ويتضح ذلك من خلال قول ابن هشام معللا حصرهم الكلم في الأقسام الثلاثة قالوا: ودليل الحصر أن المعاني الثلاثة: ذات وحدث ورابطة للحدث بالذات، فالذات الاسم، والحدث الفعل، والرابطة الحرف، وأن الكلمة أن دلت على معنى في غيرها فهي حرف، وإن دلت على معنى في نفسها، فإن دلت على زمان محصل فهي الفعل وإلا فهي الاسم[16]».

وهذا التعريف يتطابق والتعريف الذي أوردناه لابن منظور، كون الحرف أداة ربط تربط الاسم بالفعل والفعل بالفعل... لايظهر معناه إلاّ بوصله بغيره.

١- حروف الجر: اختلف النحاة في الحرف، فهناك من يرى أن الحروف ليس

لها معنــى في نفسها، وإنما هــي دالة على معنى في غيرها من الأسماء والأفعال، ولذلك خصوها بوظيفة التعلق لإيصال معنى الفعل الذي قبلها إلى الاسم الذي بعدها، ويتزعم هــؤلاء سيبويه وتبعه كثير مــن النحاة على حين يــرى السيوطي أن الحــرف دال على معنــى في نفسه مخالفا بذلك ما اشتهر بين النحاة من أنه دال على معنى في غيره.

وخلاصــة رأيــه أن المعنــى المفهوم من الحرف في حــال التركيب الكلامي أتم مما يفهم منه في حال الأفــراد. والرأي الأرجح هو أن حروف الجر تدل على معان وظيفية تعرف مــن السيــاق، وقد ذكــر النحاة أن لــكل منها معنى أصليا، قــد تخرج عنه إلى فرعية يفهم من السياق، وذلك نحو قولهم: إن (البــاء) دالــة على الإلصــاق في الأصل و(من) دالة على التبعيض في الأصل و(إلى) معناها الانتهاء واختلفوا أيضا في تسميتها، فالبصريــون يسمونها (حــروف الإضافة) لأنهــا تضيف معاني الأفعــال إلى الأسماء، كما يسمونها (حــروف الجر) لأنها تجر ما بعدها من الأسماء أو تخفضها.

ويسميها الكوفيــون (حروف الصفات)، لأنها تقــع صفات لما بعدها مــن النكرات، وهي متساويــة في نقل دلالة الأفعال إلى ما بعدها من الأسماء وعمل الخفض فيها، وإن اختلفت معانيها»[١٧].

٢- حــروف الجــر ومعانيهــا: الملاحظ لاستعمال حروف الجر يجــد أن الأساسية منهــا سبعة وهي على الترتيــب: إلى، الباء، علــى، عــن، في، الــلام، ومن، ولــكل منها دلالــة أصليــة واحــدة هي علــى التوالي: انتهاء الغاية، الإلصاق، الاستعلاء، المجاوزة والظرفيــة، الملك وابتــداء الغاية، وظيفتها توضيح العلاقات التي تربط الحدث بالمكان الحقيقي أو المجــازي أو الحدث بالظرفية الزمانية، والحروف هي:

أ- حــرف إلى معانيهــا واستعمالاتهــا التراثيــة: إن دلالة (إلى) الأصلية هي انتهاء الغاية تقول: «خرجت من الكوفة إلى مكة» وجائــز أن تكــون بلغتهــا ولم تدخلهــا، لأن النهايــة تشمل أول الحد وآخره، وإنما تمنع مجاورته»[١٨].

اتفق سيبويه وابــن جني والرماني على اعتبار انتهــاء الغاية دلالــة أصلية لحرف الجر (إلى)[١٩].

ب- البــاء: اقتصــر سيبويه على معنى الإلصاق زاعما أنــه لا يفارقها، قال: «وباء الجر إنما هي للإلــزاق والاختلاط، وذلك نحو قولك: خرجت بزيد ودخلت به وضربته بالسوط، ألزقت ضربــك إياه بالسوط، فما

اتسع من هذا في الكلام فهذا أصله(٢٠)» وهذا الإلصاق الوارد في حديثه إما حقيقي كما في (خرجت بزيد)، وإنما مجازي نحو: (مررت بزيد) أي ألصقت مروري بمكان يقرب من زيد.

وهذا المثال الأخير هو ما أشار إليه المبرد ويوضحه بقوله: «ومعنى الباء الإلصاق بالشيء وذلك قولك مررت بزيد، فالباء ألصقت مرورك بزيد، وكذلك لصقت به، واشمت الناس به»[٢١].

ويضيف ابن منظور: «الباء من عوامل الجر وتختص بالدخول على الأسماء، وهي الإلصاق الفعل بالمفعول به، تقول مررت بزيد، كأنك ألصقت المرور به»[٢٢].

و يقول في مقام أخر: «الباء حرف هجاء من حروف العجم وأكثر ما ترد بمعنى الإلصاق لما ذكر قبلها من اسم أو فعل بما انضمت إليه»[٢٣].

فالإلصاق ههنا هو المعنى الشائع عند القدماء الغالب عند المتأخرين، وإن تنوعت تفسيراتهم وشواهدهم له.

٢- على: حرف جر معناه الاستعلاء، قال سيبويه: «أما على فاستعلاء الشيء، تقول هذا على ظهر جبل، وهي على رأسه، ويكون أن يطوي أيضا مستعليا كقولك (مر الماء عليه)، و(أمررت يدي عليه)، وأمّا مررت على فلان فجرى هذا كالمثال، و(علينا أمير) كذلك، و(عليه مال) أيضا، وهذا لأنه شيء اعتلاء، ويكون مررت عليه إن يريد مروره على مكانه، ولكنه اتسع، وتقول عليه مال، وهذا كالمثال، كما يثبت الشيء على المكان كذلك يثبت هذا عليه فقد يتسع هذا في الكلام ويجيء كالمثال[٢٤] » وهكذا يرد الاستعلاء حقيقيا أو مجازيا أو معنويا، ففي المعنى الأول نورد المثالين الاثنين: ١/ هذا على ظهر جبل. ٢/ هي على رأسه.

ومن ههنا يمكننا القول إن الاستعلاء يكون حقيقيا إذا كان العلو على نفسه المجرور حسا وفي المعنى الثاني، نورد المثال الآتي: مررت على فلان، يكون المعنى ههنا مجازيا إذا كان العلو على مايقرب من مجرور وليس على المجرور نفسه، لكونه غير صالح للاستقرار عليه أو الحركة فوقه ،ومنة قوله تعالى (أو أجد على النار هدى)[٢٥].
فالعلامات الأساسية للاستعلاء المجازي هي ألا تكون (على) بمعنى فوق، فالمرور بفلان أي بجواره، وليس فوق ظهره.

وفي المعنى الثالث نسوق المثالين الآتيين.

١- علينا أمير، ٢- عليه مال

إنّ (على) في المثالين السابقين يفيد الاستعلاء المعنوي منها قوله تعالى (ولهم

على ذنب)[٢٦] وقول عز وجل(تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض)[٢٧] ويعتبر الاستعلاء معنى أصليا لـ (على) في حال كونها اسماً وفعلاً.

قال المبرد ((وقد يكون اللفظ واحدا ويدل على اسم وفعل،نحو:زيد على الجبل يا فتى، وزيد علا الجبل، فيكون (علا) فعلا، ويكون حرفا خافضا والمعنى قريب))[٢٨]

عن: هو حرف يجرما بعده، قال سيبويه ((وأما ،عن فلما عدا الشيء وكذلك قولك: أطعمه عن جوع، جعل الجوع منصرفا تاركاله وقد جا وزة[٢٩])) ذكر لها النحويون معاني عدة، أشهرها: المجاوزة: لبعد شيء عن المجرور بها بسبب إيجاد مصدر المعدّى بها،نحو: رميت عن القوس،أي: بعد السهم عن القوس، لأنه يقذف عنها بالسهم ويبعده، ويسمى احد النحويين[٣٠] هذا المعنى: «المزايلة» قائلا: «المزايلة» نحو قولك: رميت نحو القوس... ومن ذلك: تجاوزت عن فلان، وكفرت عنه»[٣١].

وتأتي حرفا واسما بدليل قولهم من عنه، قد سبقت بحرف جر»[٣٢].

هـ / في: المعنى الأصلي لهذا الحرف هي الوعاء، قال سيبويه: «وأما في فهي الوعاء، تقول هو في الجراب، وفي الكيس، وهو في بطن أمه، وكذلك هو في الغل، لأنه جعله إذا أدخله فيه كالوعاء له، وكذلك في القبة، وفي الدار، وإن اتسع في الكلام فعلى هذا، وإنما تكون كالمثال يجاء به ويقارب الشيء وليس مثله»[٣٣].

ونقل ابن منظور عن الجوهري قوله: (في) حرف خافض، وهو للوعاء والظرف، وما قدر تقدير الوعاء، تقول: الماء في الإناء، وزيد في الدار، والشك في الخبر[٣٤]» والوعاء في اللغة هو الظرف يوعي فيه الشيء.

ونصل مع ابن منظور فتجده يفسر معنى (الوعاء والظرفية) بمعنى وسط، وتأتي بمعنى داخل، يقول: (في) تأتي بمعنى وسط وتأتي بمعنى داخل كقولك: عبد الله في الدار، أي داخل الدار ووسط الدار»[٣٥].

وللدلالة على ان (في) للوعاء وبمعنى (وسط) قوله تعالى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[٣٦] لم يقل (على) جذوع النخل، لأن (على) للاستعلاء، والمطلوب لا يجعل على رؤوس النخل، وإنّما يصلب في وسطها، فكان (في) أليق وأنسب من (على).

و- اللام: يتشكل صوت اللام بالتصاق إحدى حافتي اللسان والحنك الأعلى، مع ترك الحافة الثانية سائبة، يتسرب على جانبيها الهواء الخارجي من الجوف إلى النفس»[٣٧] وحول معانيها واستعمالاتها يقول ابن منظور: «نبدأ بالحروف التي جاءت لمعان

من باب اللام لحاجة الناس لمعرفتها، فمنها اللام التي توصل بها الأسماء والأفعال، ولها فيها معان كثيرة، فمنها لام الملك، كقولك: هذا المال لزيد، وهذا الفرس لمحمد، ومن النحويين من يسميها لام الإضافة»[٣٨]. وهي إشارة إلى سيبويه الذي يسميها (لام الإضافة) ويوضح معناها بقوله (ولام الإضافة ومعناها الملك واستحقاق الشيء، ألا ترى أنك تقول الغلام لك والعبد لك، فيكون في معنى عبدك، وهو أخ له، فيصير نحو هو أخوك، فيكون مستحقا لهذا كما يكون مستحقا لما يملك، فمعنى هذا اللم معنى إضافة الاسم»[٣٩] وسميت لام الملك، لأنك إذا قلت أن هذا لزيد علم أنه ملكه»[٤٠].

و يعرفها الزجاجي (ت ٣٢٧ هـ) بقوله: «لام الملك موصولة لمعنى الملك إلى المالك، وهي متصلة بالمالك، لا المملوك، كقولك: هذا الدار لزيد، وهذا المال لعمر وهذا ثوب أخيك».

ز- من: حرف جر: «ابتداء الغاية هو أصل معانيها الدلالية، وقد خصها سيبويه بابتداء الغاية المكانية، فقال: «وأما (من) فتكون لابتداء الغاية في الأماكن، وذلك قولك من مكان كذا وكذا، وتقول إذا كتبت كتابا من فلان إلى فلان، فهذه الأسماء سوى الأماكن بمنزلتها»[٤١].

ويقتصد بقوله: «ابتداء الغاية» معاني الأفعال التي تسبق (من) ونستشف المعنى نفسه من قول الرماني «فأما التي لابتداء الغاية فنحو (خرجت من بعداد إلى الكوفة) عنيت أنّ بغداد ابتداء الخروج والكوفة انتهاؤه»[٤٢].

وهناك أحرف لم يتبناها العرب أصلا للجر، وليس ثمة علاقة بين خصائص الأحرف العربية التي تشارك في تركيبها وبين معانيها واستعمالاتها التراثية.

هي أحرف أقحمت في فئة حروف الجر إقحاما، بدليل أن مجروراتها تنصب محلا على الاستثناء، ممّا يجعل جرّها لما بعدها اختياريا وضربا من الاصطلاح على أيدي الشعراء لضرورة الأوزان والقوافي الشعرية، وهذه الحروف هي: حاشا، خلا، وعدا.

١- خلا: تكون حرفا جارا للمستثني، ويستفاد ذلك من روايات سيبويه، اذا روى عن بعض العرب قولهم: «ما أتاني القوم خلا عبد الله» فيجعل خلا بمنزلة حاشا[٤٣].

و تستعمل (خلا) في الجر مجردة من (ما).

و أورد ابن منظور أنها: «كلمة من حروف الاستثناء، تجر ما بعدها وتنصبه، فإذا قلت: ما خلا زيدا، فالنصب لا غير»(٤٤) لقد قدم في تعريفه دلالة (خلا) في كلتا

الحالتين (الجر والنصب) على الوظيفة النحوية، وقدم الجرّ على النصب معللا وجوب النصب بدخوله (ما) عليها، في حين لم يضرب مثلا للجر، وكأني به يؤكد حرفية الكلمة.

فمن الجرّ بـ (خلا) استشهد في مكان آخر بقوله الشاعر:

خلا الله لا أرجو سواكا وإنما

أعد عيالي شعبة من عيالكا[45]

وأجاز عباس حسن، اعتبار (خلا) وأخواتها حروف جر أصلية، والمستثنى مجرور بها.

و الجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما أو بما يشبهه[46].

هذه أهم الأقوال في (خلا)، وما يهمنا ههنا هو ما يتعلق بحرفيتها ودلالتها.

ففي المثال الأول: (ما أتاني القوم خلا عبدا لله) دخلت (خلا) على اسم علم مركب وسبقها حدث (عدم إثبات القوم) فأزالته عن مجرورها.

وأما المثال الثاني: (خلا الله لا أرجو سواك) دخلت (خلا) على لفظ الجلالة (الله)، ولحقها (عدم رجاء غير المخاطب) فأزالته عن مجرورها، وهذا هو ضابطها.

٢- عدا: نقل ابن منظور عن الأزهري قوله: «عدا من حروف الاستثناء قولهم: ما رأيت أحدا ما عدا زيدا، كقولك ما خلا زيدا، وتنصب زيدا في هذين، فإذا أخرجت خفضت ونصبت، فقلت ما رأيت أحدا عدا زيدا، وخلا زيدا وخلا زيد، النصب بمعنى (إلا) والخفض بمعنى (سوى)»[47].

وابن منظور يرى أن (عدا) إذا خفضت كان بمعنى سوى، و(عدا) لفظ مشترك بين الفعلية والحرفية، وهي عند سيبويه، فعل فقط، فيه معنى الاستثناء[48].

ومن الشواهد الجر بـ (عدا) قول الشاعر:

أبحنا حيهم قتلا وأسرا

عدا الشمطاء والطفل الصغير[49]

الشاهد فيه (عدا الشمطاء)، حيث استعمل (عدا) حرف جر، فجر الشمطاء به، ولم يحفظ سيبويه الجر بعد[50].

و(عدا) مثل (خلا) تأتي حرف جر إذا لم تتقدم عليها (ما) وتكون بمعنى سوى، وتأتي لتزيل عن مجرورها معنى حدث سبقها.

٣- حاشا: قال ابن منظور: «وحاشى من حروف الاستثناء تجر ما بعدها كما تجر (حتى) ما بعدها»[51].

و في قوله إشارة إلى ما قاله سيبويه عنها: «حرف يجر ما بعده كما تجر (حتى) ما بعدها وفيه معنى الاستثناء»[52].

يتفق العالمان بالتعريف بالحرف ولكنهما

يختلفـان، فابن منظور يقدم الدلالة ويؤخر الوظيفية، في حين يقـدم سيبويه الوظيفية ويؤخر الدلالتها.

ويرى الزمخشري أنها «كلمة تفيد التنزيه في باب الاستثناء، تقـول: أساء القوم حاشا زيدا»[٥٣] وهي (حاشـا) مستعملة كثيرا عند العامـة في الآداب العامة والاحترام المتبادل بين الناس.

وتتجلى حرفيـة (حاشا) من فعليتها إذا استثنينا بها ضمير المتكلم، فإذا قصد الجر قيل (حاشاي).

قـال الشاعر: في فتنة جعلـوا الصليب إلههم: حاشاي إنني مسلم مغدور[٥٤]

(وحاشـا) حرف جر؛ لأنه لو كانت فعلا لقال: (حاشاني) ولا تظهر (نون الوقاية) إلا متصلة بالفعل، ومن دونها في البيت السابق (حاشاني) دلالة على حرفيتها.

القسـم الثـاني مـن حـروف الجـر ومعانيهـا: حصـر أحد النحـاة المحدثين الحروف التـي يجر الظاهـر في عشرة(*)، وهي: مذ، منذ، حتى والكاف، والواو، و رب، والتاء، وكي،ولعلّ،ومتى).[٥٥]

نستعرض آراء العلمـاء القدمـاء والمحدثـين، وذلـك للوقوف علـى حقيقة هذه الحروف، وربطها بشواهدها التراثية، ترسيخا للفهم. والحروف هي على التوالي:

١/حرف التاء =التاء حرف جر معناه القسم، وتختص بالتعجب وباسم الله تعالى[٥٦]، وهي بمنزلـة الواو والتاء. قـال سيبويه ((والواو التي تكون للقسم بمنزلة الباء ،وذلك أقولك: والله افعـل، والتاء التي في القسم بمنزلتها، وهي تا الله لا أفعلنّ))[٥٧]

وبين ابـن منظور إن (التـاء) في القسم بدل مـن الواو كما أبدلـوا منها في (تترى) و(تراث) و(تخمـة) و(تجاه) والواو بدل من الباء تقـول :تا الله لقد كان كذا، ولا تدخل في غير الاسـم)) [٥٨] و تـرد مرتبطة باسم الجلالة نحـو قولة **تعالى** (وَتَـاَالله لأكيدنّ أصنامكـم)[٥٩] كأنه **تعجب** من تسهيل الكيد على يده، ففيها زيادة علـى القسم معنى التعجب.

ويختلـف ابن منظور مع سيبويه في كون التاء بدلا من الواو ،ويوافق ابن هشام لكون ارتباطها بلفظ الجلالة دونها غيره.

٢/حـرف الـواو = (الـواو) أكثر حروف القسم توظيفا ،وتصدر الكلام، ولهذا ذكرها سيبويـه في مقدمة حروف القسم قبل الياء والتـاء، ((والقسـم والمقسم بـه أدوات في حـرف الجر وأكثر الواو ثـم الباء، يدخلان علـى محلوف به، ثم التـاء، لا تدخل إلا في واحد، وذلك قولـك «والله لأفعلن» و«بالله لأفعلن» و«تالله لأكيدن أصنامكم»[٦٠].

لقد حصر دخول (التاء) على لفظ الجلالة، بينما جعل (الواو) تدخل على لفظ الجلالة وغيرها من الأسماء، ولها ميزة الصدارة في السوق القرآنية ((والصافات) والطور). بيّن ابن منظور أن (واو) القسم تتصدر الكلمة حتى لا يوهم أن كل واو تليها كلمة تعد(واو)قسم ،وقدم دلالتها ،ثم بيّن وظيفتها النحوية ،وهي (الجر) وأكد مرتبتها ومثل لها من التنزيل (والطور وكتاب مسطور)[61]. فالواو الأولى للقسم والثانية ليست كذلك.

٣/حرف ربا[62] ليس من بين حروف الجر ما يشبه هذا الحرف ،فقد تعددت الآراء فيه ،واختلف النحاة واللغويون في أحكامه ونواحيه المختلفة (معناه، حرفية، زيادته أو شبهها، وتعلقه، وعدم تعليقه)، ولابد من الوقوف على هذه الآراء والأحكام النحوية والدلالات.ومعناها التكثير والتقليل، وعلى هذه الآراء والأحكام النحوية والمعاني والدلالات، ومعناها التكثير والتقليل، وعلى أشهر الأقوال أنها للتقليل.فهي ذلك قول الشاعر:

ألا رب مولود وليس له أب: ..وذي ولد لم يلده أبوان[63]

قال المبرد ((وربّ معناها شيء يقع قليلا، ولايكون ذلك الشيء إلا مذكورا لأنه واحد يدل على أكثر منه))[64]: ويوافقه ابن منظور القائل: من قال ربّ بها الكثير، فهو ضد ما تعرفه العرب))[65]

وهكذا فربّ حرف جر له وظيفة تتعلق بالعدد كثرة أو قلة، لاتجر إلا المفرد النكرة، ويجب في مجرورها الظاهر أنّ يوصف نحو: ربّ كتاب نافع قرأته.

٤/حرف الكاف: الكاف حرف جرّ تخفض ما بعدها، ومن معانيها:

التشبيه: زيد كالأسد.

والتوكيد: (ليس كمثله شيء)[66].

والتعليل: وَيْكأَنَّهُ لا يفلح الكافرون)[67]

أي: أعجب لعدم فلاحهم.

٥- حرف كي: يستخلص من أقوال النحاة أن الدلالة الأصلية لكي هي السببية أو التعليل، وفيه يقول سيبويه: «وأما كي فجواب لقولك كيمه كما يقول لمه، فتقول ليفعل كذا وكذا»[68]، فهذا سيبويه يلتقي مع أحد اللغويين المحدثين القائل: «وتسمى كي التعليلية لأنها تدخل على استفهام يسأل به عن العلة والسبب»[69] ولمّا كانت كي لا تدخل إلا على الأفعال، فإن خاصية الجرّ ألصق بها لتخريج إعراب ما بعدها، فيبدو أنهم لم يجدوا تخريجا إلا بجعلها أداة وما بعدها جملة فعلية في محل جربها، على ما ذكر ابن هشام[70].

وهكذا تكون وظيفة (كي) في الجر مصطحة، مما يخرجها من فئة حروف الجر الأصلية ويؤكد المعنى نفسها ابن منظور القائل: «كي من حروف المعاني ينصب الأفعال بمنزلة (أن) ومعناها العلة لوقوع شيء، كقولك: «جئت كي تكرم مني»[٧١].

٦- **لعل:** لعلّ حرف ينصب الاسم ويرفع الخبر[٧٢]، وهي في لغة عقيل حرف جر شبيه بالزائد[٧٣]، لا يتعلق بعامل، يخفضون به المبتدأ نحو: «لعل الغائب قادم» جر الغائب لفظا وهو مرفوع محلا على أنه مبتدأ.

وفي معناها أوضح سيبويه أن: «لعل وعسى طمع واشفاق»[٧٣].

ويوافقه ابن منظور في أنها بمعنى (عسى): «وعسى ولعل من الله تحقيق»[٧٤].

غير أن ابن هشام قد احتفظ لنفسه بمعنى التوقع، فقال: «هو ترجي للمحبوب والإشفاق من المكروه»[٧٥].

ويرى عباس حسن أنها للترجي والتوقع[٧٦].

ونرى أنه لا يأبه لخاصية الجر فيها، لأنها لغة لدى بعض القبائل العربية، ولأن معنى المسند إليها لا يتوافق مع خصائص أحرفها.

٨/٧-**حرفا مذ ومنذ:** قال المبرد: «فأما (منذ) - جررت أو رفعت - واحد وبابها الجر[٧٧] فمنذ لفظ مشترك تكون حرف جر، وتكون اسما،» فإذا كانت اسما ارتفع ما بعدها على نحو ما ارتفع بعد مذ، وإن انجر ما بعدها كان حرفا، وحكمها حكم مذ، إلا أن الاختيار أن نجر بها على كل حال، ما مضى، وما أنت فيه، تقول: من ذلك: ما رأيته منذ يومين، ومنذ يومنا، ومنذ اليوم، وإن جعلته اسما قلت: ما رأيته منذ يومان، أي بيني وبين لقائه يومان، ومدّة فراقه يومان»[٧٨].

إذا فمتى تكون (منذ) حرفا ينجر ما بعدها، ومتى تكون اسما يرتفع ما بعدها.

قال ابن منظور: «منذ مبني على الضم، ومذ مبني على السكون، وكل واحد منها يصلح أن يكون حرف جر فتجر ما بعدهما، وتجريهما مجرى (في)، ولا تدخلهما حينئذ إلا على زمان أنت فيه، فتقول: ما رأيته منذ الليلة»[٧٩].

وهكذا فمذ ومنذ يكثر استعمالهما اسمين غير ظرفين، كما يكثر استعمالهما حرفين أصليين للجر»[٨٠].

ويشترط لمجيئهما حرفي جر أصلي أن يكون المجرور اسما ظاهرا لا ضميرا وأن يكون وقتا وأن يكون هذا الوقت مقتصرا معنيا لا مبهما ماضيا أو حاضرا ولا مستقبلا نحو ما رأيته مذ يوم السبت الأخير.

وهكذا يكون (مذ ومنذ) حرفين أصليين للجرّ بمعنى (في) للدلالة على الزمن، ويجب أن يتضمّن مجرورهما هذه الدلالة ولا يفارقها أبدا.

٩- حرف حتى: [81] اعلم أن (حتى) معناها الغاية في جميع الكلام إلا أنها تكون تارة حرفا جارا للأسماء، وتارة ينتصب بعدها الفعل المضارع، وتارة عاطفة تشترك بين الأول والثاني في اللفظ والمعنى»[82].

وهي عند النحاة المحدثين حرف جر أصلي وهو نوعان:

نوع لايجرّ إلا الأسماء الظاهرة، والصريح[**] ومعناها في هذا النوع الدلالة على انتهاء نحو: تمتعت بأيام الراحة حتى آخرها.

ونوع آخر لا يجرّ إلا المصدر المنسبك من (أن) المضمرة وما دخلت عليه من الجملة المضارعة، وأشهر معانيها الدلالة على انتهاء الغاية أو الدلالة على التعليل[83] أو الدلالة على الاستثناء نحو: أتقن عملك حتى تشتهر[84]. نلاحظ أن معنى الفعل بعد (حتى) الاستقبال الذي هو سمة من سمات (حتى) الجارة، وأما إن دلّ على الحال فيكون سمة لـ (حتى) الابتدائية. قال امرؤ القيس:

مطوت بهم حتى تكلّ مطيهم
وحتى الجياد ما يقدن بأرسان[85]

الشاهد في البيت أنه جاء بـ (حتى) التي تنصب مابعدها، وأراد أن بعدها ما لايجوز أن يعطف عليها لمجيء بـ (حتى) في الشطر الثاني، وما بعد الأول منصوب، لأنه غاية، وما بعد(حتى) في الجملة الثانية مبتدأ وخبر.

ولـ (حتى) الجارة معنيان:

١- مرادفة (إلى) نحو: سأقيم في المدينة حتى يأتي الربيع.

٢- مرادفة (كي) نحو: أسلم حتى تدخل الجنة.

نقل ابن منظور عن ابن سيدة قوله: «وحتى حرف من حروف الجر ك (إلى) ومعناه الانتهاء الغاية كقولك: سرت اليوم حتى الليل، إي الليل إلى الليل»[86].

ونقل كذالك عن الجوهري قوله «(حتى) بمعنى فعل من حتى وهي حرف تكون بمنزلة إلى لانتهاء الغاية»[87]

ويبين ابن منظور ما يتصل به للدلالة على أصالة حرفين، نحو (ما) وضرب لذلك مثلا «حتّام ؟ حيث فككها إلى (حتى) و(ما) فحذفت ألف ما الاستفهامية – كعادتها– [88] عند اتصالها بحروف الجرّ، وهذا الحذف دليل على حرفيتها، مثل باقي

حروف الجر نحو فبم تبشرون؟ وفيم كنتم؟ وعمّ تتساءلون؟ ولمِ تؤذونني؟ وتكون حتى الجارة للاسم الصريح بمعنى (إلى) وتدل على منتهى ابتداء الغاية إذا سبقت بفعل أو شبيهه، وتفضي هذا العمل شيئاً فشيئاً إلى نهاية الاسم المجرور في قوله تعالى (ليسجننه حتى حين)[٨٩] يستمر السجن زَماناً ما. قال الزمخشري: «كأنها اقترحت أن يسجن زمانا حتى تبصر ما يكون منه»[٩٠].

١٠- حرف متى: متى حرف ثلاثي الأصول، مبني على السكون، يعمل الجر في لغة هذيل ومن كلامهم: «أخرجها متى كمه»، أي من كمه. فتاتي بلغتهم في المعنى (من).

وحكى أبوزيد الأنصاري[٩١] عنهم: «وضعته متى كمي» أي (في) كمي، وهي في هذا المثال بمعنى (في) ومنه قول الشاعر:

شربن بماء البحر ثم ترفعت
متى لجج خضر لهن نئيج[٩٢]

أي (من) لجج. من أشهر أمثلة ما رواه ابن هشام لحرف (حتى) قولهم: (أخرجها متى كمة)[٩٣] أي (منه).

و لكن ابن منظور روى عن الأصمعي أنها قد تكون بمعنى وسط، وقال أن أبا زيد سمع بعضهم يقول: «وضعته متى كمي، أي في وسط كمي»[٩٤].

و أرى جواز كون (متى) بمعنى (وسط) ومعنى (في) مثل قولهم: (وضعته متى كمي).

يظهر من الشواهد المنتقاة أن (متى) في لغة هذيل تقع موقع عدد من حروف الجر (في) و(من) بمختلف معانيها.

عن الفراء: ومتى بمعنى (من) وأنشد يقول:

إذا أقول صحا قلبي أتيح له
سكرا متى قهوة سارة إلى الرأس[٩٥]

أي (من) قهوة.

نستخلص مما سبق ذكره أن كتاب سيبويه يعد أول كتاب شامل في اللغة ومستوياتها: الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية وصل البناء وضم بين دفتيه بابا خص به حروف الجر التي سمّاها حروف الإضافة، كما يعد معجم لسان العرب من أهم المعاجم العربية التراثية التي أولت أهمية لحروف الجر دلالة ووظيفة وأن هذه الحروف كلها مبنية، وحقها البناء على السكون، لأنه أصل علامات البناء، وهي تختص بالعمل في الأسماء، فتصل ما قبلها بما بعدها، وتوصل الاسم بالاسم، وهناك حروف اختلف حولها النحاة منهم من عدها حروفا، ومنهم من أخرجها من حروف الجر.

يلاحظ الدرس لحروف الجر أنها تتعدد وظائف مثل (حتى) كما تشترك (حاشا وخلا وعدا) في وظيفة الجرو دلالة الاستثناء.

ويتفق البصريــون والكوفيون في جواز الجر بخلا، وهناك بعض الحروف تختص بالجــر في لغــات بعضــ القبائــل العربية (متى).

الهوامش

١- لسان العرب -رغب - ٢٥٤/٥.
٢- المصدر نفسه، ٢٥٥/٥.
٣- المصدر نفسه، ١٢٨/٣.
٤- سورة الحج، الآية ١١.
٥- مقاييس اللغة، ابن فارس. حرف. ١٤٢/٢.
٦- المصدر نفسه.
٧- القاموس المحيط - حرف ١٢٦/٣.
٨- الكتاب ٤٠/١، علق عليه أميل بديع يعقوب-ينظر الصاحبي ابن فارس، ص٥٣.
٩- سر صناعة الإعراب، ٣١/١، ١٤.
١٠- الإيضاح في علل النحو. تح/أبو مازن المبارك، ص٥٠.
١١- إصلاح الخلل الواقع في الجمل للزجاجي، ص٢٧، ينظر شرح شذور الذهب، ابن هشام، ص١٤.
١٢- الكتاب لسيبويه، ٩/١.
١٣- شرح المفصل، ابن يعيش، ٤/٨.
١٤- لسان العرب. حرف، ١٢٧/٣.
١٥- شرح شذور الذهب. ابن الهاشم، ص ١٣.
١٦- المصدر نفسه، ص ١٨.
١٧- شرح المفصل ابن معيش، ص ٧/٨.
١٨- اللسان. إلى ١٩٦/١، بنظر النحو الوافي - عباس حسن، ٢ /٤٦٨.
١٩- الكتاب، ٣٧٣/٢- ٣٧٤ اللمع في العربية - ابن جني، ص ١٢٨ ـــ معاني الحروف الرماني، ص ١١٥.
٢٠- الكتاب، ٣٦٥/٢.
٢١- المقتضب، ١٤٢/٤.
٢٢- اللسان. الباء، ٢٩٨/١.
٢٣- المصدر نفسه، ٢٩٧/١.
٢٤- الكتاب، ٣٧٣/٢ معاني الحروف ص١٠٣، لسان العرب. على. ٢٨٠/٩، مغني اللبيب ١٩٩/١.
٢٥- سورة طه، الآية ١٠.
٢٦- سورة الشعراء، الآية ١٤.

٢٧- سورة البقرة ، الآية ٢٥٣.
٢٨- المقتضب، ٤٦/١.
٢٩- الكتاب، ٣٧١/٢ لسان العرب ـــ عن ٤٤١/٩، مغني اللبيب، ١٩٦/١.
٣٠- أحمد بن عبد النور المالقي- رصف المباني، ص ٤٣٠.
٣١- رصف المباني ،٣٦٧، ينظر مغني اللبيب ١٩٦/١.
٣٢- الكتاب ٣٧١/٢.
٣٣- لسان العرب ـــ فيا ٣٧٢/١٠.
٣٤- لسان العرب ـــ فيا ٣٧٢/١٠.
٣٥- سورة طه، الآية ٧١.
٣٦- المحيط في أصوات عربية ونحوها وصرفها ـــ محمد الأنطاكي، ص٢٥.
٣٧- لسان العرب ـــ لام كي ـــ٣٦١/١٢.
٣٨- اللامات الزجاجي ص٤٧.
٣٩- الكتاب، ٣٦٩/٢.
٤٠- المصدر نفسه، ٣٦٩/٢.
٤١- معاني الحروف للرماني، ص ١٦٥.
٤٢- الكتاب، ٤٤٢/١ شرح ابن عقيل ٦٦٩/١، شرح الاشموني على الفية ابن مالك، ٤٥٩/٢.
٤٣- لسان العرب ،خلا ٢٠٩/٤.
٤٤- شرح ابن عقيل ٦١٨/١، شرح الاشموني ٤٥٨/٢، لسان العرب ٢٠٩/٤، النحو الوافي ٣٥٥/٢.
٤٥- اللسان – عدا ٩٦/٩.
٤٦- الكتاب ٣٥٩/١، المقتضب المبرد ٣٩١/٢، ولم يحكيا فيها الحركية.
٤٧- قبلـه: تركنا في الحضيض بنات عوج :. عواكف قد خضعن إلى النسـور ورد في شرح ابن عقيل ٦١٩/١ وشرح الاشموني ٤٦١/٢.
٤٨- المصدر السابق.
٤٩- لسان العرب ـــ حاشا ١٩٥/٣.
٥٠- الكتاب، ٤٤٢/١.
٥١- الكشاف، ٤٦٥/٢.
٥٢- الجني الداني: المرادي ص٥٦٥، ينظر كشف السر عن حروف الجر: ناصر حسين على ص٤٧.
٥٣- ينظر السمات الدلالية لحروف الجر ـــ ميلود منصوري، ص١٠٠.
٥٤- النحو الوافي ـــ حسين عباس، ٤٣٣/٢.
٥٥- مغني اللبيب، ١٥٧/١.
٥٦- الكتاب ـــ سيبويه ١٦٥/٢.
٥٧- لسان العرب – تا – ٥/٢.

٥٨- سورة الأنبياء، الآية ٥٧.
٥٩- سورة الأنبياء، الآية ٥٧.
٦٠- سورة الطور، الآية ٢٦١.
٦١- الجني الداني، ١٧٦- أسرار العربية، ص١٠٤ـــ ينظر الإنصاف في المسائل الخلاف ٨٣٢.
٦٢- الكتاب، ٤٩٥/٢، الخصائص ٢٤٤/٢، رصف المباني ص١٩٨، مغني اللبيب ١٨١/١.
٦٣- المقتضب، ١٤٠/٤.
٦٤- لسان العرب. ربب ١٠١/٥.
٦٥- سورة الشعراء الآية ١١.
٦٦- سورة القصص الآية ٨٢.
٦٧- الكتاب ٣٦٨/٢، ولسان العرب ـــ كي ٢٠٦/١٢.
٦٨- النحو الوافي ـــ عباس حسن ٤٥٦/٢.
٦٩- مغني اللبيب، ٢٤٢/١.
٧٠- لسان العرب ـــكي ٣٠٦/١٢.
٧١- مغني اللبيب ٣٧٧/١، وحروف المعاني -الرماني ١٢٤.
٧٢- الكتاب نفسه، ٣٧٤/٢.
٧٣- المصدر نفسه.
٧٤- لسان العرب ـــ لعل ٢٩/١٢.
٧٥- مغني اللبيب، ٣٧٩/١.
٧٦- النحو الوافي، ٤٥٧/٢.
٧٧- المقتضب، ٣١/٣.
٧٨- المصدر نفسه.
٧٩- لسان العرب، ٥٨/١٣، ١٩٤/١٩٣.
٨٠- النحو الوافي ـــ عباس حسين ٥١٨/٢.
٨١- الكتاب سيبويه، ١٧/١٦/١٣
٨٢- المصدر نفسه، رصف المعاني ص ١٨٢.
٨٣- المراد بالظاهر ما ليس ضميرا والصريح ما ليس مصدرا مؤولا وما بعدها.
٨٤- الدلالة على أن ما قبلها علة وسبب فيما بعدها.
٨٥- لسان العرب حتى، ٤٦/٣.
٨٦- ديوان أعلم الشنتمري ـــ تح ـــ ابن شنب ص٢١٦ينظر شرح أبيات سيبوية ص٦١ـــ ينظر لسان العرب ـــ مطا ١٣٤/١٣، والكتاب سيبوية، ٥٩٨/٣.
٨٧- لسان العرب ـــحتى، ٣٩/٣.
٨٨- لسان العرب، ٣٩/٣.

٨٩- المصدر نفسه، ٣/٤٠.
٩٠- سورة يوسف، الآية ٣٥.
٩١- الكشاف، ٢/٤٦٨.
٩٢- شرح رضي على الكافية، ٢/٢٠٤.
٩٣- البيت في ديوان الهدليس، ١/٥١ لأبي ذئيب، الخصائص ٢/٥٦ سر صناعة الإعراب ١/١٣٥، ١٤٢ لسان العرب ـــ شرب ٤/٦٤، متى ١٣/١٩ مغني اللبيب ١/١٤٠، ى رصف المعاني ص١٥١.
٩٤- شرح الكافية، ٢/٢٠٤.
٩٥- مغني اللبيب، ١/٤٤٠.

الدراسات والبحوث

سيكولوجية المال

السلوك الاستهلاكي وهوس الشراء وفوبيا المال

د. محمد قاسم عبد الله *

يلعب المال دوراً مهماً في الحياة،كما أن له مكانة خاصة في حياتنا النفسية التي تمتلئ بالأمل، والألم، والاستثارة، والنشاط، والسعادة، وذلك لأنه يرتبط بالكثير من الدوافع والحاجات، والقيم، والاتجاهات الفردية والاجتماعية. فالتجربة المالية جزءٌ لا يتجزأ من خبرتنا النفسية، وكثيراً ما يكونُ المال مشكلةً وليس حلاً، فقد يكون المال ذا طابع سلبي مؤلم على الرغم من أنه يرتبط في أذهان الكثيرين بالسعادة والإيجابية، والأمل. وإذا كان البعض يربط

* أستاذ الصحة النفسية كلية التربية - جامعة حلب

بين المال والسعادة، ويرى أنهما وجهان لعملة واحـدة، فإن تلك السعادة مشروطة بالنتائج الإيجابية للمال، وهـي نتائج غير مضمونة دائمـاً. وهناك الكثير مـن التساؤلات التي يطرحها علماء النفس حول المال، منها: متى ينفـق الناس المال ومتـى يدخرونه؟، ومتى يصبح المال رمزاً للقـوة والسلطة، والشعور بالسعـادة؟ ومتى يصبح المـال من مصادر القلـق والألم، والخـوف؟ فـإذا كان علماء الاقتصاد ينظرون إلى المال بوصفه مجموعة أوراق ماليـة وعمـلات معدنيـة، ومعادن ذهبية أو فضية، فإن علماء النفس ينظرون إلى المشاعر والوجدان المرتبط بهذه الأوراق وتلك العملات، إنهم يبحثون في موضوعات: البُخـل، والادخـار، وهوس المـال، وسلوك الرشوة، وسلوك النصب والاحتيال، والتهرب من الضرائب، وفوبيا المال، وعلاقة المال بكل من السعادة والأمل من جهة واليأس والضيق مـن جهة أخرى. لكن مثل هـذه التساؤلات تبقى من الموضوعات التي تتداخل في بحثها علوم الاقتصاد، والنفس، والاجتماع، والتي توصلـت إلى نتائج مهمة عنها. إلا أن هناك تساؤلات مهمة عن المال في مرحلة الطفولة والمراهقة، ومن أبرز التساؤلات التي يسعى علماء النفس للإجابة عنها هي:ماذا يعرف الأطفال عـن المال؟ ومتى يدركـون معناه؟ وما هـي المحـددات النفسيـة، والمعرفية، والاجتماعية التي تؤثـر في إدراكهم للمال؟ وهل يلعب النمو العقلي والمعرفي دوراً مهماً في ذلك؟ وما علاقة متغيرات العمر، والجنس، والمستوى الاجتماعي والثقافي والاقتصادي في هذه المدركات؟ وما هي الدلالة النفسية لمصـروف الجيب لدى الأطفال؟ كيف ولماذا يدخـر الأطفـال المـال أو يصرفونه؟ تعتبر هذه التساؤلات محور البحوث النفسية حول سيكولوجية المـال لدى الأطفـال. وبسبب التغـيرات الاجتماعية السريعـة والمعاصرة، التي رافقت العولمـة وسيطرة القيم المالية، واقتصاد السـوق، والمعرفة،والتي انعكست على عملية التربيـة، ونمو الطفل، فقد زاد الاهتمام ببحث علاقـة الطفل بالمال، هذه العلاقـة التي تبـدأ على شـكل لعب ولهو وتسليـة في مراحل النمـو الأولى أكثر منها علاقـة جدية، فـإن المال يمثل عـدداً من الدلالات النفسيـة والاجتماعية التي تعمل علـى تدريب الطفـل للكثير مـن الأنشطة والسلوكيات الموجودة لديه بالقوة أو بالفعل، هذه العلاقة وجدانيـة، وتتغير معها الكثير مـن سمـات الشخصية لـدى الطفل، كما يكتسب مـن خلالها الكثير مـن القدرات، وتتسـع خبراته ومدركاته من خلال اكتسابه لمفاهيم مثل: الادخار، والمصروف، والإنفاق،

والبيع، والشراء، والاستهلاك، والثروة، والغنى، والفقر، إضافة إلى الكثير من المعاني المجردة التي تتضمنها هذه السلوكيات مثل الاستقلالية، والاعتماد على الذات، والإحساس بالأمن، وإذا اضطربت علاقة الطفل بالمال فإن هذه العلاقة المضطربة ستمتد آثارها إلى مراحل النمو اللاحقة وخاصة المراهقة لتتحول إلى حالات مرضية منها البخل أو الإسراف، وحب التملك أو الأنانية والجشع، وسلوك الرشوة، والغش، والسرقة، والنصب، أو سلوك المقامرة والاحتيال في مرحلة الرشد[1].

يعتبر سلوك الاستهلاك لدى الأطفال من أبرز الموضوعات التي يبحثها علماء النفس لارتباط هذا السلوك بالعديد من المحددات النفسية، والاجتماعية. فهو يرتبط بدرجة إشباع الطفل لاحتياجاته المادية والفسيولوجية من مأكولات ومشروبات سواء داخل المدرسة أو خارجها، وبمصروف الجيب، كما يرتبط بسلوك الحرص الذي يظهر لدى الطفل حين استخدامه لمصادر الطاقة من كهرباء، وماء، أو محافظته على أثاث المنزل أو المدرسة وبيئتها، كما يرتبط من جهة ثانية بإشباع الاحتياجات النفسية والاجتماعية للطفل من الاستقلالية، والاعتماد على النفس، والمكانة، إلا أن هذا السلوك قد يتحول إلى سلوك غير سوي بحيث يظهر من خلال سيطرة مشاعر الخوف والقلق من المال لدى الطفل حتى يتحول إلى حالة مرضية تسمى هوس المال، هذه الحالة تؤثر في تفاعله الاجتماعي مع الآخرين، وفي سلوكياته التكيفية[2].

مفاهيم أساسية:

ما هو السلوك الاستهلاكي؟: هو كل فعل أو نشاط يستخدم فيه الفرد منتجاً ما بغرض إشباع حاجاته ورغباته ومتطلباته. وبما أن المتطلبات والاحتياجات تتزايد باستمرار مع التطور التكنولوجي والتغيرات الاجتماعية، فقد سيطرت نزعة الاستهلاك على الفرد في مختلف مراحل نموه وفي مختلف المجتمعات. ويرتبط سلوك الاستهلاك بالعديد من الأنشطة التي لا تقتصر على إشباع الحاجات الفردية والدوافع البيولوجية والنفسية (مثل المأكولات، والمشروبات، والألبسة، والألعاب، والأحذية، والأثاث المنزلي، والأدوات المنزلية)، بل تمتد لتشمل كيفية تعامل الفرد مع مصادر البيئة والطاقة بأشكالها المختلفة (مثل الماء، والمصابيح الكهربائية، والحفاظ على البيئة المدرسية، وأثاثها.. إلخ)[3].

الاتجاهات النفسية نحو المال: يعرف الاتجاه بأنه استعداد ثابت نسبياً يدفع الشخص للتصرف بطريقة معينة حيال

شخص أو قضية معينة «وهو تنظيم مركب يدفـع الشخص لاتخاذ موقف نحو موضوع معـين أو شخص ما». والاتجـاه نحو المال هـو موقف الشخص نحو المال، حيث يحدد سلوكيات الأفراد المالية في الماضي والحاضر، وما يرغبـون فيه في المستقبـل، كما يحدد معتقداتهم وأفكارهم نحو المال[4].

هوس المال: وهو اضطراب نفسي يسيطر على الفـرد نزعة قوية تدفعه بصورة مبالغ فيها إلى تملك المال، بغض النظر عن حاجته ومتطلباته. وقد يدفع هوس المال الفرد إلى أن يستديـن أو يقترض أو يسعـى للكسب بشتـى السبل، وذلـك لأنه يشبـع حاجات نفسية وهميـة أو إحساس وهمي بتقدير الـذات والمكانة الاجتماعيـة. والفرد الذي يعاني من هوس المـال تسيطر عليه مشاعر القلق حين ينفق المال في أي وقت، كما يمتنع عـن الحديث عـن المال وعـن الدخل أمام الآخرين، وقـد يستيقظ ليلاً لدراسة خطة الادخـار، وفي مواقف أخـرى قد يستخدم المال بغرض التحكم في الآخرين. من جهة ثانية تظهر لدى هـذا الفرد أعراض القلق حين يدفع الفواتير، أو يذهب للتسوق[5].

المـال والسـلـوك الاستـهـلاكـي والاضطرابات النفسية:

على الرغم مـن أن علاقة الطفل بالمال هي في بادئ الأمر علاقة لعب ولهو وتسلية أكثر منها علاقة جدية، فإن المال يمثل عدداً من الـدلالات النفسيـة والاجتماعية التي تعمل على تهيئة الطفل للكثير من الأنشطة والسلوكيات المتعلقة بالمال عنده. فمن خلاله يكتسب الطفل مفاهيـم الإنفاق، والادخار، والبيع، والشراء، والـثروة، والغنى، والفقر، كما تتشـكل لديـه مفاهيم مجـردة تتعلق بشخصيتـه منها: الاستقلاليـة، والاعتماد على الذات، والإحساس بالأمن، والتملك. هذه العلاقة إذا اختلت فإنها تنحرف بالطفل عن السلوك السوي، وقد تظهر لديه حالات مرضية نتيجة ذلك من أبرزها: فوبيا المال، و الهوس بالمال، والأنانية،، والبخل، والغش، والسرقة، والتزوير، والاحتيال، والمقامرة[2].

وحـين يتحـدث علمـاء النفـس عـن سيكولوجية المال لدى الأطفال، فإنهم يركزون على الشكل التقليدي الذي لا يتعدى النقود الورقية أو المعدنية، أما عدا ذلك من أشكال المال التي يدركهـا الراشدون، فإن الأطفال يدركونها على أنها بمثابة حلي وزينة،أو من مصـادر اللهو. ويدرك الطفل المال ليس في حدود الإحساسات من ملمس ولون، وحجم،

وشكل فقط، بل يضفي عليها رموزا معينة مع تقدمه بالعمر، وخاصة حين يسيطر على مخيلته الكثير من الخيالات والتصورات المتنوعة. وقد أشارت العديد من الدراسات النفسية الخاصة بإدراك الطفل للمال، إلى أن الدور الذي يلعبه المال في تحديد البناء النفسي للطفل ينطوي على ثلاثة عناصر أساسية هي: يتشكل لدى الأطفال بعض المفاهيم المالية والاقتصادية التي تنمو مع تقدم الطفل بالعمر، وأن المفاهيم المالية تنمو وفقاً للنمو المعرفي الذي ذكره جان بياجيه، كما أن العوامل الاجتماعية تلعب دوراً مهماً في إدراك الطفل للمال(٢).

عادة ما يتعرف الأطفال على النقود حين يشاهدون الآباء يتعاملون بها في سلوك البيع والشراء، وحين ينفقونها أو يحصلون عليها، ولكنهم لا يدركون المعنى الحقيقي المجرد لها إلا في الطفولة المتأخرة، كما يتفاوت هذا الإدراك من ثقافة إلى أخرى، ومن طفل إلى آخر، ويتوقف ذلك على طبيعة المعلومات التي يحصل عليها الطفل من والديه والمحيطين به. ولا يدرك الطفل القيم المختلفة لها إلا في مرحلة الطفولة المتأخرة وبداية المراهقة(٧).

مستويات معتقدات الأطفال ومدركاتهم نحو المال: لقد أشارت بعض الدراسات إلى أن معرفة الأطفال ومعتقداتهم التي تحدد استجاباتهم نحو المال تمر عبر أربعة مستويات هي:

المستوى الأول: حيث لا يدرك الأطفال ما هي طبيعة المال، وكل مايعرفه الأطفال هنا أن الأب يحصل على المال من جيبه الخاص، وأن المال يوضع في الجيب، وتكون هذه المدركات بين سني الرابعة والخامسة من العمر.

المستوى الثاني: يعتقد أكثر الأطفال أن المال يأتي عن طريق بعض الأشخاص الذين يمنحونه لكل من يطلبه، ولكن القليل من الأطفال هم الذين يعتقدون بأن البنك هو المسؤول عن إعطاء المال، كما يعجز الأطفال في هذا المستوى عن إدراك العلاقة بين المال والعمل. ويسيطر هذا المستوى بين سني الخامسة والسادسة من العمر.

المستوى الثالث: وفي هذا المستوى ينمو إدراك الطفل قليلاً حين يعتقد بأن باقي النقود التي يعطيها البائعون والتجار للمستهلك عند الشراء هي المصدر الأساسي للمال، ويسيطر هذا المستوى بين السادسة والسابعة من العمر.

المستوى الرابع: وفي هذا المستوى تحدث نقلة نوعية في مدركات الطفل عن المال، حيث يعرف المصدر الأساسي للحصول

على المال، كما أنه يميز بين الأنشطة التي تعتبر عملاً يكافأ عليه بالمال، وبين الأنشطة العادية التي لا تستوجب الحصول على المال. وتسمى هذه المرحلة باسم «الطفرة الإدراكية للمال» وهي طفرة تحدث مع نمو معتقدات الطفل ومفاهيمه المتعلقة بالمستويات الثلاث السابقة. وتسود هذه المرحلة سني السابعة والثامنة من عمر الطفل[٨].

السلوك الاستهلاكي ومصروف الجيب عند الأطفال: بما أن الخبرة بالمال والإنفاق في الطفولة تؤثر في خبرات الفرد في سنوات العمر اللاحقة، فقد أصبح مصروف الجيب من الأساليب الجيدة التي يمكن للوالدين أن يستخدماها في تطبيع الطفل اقتصادياً واجتماعياً ونفسياً، خاصة وأن الطفل يضفي على المال الكثير من المعاني والدلالات النفسية والاجتماعية والشخصية، حين يشعر بالاستقلالية والاعتماد على النفس، والمسؤولية، والمساواة مع الآخرين، فضلاً عن الشعور بالخصوصية التي يتمتع بها الكبار. وهكذا فإنه خطوة مهمة في تكوين ذات الطفل وشخصيته، مما يتيح له أن يتفاعل مع الآخرين وفق مفاهيم البيع والشراء، والاستهلاك، والادخار، والإنفاق. وعلى الرغم من أهمية مصروف الجيب بالنسبة للطفل، فإن كثيراً من الآباء يجهلون قيمته النفسية والاجتماعية والشخصية، ويركزون فقط على الجانب الاقتصادي، ويمنح الآباء أبناءهم مصروف الجيب للأسباب التالية:

١- حتى لا يشعر الطفل بالنقص أو الدونية بين أقرانه. ٢- بدافع المسايرة الاجتماعية لما هو سائد. ٣- بدافع الافتخار والاستعراضية، وهو ما يظهر لدى الطفل الذي يكون مصروف جيبه كبيراً جداً وزائداً عن حاجته، كما لا يتلاءم مع عمره.[٢]

وحين نتحدث عن مصروف الجيب نرى أن بعض الآباء يشددون على أنه ليس له قيمة، طالما أن الطفل تتحقق له جميع احتياجاته ومتطلباته من مأكل، وملبس، ومشرب، ووسائل لعب، وترفيه، ومستلزمات مدرسية وغيرها. ولكن بالمقابل يشدد علماء النفس على أنه من الصحيح أن الطفل قد تتحقق حاجاته المادية والفسيولوجية، ولكن تغيب عنه مطالبه ورغباته، وحاجاته النفسية الاجتماعية، لذا يجب على الوالدين أن يدركا الأهمية النفسية والاجتماعية لمصروف الجيب، لأنه يساعد في تنمية الذات والشخصية من خلال تعليم الطفل كيف يتعامل مع المال (٩). وحين تتكون مفاهيم المصروف وتلبية الاحتياجات المادية العضوية، والنفسية الاجتماعية للطفل تنمو لديه سلوكيات الاستهلاك، هذه السلوكيات

المتعلقة بالتسوق والشراء، والتعامل مع مصادر البيئة، تحدد خبرته في التعامل مع المال وكيفية استخدامه، وكذلك تشجيعه على الكسب المالي خارج المنزل، إضافة إلى الخبرات المتزايدة في مدركات الطفل عن الادخار والاستهلاك، والإنفاق.

هوس المال ونزعة الشراء: كثيراً ما يقع الفرد ضحية للديون حين يكون مدفوعاً بصورة مبالغ فيها لشراء الأشياء والرغبة في التملك لكل شيء، سواء كانت هذه الأشياء ضرورية أم غير ضرورية، يحتاج إليها أم لا يحتاج إليها، تناسب إمكاناته المادية أم تعوق هذه الإمكانات. إن هؤلاء أفراداً مهووسون بالشراء والاستهلاك ويعانون من جنون التسوق، كلما اشتهى الفرد شيئاً اشتراه بماله أو مال غيره عن طريق الاقتراض، المهم أنه اشتراه. إن هذا الهوس يدفع الفرد إلى الاستدانة من الآخرين، واقتراض الكثير من المال، ولكنه في الوقت نفسه يمنح صاحبه إحساساً وهمياً بتقدير الذات والهيبة والمكانة الاجتماعية، وكثيراً ما يلبي بعض الخيالات الطفولية لديه، كالإحساس بالقدرة المطلقة والسيطرة على البيئة المحيطة به. إن المهووسين بالشراء والاستهلاك إذ يشترون اليوم أشياء لايحتاجونها، سوف يضطرون غداً - تحت وطأة الديون- إلى بيع أشياء قد يكونون في أمس الحاجة إليها[10].

في عام ١٩٨٩ أجري مسح شامل عن معدلات الاستهلاك ومصروف الجيب في بريطانيا، وتبين أن متوسط هذا المصروف أسبوعياً يعادل ١.٤٠ دولار، ويزيد كلما تقدم الطفل بالعمر. كما تبين أن الأطفال الذكور يحصلون على مصروف جيب أكثر قليلاً من الإناث، وأن أعلى معدل لمصروف الجيب هو في اسكتلندا. وقد لوحظ أن مصروف الجيب قد تزايد في بريطانيا في الفترة بين ١٩٧٥ حتى ١٩٨٩ بنسبة ٢٥٪، وتفاوتت نسب الزيادة في الفترة بين ١٩٨٩ حتى ١٩٩٦ بسبب التضخم.

وقد أجري عدد من الدراسات المسحية على الاستهلاك ومصروف الجيب لدى الأطفال الفرنسيين، وتبين أن الآباء يمنحون أطفالهم قليلاً من المصروف، ولكن الأطفال أشاروا إلى أنهم يحصلون على المزيد منه، وجاءت هذه المفارقة لأن الأطفال يجمعون كل ما يحصلون عليه من أموال من الوالدين والأقارب. وقد ظهر أن المصروف يعد عاملاً مهماً بالنسبة للفرنسيين، إذ يمثل ١٠٠٪ من الدخل للأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ٤-٧ سنوات، ويمثل ١٤.٥ من الدخل

بالنسبة للأفراد الذين تراوح أعمارهم بين ١٣-١٤ سنة.[١١]

وقد أجرى فرنهام وتوماس دراسة في عام ١٩٨٤ بعنوان «مدركات الراشدين عن التطبيع الاجتماعي-الاقتصادي للأطفال» وتكونت عينة الدراسة من ٢٠٠ مفحوص من الراشدين والمراهقين البريطانيين من الذكور والإناث. طبق عليهم مقياس خاص بالسلوك الاستهلاكي والمصروف. ويقيس معتقدات الراشدين والمراهقين بشأن الطريقة التي يعطى من خلالها المصروف: هل هي يومية، أم شهرية أم أسبوعية؟ وهل يجب تشجيع الأطفال على المصروف مقابل بعض الأعمال البسيطة أم أن نعمل على ادخاره لهم؟ وقد أظهرت النتائج أن الإناث يعتقدن أنه من الأفضل أن نعطي الكبار من الأطفال في مرحلة الطفولة المتأخرة مصروفاً شهرياً، أما الذكور فكانوا يفضلون مصروف جيب يومي للطفل ولا داعي لمحاسبته عليه. وقد تبين وجود فروق دالة إحصائياً بين مدركات الذكور والإناث نحو المصروف والاستهلاك، ويرجع ذلك إلى طبيعة العلاقة مع الطفل. فغالباً ما تكون علاقة الرجل بالطفل علاقة قائمة على تشجيع الاستقلالية والانفصال حتى يعتمد الطفل على نفسه، أما علاقة المرأة بالطفل فإنها تميل إلى الارتباط والاتصال الدائم المستمر بهدف التعرف على قدراته باستمرار وما يحققه من إنجازات. أما بالنسبة للعمر فإن كل مرحلة عمرية لها معتقداتها ومدركاتها نحو الاستهلاك والمصروف، فقد تبين أن هناك فروقاً دالة إحصائياً بين مدركات المراهقين والراشدين، حيث يعتقد المراهقون أن الأطفال الذكور ينفقون مصروفهم في شراء الأطعمة وبعض الحاجيات التي لا تلزمهم، من دون أن يتعلموا منه أي مهارات، وذلك بخلاف الإناث اللائي يحرصن غالباً عليه وينفقنه في ما يفيدهن، كما أنهن تعلمن مهارات الادخار من خلاله. لذا يرى المراهقون أنه يجب إعطاء الإناث مصروفاً أكبر قليلاً من الذكور، وأن يكون ذلك مقابل قيامهن ببعض الأعمال المنزلية البسيطة حتى يتعلمن قيمة العمل، وأن المال لا يأتي من دون مقابل. أما بالنسبة للعمر الذي يجب أن يحصل فيه الطفل على المصروف للاستهلاك الشخصي، فقد تبين أن الطبقة الوسطى تمنح أطفالها مصروفاً في سن مبكرة بخلاف الطبقة العاملة التي تمنحه في سن متأخرة. ويعتقد ٩٠٪ من أبناء الطبقة المتوسطة أن الطفل يجب أن يحصل على مصروف في الثامنة من العمر، وهناك نسبة ٨٠٪ من الطبقة العاملة يرون أن الطفل يجب أن يحصل على المصروف

في بداية الثامنة من العمر أيضاً. ويتفق الجميع على أن الطفل يجب أن يكون قادراً على الاستهلاك من مصروفه الشخصي حين يناهز العاشرة من العمر[٨].

وفي دراسة لميللر وبينغ حول «دور مصروف الجيب والاستهلاك الشخصي في التطبيع الاجتماعي للمراهقين»، تبين أن كثيراً من المراهقين يعتقدون أن مصروف الجيب فرصة تربوية لتنمية السلوك الاستهلاكي والاعتماد على النفس، ويساعد في اتخاذ الكثير من القرارات الاقتصادية، كما أنه وسيلة لدعم الفرد وتطبيعه اجتماعياً وخاصة فيما يتعلق بتنمية مفهوم الذات وتنمية الدور الجنسي[٢].

في دراسة للباحثين سنوج وويبلي عام ١٩٩٣ بعنوان «ادخار الأطفال: دراسة في نمو السلوك الاقتصادي» اتضح أن الأطفال يدركون سلوك الادخار بوصفه شكلاً جيداً من أشكال توفير المال والحفاظ عليه، كما يعلم الطفل الدلالة الوظيفية للمال، ويشبع الحاجات المادية والفسيولوجية للطفل وللوالدين. وحين يدخر الأطفال أموالهم يتم لك بدوافع عديدة أبرزها:

- الرغبة في انتزاع الإعجاب من المحيطين بهم، خصوصاً الوالدين، مما يساهم في دعم الوالدين للطفل، ب- يدخر الأطفال بدافع من الأنانية وحب التملك، ج- الرغبة في منافسة الأطفال والتفوق عليهم مالياً، د- إغاظة أقرانهم بامتلاكهم نقود تفوق نقودهم[١١].

وفي دراسة أمريكية على عينة مكونة من ٤٩ شخصاً يبلغ متوسط دخلهم السنوي ١٠ ملايين دولار أمريكي، أجريت مقارنة بينهم وبين عينة ضابطة مكونة من ٦٢ شخصاً. أظهرت النتائج أن الأفراد شديدي الثراء لديهم ارتفاع بسيط في الشعور بالسعادة عن عينة المجموعة الضابطة، وأن المشاعر السلبية كانت أقل لدى الأغنياء. ولكن الأغنياء كانوا أكثر اهتماماً بالمال وحصلوا على درجات عالية فيما يتعلق بعامل الاحتياج إلى المال حيث ظهر ذلك من خلال عبارات مثل «أعتقد أن المال يستطيع حل جميع مشكلاتي»، «أشعر بالقلق على أموري المالية»، «أقدم المال على المتعة». وتبين أن الاتجاهات النفسية لدى الأغنياء نحو المال تشير إلى أن المال قوة، كما ظهر من خلال عبارات مثل: «أشتري أشياء لا أحتاج إليها، حتى يشعر الناس بأنها أشياء ضرورية لهم»، «أحياناً أشتري الصداقات بالمال»[١٣].

في دراسة قام بها الباحث على عينة من الأطفال والمراهقين، تم التوصل إلى النتائج التالية:

١- يســود السلــوك الاستهلاكــي لدى الأطفــال بدرجــة مرتفعة كمــا عبرت عنه استجاباتهم على مقياس الاتجاهات النفسية نحو المال.

٢- يسيطــر على الأطفــال هوس المال كما عبرت عنه استجابتهم على مقياس هوس المال.

٣- وجــدت علاقــة موجبة بــين أبعاد السلــوك الاستهلاكــي: السلــوك القسري، والإنفــاق، والادخار، والإحساســ بالأمن، والقدرة والاستهلاك من جهة، وكل من هوس المــال، والخــير، والإنجاز وتقديــر الذات، والحرية والقوة من جهة ثانية.

٤- وجــدت علاقة سالبــة بين الادخار والشر، وبين الإحساســ بالأمن والشر، كما وجدت علاقــة سالبة بين عدم الكفاية وكل من: الإنجاز، وتقدير الذات، والقوة.

خلاصة:

يعتــبر السلوك الاستهلاكــي ومصروف الجيب من العادات الأسرية المتأصلة في مختلف المجتمعات حيث يقوم الآباء بطريقة روتينية في ذلــك دون معرفتهم أن هــذا المصروف يساعــد في تشكيــل سلوكهــم الاستهلاكي وتكوين نمط شخصيتهم، ويرى علماء النفس أن هذا المصروف مهم لأنه يمثل درساً عملياً للأطفــال حين يعلمهم القيــم الاستهلاكية والسلوكيــة المهمة، والسلــوك الاستهلاكي مظهر حضاري يختلــف من شعب لآخر بل يختلف من فــرد إلى آخر في المجتمع نفسه تبعاً للوعي والثقافة الاستهلاكية السائدة في المجتمع ومدى تقدمه ودرجة تحضره وقيمه الاجتماعية. تتطلب التربية السليمة إكساب الأبناء حقائق ومهــارات واتجاهات سليمة نحــو ترشيــد الاستهلاك وحســن الإنفاق بحيث تتسم بالتعقل والاتزان(١٥).

لقد تبــين من أن السلــوك الاستهلاكي لدى الأطفــال والمراهقين يرتبط بمصروف الجيب وبالقيم السائدة، حيث ينفق الطفل مصروفــه على سلع كثيراً مــا تكون كمالية بأسلــوب التباهي والتفاخر أمــام الأقران، وقــد يصل إلى مرحلة مرضية كما ظهر من خلال سيطرة ظاهرة هوس المال الذي يؤدي إلى مخاطــر نفسية واجتماعيــة لا يتوقف عند استهلاك المال فقــط بل يمتد ليشمل نواحــي أخرى مــن الحياة البشريــة مثل: الماء، والكهرباء، والأثاث المنزلي، والممتلكات العامة والبيئة. وهناك عدة عوامل تسهم في جعل الطفل استهلاكياً:

١- التعلم والمحاكاة وتأثير القدوة وخاصة سلوك الوالدين الاستهلاكي.

٢- مستوى الدخــل النقدي، لأن هناك علاقــة موجبــة بين دخــل الأســرة وزيادة الاستهلاك.

٣- وسائل الإعلام والإعلانات الدعائية والتجارية التي ترسخ لظاهرة الاستهلاك.

٤- تعليم الأم للطفل، واتخاذ القرارات الاستهلاكية.

٥- البيئة الاجتماعية، وخاصة الأهل والأقران داخل المدرسة وخارجها.

٦- العوامل النفسية مثل: الغيرة.

ومن الجوانب المهمة التي يجب أن تؤخذ بالاعتبار تربوياً ونفسياً:

١- تدريب الطفل على ضبط نزعاته ودوافعه وخاصة شهوة حب الشراء، لأن التربية السليمة تتطلب إكساب الأبناء قيم ومهارات نحو ترشيد الاستهلاك وحسن الإنفاق اللذين يتسمان بالتعقل والاعتدال.

٢- مناقشة الطفل بالمبلغ الذي سيقدم له، وبمصروف الجيب، وهل هو مناسب لاحتياجاته والميزانية الشهرية.

٣- مناقشة الطفل في الأشياء التي سيشتريها وهل سعادته آنية أم مستمرة.

٤- تشجيع الأطفال على التوفير والتكافل الاجتماعي، فهو طرق الضبط الذاتي والتحكم بالسلوك والذي يساهم في تكوين شخصيته الناضجة لاحقاً.

٥- إدخال موضوعات الاستهلاك، ومصروف الجيب وسمات الشخصية وسيكولوجية المال في المناهج الدراسية.

٦- إجراء المزيد من الدراسات حول هذه الظاهرة خلال مراحل النمو المختلفة، ودراسة السلوك الاستهلاكي وعلاقته بمتغيرات نفسية أخرى في الشخصية.

المراجع

١- أكرم زيدان (٢٠٠٥) سيكولوجية المقامر: التشخيص والتنبؤ والعلاج. عالم المعرفة، العدد ٣١٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

٢- أكرم زيدان (٢٠٠٠) سيكولوجية المال: هوس الثراء وأمراض الثروة. عالم المعرفة. العدد ٣٥١، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

٣- شارلوت سميث (١٩٩٨) موسوعة علم الإنسان، المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية. ترجمة مجموعة من أساتذة علم الاجتماع. الهيئة العامة لشؤون المطابع: القاهرة.

٤- أسماء عبد العزيز الحسين (٢٠٠٢) المدخل الميسر إلى الصحة النفسية والعلاج النفسي. دار عالم الكتب: الرياض.

٥- كمال الدسوقي (١٩٩٨) ذخيرة علوم النفس، المجلد الأول. الدار الدولية للنشر: القاهرة.

6- Berti ,H and Bombi,A.(1981)The development of concept of mony and its values, Child Development, Vol.(8(2).pp1178

7- Furnham, A. And Thomas (1984) Pocket- mony, astudy of economic education. British Journal of Development Psychology, Vol (2),205

8- Furnham, A. And Thomas.(1984) Adult perception of economic socialization of children. Journal of Adolescence, Vol (7) pp 217231-

9- Miller, G (1990) The role of allowances in adolescent socialization, Youth and society, Vol (22), pp 137156-

10- Song, B. And Webley, P.(1993) Children saving; A study in the development of economic behavior Lawernce

11- Elbram Association.

Compbell, A. (1999) The Quality of American life. New York.Sag.

١٢- محمد رابح وسلوى ساوي (٢٠٠٣) مقياس السلوك الاستهلاكي (الطفولة المتأخرة). في: أسماء عبد العزيز الحسين، المدخل الميسر إلى الصحة النفسية والعلاج النفسي، دار عالم الكتب: الرياض.

13- Furnham, A. And Thomas.(1984) Pocket- money: A study of economic education. British Journal of Development Psychology. Vol (2),205

14- Tang.T.(1995). The Development of a short money ethics scale: Attitudes toward money. Personality and Individual Differences: Vol (19), pp 809816-.

١٥- سلوى مرتضى (٢٠٠٨) الأبناء ومصروف الجيب، مجلة المعلم العربي العددان (٢، ٣) صيف وخريف ٢٠٠٨ن ص ١٦-١٩.

الإبداع

شعر:

- إرثُنا الخالد هذا — سليمان العيسى
- وصايا الحب — د. ثائر زين الدين

قصة:

- ورد ورماد — نيروز مالك
- تشبهك تماماً..! — غانم بو حمّود

الإبداع



إرْثُنا الخالدُ هذا

شعر

سليمان العيسى ⊛

حين تلقى الشاعر دعوةً لحضور معرض للكتاب.

لَيْسَ بِدْعاً ما أرَى..

ليسَ جديداً..

إرْثُنا الخالدُ هذا

إرْثُنا الحاضرُ والماضي.. طريفاً وتَلِيدا

نحنُ مَنْسِيُّون في رُكْنٍ من الدنيا..

⊛ شاعر العروبة والطفولة الكبير.

العمل الفني: الفنان قحطان الطلاع.



أقولُ..

نحـــنُ مَنْسيُّـــونَ فيهِ

-رُبَّمَا-

دَعْ قَمَري يَأكُلُ جَنْبَيْهِ

الأُفولُ

نحنُ مَنْسيُّونَ.. لكنّي

أنَـــا ألاّ عطيْتُ للدنيا

الكِتَابَ الأَوَّلاَ

والهِجَاءَ الأَوَّلاَ..

والضياءَ الأَوَّلاَ

أنـــا لا أشكو ضَيَاعي

في المَتَاهَةْ

قَدَرٌ..

أسْلَمَني يوماً إلى ليلِ

المَتَاهَةْ

وسَأخْرُجْ..

في يَمينـــي أبـــداً أوّلُ

حَرْفِ

نَوَّرَ الدنيا..

ولم يَبْرَحْ حفيدَ النورِ طَرْفي

أيقِظُوا كُلَّ عَشيَّات العَرَارْ

من هنا كان إلى الخلدِ السِّفارْ

أنْشُروني.. دارةً لِلكُتُبِ

بين سُورِ الصينِ والأنْدَلُسِ

لم تَزَلْ تَرقُدُ

في أعماقِ لَيْلي

كُتُبي..

بينَ سُورِ الصينِ والأنْدَلُسِ

❁ ❁ ❁

سوفَ أصْحُو ذاتَ يومٍ

عالمًا بدْعاً منَ الضوءِ جَديدًا

ليسَ بدْعاً مَعْرِضٌ أدْعَى له

ليسَ جَديدًا..

❁ ❁ ❁

كنتُ طفلاً.. حينَ تحتَ التوتةِ الخضراءِ

أشْعَلتُ حروفي..

كنتُ طفلاً.. أتهجَّى سورةَ الفتح،

وكَنْزي في يَدِي.. داني القُطوفِ

يــا حــروفَ الســورةِ الأولى، ويــا زادَ الطفولَةْ

لا تغادِرْني، فَعمري لم يكن لولاكَ شَيَّا

خَلّني طفلاً بإرثي الضخم، طفلاً، أتقيًّا

الإبداع



وصايا الحب

شعر

د. ثائر زين الدين ⊛

هبطَ الملاكُ مُجلّلاً بالغيمِ
نفَّضَ عن يديهِ ومنكبيهِ غبارَ عالمِهِ البعيدِ
فطارَ تبرُّ ضوءِ الغبشِ المخيمِّ
في حنايا الغرفة الملأى
كبيتِ النملِ - بالكتبِ الكثيرةِ -
رفٌّ قربي،

⊛⊛ شاعر وأديب ومدير ثقافة السويداء.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

عبأتْ أنفي عطورٌ كنتُ أعرفُ أهلها؛
فهمستُ بينَ الصحو والإغفاءِ:
- هلْ عادتْ؟
وعاد الصوت:
- لم يرجعْ من الماضي أحدٌ!
هبطَ الملاكُ وها هو ذا يحدّقُ بي
ويهمسُ حانياً:
- قمْ يا صغيريَ
إنَّ عندي ما أبلّغُهُ!
فركتُ جفونيَ التعبى من السهرِ الطويلِ
تبسَّمتْ شفتايَ ساخرةً:
- ملاكٌ في سدوم؟!
إنّها الخمرُ الرديئةُ والوساوسُ؟!
واستـدرتُ إلى الجدارِ، وغبـتُ في نومٍ غريبٍ
قالَ:
- قُمْ.. هي بضع أفكار تسجّلُها
وأمضي،
لن أظلَّ إلى جواركَ للأبَدْ!
أيقنتُ أنيَّ لستُ في حُلم
وأنّ الضيفَ ليسَ سوى ملاكٍ، أو....؟
وقاطَعَ فكرتي:
- بل إنني مبعوثُ رَبِّ الحُبِّ
فانهض من سُباتكَ
وانتضي قلماً وسجّلْ ما أقولُ؛
وجلستُ ملتاثاً،
يضيءُ فضاءَ غرفتي الصغيرةِ
وجهُ زائريَ الجميلُ:
- الحبُّ روحُ اللهِ؛ فاعشقْ ما أردتَ وما استطعتَ
فإنما تهوى الإلهَ مجسّداً فيمن تحبُّ
وإنما تبصرُ نورَ بهائهِ في وجهِ من تهوى
وليسَ إليهِ من دربٍ سواها
ليسَ إلاّ عبرَ عينيها الوصولُ!!
- سجّلـتُ يا أبتي، ولكـن النساءَ كحقلِ فاكهةٍ؛
هناكَ الحلوُ والمرُّ
الخبيثُ يُطلُّ
والحَسَنُ الجليلُ
- هدي إذاً ثاني الوصايا:
لا تقـلْ أحببتُ تلكَ لِحُسْنِهـا، أو تلكَ ينقُصُها الجمالُ
فليسَ في المرأةِ إلا الحسن
حدق جيـداً ولسـوفَ تبصـرُ أفرُديتَ وراءَهنَّ
وعشتروت وربّما إيزيس
مُتْ في الحب في أحضانهنَّ
وسوفَ نكتُبُ في سجلّاتِ السما:
نعمَ القتيلُ!!
- دوّنت يا أبتي
- ودوّن:
- قد ترى نفسكَ عاديّاً



ككل النملِ من حولك يسعى
لا تميّزكَ المواهب،
لا الثراء
ولا الوسام
فلا تخفْ؛ ستكـون أنت الكون،كل الكون لامرأةٍ
تخبّئها الفصول.
- سجّلت يا أبتي
- وسجّلْ:
ليسَ أبغضَ عندَ ربّـكَ من رجالٍ لانساء لهمْ
ومن قلبٍ يعيشُ العُمرَ؛ لم تغسلهُ نارُ الحبِّ
لم تُسْكرْهُ خَمْرَتُهُ الشمولُ
- دوّنتُ
- أحسنتَ الصنيعَ.. أضِفْ إذاً:
لا تترك امرأةً تنامُ وحيدةً!
فالربُّ يغفرُ ما ارتكبتَ جميعَهُ
إلا هروبَـكَ من نداءِ جميلـةٍ موجودةٍ تدعوكَ
كيفَ تفرُّ من وردٍ يُعتّقُ عِطرَهُ
وإلى متى؟؟
و«مقامكُمْ فيها قليلُ!»
واعلمْ بأنْ
لا شيءَ أخطَرَ من دموع العاشقاتِ
فلا تدعْ أنثى تحبّكَ تذرفُ الدمعاتِ
إنكَ لو فعلتَ فسوفَ تحرقكَ الدموعُ
وسوفَ تجرفكَ السيولُ!
وتنهّدَ المَلَكُ المشعُّ كنجمةٍ
و توقّدت عيناهُ شوقاً:
- لا تدعْ للكون أن يلهيكَ عَنْها
كُلّما غوّصتَ في خلجانها
أوذبتَ في عسلِ حماهُ النحلُ
من طمعِ الغُزاةِ
وقـلْ لها: فوقَ البسيطـةِ ليسَ من أحدٍ سوانا

هاهي الأمواهُ ترجعُ
ثم ينكشفُ الترابُ، الصخرُ
بَدْءُ خليقةٍ يا حلوةَ العينينِ
هذا آدَمُ المطرودُ.. بينَ يديكِ
هــذا آدَمُ التائــهُ يغفــو كالغــزالِ على سفوحِكِ
إنه المكبولُ ليسَ لهُ إلى غيرِكِ
دربٌ أو سبيلُ...
- ثُمّ حاذرْ يا صغيريَ أن تبيعَ حليّها
امرأةٌ لأجلكَ!
أن تبيعَ عطورها..
فالــربُّ يرفضُــ كُلَّ أضحيــةٍ بهــذا الحجمِ...
أضحيةٌ تهزُّ ركائزَ الدنيا
وينتشر الذبولُ!
- لا لستُ أفعَلُ
- واحذرِ الغيرةَ..
قد يُدميكَ نصلُ دهائها
فترى فؤادَكَ في حقولِ الحقدِ!
هذي المرأةُ الحسناءُ نبعٌ باردٌ
يُغري العطاشَ؟!
شربتَ منهُ وما ارتويتَ
وسوفَ يحلُمُ آخرٌ بالماءِ

هل ستفرُّ بالنبعِ النميرِ على الجمالِ؟
وهل سيسعفُكَ الحجابُ
أمْ الرحيلُ؟!
- دونتُ يا ملَكَ السماءِ
ولم أدَعْ حرفاً يفرُّ!
- تباركت كفّــاكَ... بالكلمات ياولدي- تدوّنها
وتطلقها إلى الدنيا- تعيشُ الدهرَ
يهربُ من طريقكَ ماردُ الموتِ الثقيلُ.
دخلتْ ذؤاباتُ الصباحِ من الستارةِ...
وارتمت جذلى على الأشياءِ من حولي..
وسقسقت العصافيرُ اللهوفَةُ للضياءِ..
كأنها- الساعةَ قدْ قدمتِ إلى الدنيا...
رفعتُ عيوني التعبى عن القرطاسِ!!!
أينَ الزائرُ العلويُّ؟؟!
كيفَ مضى؟
ولم أسْمَعْ رفيفَ جناحِهِ الذهبي..
بابي موصدٌ بالقفلِ...
كيفَ أتى؟؟
تَبسّمَ قلبي الحيرانُ ثانيةً...
وتمتمَ لاهجاً بالشكرِ...
- عش طلقاً....
وزرْ يا أيّها الضيفُ النبيلُ

الإبداع



ورد ورمـــــاد

قصة

❁ نيروز مالك

تساءل مصطفــى وهو يرتشف من فنجان القهــوة رشفته الأولى، إن كانت القصة قد انتهت؟

أجابه يوسف عبد الله: «نعم.. ولكن هناك إضافة!».

«هاتها، ولكن أرجو أن لا تطول.. فأنا على موعد بعد عشرين دقيقة».

هز يوسف عبــد الله رأسه وقال: «لا بأس». ثم تابع: «أما الإضافة فكانت عن ثلاثين السنين الماضية عندما كان شاباً.. لم أعرفه في يوم من الأيام إن كان

❁❁ أديب وقاص سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

من أصحاب الشهادات. فأنا لم أسأله أبداً عن هذا الأمر.. ولكني أذكر: كان في كل نقاشاتنا، إن كانت حول الأوضاع السياسية أو القضايا الاجتماعية، ذا آراء بعيدة كل البعد عن الأفكار والآراء السائدة في تلك المرحلة. آراء ليس فيها انغلاق أو نزعة تقليدية تقوم على الفهم والتحليل. علاوة على هذا كان شاعراً.. فهو بعد أن ينهي حديثه كان يقول لي: «في المرة القادمة سأجلب لك بعض قصائدي، لتقرأها لي وتبدي رأيك فيها.. فأنا أحياناً أسرق من الزمن بعضاً من لحظاته، لأكتب شعراً أو ما شابهه. أخفف بذلك عن نفسي المعاناة والضغوط». ثم كان يبتسم لي ويتابع: «لست شاعراً.. ولكني، كما يقال، أحاول أن أكون شاعراً، أو..».

يسكت بعد أن يلجمه الخجل، ثم يمضي عني.

خلال السنوات الثلاثين التي عرفته فيها، لم ألتق به إلا عدة مرات، كان يفصل بين المرة والأخرى سنوات، حتى إن المرة الأخيرة التي رأيته فيها، كان قد مضى على لقائنا الذي قبله أكثر من ست سنوات. كان في كل مرة التقيته فيها يبتسم لي، ثم يسألني عن حالي وأحوال الأولاد. ويستفسر إن كانوا مبدعين مثلي؟ ثم يسأل إن كنت أكتب أعمالاً جديدة في القصة والرواية؟ ما يلبث أن يخبرني بأنه قرأ لي قصة في مجلة (...) منذ عدة شهور.

كان خلال حديثه هذا يظل ممسكاً براحة يدي، لا يتركها، رغم محاولاتي المتكررة لسحب يدي من يده، كان حريصاً أن يبقيها بين أصابعه. أما عندما ينتهي من تساؤلاته فأسأله عن أحواله المعاشية، وأحوال أولاده.

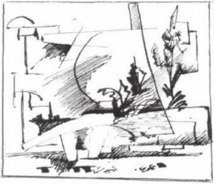
كان يبتسم بأسى ويقول: «لا بأس بها. إلا إنها ليست على ما يرام». ثم يضيف: «أنت تعرف لقد أصبحت الأحوال المعيشية صعبة، والعمل، خاصة «الصنعة» التي أعمل فيها، تقوم على مواسم، أحياناً تكون مربحة جداً، وأحياناً أخرى لا تكفي كفاف العيش، هذا إلى جانب قساوتها ومردودها المادي الذي لا يوازي التعب المبذول فيها». ثم يضحك ويتابع: «ولكن ليس باليد حيلة، فهي «الصنعة» الوحيدة التي أجيدها.. إنها صنعة الأجداد والآباء». ثم يسكت، ما يلبث أن يتابع: «الله يرحم والدي. لقد أخبرته أكثر من مرة: أريد أن أكمل تعليمي. فكان المرحوم يغضب ويرد علي: صنعتنا ذهب إن عرفنا كيف نخلص لها. ثم إن التعليم الذي تتحدث عنه لم يكن في يوم من الأيام تقليداً في أسرتنا أباً عن جد».

كان يسكـت وكل واحد منا ينظر إلى الآخر، ما يلبث بعد قليل أن يشعر كلانا بأن الحديـث قد نضـب بيننا، لم يعـد لدينا شيـئ نضيفه للحوار الذي تبادلناه. لهذا كان يشد علـى يدي التي لم يكن قد تركهـا، يشد عليها بمحبة وهو يبتسم ويقول لي مذكراً: «لا بد أن أجلب لك القصائد التي كتبتها.. أريد منك أن تقرأها لي، وتقدم رأيك فيها.. فأنا بصراحة أثق بذوقك الأدبي».

أقول له: «هذا لطف منك». ثم أضيف: «أنا تحت أمرك. اجلبها متى تريد سأقرأها بـكل عناية ومحبة». ثم يذهب كل واحد منا في طريق..

وهكذا ما أن تمر عدة سنوات حتى ألقاه من جديد، فأسأله بعـد التحية عن أحواله وأحوال أولاده.

كان يضحك بحرج: «لولا شيء من التفاؤل الذي أحس به لقلت لك، إنه وضع سيء، إلا أني رغـم ذلك أنظر إلى الحيـاة بشيء من الأمل. ولكن الأولاد .. نعم الأولاد هم الذين يفقدوني حب الحيـاة في بعض الأحيان!». يطـرق وجهه إلى الأرض، ثـم ما يلبث بعد



حين أن يرفعــه إلي وفي عينيه أسى ويتابع: «عندما تزوجـت كنت أمنـي نفسي بحياة رائعة سأشيدهـا رغم كل الظروف الصعبة التي تحيط بي، ومـا أن يأتي الأولاد، حتى أدفعهم إلى العلم دفعاً. سأحاول أن أبعدهم عن «الصنعة» التي أرهقتني وسممت حياتي. صحيح هي صنعـة الآباء والأجداد، إلا إني كنت أود أن أقطـع نسل هذه «الصنعة» من أسرتـي.. يجب أن يدرس كل واحد منهم، نعم يجب أن يدرس الجميع.. خاصة الإناث منهم، لأن الشهادة، خاصة إن كانت جامعية، تحمي المرأة من ظلـم الرجل وعسفه، ومن ظلم الحيـاة أيضاً. ولكـن..»، سكت قليلاً وتابـع: «مـع الأسـف، رغـم كل محاولاتي وقــف الأولاد موقفاً معاديـاً للعلم! أفضل

واحد منهم لم يحصل سوى على الشهادة الإعدادية، إنه الحظ.. حظي هكذا.. منذ بداية حياتي.. لقد تشرد الأولاد، هذا ذهب إلى الخليج وذاك إلى أوروبة وآخر ضاع في المقاهي والحانات.. أما الإناث فخطفن مع أزواجهن ليس بأفضل من حظي في هذه الحياة المقيتة». قاطع نفسه ثم سألني: «سمعت أن أولادك، بلا حسد، حصلوا على أفضل الشهادات الجامعية؟».

ابتسمت له وقلت: «ليس أفضل الشهادات. ولكن جميعهم حصلوا على شهادات جامعية».

هز رأسه وقال: «مبروك. أنا.. أحسدك وأحسد أي أب استطاع أن يعلم أولاده تعليماً عالياً محترماً». ثم قال: «ولكن.. ما أحمد الله عليه، أن جميعهم، يقصد أولاده، يتصفون بالأخلاق الحميدة، وهم يفرقون ما بين الحلال والحرام.. فهذا الأمر يعزيني».

قلت له: «هذه الخصال هي أيضاً نوع من أنواع الشهادات. ففي هذا الزمن الرديء يا صاحبي من الصعب على الإنسان أن يحافظ على كرامته».

هز رأسه وهو يبتسم لي. ثم شد على راحة يدي قائلاً: «لقد قرأت لك مجموعة قصص جميلة في الآونة الأخيرة».

شكرته على بادرته هذه ثم قلت: «هذا الأمر يسعدني جداً، أنا فخور بك كقارئ لي».

ظل يهز رأسه ثم قال: «تمنيت لو كنت أحمل بعض قصائدي لأعطيك إياها من أجل أن تقرأها لي. ولكن مع الأسف لم أكن أتوقع أن ألقاك، لو كنت أعرف، لحملتها معي إليك».

قلت له: «كما يقال، خيرها بغيرها».

هز رأسه وقال: «صحيح.. ولكنها قديمة، أقصد القصائد، فأنا منذ مدة لم أكتب شيئاً جديداً.. ولكن الشعر دائماً يعيش معي. ويتنقل حيث أكون».

قلت له: «هذا أمر جيد».

هز يدي مودعاً وهو يتمنى لقاء قريباً بيننا

قلت له: «إن شاء الله».

تابع يوسف عبد الله: «مر على لقائي الأخير به عدة سنوات، لا أذكر مقدارها، ولكني على قناعة بأنها لا تقل عن عشرة.. فأنا عندما لقيته، وكان ذلك في سوق ضيق معتم. أما كيف وصلت إلى السوق المعتم هذا فلا أعرف، ولكني أعتقد أنه الشرود لاغير؟ رأيت نفسي وجهاً لوجه مع صاحبي: «من؟». هتف بي. ثم هرع إلي ماداً يديه باتجاهي. وصلت إليه وأنا أسأله: ماذا تفعل هنا؟ ضحك وقال: «هنا المكان الوحيد الذي

أزوره بحكــم الحاجة، فهو مــكان تبضعي الأسبوعــي.. للبيت». ثم غمــزني وسألني: «ولكن أنت ماذا دفعك لهذا السوق؟».

ابتسمــت له محرجاً وقلت: «لو أخبرتك، قد لا تصدق!».

ظل يبتسم وهو يمســك براحة يدي ثم قال: «هات أخبرني..».

أجبتـــه: «الشــرود.. نعــم الشــرود يــا صاحبــي.. لعنـــة الله عليه.. لقــد أصبح آفة حياتــي في الآونة الأخــيرة». ثم تابعت موضحاً: «أتوجه إلى مكان ما.. ولكني فجأة أجد نفسي في مكان آخر تماماً».

هـز رأســه وقال يسألنـــي: «هل هذا له علاقة، أقصد شرودك، بحالة الإبداع أم؟».

أجبته: «في معظم الأحيان هو كذلك».

قـــال طالباً: «هات أخـــبرني عن الإبداع الجديــد الذي دفعك اليوم إلى هذا الضياع الذي رأيتك فيه».

ضحكت وقلت: «مع الأسف، هذه المرة لا علاقة لها بأحوال الإبداع».

هـــز رأسه وقال: «مع الأسف، كان بودي لــو كان الأمــر غير مــا أخبرتني بــه». ثم تابــع يسألني عن أحــوالي، الأسرة، الأولاد، الصحة.. أجبته عما سألني بصورة عامة لا تفاصيل لها. ثم سألته: «وأنت، هات أخبرني عن شؤونك وأمورك؟».

ظل ينظـــر إلي طويلاً ثم قـــال: «أستاذ يوســف، لن تصدق إن قلــت لك: أن أموري الخاصة لم تعد تهمني، لأنها باتت لا تختلف عن أحوال معظم الناس الذين أنتمي إليهم، أقصد إلى فئتهم.. كد وشقاء من أجل حياة كريمـــة، وصراع قوي ومريـــر ضد السقوط والانزلاق إلى الأسوأ.. هذا هو حالي.. ولكن ما يهمني اليوم يا أستاذ: هذا الخراب الذي لا يريد أحد أن يوقفه! هذا هو الأمر الذي أعـــاني منه اليوم وأفكر بـــه.. والأمر الثاني الـــذي بدأت أعاني منـــه في الآونة الأخيرة، فهو خراب الروح قبـــل خراب الجسد». ثم أنهـــى كلامه بصوت حزين: «هذا هو حالي، حال الموات المستمر منـــذ أكثر من خمسين سنة يا أستاذ».

شد على يدي وأدار ظهره لي ومضى من دون أن يودعني، مضى عني كأنه لا يريد أن أرى الدمـــع الذي لمع بين أهدابه، مضى بين ذهـــولي وخيبتي، إلا أني لم أدعه يبتعد عني، فصرخت به أن يرجع..

توقـــف، ثم التفـــت إلي ينتظـــر مني أن أسألــــه. إلا أني لم أجد سبباً أسأل فيه سوى أن يحدثني عـــن قصائده، أنا الذي لم يأخذ أمـــر كتابة صاحبي للشعر على محمل الجد في يوم من الأيام!

قطب ما بـــين حاجبيه وقـــال يسألني:

«قصائد! أي قصائد تقصد؟». ثم استدرك وقال، بعد أن ابتسم ابتسامة مريرة شاحبة: «أمــا زلت تذكــر حديثي عــن الشعر؟ لقد نسيتــه منــذ زمن بعيــد. لم تعد لــدي روح تشجعني على كتابة الشعر والقصائد و...». لم أسمع الكلمة الأخيرة منه، لأنه كان قد دار حــول نفسه ومضى متابعــاً طريقه في تلك السوق المعتمة حتى اختفى عن عيني.

عندما أنهى يوسف عبد الله حديثه. قال له مصطفى: قصة صاحبك هذا غريبة! ثم سأل: كم من الزمــن مر على لقائك الأخير به؟

أجابــه يوسف عبد الله: منــذ أكثر من سنة.

تساءل مصطفى بشــيء من المزاح: عن مــاذا سيحدثك يا تــرى إن قابلك في المرة القادمة؟.

أطــرق يوسف عبــد الله وأجاب بشيء من الحزن: لن يلقاني أبداً. لقد رأيت اليوم ورقة نعيه معلقة على حائط المقهى.

ارتبــك مصطفى ثم قام عــن الكرسي وشيء من الحزن يجوب صدره، ومضى عن يوسف من دون كلمة وداع.

الإبـــداع



تشـبهكَ تمامـاً..!

قصـــة

غانم بوحمّود*

(١)

لم تستــدر، لو فعلت ذلك لبكيت، كثيرون هم الذين يستديرون، يرون الدموع في محاجــر آبائهم، أمهاتهم، يضعفون أمام جلال لحظة الوداع، تخور العزائم، ترتفع دقّات القلوب، وأمام الأبواب الخشبيّة، هكذا.. تشتعل الذكريات.

مضيتَ واثقاً من خطاك، كلّ ما تتذكّره من أحداث تلك اللحظات الموجعة،

* قاص سوري.

العمل الفني: الفنان أنور الرحبي.

أنّهم كانوا وراء الباب، لكنّهم ما لبثوا أن خرجوا منه.. يتبعونك بخطاهم، يتابعونك بأعينهم، ويحيطونك بعواطفهم النبيلة.

نجحت في أنّك لم تستدر، لكنّ صرير باب الدار ظلّ مقيماً في أذنيك، مشى وراءك، كما أصواتهم، أحاط بك كما أنفاسهم وصورهم.

يسألونك:

«ما الذي تفضّل سماعه من الألحان والأغاني؟!»

هم مدركون تماماً، أنّك لم تدّخر جهداً، ولا مالاً، ولا وقتاً من أجل اكتشاف العالم، والتجديد في بحور لغاته، والغوص إلى مكامن موسيقاه.

تتأخر قليلاً في الإجابة، وهم على دراية أكيدة بأنّك تجيد العزف على أكثر من آلة موسيقيّة، يغبطونك على موهبتك في الغناء.

لا يخفى عليهم شيء من سيرتك، حتّى ذاك الذي أردت أن تخفيه عنهم، لكن.. في سيرة كلّ رجل أيقونات كثيرة، ومواقع.. غالباً ما تبقى عصيّة على الوصول.

هي أشبه بماسات ثمينة محاطة بالسواد، والحمّى، والوجع.

تتأخّر كثيراً في الإجابة - تأخّرك - لا يمنعهم من تكرار السؤال - نفسه - تعرف جيّداً ما يتوقّعون سماعه منك، تجيبهم بشجن:

«صرير باب دارنا.!»

«هذا ما لا يتوقّعه أحد.!»

(٢)

في جلسة خاصة لك مع موسيقار نمساوي معروف، كنت قد اجتمعت به في مدينة (كارلو فيفاري) غامرتَ في طرح سؤالك:

«هل يأتي يوم يتمكّن فيه أحد العباقرة المخترعين من تصميم جهاز إلكتروني يقوم بتسجيل أصوات تستوطن الذاكرة.؟!»

يدهش سؤالك الموسيقار الصديق، فيطرح عليك سؤالاً آخر:

«أيّ الأصوات، تريد استخلاصها من ضجيج يرهق الذاكرة؟!»

تجيبه متلهفاً، متحسّراً:

«صرير باب دارنا - الباب - الذي خرجت منه يوماً، ولم أزل في قبضة الغياب.»

ترفع النظّارة عن وجهك، تضعها على طاولة مجاورة، تجري لرقبتك تمارين (سويديّة) تردّد في داخلك:

«كلّ هذه التمارين، التي تعلّمتها منذ الصغر، لا تفيدك في شيء، إذ لا تعالج مناقير الرقبة بهذه الطريقة.»



هـذا ليس كلامـك - إنّه كلام الطبيب المعالج.!-

بعيداً عن صـدرك، تدفع بالطاولـة الخشبيّة، التي كنت قد صنعتها من أخشاب سقف البيـت، الذي هدّمتـه، لترفع مكانه صرحـاً يليق بغرورك.. تقـف منتصبـاً.. رافعاً يديك فوق رأسك، تستدير قليلاً إلى اليمين، ثمّ إلى اليسار، أكثر من مـرّة تكرّر الاستـدارة، تمشي على طرف السجّـادة الكبيرة، التـي تتوسّط صالـون الصرح الجديـد، تعـاود النظـر إلى الصور التـي ثبتت بعناية على الجـدران، كأنّك تراهـا لأوّل مرّة، الصورة الكبـيرة، تضمّ العائلتين، أهل العروسـين، بجوارها ساعة حائط تشير إلى العاشـرة ليلاً. على بعـد أقلّ من متر واحد منهـا، تبدو صورة أخيك، ذاك الشاب الذي مات منذ أكثر من عشرين عاماً.

هـي صورة كنت قـد التقطتها له أمام باب مصعد في واحد من أشهر فنادق جبال (التاترا) في جمهورية (سلوفاكيا).

بينما أنـت منشغل في استعادة ذكريات قديمة لك مع أخيك، تـدور سبع مرّات، أو أكثر، وفي كلّ استدارة لك، يقع بصرك عليها، فتراها، كما لو أنّها صورته اليتيمة.

يظـن الزائـرون أنّ الصـورة لك، وقد أخذت لك أيّـام فتوّتك، أنت لست مضطرّاً أن تشـرح، أو أن توضـح لهـم، أو أن تقصّ عليهم شيئاً، يُقال:

«ما بتروح إلاّ على من يروح.!»

وأنت ترى أنّها:

«ما بـتروح إلاّ على من يحملون السلالم بالعرض..!»

لقد حمل السلّـم - بالعرض - وحملته

- أنت - موارباً.

«ألم يحـن وقت استبدال (براويظ) صور الأولاد والأخوة والوالدين. ؟!» تسأل نفسك أكثر من مرّة.

(٣)

يأتـي صـوت من الخـارج، تفتـح باب الصالـون الذي كنت قـد أوصدته لتحبس حرارة المدفأة. سريعـاً.. تتجه إلى المطبخ.. تفتح بابـه الحديدي البارد.. تصفع وجهك ريح غربيّة محمّلة بحبّات مطر ثقيلة.. أنوار مصابيـح الشرفات القريبـة تتساقط على أوراق الليمـون الخضـراء.. يأسرك مشهد اغتسالهـا بالضـوء والمطر.. تلتمـع أوراق شجرة (الكريفـون) العريضـة، كما المرايا المصقولة صابّةً لمعانها البريء فوق بركة الماء - تلك - التي تشكّلت فوق قبو النبيذ - ذاك القبو - الذي لم تنته من إنجازه بعد.

تـراودك فكرة فتيّـة.. أن تخرج تحت حبّـات المطـر، لتقطـف كعادتـك ثمـار الليمون.. لكنّ غزارة المطر المتساقط تمنعك من الخـروج.. تغلق باب المطبخ.. تفتح باب الثلاّجة.. يقع اختيارك على شوربة العدس، فهي الطبق المفضّل لديك في فصل الشتاء.

(٤)

رنين الهاتف.. يقطع عليك تأمّلك. إنّه صوت النّجار:

«هل أعجبتـك فكرتـي.. فاقتنعت بها سيّدي الجنرال ؟!»

«- ما شاء الله.!-

أليـس من الأفضل لو استخدمت مكان هذه الكلمة مـا يقابلها في العربيّـة، أم أنّ أصحاب المهن في بلادنا راحوا يحذون حذو التجـار، الذين يستوردون مئـات المفردات الأعجميّة في كلّ عام.»

«جنرال..! إنّها تملأ الفم أكثر، ليس مهمّاً يا سيّدي، هل اقتنعت بفكرتي؟!»

بعصبيّة تجيبه:

«وهل من جنرال يقتنع بغير فكرته؟!»

«أفهـم مـن كلامـك، أنّـك لا ترضى بديلاً.»

«قلت لك أكثر من مرّة، لن أغيّر رأيي.!»

«لكنّ هذا يشوّه منظـر البيت.. أقصد مدخله.»

«البيـت بيتي، والبـاب.. أيضـاً بابي، وأنـا مرتـاح لرؤيّة هذه القطـع الخشبيّة، وهي تجـاوره.. أخبرني متى سيصبح الباب الجديد جاهزاً.!»

«مادمت قد حسمت الأمر - لك ما تشاء

- لكن لا تنس أن توصي العمال في الصباح برفع القطع الخشبيّة المتبقية من باب داركم القديم، ما أعلمه أنّ لا مكان لها في مستودع الحبوب، ولا في مستودع العدد الزراعية.

نصيحتي لك أن تحملها إلى مكان آمن، لكنّ ما يجعلني أتحفّــظ، هو أنّ رفعها إلى صالــون البيت، أو إلى حجرة نومكم قد يثير لكم مشكلة مع أفراد الأسرة، وأنتم أكثر من يعلم، أنّـــه قد مضى عليها عشــرون عاماً، وهي ملقاة في أقصى الحديقة.»

«أبداً لا أسمح لك..!

أفهــم مــن قولــك أنّنـــا أهملنـــا باب دارنا.!»

«معاذ الله سيّدي الجنرال، ما تناهى إلى مسمعي قبل أن أتشــرّف بمعرفة حضرتكم يجعلني أحترم كلّ مسمار دُقَّ في باب داركم العالي.»

تقول في نفسك:

«حرفيّ متملّق، وابن سوق مداهن، يرغب في التزلّف مني، ليحظى كغيره باهتمامي في قادم الأيّام.»

يستطرد النجار قائلاً:

«أرجو أن لا يفهمني خطأ سيّدي الجنرال، الأمر في غايـــة الأهميّة، المنخفض القطبي يستمرّ إلى أكثر من ثلاثة أيّام، ما أخشاه هو أن تسوّل للعمّال أنفسهم، فيحرقون ما بقي على هيكل الباب من قطع خشبيّة، أسوة بمن سبقوهم مـــن عمال، كانوا يستخدمون قطع صغـــيرة منها لإضـــرام الأغصان الخضراء، والرطبة.»

«لم يخبرني أحد بالأمر، أهكذا إذاً؟!»

يستطرد النجار قائلاً:

«كنــت أتمنّى لو بقيت حـــال باب داركم كما كانت عليه في سالف الأيام.!»

«ومـــا الاختلاف بين أيّـــام زمان، وهذه الأيّام، قل أيّها الرجل.؟!»

يقول النجار في نفسه:

«ربّما لا تختلف الأيـــام عن بعضها، ما يختلــف، ما يتغيّر.. ومـــا يتبدّل هو - نحن البشــر - فلمـــاذا نحمّــل الأيـــام مسؤوليّة انكساراتنا المتلاحقة..؟!» يتمتم وجلاً:

«إنّهـــا مسؤوليّـــة...!» تقطـــع عليـــه الحديث:

«وأيّ مسؤوليّـــة تعنيها يـــا رجل، أم هل أثار بـــاب دارنا الخشبـــي أشجانك، فجئت تقـــدّم لي المواعظ العرجـــاء، لقد كان أبوك - ذاك - الـــذي عرفته منذ أكثر من أربعين عامـــاً، كان - رحمه الله - أقلّ منك كلاماً، وأكثر منك إخلاصاً لحرفته.»

(٥)

لا تبـدو عليه الدهشة، فهـو يتوقّع من الجـنرال أكثر من ذلـك، لكنّـه تغلّب على مخاوفه، فأراد أن يكون منصفاً في شهادته:

«كان أبـوك أكثر حكمة من أبي، لمّا فعل ما فعل..! – رحم الله الشيخين-»

«كيف، ومتّى – رحمهما الله – ؟!»

«لمّـا استقدمه غير مـرّة لإصلاح نافذة ،آنئذ.. وجد أبي باب داركم مفتوحاً، جرّب أن يغلقه، فلم يستجب له إلا بصعوبة.»

«وما الغريب في الأمر أيّها الرجل..!»

«المدهشـ في الأمر، أن أبي قام بإصلاح النافـذة، ولمّا جـاء كي يصلح بـاب الدار، فيجعله يغلق ويفتح بسهولة.. منعه أبوك..!»

«وهل أخبرك أبوك، لماذا فعل أبي ذلك ؟!»

«لم يخبرني وحدي أيّها الجنرال، بل أشاع الخبر في كلّ الأمكنة، فتناقلته الألسن.»

«أهكذا... إذاً ؟!»

«نعم هكـذا سيّدي الجـنرال..! لو كنت تركـب الحافـلات التي تقلنـا إلى المدينة، وتعيدنا منها، لكنت سمعت كلام الناس.»

«وأيّ كلام تقصده يـا هذا، ها أنذا في وسط الناس أسمعهم، وأراهم.. وليس بيني وبينهم من حاجز أو بوّاب.»

«لكنّك لست في أحاديثهم، لكنت سمعت بقصّة باب داركم.»

تكاد تغلق سماعة الهاتف.. لأنّك لا تعلم إلى أين يقـودك هذا النجار الذي لم يتجاوز الثلاثين من عمره، متسائلاً:

«هل هو جادٌ في كلامـه، أم أنّه يضعك – الليلةَ – أمام امتحان، كي يتبجح بأجوبتك الساذجة في المجالس.»

تسأله.. وأنت على حذر.. وشكّ.. وريبة في آن:

«وما القصّة..!

هاتِ ما عندك يا (يونس) إنّك تشوّقني إلى سماعها يا رجل..!»

(٦)

«لمّا كنت طفلا سمعتها من أبي، أمّا اليوم فقد سمعتها من فـم (جابر) معلّم البيتون، لـمـا كان منـذ أيـام، ينظر إلى بـاب داركم متحسّراً.»

«ولِمَ التحسّر يا يونس؟!»

«علـى ما آلـت إليه حال البـاب، الذي فعل ما لم تفعله الفرسان، لمّا تعرّضت القرى المجاورة للنهب والسلـب من قبل عصابات مسلّحة في ذلك الزمن الصعب.»

«إنّـك تهذي أيّهـا الرجل، وهل بمقدور هذه القطـع الخشبيّة المتعبـة أن تفعل ما لاتستطيع فعله فرسان أيّام زمان.

ألست محرجاً من سرد خرافتك - هذه - أمام جنرال له من الخبرة ما لا يخطر لك في بال.؟»

ينقل (يونس) سمّاعة الهاتف من يد إلى يد أخرى، ويجيب الجنرال:

«طبعــاً، استطاعــت قطع بــاب داركم - تلــك - عندما كانت واقفــةً.. متراصّــة.. تستند على ذلك الجدار القوي الذي هدّمته فأسك.

لــو أنّ لها شفاه لتكلّمت، لكن - لحسن الحــظ - تجــد الحقيقة دائماً مــن يشهد علــى انتصارها، أمّا الشهــود على فروسيّة بــاب داركم، فلم يزل منهم من هو على قيد الحياة، وليس فيهم من يكتم الشهادة.!»

«تشهدهــم علــى حقيقــة أيّ شــيء يا (يونس)؟!»

«اسمع من فضلك أيّها الجنرال.!

لمّا قصــدوه رجال القريــة سائلين، ما العمــل يا أبا علــي، واللصوصــ يحيطون بنــا من كلّ جانب، يسلبــون المال، ويأخذون الحــلال، سلاحهــم البنــادق، وسلاحنــا العصي، والمعاول، فماذا تفعل أسلحتنا أمام بنادقهم؟!»

«ماذا كانت حكمة أبي ؟!»

«خيّبت حكمته الشهيرة آمال الجميع.!»

«إنّــك تعود لتسيء إلى أبي، انتبه إلى كلّ كلمة تتفوّه بها يا يونس..!»

«لا بــل أمتــدح أبــاك، الذي قــال لهم يومئذ.!»

«أبوابكم كفيلة بحمايتكم.!»

«سألــه البعض، كيف يكــون ذلك يا أبا علي.؟!»

أجابهم بجرأة:

«اتّحدوا، واتركوها مفتوحة..!»

«سخر البعض من أبيــك، لأنهم توقّعوا منه إجابة أخرى، كأن يضع خطّة مستعجلة، لنشــر الحرّاس على الطرقــات، واستبدال معاولهم ببنــادق، وهذا يعني أنهم سيبيعون مواشيهــم، وغلالهــم ليــكلاوا الخيــول، ويطعموا الحرّاس، ويشتروا أسلحة باهظة الأثمان.»

«هل اقتنع بفكرته أحد.؟»

«قــال لي أبي، أبداً لم يقتنع بفكرته أحد، وسألنــي وقتئذ، لو كنــتَ واحداً منهم، هل كنتَ لتقتنع بفكرة أبي علي يا يونس.؟!»

«بماذا أجبت أباك.؟»

«طبعــاً، قلت له سأكون مثلهم، أيعقل أن نــترك أبوابنا مفتوحة أمام الطامعين بمالنا وحلالنــا، بينمــا تُخلع الأبــواب المقفلة في القرى المجاورة، ويُسرق كلّ شيء -أتراه كان

على حق في ما اقترحه في تلك الليلة، سيّدي الجنرال؟!-»

«من جهتي، لم يكن محقّاً.!»

«أنـت تقول هذا أيّها الجنرال..! أكاد لا أصدّق، لم أخطـئ إذاً، لمّا قلت لك يوماً، أنّ أباك كان أكثر منك حكمة، لمّا ....!»

«لمّـا ... مـاذا يـا يونس، أكمـل مـن فضلك؟!»

«لمّا عقل الثـيران والبقرات على جذوع أشجار الدار، وترك بابه مفتوحاً..!

ليلتها..هاجـم اللصوص القريـة من الشرق، فلمّا سمع وقع حوافر خيولهم، نهض سريعاً مـن فراشه، وقف في فم باب البيت، تماماً على العتبة.. بحيث يسمع ما يقال في الخارج ولا يراه أحد.»

«وهل سمع شيئاً.؟!»

«سمـع أحـد اللصوص يحـدّث رفاقه محـذّراً بعـد أن رأى بـاب الـدار مفتوحاً والغنائم وفيرة.!»

«ومـاذا قال ذلك اللص، هل تتذكّر يا يونس ما قاله أبوك لك.؟»

«هـذه القريّة عصيّة علـى شياطينكم، وبنادقكم، أيّها الرجال..!»

ولمّـا سألـه آخـر، لماذا هـي عصيّة.؟ أجابه:

«لأنّ أبـواب دورهـا مفتوحة، وفي هذه الأيّـام العصيبـة، لا يكاد يفتـح باب داره غـير الرجل القوي الحازم الصـارم المسلّح - الواثق من مقدرتـه على الدفاع عن ماله وحلالـه ونفسه - والـذي لا يخشى أحداً. استديروا أيّها الرجـال إنّ في الأمر شيئاً لم أعهده في أي قرية سطونا عليها.!»

«وهل انسحب اللصوص.؟»

«طبعاً انسحبوا..!

لكـنّ لم تكـد تبتعـد أصـوات حوافر خيولهمّ، حتّى صـاح أبوك صيحته الشهيرة - متجاهلاً كونهم لصوصاً -

«لمـاذا تغـادرون أيّها الضيـوف، بيوتنا مشرّعة لكم، أنتم أهل لكلّ مكرمة؟!»

(٧)

سمع رجال القرية المتحفّزين في بيوتهم المتلاصقة مـا دار بين أبيك وبين اللصوص من حوار.. أعاد باللصوص من مشرق القرية مترجّلين عن خيولهـم إلى أمام باب داركم، ليدخلـوا بيتكم مندهشين، ويتحلّقوا جميعاً حـول مائدة طعام كبيرة، أعدّتها لهم أصابع أمّـك الكريمة - تلك المائـدة - التي ظلّت عامرة حتّى الصباح، حيث كشف (الخيّالة) عن هويّتهم ومآربهم معتذرين.

طبعـاً.. على أثر ذلك الاحتفاء المنقطع النظـير من جميع أهل القريـة، ما كان من

اللصوص إلاّ أن أقسموا على أن يقلعوا عن عاداتهم، ويصبحوا أناساً فاعلين.

منذ تلك الليلــة المشهودة.. أقسم أبوك أن لا يغلق باب داره أبداً.»

تعيد سمّاعة الهاتــف إلى مكانها، وأنت مدرك أنّ النّجار أصابك بسهامه في الصميم، وأنت أضعف من أن تعلي صوتك فوق صوته أمام مديحه لباب داركم الجسور.

(٨)

تحاكم نفسك:

عشرون شتاءً، والباب مخلوع من مكانه، أنــت لم تتعب نفســك في حفظه، وصيانته.. أوكلــت المهمّة إلى من ركنــه بقرب الجدار القصي من الحديقــة... لم ترحمه الفصول المتعاقبة، ولا الأيدي المخرّبة.

غالبــاً ما كنت تمرّ به، ترفعه عن جدار لتلقــي به على جــدار آخر، حتّــى صغرت أبعاده، ورقّ خشبه، وخف وزنه.

لكــن، بقــي في نفسك شــيء، لو بحت به، لن يلومك النجــار، وستكون راضياً عن خطّتك الجديدة.

مــا أسهل أن تحمــل ما بقي من خشب الدار إلى يونس.. هناك تطلب منه أن يصنع منها (براويظ) لصور العائلة، وشهادات لك تفخر بهــا، عندئذ تكون قــد استفدت من خشبــه، وجعلته في مكان بــارز من جدران البيــت، وهكــذا يرثــه الأبنــاء والأحفاد، وستغــيّر (برواظ) صورة أخيــك المستوردة، لتكون (البراويظ) كلّها محليّــة المنشأ، ربّما يكون القرار صائباً، يدهش يونس، ويرضي الشيخين في قبرهما..!

لم تستيقــظ كعادتــك في السابعــة، لأنّ أحــداً لم يقــرع الجرس، ولم يطــرق عليك البــاب، كما جرت العــادة، لكنّ رنين هاتف النجــار المتواصل أيقظــك في العاشرة من صباح ذلك اليوم الماطر، تنظر إلى الكاشف، فلا ترفــع السماعة، عليك أن تنزل درجات سبع، وتتفقّد بقايا خشب باب الدار المركونة على جدار الحديقة الشمالي، فلا ترى شيئاً، تمضي مسرعــاً إلى كهف النبيذ المحفور في عمق الدار، حيث يلجأ إليه العمال في الطقس الماطر.

تقترب من الباب، يستقبلك دخان كثيف حاد، تدمــع عيناك، فلا تــكاد تميّز وجوه الرجــال الذيــن منعهم المطــر الشديد من العمل في الخارج، فتحلّقوا في زاوية الكهف حــول مدفأة الحطب القديمــة، التي كانت تحتفي بآخر قطعــة خشب متبقية من باب داركم الجسور.

أنــت لا تعلم هل حيّيــت العمال تحيّة الصباح، أم ألقيت عليهم تحية الوداع، وأنت

تتسحـــب من أمامهم من دون أن تنبس ببنت شفة، أو تظهـــر على محيّاك علائم عتب أو دهشة.

تعـــود أدراجك متعباً مـــن حيث أتيت.. تتسلق درجات البيت السبع، يستقبلك رنين متواصـــل عند بـــاب حجرة الطعـــام، تعبر موزّع الحجرات الأربع، لكنّك تفضل العودة إلى صالـــون البيت، حيث تجـــد فيه مكاناً للجلوس المريح، والرد علـــى المتصل، تنظر إلى الكاشـــف.. إنّه رقم بائع المازوت.. ترفع السمّاعة، تضعها على أذنك..

«لن يتوفّر المازوت.. دبّر حالك..!»

لم يلق عليـــك تحيّة الصبـــاح، ولذلك لم تجد لديـــك رغبة في التحدّث إليه، تغلق في وجهـــه الخطّ البارد، بينمـــا لم تغادر عيناك إطار الصورة التي تشبهك تماماً.

آفاق المعرفة

آفاق المعرفة



من جديد لغة الجسد وقديمها

د. خير الدين عبد الرحمن ⊛

لعل من أول ما يخطر في بال المرء إزاء مصطلح (لغة الجسد) هو قول الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ۝ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (فصلت: ١٩-٢١)

⊛ أديب وناقد ودبلوماسي سابق.

العمل الفني: الفنان عماد كسحوت

بعدئذ لا يلبث المرء أن يستعيد ذكرياته عن مشاهد يومية لا تحصى لحديث العيون، وما حدثت به حركات الأيدي أو بعض أصابعها، أو ما أوحت به حركات الشفاه أو الرأس إلخ.. فمدلولات حركات هذه الأعضاء، سواء ما تماثل منها في كل مجتمعات كوكبنا على امتداد الأزمان، أو ما تباين مدلوله بين مجتمع وآخر، ومن زمن إلى آخر، تستحق اعتبارها لغة قائمة بذاتها وإن كانت غير منطوقة، إذ لا حروف فيها ولا كلمات. أكثر من هذا، أكد كثير من علماء النفس، وخاصة منهم أولئك الذين تخصصوا بلغة الجسد وبرعوا في تحليلها، أن حركات عيني الإنسان وشفتيه ورأسه وكفيه وذراعيه وقدميه أكثر صدقاً من اللغة المنطوقة.

وصفت د. زكية مال الله اللغة عموماً فقالت أن اللغة مسكن وحضن، وهي تسكننا ونحن نسكنها، وهي البيئة الأولى التي يتفتح في آفاقها الذهن وينتعش الفكر وينشط الخيال.. بها نتحدث ونكتب ونناقش ونختلف ونقبل ونرفض، وبها نتعلم ونتأدب ونسافر ونتغير ونتطور، وباللغة نحب ونكره ونسامح وننتج وننجز وننمو ونتعرف وهي موجودة بداخلنا وتحاصرنا في العمل والمنزل وعلى المكتب وفوق الأرفف والأدراج والخزائن والمباني والمحلات والشوارع والمطارات وبكل موقع نعيش فيه أو نتحرك خلاله نجد كلمات وإشارات وإعلانات ولافتات ومصطلحات[1]. لكن هذه اللغة المنطوقة مهما اختلفت من مجتمع إلى آخر، ومن قوم إلى قوم، ليست وسيلة التفاهم الوحيدة بين الناس. صحيح أن الخالق عزّ وجلّ قد «علّم آدم الأسماء كلها»، لكن الصحيح أيضاً هو أن ما قد تعلمه آدم من خالقه، ليعطي الملائكة درساً بعدما سجدوا لآدم تنفيذاً للأمر الإلهي، لم ينتقل تلقائياً لذرية آدم. فالإنسان الأول كان يعتمد على حركات جوارحه، وجسده عموماً، في التعبير والتفاهم مع الآخرين قبل أن ينطق الأصوات التي تطورت إلى كلمات، ومن ثم إلى لغات. وحتى بعدما نشأت اللغات المنطوقة وتشعبت وتباينت، ظلت حركات الأصابع أو كلا اليدين والعينين والحاجبين والجفنين، والرأس بأكمله، والكتفين والقدمين تواكب كثيراً من كلمات كل اللغات، أو تنوب عنها في التعبير والتفاهم. كما أن هذا هو حال الطفل في شهوره الأولى قبل أن ينطق بأي كلمة، فأعضاء جسده سبيله للتعبير والتفاهم والتواصل. وهكذا بات مصطلح لغة الجسد، أو مدلولات حركاته، سائداً في المجتمعات كافة. ظلت هذه اللغة رديفاً للغة المنطوقة غالباً، وبديلاً عنها في أحيان وحالات كثيرة. وكما أن الكلمة وسيلة رئيسة للحوار

والتعبير والتخاطب والتفاهم والتواصل والتعايش، كذلك هو شأن الألحان الموسيقية والأنغام، ومثلهما الحركات التعبيرية للجسد وأعضائه أو بعضها. كلُ هذه الوسائل -وكلٌ منها- جاذبٌ عندما يحسن استخدامه، ومنفّرٌ طاردٌ إن أسيء استخدامه. وقد نقل الفيلسوف البارز لودفيج فتجنشتين عن أوغسطين قوله شارحاً نظرية المعنى التي أطلقها: «كنت أستنتج من حركاتهم الجسدية، التي هي اللغة الطبيعية لجميع الشعوب، مثل تعبير الوجه وحركة العينين وبقية أجزاء الجسم..»[٢]. وقد عرف بعض القدامى هذه اللغة، ودخلت موهبة قراءة لغة الجسد آنذاك ضمن القدرات التي يدلّ عليها مصطلح الفراسة، لكن أهمية قراءة مدلولات حركات الجسد قد ازدادت منذ أولى سيجموند فرويد اهتماماً كبيراً لحركات اليدين وتعابير الوجه، باعتبارها وسائل للكشف عن اللاشعور، وأطلق علماء النفس على هذه الحركات اسم (لغة الجسد)، واعتبروها وسيلة شديدة الفاعلية لكشف أفكار الإنسان وبواعثه[٣] التي كثيراً ما يحاول إخفاءها أثناء حديثه، وللدلالة على مدى صدق هذا الحديث. وقد صدر حديثاً كتاب للدكتور فيكتور سنودون، أستاذ العلاج النفسي، عنوانه (لغة الجسد) قال فيه إنك تستطيع الحصول على كمية كبيرة من المعلومات عن محدثك، بمجرد مراقبة حركات يديه أثناء الكلام، وإذا عرفت ما ينبغي أن تبحث عنه في هذه الحركات، فإنك تستطيع معرفة ما إذا كان المتحدث يؤمن بما يقول أم لا، بل تستطيع معرفة ما إذا كان يكذب أم يصدق في كلامه.

أعطى البروفيسور سنودون في هذا الصدد مؤشرات عديدة عن مدلولات لغة اليدين وفقاً لأوضاعهما أثناء الحديث، هذه بعض تلك المؤشرات:

- عندما يكون الإنسان صادقاً في حديثه، ويعرف أنه يقول الصدق، يبسط راحتي يديه بصورة تلقائية أثناء الحديث. بينما إذا رغبت في طلب خدمة من صديق فراقب ما إذا كانت راحة يده مبسوطة، وتتجه إلى أعلى، أثناء حديثه، فذلك يعني أنه سيتجاوب مع طلبك على الفور. ويتفق الخبراء على أن الإنسان الواثق من صحة قوله، يبسط كفيه بشكل تلقائي أثناء الحديث، بحيث يتجه الإبهامان إلى الأعلى، وهذه حركة تعرفها كل الشعوب والثقافات، في شتى أنحاء العالم.

- ينبغي التزام الحذر من الشخص الذي يضم قبضته، أو يخفي يده في جيبه أثناء الحديث، فذلك يعني أنه غير آبه بك، وأنه يلجأ للمناورة، وإن حاول التحدث بحرارة لإيهامك بإخلاصه.

- عندما يضع الشخص إصبعه، أو يده قرب أنفه، أو على الأنف، أثناء حديثه، عليك أن تـدرك فوراً كذبــه، أو أنه غير واثق مما يقولــه، وإن غطى فمه بيــده أثناء الحديث فهو يخفي شيئاً عنك.

- إن احتجت رأيــاً قاطعاً في أمر ما أو معلومات دقيقة حوله، لا تطلبها من شخص يقف مكتــوف اليديــن، أو يشبــك أصابع كفيــه،أو يضع باطن كفه علــى فخذه، فهو يعللك بتلبية طلبك لكنه لن ينفذ.

- تتميز المرأة بلجوئهــا إلى وضع يدها على الرقبة، أو قرب الرقبة، أثناء الحديث، وهذه إشارة إلى صدق حديثها، حتى لو كانت روايتها لا يصدقها العقل.

- تدل الإشـارة بالإصبع الشاهد، بينما الأصابــع الأخرى تتراجــع إلى الخلف أثناء الحديــث، على أن المتحــدث قرر المواجهة، وأنه يشعر بالضيق ممــن يحادثه، وبالتالي من العبــث استخدام المنطق مــع من يقوم بهذه الحركة، لأنه لن يكترث به.

كما تحدث البروفيسور فيكتور سنودون عن المصافحة سبيــلاً للكشف عن كثير من خصائصــ شخصية الإنســان، فقال: «إن الانطبــاع الذي يأخذه النــاس عن شخص في مقابلــة مــا، يتقــرر من اللحظــة التي تصافحــه فيها..فالمصافحة بحــزم، بينما عينــاك تنظران في عينــي الشخص الآخر



تدل على الثقة بالنفس، والانفتاح، وأن هذا الشخصــ لا يلجأ للذرائــع، وجدير بالثقة، ويصلــح للمناصب القياديـة.. والمصافحة بيــد مرخية تشـير إلى شخص خجول، غير

اجتماعـي، دائرة أصدقائـه محدودة جداً، ونـادراً ما ينجـح في الوظائـف القيادية، والمهنة التي تتعلق بالتعامل مع الآلات أفضل بكثير لشخص من هذا النوع من المهنة التي تتعلق بالتعامل مع الناس». هذا عن حركات اليدين، بينما يؤكد خبراء أن نظرات العينين وأوضاعهما تعكس المشاعـر والأفكار على نحو أشد وضوحاً وأكثر عفوية وصدقاً. ولا يقتصر الأمر على اليدين والعينين، فلحركة الرأس في الاتجاهات المختلفة مدلولاتها وفقـاً لما أدى إليها. ينطبق هذا على الكتف والذراع والقدمين والساقين، أثناء الجلوس أو الوقـوف أو المسير. فلـكل وضع وحركة لأعضـاء الجسد مدلولهـا حسب الظرف ووفقـاً لوضـع وسلـوك وموقـف الطرف الآخر.

نتعمق أكثر في مسألـة التعبير ووسائله، فنتمعن مثلاً بتجربة أجريت سنة ١٩٩٩ في باريس بإشراف لوك ستيلز من مختبر سوني للعلـوم الكومبيوتـر Sony Computer Science Laboratary لرجلين آليين من نوع (آيبو) Aibo، يسيران على أربع قوائم، كانا يتدربان يومياً على اللعب بكرة برتقالية اللـون. لاحظ العلمـاء أن الرجل الآلي كان يتوقّف فجأة عن الحركة بعد أن يكتشف كلٌّ منهما، بفضل الكاميرا الصغيرة المجهّز بها، وضعيّة تمكّنه من مشاهدة الكرة البرتقالية وشريكـه في الوقت نفسـه! وعندما يتوقّف الروبوتان عن الحركة يطلقان إشارة صوتية. بعد ذلك يركل أحد أعضاء الاختبار الكرة، فتبدأ بالتدحرج على الأرض، ويتبع الرجلان الآليان مسـار الكرة بعيونهمـا الإلكترونية بدقّـة. عندما تتوقّـف الكرة يطلـق أحد الروبوتين عبارة لا معنى لها على الإطلاق، عبر المُرسل الصوتي المدمج فيه. وبعد بضع ثوانٍ يهزّ زميله رأسه من الأعلى إلى الأسفل كأنّـه يقول (نعم). عندئذ يـركل المختبرون الكـرة مُجـدداً، فيتبادل الرجـلان الآليان الأدوار. تشير هذه الرقصة بكلّ بساطة إلى أنّ هذيـن الرجلين الآليـين هما في خضمّ صنع لغة جديدة. وفسّر ستيلز هذه الظاهرة بالقـول إنه بفضل هذه الحـوادث المتكررة كثيراً يصنع هـذان الروبوتـان بنفسيهما شيئاً فشيئاً لغة مشتركة تسمح لهما بوصف حركات الكـرة. فكلما ركل رجـال المختبر الكرة ينطـق أحد الرجلـين الآليين بعبارة تعني مثلاً: (لقد تحرّكت الكرة عن يساري) أو (لم تتحـرّك الكرة كثيراً)، فيشير الروبوت الآخـر عندئذ بإشارة مناسبـة بالرأس، إن كان فهم الجملة المنطوقـة أولاً. ثمّ يحفظ كلٌّ واحـد منهما الجواب وتُـركل الكرة من جديد... وإذ بالنتيجـة مذهلة. فعلى رغم أن التجربة لم تنته، استطاع الرجلان الآليان ابتـكار عبارات منطوقة مـن خلال خمسة

آلاف ركلـة كرة... والأهمّ مـن ذلك أنه في مطلـع تجربة بدأت عـام ٢٠٠٤، لم يكن في ذاكرة الرجلين الآليـين أي كلمة أو قواعد، مـا يعنـي أن لغتهمـا نشأت مـن لا شيء تقريباً!.. لقـد وضع الباحثـون مسبقاً في القرص الصلب لكل رجل آلي ثلاثة أنواع من القُدرات. تتضمن الأولى قدرة الروبوت على (تكسـير) الحقيقة البصرية التي يراها عبر إعادة تصنيف الأشيـاء التي يتعامل معها؛ ثمّ يُعطي كلمـات لكلّ فئة من هذه الفئات. فمثلاً يخلـق الرجلان الآليان فئات لوصف وضعيات الكرة أو المسافة التي تعبرها عند كل ركلـة. وتمكن القـدرة الثانية من صنع كلمـات وقواعد بشـكل عشوائـي، عندما يتواجـد الروبوت أمام وضع جديد لا يملك وسيلة لغوية لوصفه. وتعطي القدرة الثالثة الروبوت إمكان مناغمة آلاته مع آلات الآخر بشكل دائم. أدى وجود هذه القدرات الثلاث وحدهـا إلى ظهور لغة مشتركـة. وفي هذا السياق، تسهل ملاحظـة الدور الذي لعبته العشوائية في تلـك العملية. للروبوتين ملء الحرية في ابتكار الكلمـات التي تخطر في بالهما لوصـف وضعيّة جديدة. ولو تكرّرت التجربـة سيكوّنان كلمـات أخرى بما يؤدّي إلى لغة مختلفة تماماً. شرح ستيلز هذا قائلاً: «القدرات الإدراكية الثـلاث التي منحناها لرجلينا الآليين موجودة أيضاً لدى الإنسان. ففـي الواقـع، نحن نحظى بذاكـرة تسمّى ذاكرة مشتركة، تمكّننا من تقسيم الواقع إلى فئات مختلفة وإعطائه عوامل مرمّزة شفوية أو حركيـة مثـلاً. كما نتمتّـع بالقدرة على ابتـكار عوامل مرمّزة حين نرغب في وصف حقائـق مستجدة. ونملك أيضاً القدرة على مناغمـة تصرّفاتنا الخاصـة مع تصرفات الآخرين..».

يظن الباحثون أن الإنسان الأول الناطق كان يتمتّـع بهذه القـدرات أيضاً. ذلك «إن الظروف الأولية التي نما فيها مشابهة لتلك التي يوجد فيهـا الرجلان الآليان في بداية الاختبـار». لدعم هذه الفكرة التي يستحيل في الواقع التحقّق منها، يقدّر علماء الإنسان القديم أن قدراتنا الإدراكية الحالية ظهرت منذ زمن طويل. وذلك أمر تحاول الإجابة عنه الأبحاث على تطـوّر الأدوات القديمة أو علـى حجم الدمـاغ في الهياكل العظمية المنبوشة وغيرها. لكنّ تجربة ستيلز المذهلة لا يمكن التحقّق منها سوى في قلب مجموعة بشرية. ويمكن التفكير في مثل هذه الفرصة فعلياً في ضوء الأعمال التي قامت بها عالمة اللغة الأميركية جودي كيغل التي وصفت في الثمانينات من القـرن الماضي ما سمي لغة الإشارات النيكاراغويـة. ظهرت هذه اللغة بعد تأسيس أوّل مراكز للأطفال الصمّ عام ١٩٧٩. ففـي هـذه المراكز، تجمّـع وللمرّة

الأولى أطفال كانوا يعيشون منفصلين عن بعضهم بعض، ولم يتعلم أحد منهم لغة معيّنة بسبب إعاقتهم. ولكن تجميعهم أدّى إلى بروز ظاهرة غير متوقعة. فبينما باءت كل المحاولات الرسمية لتعليمهم أساليب تواصل مختلفة بالفشل، ابتكر هؤلاء الأطفال بأنفسهم لغة إشارات جديدة بالكامل ومختلفة في كل النواحي عن اللغات التي يُقال عنها (شفوهية)، وتختلف أيضاً عن أي (لغة إشارة) أخرى. وقد مكّنتهم هذه اللغة من التواصل في ما بينهم خلال بضعة أشهر. هكذا استطاع أفراد يرغبون في التحدّث في ما بينهم استخدام قدراتهم الإدراكية، في فترة قصيرة للغاية، لتكوين لغة لم تكن موجودة قبلاً. وتدعم فرضية ستيلز هذا الأمر الذي يزيد من هشاشة الفرضية القائلة بوجود لغة أمّ شكّلت أساساً لكلّ اللغات المنطوقة.(٤)

لقد نشرت مجلة (VSD) الفرنسية بحثاً جاء فيه إن الرئيس الأمريكي (آنذاك) بيل كلينتون لم يكشف الحقيقة في الإفادة التي قدمها حول علاقته العاطفية مع مونيكا لوينسكي. بنى كاتب البحث استنتاجه على أن كلينتون كان يكثر دعك أنفه أثناء استجوابه، وذلك يعني، وفقاً لتأكيد العارفين بلغة الجسد، أنه يكذب. كانت مونيكا لوينسكي على علم بهذا، أو لعل هناك من لقنها هذه المسألة وسواها، عندما نشرت مذكراتها عن علاقتها بالرئيس السابق بيل كلينتون. لذلك دعت كبريات الصحف الأمريكية إلى تتبع حركاتها أثناء الحملة الدعائية التي أجرتها مروّجة للكتاب، لكي يتأكدوا من نظراتها وحركات يديها وجسدها ما إذا كانت قد ذكرت الحقيقة كاملة أم لا. ولعلّ أكثر من طالعوا قصص الأطفال المشهورة عن(بينوكيو) يذكرون كيف تروي قصة منها أن أنف بينوكيو كان يستطيل كلّما كذب. فهذه الإشارة إلى استطالة أنفه كلّما قال كذبة إنما يستند إلى ما قرره علماء لغة الجسد من أنه كلما أكثر المتحدث من ملامسة أنفه أثناء حديثه يكون أشد كذباً! لقد انطلقت مجلة كوريير الرصينة من فرضية علاقة حك الأنف بممارسة الكذب، فنشرت تحقيقاً مصوراً عن لجوء رؤساء دول العالم إلى هذه الحركة بالذات في مؤتمراتهم الصحافية، فتوصلت إلى تأكيد أن معظمهم لا يقول الحقيقة على الإطلاق. وبينما يعتبر بعض الناس أن الشخص الذي يتجنب النظر بشكل مباشر إلى عيني محدثه خجولاً، أو ضعيف الثقة بنفسه، يقول خبراء لغة الجسد أن الإنسان في هذه الحالة يحاول الظهور بصورة تناقض حقيقته، ولأنه

يخشى أن يقرأ محدثه ذلك في عينيه، تجده يهرب بحركة مائلة من عينيه، إلى اليمين أو اليسار، أو ربما إلى تحت.. أما في حالة الغيظ فإنه ينظر دائماً إلى أعلى. هذا واحد من مفردات لغة الجسد التي اكتسبت مصداقية عالية. نتيجة لهذه المصداقية، تستخدم أجهزة الأمن في الولايات المتحدة خبيراً في لغة الجسد هو بول إيكمان، إلى جانب جهاز كشف الكذب، للتحقيق في الجرائم الغامضة أو ذات الأهمية الاستثنائية. يجلس هذا الخبير إلى المتهم ويحاوره لبضع دقائق، فيكتشف في نهاية الحوار ما إن كان المتهم قد أدلى بإفادة صحيحة أثناء استجوابه أم لا. ومثلما عرفت اللغات المنطوقة عمليات تطوير وتهذيب وتحديث مستمرة، وكما أفرزت هذه إبداعات فكرية وجمالية وعلمية متنوعة فإن لغة الجسد قد عرفت بدورها التطوير والتهذيب والتحديث وأفرزت إبداعات جمالية عبر الرقص أساساً، الذي صار لغة تفاهم وتواصل عالمية. ولعل رقص السماح، الذي نراه نموذجاً راقياً للرقص الرزين المحتشم الذي يسمو بالروح والمشاعر من خلال كلمات أناشيده وموشحاته وقدوده وألحانها، ومن خلال ثياب محتشمة تشارك في الأداء، وأساساً من خلال حركات أجسادهم وتعبيراتها، يقدّم صورة جميلة لإبداع لغة الجسد عبر تلك الحركات المدروسة المتناسقة. لقد تم تدوين حركات القدمين مثلاً في رقص السماح قديماً وشرح مدلولاتها كما يلي:

١- الدم: وهو ضرب القدم اليمنى على الأرض.

٢- التك: وهو ضرب القدم اليسرى على الأرض.

٣- القفلة: وهي مدّ القدم اليمنى على طرف القدم اليسرى وإلحاقها بها، أو مدّ أي من القدمين إلى الأمام وإتباعها بالقدم الأخرى.

٤- النهزة: وهي نهز الجسم بأكمله عن الأرض والبقاء وقوفاً على رؤوس أصابع القدمين.

٥- اللوحة: وهي سحب القدم اليمنى يميناً، وسحب القدم اليسرى إلى جانبها، وبالعكس.

٦- البصمة، وهي التقدم بالقدم اليمنى إلى الأمام، ووضع القدم اليسرى جانباً.

٧- الخطوة: هي الخطو بالقدم اليمنى على طرف القدم اليسرى ولفت الجسم نحوها.

٨- النقرة: هي إرجاع القدم اليمنى إلى الخلف، ولمس رؤوس أصابعها الأرض.

٩- الرباط: هو ضرب القدم اليمنى

بالأرض مع تأخير مسافة الرباط، ثم تهوي القدم اليسرى مسافة قصيرة.

١٠- النهاية: إرجاع القدم اليمنى للخلف ومثلها القدم اليسرى مع ثبات الراقص في مكانه.

أما حركات اليدين، وهي أكثر استخداماً ونشاطاً وتعبيراً ولفتاً للأنظار من حركات القدمين في رقص السماح، كما في سواه، فلم يعرف لها أي تدوين. ربما لكثرتها وتنوعها وتلاحقها على نحو يصعب حصره. فمنها مثلاً حركة شائعة تكثر الراقصات أداءها هي رفع الساعد الأيمن واليد اليمنى طبعاً مع بسط الساعد الأيسر واليد اليسرى بحركة انسيابية نحو الأمام. ومنها أيضاً رفع ساعده ويده مع استقامة الساعد الآخر ويده عند مستوى الفم أمام الصدر. إنزال اليدين ثم رفعهما إلى مستوى الصدر ثم سحبهما إلى الخلف ثم رفعهما إلى مستوى الوجه أو ما فوقه مع تحريك الأصابع بغزل انسيابي. أما بالنسبة للراقصين الرجال فالوقفة النموذجية والحركة الرئيسة هي تلك التي يفتتح الرقص بها، أي مد اليد اليمنى أماماً إلى مستوى الصدر. ومن المبادئ الرئيسة في كل نماذج رقص السماح تحريك اليد اليمنى مع القدم اليمنى، واليد اليسرى مع القدم اليسرى بتناسق وانتظام. وقد عرف هذا الرقص في المرحلة الوسيطة التي انتقل فيها من التكايا الصوفية إلى المقاهي، قبل انتقاله إلى المسارح والفرق الفنية المتخصصة الذي واكبه تطوير وتجديد كبيرين، أن الرجال الراقصين في تلك المقاهي كانوا يؤدون بعض رقصاته على ركبهم، أو جلوساً، أو وقوفاً ثابتاً أو جلوساً على الأرض، إن لم يسمح الحيز المكاني بالخطو أماماً وخلفاً أو يميناً وشمالاً. إضافة إلى ما سبق، تم تدوين أصول هامة أخرى لحركات الجسم في أداء رقص السماح، مثل: دمين الزحف، رجل للخلف، رجل للأمام، رجوع، مشي للأمام (أي عكس الرجوع)، مشي (تكين) لليمين، مشي (تكين) للشمال، صاداية (خطو موضعي سريع مأخوذ من الإيقاع الصاداية)، (دقرة أسس)، رجل (قاضي)، زحف نقرة، قفلة بنهر، نهواية باليمين.. لكن ما تم تدوينه من حركات على هذا النحو لم يشكل توثيقاً علمياً يوضح حركات هذا الرقص وأوضاع الجسم في نماذجه العديدة، وفي المراحل المختلفة لكل منها، وتسلسل حركات القدمين والسير الموضعي أو الجانبي ومدة كل حركة، وهو ما يتم تدوينه اليوم في معظم أنحاء العالم بما يماثل النوتة الموسيقية ويواكبها. فقد ظل تناقل أصول ومصادر وحركات رقص السماح وتداوله وتعليمه مرهوناً بالنقل الشفاهي والرواية والحفظ غالباً، إلا فيما ندر. ولعل اكتظاظ رقص السماح بالحركات

والالتفاتات والإيقاعات السريعة المتلاحقة يجعل هذا التدوين بالغ الصعوبة. مع ذلك، ابتكر عدنان بن ذريل طريقة تدوين أبجدي موزون موقّع لهذه الحركات، بحيث دوّن بالكتابة الأبجدية العادية المصطلحات الأساسية لرقص السماح تدويناً زمنياً موزوناً لمواقع وحركات كل رقصة، موزعة على أزمنة الإيقاع الناظمة لها، بحيث تظهر زمن كل حركة وخطوة والتفاتة،على نحو يرجع المدربون والمؤدون إليه. وهنا يتم التمييز بين أنواع التشكيل الجمعي في رقص السماح: أول هذه الأنواع الصف الواحد الذي يكون بدوره إما صفاً ساكناً يرقص دون أن يغادر مكانه في المسرح، وإما صفاً متحركاً يدخل راقصاً إلى خشبة المسرح من أحد جانبيها، أو يخرج راقصاً كذلك. وثانيها تشكيل متعدد الصفوف، اثنان أو أربعة. سواء تقابل التشكيلان أو تعاكسا أو تداخلا أو تفرعا في حلقات جزئية، وهما يتفرعان من تشكيل الصف الواحد أصلاً في خطواته أو حركاته. وثالث الأنواع التئام الصف بأكمله في دائرة تتفرع منها دائرة صغرى داخلية ثم يعود المؤدون إلى مواضعهم في الدائرة الكبرى. ورابع الأنواع دائرتان مستقلتان تتشكلان من التئام صفين متقابلين أو أربعة صفوف. ولكل حركة وخطوة وتشكيل من حركات وخطى وتشكيلات هذه الصفوف مدلول يعبر عن معنى أو مقصد، بما يصح معه اعتبار هذه التعبيرات الجمعية بدورها لغة أجساد!

الهوامش

١- د. زكية مال الله، اللغة والتواصل مع العصر، الوطن، الدوحة، ٢٠٠٨/٢/١١.

٢- لودفيغ فتجنشتين، بحوث فلسفية، ت. عزمي إسلام،وكالة المطبوعات، الكويت،١٩٩١، القسم الأول، ص ١٦٢.

٣- أبو خلدون، لغة الجسد، الخليج، الشارقة، ٢٠١٠/٢/١٩.

٤- نشأة اللغات: بين المصادفة والضرورة والحرية، الحياة، ٢٠٠٧/٤/٢٠.

٥- عدنان بن ذريل، معجم رقص السماح، مطابع ألف باء – الأديب، دمشق ١٩٧٠.

٦- د. خير الدين عبد الرحمن، لمحات من فيض الإبداع المتنوع لجلال الدين الرومي، الندوة الدولية عن مولانا جلال الدين الرومي والمولوية، جامعة قونية، تركيا، ٢٠٠٧/١٠/٢٨.

آفاق المعرفة



الشبع والجوع النفسي

د. معمر نواف الهوارنة ✪

الشبع والجوع النفسي

الإنسان قيمة وأمل وإنجاز يتجلى من خلال سلوكه وتصرفه الذي يعد إشعاعاً كونياً يظهر من خلال التفاعل والتبادل بينه وبين الإنسان الآخر، وتتسع دائرة العلاقات الإنسانية وتتشابك، ويكثر العطاء وينمو النسيج البشري ويتماسك، فالإنسان وفق فطرته الطبيعية التي أرادها الله له هو ذلك المخلوق البشري الذي خلق ليبحث عن الإنسان الآخر، بحيث يصبح

✪ باحث ومدرس في كلية التربية - جامعة دمشق.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

الوجـود الحقيقي بالنسبـة للإنسان الفرد إنمـا يتحقق من خـلال تلاقيـه مع غيره من الأشخاص وليس مـن خلال تعامله مع مجموعة من

الأشياء! هذا هو السر في ذلك الاستمرار العظيـم للكيان البشري الذي يرفض أولئك الذيـن يتميزون بالأنانيـة ويفضلون العزلة عـن الجماعة وعـدم المشاركـة الفعالة في أمورها.

الإنسان قيمة وأمل وإنجاز إلا أن بعض الأشخاص من خلال التعامـل غير السوي خرجوا علـى السائد المألوف فظهرت منهم سلوكيات عجيبة تثير الدهشة والنفور، لأنها تخفي وراءها انفعالات وهواجس واتجاهات تبعـد صاحبها عـن دائرة الخـير والنماء وتدفعه إلى دائرة الشر والجدب.

أما الشبع النفسي قيمة يخلعها الإنسان على تصرفاته، فهو إحساس يعبر عن يقظة الضمير الذي يدافع عن الحق بمروءة ويتقن العمل بجودة ويتفاعل مع الآخر بمودة.

الشبع النفسي غرس فاضل يزرع في أرض الحياة بإرادة لا تتوقف وعمل جاد يعبر عن الأمل والإضافة الخصبـة المشبعة بالرضا والقناعة والأريحية.

الجوع النفسي بين الأنانية والأريحية

يتميز أي فعـل إنساني أو أي عمل يقوم به الشخص بطبيعته المعرفية، فهذه الطبيعة توجه السلـوك الوجهة الملائمـة إذا كانت سليمة أو يبعده عن المسار الصحيح لينخرط في زحمة السالكين في طريق الانحراف.

ويكتسب السلـوك المعني عندما يفصح مـن خـلال نتائجه بمـا يدل علـى وعي صاحبه، والوعي الـذي نقصده يتجلى من خلال ثمار الأفعـال أو ما نجنيه من خلال مجموعـة التصرفات التي نقـوم بها، وكأن الإنسان الشخص شأنه في ذلك شأن الشجرة التي تطرح ثمارها وتقدمها للقاطفين، ومن ثمارها نعرفها! ويحتاج السلوك الواعي هذا إلى حركة تفاعليـة تبادلية متدفقة في أكثر من اتجاه، حركة تتجه في صالح الآخر، ومع الآخر، ومن أجل الآخر.

وبطبيعـة الحال فـإن السلوك الموقوت «الأنـاني أو المصلحـي» يمنع صاحبه عن العطاء المخلص ولا يريد له أن يسلم وعيه أو مدركاتـه أو معلوماتـه للآخـر بسهولة ويسـر، حتى لو كان محباً له أو أنه يدعي له الحب! فهـو يمتنع «لمرض نفسي» قد يتعلق بظـروف حياته وتنشئتـه، أو قد يرجع إلى اضطراب وخـوف وتوجس من هذا الآخر، فـنراه يعيش تحـت وطأة حاجتـه، ولهفته

على إنجازها ودقته الواعية بمصلحته فقط، وحرصه على أن تكون كل أموره على خير وجه، حتى يستشعر من خلال هذا الإنجاز المصنوع بجهود الغير أنه يستحوذ على احترام الجماعة أو تقديرها، ولكنه ينسى في زحمة هذا الضلال أنه يهدم في ثنايا هذا الإنجاز الهش أعظم ما يمكن أن يحصل عليه الإنسان من خلال الوجدان الصافي المخلص الذي كان يعمل له ولا ينتظر منه سوى الإحساس بمقدراته، ووعيه المخلص بوفائه وحبه.

ولكن الإنسان السوي لا بد وأن يقضي على هذا الشعور الطاعن للجوع النفسي لأنه قيمة وأمل وإنجاز طالما هو بتصرفاته الأخلاقية يعبر عن الشبع النفسي وملتزم بالقيم الدينية ومتطلع إلى المثل الأعلى وهو مستبشر منشرح الصدر لا يعرف السأم أو الانعزالية، ولا تجرحه حوافر اليأس الجامحة فتقذف به في دياجير الظلام وهواجس القلق والتوتر.

هذه الخسارة الفادحة تدفعنا إلى أن نظهر قبح السلوك الأناني وكيف يقتل هذا السلوك متعمداً ومترصداً كل معاني الخير والعطاء والإنجاز والأمل الذي كانت تنسجه خيوط المحبة التي تعمل بأمانة واعية وتفاعل مثمر، وتضحية شجاعة ومروءة حانية، وفكر صادق، وحرص نبيل.

هكذا تكون الأريحية فهي عطاء وتضحية إرادية واعية وعياً تاماً بأهمية وقيمة وأمل الإنسان، تضحية لا يشعر فيها الإنسان بالقسر أو الضغط، ولكنها تضحية ينطلق من خلالها الإنسان الواعي بوجوده كله في سبيل الإنسان الآخر، وهي التضحية التي تعبر عن:

نمو الشخصية، وعلى قوتها، وعلى الدرجة القصوى من تحكم الإنسان بنفسه وحرية إرادته؛ لأنه في هذه الحالة العظيمة من الأريحية يضحي بحياته طوعاً في سبيل الخير... وتلك أقصى درجات النمو البشري.

ولأن الشخصية النامية نمواً قوياً، والمقتنعة اقتناعاً كاملاً بحقها في الحياة، الشخصية التي لا تخاف على نفسها من شيء، فلا يمكن أن تنذر ذاتها لشيء غير أن تهب نفسها لإرادة العطاء السمحة، حتى تسهم بأريحية في تقديم كل ما من شأنه «بقدر المستطاع» أن يسعد الآخر. فالشخصية صاحبة سلوك الأريحية ترى سعادتها في عيون الآخرين، أولئك الذين أسهمت في تحقيق سعادتهم.

سلوك الأريحية هو الهدف المنشود



والغاية التي تعبر عن قيمة الإنسان الحقيقية، فهو سلوك التضحية التي لا بد وأن تكون تامة دون أمل في ثواب ودون أن يدفع أحد فداء. هذا السلوك يعتمد على «الحب» الذي يشرع هذا السلوك ويحدده؛ لأن المحب صاحب الإيثار الحقيقي هو الذي يهتف على مسامع الجميع لحبيبته قائلاً:

خذيني كلي إذا كنت في حاجة إلي، ولا تعطي بالاً لكل ما يمكن أن يقف حجر عثرة في طريق العطاء الصافي وليس أن تداري هذا العطاء، فهو منزه عن الأخذ المتبادل. فالعطاء لا يطلب مقابل والسعادة القصوى هي أن يضحي الحبيب دون أي ضرر، لأن العطاء في مجمله يجعل صاحبه رابط الجأش. فهو يسعى إلى أن يزدهر الآخر ويبقى سعيداً.

ذلك هو الوصال الحقيقي بين الإنسان والآخر، وصال يتم في إطار الأريحية ذلك الذي يجعل المحب يستمع إلى ذلك النداء، فتردد في آذانه أصواتاً عذبة تدغدغ السمع وتشنف الآذان، وتتجسد في مجموعة العبارات الصافية المعبرة عن الفهم والوعي وإرادة الخير، أصواتاً تعزف أنشودة الأمل في الإنسان فتخرج أنغامها الراقية لتعبر عن قيمة الإنسان، وتؤكد على أهمية العطاء المنزه عن الغرض، والهادف إلى سعادة

الإنســان، عطــاء يتعامل مــع الواقع برقة وهــوادة وبصيرة نفاذة وقلــب مفعم بالمودة يبتعد عن دائرة الأحــلام الواهمة التي قد تأتي إلينا فجأة بعــد طول نعاس؛ لأن هذه الأحــلام لا بد وأن نتنبــه إليها فهي أحلام مفروضــة لا تعــبر عــن الاختيــار الواعي المقصــود، لأن الإنســان الراقــي هو الذي في مقــدوره أن يختــار حلمه، وهو الذي في استطاعته دائما- اعتماداً على إرادته الوثابة وفعاليته المثمــرة وحرصه على العطاء- أن يوظف إرادته في صنع أحلامه حتى لا يترك لهواجســه أن تعبث بمقدرات إرادته فتفسد عليه واقعه وتطمس من خلال أضغاث هذه الأحلام كل ما يمكن أن يخططه لهذا الواقع المعاش.

حـب التملـك آفـة الشعـور بالجـوع النفسي

يعيشــ الإنســان الفــرد في حياته وهو يسعــى سعياً حثيثاً لكي يمتلك الأشياء التي تجعله يشعر بقيمته، ويؤكد من خلالها ذاته، ويصبــح الإحساس بالتملك مــن الأساليب المقبولــة بين الإنسان والآخــر طالما يراعي كل منهمــا الحقــوق والواجبــات المتبادلة بينهمــا في عدل ويســر وسهولة. وهنا لا بد مــن طرح ســؤال مهم هل يمكــن أن يملك الإنسان حباً؟ فإذا كانت الإجابة «بنعم» فإن الحب هــذا سيكون في حوزة الإنسان يملكه ويقتنيه ويصبح شأنه شأن «قطعة من الأرض التي ســوف يقيم عليها فيــلا المستقبل، أو سيارة فارهة يستشعر من خلالها أنه يملك النواصي والأقدام»!

الحب لا يعرف التملك، لأن التملك فيه خنق وإهلاك، الحــب لا يعرف إلا العطاء، لأن الحــب نشاطــاً إيجابياً مثمــراً يتطلب أن تكــون العلاقة بالمحبــوب علاقة رعاية ومعرفة، وتجاوباً وفرحة، ومسرة ومتعة.

هكذا يكــون الإنسان الراقي في تعامله مع أعظم تجاربه، لأن وهم التملك في الحب يجعل المحبــين يستشعرون وكأنهم وقعوا في حــب بعضهــم، وبطبيعة الحال فــإن كلمة «الوقوع» تنطوي علــى تناقض، لأن المحبة نشــاط إيجابــي مثمــر والإنســان في هذا النشاط ومن خلاله ينهض، ويخطو، ويسير، ولا يمكــن أن يقع، لأن الوقوع أو السقوط لا يعرف إلا السلبية، فلا وقوع في الحب!

حـب التملـك تعبيـر عـن شخصيـة نرجسية

إن حق الاقتناء وتحقيق الأرباح والسعي اللاهــث وراء المقدرات الماليــة والمادية قد أصبــح من أهــم الحقوق التــي يتطلع إلى تحقيقهــا الإنسان في حياته- ولكن الإنسان في زحمــة هذا الولع بالمقــدرات المادية قد

ينسى أن هناك من يفكر على شاكلته، وهناك أيضاً من يريد كما يريد هو أن يحقق لنفسه، فكل فرد يحاول المحاولة نفسها، ويسعى بنفس المهمة، ومن هنا إما أن تصطدم الرغبات وينشأ الصراع النفسي نتيجة عدم احترام الفرد لحقوق الآخر، أو يحقق كل فرد مصلحته مع التجاوب والتفاعل والعمل على مساعدة الآخر في تحقيق مصالحه أيضاً.

والسؤال متى تتحول هذه الملكية إلى تصرفات تؤدي بصاحبها إلى العدوان على الآخر، أو إلى أن يتصف بالتطرف في حبه لمصلحته فتظهر هذه النرجسية المسرفة في الذاتية. فتضيع مع ظهورها المتطرف كل المعاني المعبرة عن الذوق والاعتراف بحقوق الآخرين؟

ولعل الإجابة تتلخص في النقاط التالية:

- عندما يتحول السلوك الذي يتركز حول الملكية والربح السريع إلى سلوك يصبغ اتجاهات الشخص، ويدفعه إلى أن يعمى عن رؤية حقيقة الآخر في مصالحه وحقه أيضاً في الحصول على مطالبه وحقوقه.

- عندما يمعن الإنسان المتطرف في نرجسيته في الحصول على السلطة «بأي شكل من الأشكال» ويشعر من خلالها أنه يملك الأمر، وله حق السيطرة، وله كل المقدرات، فينسى تحت وطأة هذا الشعور الضاغط كل معاني الإنسانية المعبرة عن «الخير والحق والجمال».

- عندما ينسى الإنسان في زحمة نشوته بإحساسه بذاته فقط، وحرصه على أن يكون هو المفضل دائماً، وصاحب الرأي السديد غالباً، وهو أيضاً صاحب الكلمة التي لا يجوز إغفالها، أو عدم الاعتراف بسلامتها وصدقها ومنطقيتها. حتى وإن كان الاعتراف لا يعبر إلا عن النفاق، أو المسايرة المعبرة عن المهادنة والاستكانة! إن الآخر له الحقوق نفسها وله الاعتبارات نفسها.

وهكذا يعتدي الإنسان بنرجسيته - في بعض الأحوال وعند بعض الأشخاص - على الآخر فيعبر عن هذا الاعتداء بشعوره الضاغط، وحقه غير الإنساني، فهو يريد لنفسه فقط ولا يريد لغيره، ويحب لنفسه، ولا يحب لغيره وتلك علامات الاضطراب النفسي، الذي يعبر عن شخصية غير سوية لا تقوى على فعل الخير، ولا تعترف إلا بمصلحتها فقط.

الشباب يعبر عن الجوع النفسي من خلال مشكلاته

من الممكن أن يخسر بعض الشباب حيويتهم لو ظلوا يعيشونها من وراء ستار

القلق والخوف من المستقبل أو عاشوا يكتمون بين جوانحهم كل الآراء بحيث لا يستطيعون التعبير عنها إلا همساً، أو في صور السلوك التي قد تبدو منحرفة أو متطرفة فنفقد بذلك الوسيلة والغاية معاً.

والسبيل الوحيد لإنقاذ الشباب يتحدد من خلال الاستماع إلى شكواهم ومطالبهم والتعرف على وجهات نظرهم وتوظيف طاقاتهم التوظيف السليم، مع الاعتراف بهم كقوة هائلة تصنع الأمل للوطن العزيز بفضل التوجيهات السليمة والإرشادات القيادية الواعية تلك التي تمكنهم من التفاعل مع واقعهم وتعودهم على الانغماس الإيجابي في وضع الحلول للمشكلات ببصيرة ونفاذة ورؤية ثاقبة.

إن ما نشاهده اليوم في بعض الشباب من تصرفات يبدو عليها التطرف إنما مرده إلى أننا لم نقابله بالمناقشة والإقناع ولكن قوبل بالتسلط والقمع بحيث قد يقوي هذا الفكر المتطرف المعتمد على أفكار واهية على مدى السنين، لأن طريق رفضه كان يعتمد على الضغط والقمع، في حين أن مقاومته بالمناقشة والإقناع كان يمكن القضاء عليه في لحظات معدودات. ومن هنا تنشأ أزمة التعبير لدى بعض الشباب، فإما الصمت أو التطرف وكلاهما شر، حيث أن وسيلة التعامل مع الشباب لا بد وأن تعتمد على الحجة والإقناع والمناقشة الموضوعية الواعية بمشكلاتهم.

وأزمة التعبير لدى بعض الشباب قد تأتي من تضافر مجموعة من العوامل، لعل من أهمها ما يلي:

- عندما يجد الشاب أمامه شكلين من أشكال التعبير، فإما أن يعبر بأسلوب مباشر، وإما بأسلوب غير مباشر، فنجده في الحالة الأولى يستطيع أن يعبر عن مضمون فكره صراحة، وأن يكون مقياس التعبير عنده هو المضمون. ويصبح التعبير المباشر صدمة واقعية يقدمها الشاب من خلال معرفة الحقائق بطريقة صريحة بحيث لا تستطيع أن تمتد إليها لمسات النفاق الاجتماعي فتخفف من ضراوتها وتهذب من صراحتها ودقتها. وهناك الأسلوب غير المباشر الذي قد يصطنع لغة الرمز، وما يصاحبها من تأويلات قد لا ترتقي إلى مستوى الحقيقة أو يعبر عنها في سفور ووضوح، بل قد يستخدم غمزات ونكات وتعليقات قد تكون مغرضة خوفاً من المصارحة أو المكاشفة.

- التغيير السريع الذي شمل جوانب الحياة بحيث لا يقوى بعض الشباب أن يتابعوه أو يحذو حذوه مما أدى عند البعض إلى الشعور بصراعات نفسية حادة دفعت

بعضهم إلى التمرد تـارة وإلى التطرف تارة أخرى وما قد يتبع كل ذلك من عوامل التوتر والاضطراب النفسي.

- التطلـع إلى الكسب السريـع دون أن يفكـر الشاب في حـدود إمكاناته وقدراته، ولكـن أصبح محـور اهتمام الشـاب كيف يحصل على دخل مناسب يمكنه من الصرف علـى ضرورياتـه تلـك التـي خرجت على حـدود الضرورة المتعارف عليهـا من مأكل وملبس ومشرب وفكر وثقافة وتكوين الأسرة في المستقبـل واتجهـت إلى بعض الأساليب التي قد تتعلق بسلوك التدخين، والسهر في الأماكن التي قد يجـد فيها الشاب متنفساً لحاجاته العضوية إلى جانب شعوره بالرضا وهو يتصور وهماً أنه يلعب دوره كاملاً غير منقوص. وإلا وقع الشاب فريسة للهم والقلق والتوتر النفسي.

- وقـد نجد الشاب يصـارع نفسه بين ما يـراه من نظريات متعارضـة متضاربة، لأن معظم هذه النظريـات من بيئة ثقافية وحضارية تختلف مـع بيئتنا، ومن ثم نجد الشاب يتأرجح بين الولاء لها وبين الاعتراض عليهـا خاصة تلك النظريـات التي أباحت لبعض الشباب الحرية المفرطة دون أن تكون هنـاك قيم وأصول أو تلـك النظريات التي ضربت بعرض الحائط كل العقائد الدينية، أو تلك التي تحجرت بهم في قوالب لاهوتية أو إطـارات فلسفية تعصـف بأفكار بعض الشباب وتجمـح بهم إلى طـرق ومسارات غـير سليمة من حيث الشكل وما يواكبه من سلوكيات، أو مـن حيث المضمون وما يتبعه من أفـكار وعقائد أو ما يسمى بلغة العصر «أيديولوجيات».

الحب وبهجة الحياة

يستشعـر الإنسـان ضرباً مـن الراحة النفسية يصاحبها ذلك الشعور الجميل الذي يحسـه الإنسان الفرد عندمـا تقوم حياته العضويـة بوظيفتها السوية، هـذه الراحة تأتي من سلامة التعامل مع الجزئيات ودقة التفاعل مع مكونات الجسم، وصفاء النفس التي تحرك سائر الأعضاء في هدوء وراحة ووئام.

والحب يمثل الانفعـالات البشرية التي يمـر بها الإنسـان لما يحتويه مـن شحنات وجدانيـة تنطـوي على خـبرات ومواقف وأحاسيـس يواكبهـا انفعـالات هي مزيج مـن الغبطة والسرور والسعـادة، ولكن هذه التجربة الشاقـة المجهدة تستلزم بالضرورة هذا السياج المتين الـذي نتطلع إليه عندما نتكلـم عن الحب وما يصاحبه من انفعالات وأعنـي بهذا السياج المتين «الوفاء» فمشكلة الحب أن المحب يضع كل ثقته في المحبوب.

وينتظـر حصاد هذه الثقة من خلال الوفاء الذي يعنـي الاستمرار ويعبر عـن الالتزام والثبات على المبدأ.

وما أقسـى مـن الناحيـة النفسية أن يستشعر الإنسان في لحظة أنه كان مخدوعاً أو أنـه قد وقع ضحيـة لضرب من الخيانة أو عـدم الوفاء، وليس أقسـى على النفس البشرية من أن تتحقق يوماً من أن كل الآمال التـي نسجتها وزرعتهـا في أرض الحب قد ذهبـت ولم تؤت بثمارها المتوقعة، وأن كل ما قد عايشته مـن أحاسيس لا يعدو أن يكون مجرد أوهام قد كشفـت الحقيقة المرة عن زيفها، وأظهرت خداعها!

هكـذا لا بـد للحـب كتجربـة بشرية نفسية تعبر عـن رقي الإنسان من أن تقترن «بالإيثـار» بوصفه يحول الأنانية إلى عطاء، ويبدل الجفاء إلى تعاون ووصال، لأن الحب الحقيقي يفسح دائماً للآخر مكاناً كبيراً في أعمـاق نفسه، بل يضـع الآخر بوعي وفهم تحت تصرفـه فيتفانـى في خدمته- ويعد الحب المخلص الوفي أعظم دليل على الشبع النفسي ويقظة الضمير وحسن الخلق ونبل القصد.

المراجع

- صبحي، سيد (١٩٩٨)، الشبع النفسي، القاهرة، ميديا برنت.

- Kosslyn, Stephen M.. & Rosenberg, Robin S. Fundamentals of Psychology, the brain, the person, the world, Second edition, pearson educatin, Inc, (2005).

آفاق المعرفة



من تاريخ الشعر في سورية

د. محمد رضوان الداية ©

عبد القادر بدران وديوانه: تسليةُ اللّبيب عن ذِكرى حبيب

عُـرف اسم عبد القادر بـدران واشتهر من جهتـين: إحداهما اشتغاله بالتّعليم، وبُروز عدد من تلامذتـه وطلاّبه، وإشاعتهم أخبار علمه، وتمكُّنه، ومعارفه، والثاني عدد من المؤلفات ذات الأثر، وخُصوصاً كتابه: تهذيب تاريخ دمشـق الذي كان ألّفه ابن عساكر، وكتاب (المدخل)، وهو في الفقه الحنبلي،

© أديب وناقد وأستاذ جامعي (سورية).

(ع) العمل الفني: الفنان جورج عشي.

وكتاب: (منادمة الأطلال ومسامرة الخيال)، الذي عُني فيه بذكر معاهد الشام العلميّة القديمة.

وكان من طلاّبه النّابهين: محمد سليم الجندي أحد الأدباء الشعراء من أعضاء المجمع العلمي العربي وصاحب كتاب أخبار أبي العلاء، وفخري البارودي أحد ساسة الشام وأدبائها وظرفائها، وخير الدين الزّركلي الشّاعر الأديب المؤرّخ صاحب كتاب (الأعلام) والشّيخ محمد أحمد دهمان: العالم الباحث والآثاري المؤرّخ. وتجد في المواد التي درسوها على عبد القادر بدران كتباً في البلاغة، والعروض، والفقه، والأصول، والأدب والشعر (مثل شعر المتنبي، ومقامات الحريري...) إلخ.

وقد طُبعَ عدد من كتبه بعد وفاته، ومنها ديوانه الذي سمّاه: (تسلية اللبيب عن ذكرى حبيب) الذي صدر بعد وفاة (بدران) بثمانين عاماً.[1]

عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرحيم بن محمّد بدران. ولد في مدينة دوما (دوما) وكانت آنذاك بلدةًيرأسها قائم مقام (لقبه الآن مدير منطقة) وكانت ولادته سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٨) وكان جدّه مصطفى من أهل العلم المشهورين. وقد أخذ علومه الأولى في بلدته على عدد من الشيوخ، وقَصد إلى دمشق فدرس على كبار علمائها نحو ستّ سنوات: استقصى فيها العلوم السائدة. وعكف على المصادر والمراجع يتمم ثقافته بنفسه -بناء على وصية أحد أساتذته- وما لبث أن نبغ في الفقه وسائر العلوم الشرعية، وأتقن علوم العربيّة، وآدابها. وتدل أخباره، وكتبه التي ألفها على امتداد يده بقوة إلى علم الهيئة، والميقات، والحساب، وسائر العلوم العقلية والرّياضيّة، ومنها علم الفلك، والذي ذكره الزّركلي من أوصافه الأعلام (٤: ٣٧- ٣٨) أنه فقيه أصولي حنبلي عارف بالأدب والتاريخ وأضاف جانب الشعر أيضاً.

وكان لعبد القادر بدران صلةٌ وصحبة مع الأمير عبد القادر الجزائري. وكان من آثار هذه الصُّحبة أنّ الأمير طلب إلى ابن بدران مرافقته في رحلة غرّب فيه فدخل عدداً من دول أوروبة، وبلاد المغرب العربي (الجزائر وتونس).

وقد انفعل بهذه الرحلة، وحمل للجزائر ذكرى طيبة، ونجد في ديوانه (ص ١٤٥) قوله:

يا نسمة الأسحار عني بلغي
أرض الجزائر ألف ألف سلام
واهدي تحياتي لأهل مودتي
مَنْ حُبُّهمْ بين الجوانح نام



وله قصيدة نظمها عن تونس لم تتمّ (ص ١٤٥).

وقد سجل مجريات هذه الرحلات، وانطباعاته عنها، نظماً في ديوانه.

وكانت مناسبة ليرسل الرسائل شعراً ونثراً إلى أهله وأصدقائه، وأن يعبر عن عنصر الارتباط بالوطن الصّغير (دومة) والحنين إليه إذا ابتعد عنه، ومن اللاّفت للنّظر أنّ هذا الشّاعر المرهف الإحساس من المشغوف ببلدته وما فيها (وهي من مدن الغوطة الشّرقية الفاتنة المناظر والأحوال) سوف يضطر إلى الابتعاد عنها مُرغماً لا راضياً، وأن يسجّل هذا (الإبعاد) في كلامه المنثور والمنظوم، مع قدر عظيم من اللّهفة والحسرة.

وقد كتب لأمه رسالة من مدينة الجزائر جاء في مقدمتها هذان البيتان (ص ١٣٥):

بلغ سلامي لها يا أيها القاري
واشكي لها لوعتي والبعد عن داري
واشرح لها حالتي من بَعْدِ بُعدهمُ
وقل نسيم الصبا ينبيك أخباري!

ذلك أن عبد القادر بدران، وقد نضج علمياً وفكرياً وثقافياً، جلس في مسجد دومة الجامع (المعروف بالجامع الكبير) يُقرئ، ويدرّس، ويعظ، ويوجّه. ووجد بعضهم في محاضراته جرأةً، ومخالفةً للمألوف. فقد كان ذهنه منفتحاً: درس المنطق، وشدا شيئاً من الفلسفة، ودعا إلى تعليم البنات، وحارب الخرافات ويبدو أنه دخلت عوامل أخرى شخصية أدت بالمجلس البلدي إلى استصدار

أمر من الوالي بإبعاد ابن بدران عن وطنه وعن مدينته، وقصد إلى دمشق واستقبله الوجيه محمود البارودي (والد فخري البارودي) وبقي في ضيافته ورعايته سنتين ونصف السنة حتى انتهت مدة الإبعاد، ولكن ابن بدران آثر البقاء في دمشق، وأعطي غرفةً عُلويَّةً في مدرسة عبد الله باشا العظم (جنوب المسجد الأموي) فكان مقامه فيها نحو خمسين عاماً، إلى يوم وفاته.

وقد تفرَّغ ابن بدران للعلم، فلم يتزوج، وعاش بين الكتب، ومع الطّلبة، والدّارسين، والعلماء، يدرّس، ويحاضر، ويناقش ويؤلف. وكان إلى ذلك يسجل خواطره في قصائد ومقطّعات شعرية يطلق فيها العنان لنفسه، ويجامل بعض أصدقائه، ويمدح بعض رجال عصره ممن يَعرف ويذكر بعض أساتذته بالثناء والمدح والإطراء ويرصد بعض الظواهر الاجتماعية.. واضطرب هذا في السّنوات الأخيرة عن حياته بعد مرضه والفالج الذي أصابه. كما سنذكر بعد قليل في الحديث عن شعره.

وقد شغل ابن بدران جزءاً مهما من وقته في التّدريس، وعُيّن عضواً في شعبة المعارف بدومة، وتولّى إفتاء الحنابلة، وعمل مصحّحاً ومحرّراً في جريدة الولاية ومطبعتها بدمشق، وكتب في عدد من الصّحف، واهتمّ بالآثار وألّف كتاب: (منادمة الأطلال) ويُعدُّ ابن بدران من المؤلّفين البارزين في عصره.

يجمع ديوان عبد القادر بدران الشّعر والذي تذكّره، وهو يسجّل شعره في ديوانه لأنّه كان قد فقد معظم شعره. فهذا الذي نقرؤه في (تسلية اللبيب..) إنّما هو ما حفظتّه ذاكرته، وما نظمه بعد الشّروع في التدوين.

والديوان في أربعة أبواب: فالباب الأول مخصص لما قاله في دمشق أثناء طلبه للعلم، فقسمه إلى خمسة فصول، الأول في المدائح، والثاني: في الفخر والحماسة، والثالث في الغزل وما يناسبه، والرابع في المراسلات، والخامس في موضوعات شتى.

والباب الثاني في الرحلة المغربية، والباب الثّالث بما نظمه أثناء إقامته في (دومة) وفي تنقله منها، والباب الرابع في ما أنشده بعد مرضه في شؤونه وأحواله، وما عرض له من أمور في تلك المدة.

وسنة ١٩٢٧ التي توفي فيها عبد القادر بدران هي السنة التي احتفل فيها الأدباء والشعراء وسائر الفعاليات الثقافية من الأقطار العربية، بإعلان أحمد شوقي أميرا للشعراء، وكانت حركة الشعر في عدد من الأقطار العربية (مثل سورية والعراق ومصر ولبنان) قد بلغت مرحلة عالية من

التألّق والنّضج، وظهرت مذاهب فنية يقدّم أصحابها آراءهم في الأدب والفن عامة وفي الشعر خاصة، وكان من شعراء الشام آنذاك بدوي الجبل وعمر أبو ريشة وخير الدين الزّركلي وأنور العطّار وشفيق جبري..

ولكن ابن بدران كان يمثل المرحلة السابقة وهي مرحلة تجمع بين أواخر العصر العثماني وأوائل العصر الجديد، ومعظم حياة ابن بدران كانت في:

- ظل العصر العثماني، في أواخره من النّاحية التّاريخية والفنيّة.

- وكانت موصولة بالمتداول من أشعار الشعراء المتأخرين (في الزّمان) إلاّ القليل.

- وكانت مشغولة بالعلوم العربية والإسلاميّة غالباً، ويعدّ الشعر مشاركة منه، ونفثات وجدانية، ومناسبات اجتماعية.

ومن هنا فإن المتوقع من شعر ابن بدران، وطبقته مثل معاصره وابن بلده: صالح طه أن يكون ممثلاً لحياة الشعر ففي تلك المدّة التي هي ذيلٌ على العصر العثماني الأخير، وإن لم تخل من ومضات جديدة وإلماعات شخصيّة متميّزة.

وجاء نَظْم الديوان من حيث الشكل والقالب مشتملاً على:

- القصيدة (وهي المسماة الآن بالقصيدة التقليدية)

- والمقطعة أو المقطوعة التي تعالج فكرة قصيرة، سريعة فيكتفي الشاعر بالبيتين والثلاثة وما فوق ذلك.

- والموشحة، وهي نظام أندلسي للنظم عرف قديماً وحديثاً باسم الموشّحة الأندلسية

- وتجد في الديوان نوع التشطير، والتّخميس، وهو نظم يأخذ الشاعر فيه بيتاً أو أكثر من شعر غيره، ويبني عليه قطعة أو «قصيدة».

وهي ملامح نجدها في دواوين شعراء هذه المدّة من القرن التاسع عشر وشطر من القرن العشرين.

ملامح في شعر عبد القادر بدران

١- عبد القادر بدران والعلم، والاعتكاف من أجله

شغل العلم بال ابن بدران، فافتخر بانصرافه إلى العلم وذكر من أمجاد العرب التاريخية في رقي العلم والعلماء ونشر العلم في أنحاء الدنيا، والتفت إلى الزمان الحاضر فأفاض في ضرورة تحصيل الأمة أعلى درجات العلم، ومنجزاته مما يؤدّي إلى الاختراع والاكتشاف كما صنع الغربيّون، وسمّى عددا من الآلات الحديثة كالطائرات والبواخر واكتشاف الكهرباء..

وله قصيدة يذكر فيها بعض أيام العزّ

العربيّة، وتفوق العلماء العرب في العلوم والفنون والآداب، ضارباً المثل بالمأمون العباسي (ص ٢٩٣)

يا زمن المأمون عَوْدك أحمدُ
طوبى لأنفاسٍ به تتردّدُ

ولعل ابن بدران قد لخص سيرته الذاتية، ومطامح نفسه في قطعة عليها دلائل شعر البديهة والارتجال (ص ٦٤) فقال:

وقفتُ النفس في طلب المعالي
وفي نشر العلوم مدى الزّمانِ
أحرّر كل مُعضلةٍ بشوقٍ
كشوق الوالهين إلى الأغاني

وقال في أثناء قصيدة رفعها الى مفتي دمشق أبي الخير عابدين، منوّها بجانب العلم من خصاله: (ص ١٧٩)

بحر العلوم وبدر المجد منه زهت
أيامنا فرحاً في أبهج الحُللِ

وقد تنبّه ابن بدران لقضيّة الإرث الحضاري العربيّ في الآداب والفنون والعلوم، وعرض من ذلك لأمور مهمة في كتابه (منادمة الأطلال) وهو يذكر المدارس والمستشفيات ومعاهد الطب، وبحوث العلماء في جوانب العلم المختلفة، ولاحظ أهمية تحصيل العلم الحديث ليكون أساساً لبناء نهضة عربية حضارية جديدة، ولا يكفي أن نتعلم في الغرب، ونبقى عالة عليه، نقرأ له من قصيدة (ص ٢٨٨) وهو يتحدّث عن العلم الذي كان في بلادنا وعند علمائنا ثم انتقل إلى الغرب:

فاستردّوه من الغرب فقد
كان فيكم آمناً ثمّ انتقَلْ
إن سعي المرء في نيل العلا
كالهلال كلما سار اكتملْ

ابن بدران والتعمق في طلب العلم، وتعليم البنات

أشار ابن بدران إلى حوار جرى مع بعض الأطباء (وفيهم فتاةٌ دارسةٌ للطب) عن تعليم البنات، وما كان شائعاً آنذاك من منعهنّ من ذلك، وأنشد قصيدة طويلة: نبّه فيها على مكانة العلم في حياة الناس ورفعة الوطن وضرورة مزج العلم بالعمل ثم قال (ص ٢٨٦)

واغتربْ للغرب في تحصيله
واهجُرِ العذال أرباب الزلَلْ

وفي القصيدة:

فمتى يا شرق تحذو حذوه
طارحاً من فيك أفيون الكسلْ
يا حماة الدار احموا مجدكم
بالقنا من قَبْلِ (سوف) و(لعل)

إن سعي المرء في نيل العلا
كالهلال كلما سار اكتمل

وقال في قصيدة أخرى يحثُّ على تعليم البنات (الديوان ص ٢٠٩).

يا رجالاً علّموا غادتكم
إنّها في الدار أمٌّ وأبٌ
ارفعوا عنها حجاب جهلها
قبل أن ترفع عنها الحجبُ

والغادة هي: الفتاة

٢- على نهج الشعراء

وكان وهو في المستشفى تقرأ عليه طبيبة بعض الشعر على سبيل مذاكرتها وإفادتها معاني الشعر وكان مما قرأت عليه قصيدة ابن زيدون المشهورة

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

فأعجبها الشعر، فنظم ابن بدران قصيدةً يعارضها (أي في الموضوع وعلى الوزن والروي: يعني من البحر نفسه وحرف القافية نفسه أيضاً) ومما قال في هذه القصيدة:

ياجنة عن رياض الخلد تغنينا
شرع الغرام بها قد صار لي دينا
من قبل كنت وليس الغيد تأسرني
واليوم ساحرةُ الألحاظ تسبينا

وشطّر أشعاراً، أو خمّسها(٢) لشعراء من القدماء والمحدثين كابن سهل الإشبيلي وفرنسيس مرّاش الحلبي. ولسان الدين بن الخطيب. وشهاب الدين الخفاجي.

٣- ابن بدران وفن التوشيح

نظم ابن بدران الموشّح، وأكثر موشحاته تجري على مثال موشحة لسان الدين بن الخطيب: (من أدباء الأندلس توفي سنة ٧٦٧ هـ)

جادك الغيث إذا الغيث همى
يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حُلما
في الكرى أو خلسة المختلس(٣)

ومن المألوف عند الوشّاحين أن ينظموا على مثال موشحات سابقة، وأن يستعيروا منها آخر (قفل) وهو الذي يسمى الخرجة، ومما قاله في هذا الباب(٢٩١):

يا رعى الله زماناً سلفا
بربوع الشام وقت الغلس
فيه وقتي طاب مع أهل الوفا
وكؤوس الودّ فيه نحتسي
ظبية من آل غسّان لها
مرتعٌ ما بين علم وأدبْ
ما رآها ناسكٌ إلا لها
للجوى والوجد صلى واقتربْ

وبنو بلقيس قالوا إنها
في(سَبا) قد قلّدت مجد العربْ
آه لو كان زماني مُسعفا
ورداء السبر فيه أكتسي
ومكان مرضي حلّ الشفا
لسريتُ نحوها في الغلس

والموشّح فن أندلسي استمر على ألسنة الشعراء إلى اليوم، جرى على نهجه شعراء كثيرون، واستفاد منه الشعراء المعاصرون في الوطن العربي وفي المهاجر الأمريكية أيضاً.

ويبدو أنّ نظم ابن بدران للموشحات كان عن إعجاب بالأدب الأندلسي وبالتراث الأندلسي جملةً، فإننا نقرأ في ترجمة الشيخ العلامة محمد بهجة البيطار لابن بدران في مقدمة كتاب (منادمة الأطلال) قوله (صفحة: م) «وكان لي شرف ضيافة الأستاذ المترجم (يعني عبد القادر بدران) ليلةً مع صديقه الرحالة الجليل الأستاذ الشيخ خليل الخالدي المقدسي، فأخذ الأستاذ بدران يسأله عما رأى من نفائس الكتب الإسلامية الخطية في ديار الغرب لاسيما الأندلس...».

٤- الوطن والشرق والغرب

أنشد في مدينة (الجزائر) وهو في صحبة الأمير عبد القادر قصيدة يتشوق فيها إلى (دوما): و(دمشق) وما بينهما

حَيّا الحَيا (دوما) البديعة إنها
أضحت جمال الغوطة الفيحاء

يدعو للديار بالسُّقيا: تحبباً وتشوّقاً على طريقة الشعراء العرب وهو دعاء بالخير.

وقال في القصيدة مفضلاً بلاد الشام خاصة وبلاد العرب على أوروبة:

و(المرجة) الخضراء أفديها بما
في الغرب من جبل ومن صحراءِ
ما (جلق) إلا رياض محاسن
ومفاخر ومكارم وهناءِ
هي جنة الدنيا ودرة تاجها
ومعادن العلماء والأدباءِ

وفي هذا الشعر بيت القصيد، المشهور:

من قال إن الغرب أحسن موطناً
فلقد رآه بمقلة عمياءِ!

ونقرأ له في مقدمته لكتاب منادمة الأطلال ومسامرة الخيال محاورة بينه وبين مدينة دمشق وقد تخيلها غادة حسناء تطلب منه أن يتحدث بأخبارها، وينقّب عن آثارها، وتسأله أن يعتني بها كما اعتنتْ به ورفعت من شأنه بالعلم والمعرفة والشهرة ومحبة الطلبة وأهل العلم، وطال الحوار الخيالي بينهما وهو طريف، وعاطفي مؤثّر إلى أن قال:

ما بعد جلّق للغرام مرامُ
وغيرها من وطن عليَّ حرامُ

لكنْ هي الأقدار تفعل ما تشا

صبراً جميلاً، والكلام كلامُ!

ثم شرع في الحديث عن موضوع كتابه، وعنايته فيه بآثار دمشق المتعلقة بالمدارس والمعاهد في مدينة دمشق، وهي مدارس القرآن الكريم والحديث الشّريف، ومدارس العلوم الفقهية والأدبية، ومدارس الطب والحكمة والزوايا والخوانق وسائر ما يتعلّق بذلك.(٤)

٥- مفردات العلم ومصطلحاتها

وقد أورد ابن بدران في أشعاره، وخصوصاً ما نظمه في آخر حياته أسماء علوم وفنون كثيرة، وهو يحثُّ على طلب العلم وينوّه بالتقدّم العلمي الذي خطته البشرية، ونقلت الحياة من حال إلى حال، وأورد مفردات من الطب والصيدلة والكيمياء، والفيزياء، والفلك، ومسمّيات حديثة كالطّائرة والسيّارة والمدفع وربّما أدخل مصطلحات العلوم في نسيج شعره على سبيل الإطراف، وانسجاماً مع استعمال تلك المفردات في الأغراض المختلفة كقوله على سبيل المداعبة والإطراف (ص ٢٩٦)

وغادة تسألني

ما الجبْرُ من فن الحسابْ؟

فقلت يا كل المنى

أن ترفعي عنّا الحجابْ!!

وذكر في مرضه عدداً من الأطباء والمعالجين، وبعض المفردات الطبيّة من الأشربة والعقاقير، وذكر الأشعة السينية، وكانت مشهورة باسم مكتشفها (رونتجن)..

٦- شخصية ابن بدران في ديوان شعره

ديوان ابن بدران الذي كتبه بنفسه، يُضيف إلى تراجمه التي ذكرها المؤرخون معلومات إضافة، ويسجّل نبضاً حيّاً للمراحل الأخيرة من حياته خاصة. فإنه لمّا أُصيب بالفالج عولج في المستشفى الرئيسي آنذاك المعروف قديماً بمستشفى الغرباء، وهو مشفى جامعة دمشق الآن.. وقد دوّن قصائده وسائر ما كتبه في تلك المدة بيده اليُسرى بعد أن تدرّب على ذلك، وإن كان خطّه آنذاك مضطرباً، وربما جاء غير واضح في بعض الكلمات.

وأُضيفت مأساة مرضه هذه إلى ماكان يعاني منه، من ظلم أهل بلده له، وإخراجه منها قسراً، وشعوره بالغُربة عن بلدته التي أحبّها، وبالأسى الشديد لأنّ مكافأتهم له على نشر العلم فيهم وخدمتهم كانت طرده، وإبعاده.

- وله قطعة في شكوى الزمان من أواخر شعره يقول فيها (ص: ٣٠١)

دهرنا دهر الغبيّ الجاهل

والعليمُ صار منه في محَنْ

حكمة لم ندر ما أسبابُها
حَيّرت أهل العقول والفِطنْ

– وكان مقامه في (مستشفى الغرباء) قريباً من ضريح الإمام ابن تيمية، فتحدّث في إحدى قصائده عن مجاورته له، وجعلها مناسبةً ليذكر حاله في مرضه، وانصراف الناس (حتى المقربين منه سابقاً) عن زيارته أو السّؤال عنه (ص ٣٠٤) وقال إذا كان ذلك العالم قد سُجِن، فإنّه هو سجين، ولكنْ من نوعٍ آخر:

وإذا سجنيَ دائي
فيه قد حارَ الطبيبْ
والأخلاّء جَفَوْني
مُمعنين في المغيبْ
لا كتاب اليوم عندي
لا ولا خِلّ أريبْ
كل شيء قد جرى لي
ليس بالأمر الغريبْ
هكذا الدّهر يعادي
كل مقدامٍ لبيبْ

وكما عاش ابن بدران غريباً عن بلدته، غريباً في داخل نفسه، مات أيضاً غريباً، وللمصادفة المدهشة كانت وفاته: في مستشفى كان يسمى: مستشفى الغرباء!!

الهوامش

١- صدر عن دار النوادر بعناية نور الدين طالب ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م في طبعة معتنى بها مزودة بعدد من الفهارس.

٢- التشطير: أن يأخذ الشاعر بيتاً لشاعر آخر ويضيف إلى صدر البيت صدراً جديداً من عنده، وإلى عجز البيت شطراً آخر (على الوزن والروي) – والتخميس: أن يأخذ بيتاً لشاعر ثم يضيف على الوزن والروي ثلاثة أشطار قبل شطري البيت الأصلي فتصبح الأشطار خمسة، وتتوالى المنظومة على هذا النحو.

٣- هذه الموشحة للسان الدين التي اشتهرت جداً تجاري موشحة سابقة لابن سهل الإشبيلي، لكن الناس ذكروا موشحة لسان ونسوا موشحة ابن سهل.

٤- منادمة الأطلال: ٢ – ٤.

آفاق المعرفة



أكـــثر من وجـــه واحـــد

د. عبد الكريم الأشتر ⊛

-١-

كانــت العودة إلى حلب إيذاناً ببداية فصلٍ جديــد، يُخيَّل لمَن يتتبّعه، في حيــاة الأسرة، أن الأحداث التي شهدتْها فيــه تجمَّعتْ علاماتها، في انتظار الساعة التي تغادر فيها دمشق.

ففي الأيــام الأولى، من عام (١٩٩٠)، تلقيتُ اتصــالاً من السيدة وزيرة التعليم العالي، يومذاك، أعربتْ فيه عن رغبتها في أن أوالي العمل في جامعة

⊛ أديب وناقد وأستاذ جامعي.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

حلب، بما يتفق مع ما يرى المسؤولون فيها من قدرة الانتفاع بوجودي إلى جانبهم. فهكذا عدتُ أوالي الدرس مع طلبة الدراسات العليا، في جامعة حلب، ساعة واحدةً في الأسبوع، لزمنٍ طال فامتدَّ، على غير توقُّع، ثلاثة عشر عاماً!

لم يكن عدد طلاب الدراسات العليا، آنذاك، يزيد كثيراً على العشرة، فأخذنا نجتمع في المكتبة، من حول طاولةٍ كبيرة، في الجناح الذي يضمُّ مكتبة أستاذي عبد الوهاب الصابوني التي أهداها إلى الجامعة. وكنتُ، كلما دخلتُه، ارتسمتْ أمامي إحدى صور المرحلة الإعدادية التي عرفتُه فيها، حتى أصبحتُ أراها تتحرك!

على أن الطلبة لم يكونوا من طلبتي في المرحلة الجامعية الأولى. فكان عليَّ أن أحسن الدخول عليهم، إذ ما أزال إلى اليوم أستشعر الحاجة إلى إعادة النظر في مناهج الدراسات العليا، في جامعاتنا، فإنا جعلنا القصد فيها لا يختلف عن قصد الدراسات، في المستويات الجامعية الأولى! وقد كان ينبغي أن نقف أساساً، في هذه المرحلة المتقدمة، على مناهج الدرس، من خلال ما نعرض لدرسه من الموضوعات، فنقوِّمها في ضوء النتائج التي ننتهي إليها، ونقول رأينا فيها.

على أني وجدتُ العمل، مع توالي الأيام، ما يزال يشعرني بغبطة القدرة على العطاء، مهما يكن قدْره، وغبطةِ الشعور الحيّ بما يدور من حولي! ولحظتُ انعكاس هذا الإحساس في وجوه الطلبة. وأعانني هذا على فهم ما كنت أسأل نفسي فيه، أيام التحقتُ بجامعة القاهرة، فأطيل السؤال: ما الذي يدفع أستاذاً في مكانة الدكتور طه حسين، في أواخر أيامه، إلى التبرع ببعض الساعات يقضيها مع الطلبة، في المستويات الجامعية الأولى التي عرفها قبل سنين كثيرة، غير ما كان يقوله، من تقديره لجميل الجامعة التي وضعته على أولى الدرجات، فارتقاها، من بعد!

-٢-

بعد زمن قصير، كان عليّ أن أستقبل الفجيعة بفراق السيدة نديمة المنقاري، الأم التي عوَّضتني حنان الأم، صاحبة ثاني مجلة نِسْوية في سورية، أمّ زوجتي وجَدّة أولادي. لقد وسِعتْ، بعلوّ مداركها، ما كان يعترض حياتنا من عثرات الزمان. ما أذكر، على مدار حياتها إلى جانبنا، كلمةً فرَطَتْ منها، وحفظتُها لها، وتمنيتُ لو لم تقلها!

إن أكثر ما يعاني منه الشاب الذي ينتسب إلى ثقافة العصر وأفكاره وقيَمه، من المرأة



التي ولَدت زوجته، يقع، في أغلب الأحيان، من انتسابها إلى ثقافة متخلِّفة تقرب من الأميَّة أحياناً، وتملي عليها مواقفها من الشاب الذي استأثر بابنتها! فقد كان من نِعَم الزمان عليَّ، أن تتم صلتي بهذا الصنف النادر من نساء الجيل. كانت تملك من ثقافة العربية وأدبها، وثقافة العصر وقيَمه، ما أهَّلها لمخاطبة المرأة والنصْح لها، وإغرائها بالاتصال بمصادر المعرفة الإنسانية والاجتماعية، ومكَّنها من إصدار مجلتها التي سمَّتها (المرأة)، واستكتبتْ لها بعضاً من أرفع الأقلام التي عاصرتْها!

وكانت، من جانب آخر، تتكلم، غير العربية التي أخذتْها عن شيوخ زمانها، وقعدتْ لها في مجالسهم، لغتين أخريين: التركية والفرنسية! وتلجأ إليهما في بعض مواطن الحاجة إلى تلوين إحساسها وإغناء فكرتها. وتملك، من جانب المعاملات، وحدة الفكر والسلوك. في كل موقف رأيتها تقفه من نفسها، ومن أولادها، ومن الناس جميعاً!

وتلا هذا الفراقَ، فراق آخر، مرٌّ شديد المرارة، وقع بعد مرض حادّ أصاب أخي (الدكتور صالح) الذي عاد من المغرب، وسكن بناءه الذي بناه في حلب، بعد الأعوام الطويلة التي أمضاها في جامعاته المختلفة. وكان أشدُّ ما أحسسته من مرارة فقْده، يعود إلى إدراكي العقبات التي حالت دون أن نبلغ منه ما هُيئ له من قُدُرات الإنتاج والعمل.

أعرف أن الموت وجه الحياة الآخر. ولكنه يبقى، على طول الزمان الذي عاينتُه فيه

الكائنات، على اختلافهــا، أحدَّ الشفَرات، وأمضاها وأنفذها معاً!

-٣-

عــدتُ إلى البيت، في أحــد الأيام، بعد رحيله، أحمل هذه المعاني الكئيبة، فوجدتُ ولــدي الأول اختار لنفســه الاختصاص في الأمراض النسوية والتوليد، وقد كنت أريده لاختصاصات أخرى أراه أكثر تهيؤاً لها! ولكنْ خفف عني مــا وجدتُه، وقوعي على مشفى صغير عام، يريد أصحابه أن يبيعوه، في حيّ مختــار من أحياء حلــب. فأخذتُ أجعلُ من استكمال حاجاته، بعــد أن اشتريناه، فبعنا له الدارة التي أسكنها، وخصصناه بالتوليد والمعالجــات النِسْوية، ما لفتتــي حيناً عما كنتُ فيه! واضطــررت، بعدها، إلى أن أبيع البيت الــذي سكنته في دمشق، في السنوات الأخيرة، لأشتري مسكناً في حلب، قريباً من المشفى.

وبلغت الأسرة، بمــا وصلتْ إليه، أقصى ما كانت تتمناه! وأذكر أنَّا خرجنا من المشفى يوماً، فلما جاوزناه التفتتْ زوجتي تتطلع في البناء، وسمعتها تقول، كمَن يحدث نفسه:

- أســأل الله أن يــردّ عنــا العين، فهو أعرَف، بالذي بذلناه فيه!

ولم تمضِ أيام قليلة بعدها، حتى استقبلنا، برحيلها، في إحدى أزماتها القلبية، الفاجعة الثالثة!

تبدّت لنا الحيــاة، بعد دفنها، فارغة لا معنــى لها. وبدا الإنسان ريشةً تهزها الريح الهيِّنة. أخذنا نســأل أنفسنا: علامَ كل هذا الاحتفال بالوجود؟ وهــل تعني الحياة غير الإدمــان على اليقظــة والمنــام، والدخول والخــروج؟ وهــل الأحــلام التــي يحلَمها الإنســان، غير تعلاّتٍ يستعــين بها لإكساب الحياة الجدّيةَ اللازمة ليستمرَّ فيها؟

وقد غذّى هذه الحال التي كنتُ فيها، تتابع حلقات الفراق عن أُناس عرفتُهم وأحببتهم. بلغني خبر رحيلهم في بضع كلمات، بدت لي، يومذاك، أقرب إلى الحديث الدارج الذي يخلو من معانيه الجادّة: أحمد راتب النفاخ، وقد شاركــتُ في تأبينــه (١٩٩٢/٤/٨) في مجمع اللغة العربية، وأديب النحوي (١٩٩٨) الرومانسي الحالم الــذي عرفته ونحن على أبواب الجامعة، قبل أن ندخلها.

قاربــتْ السنة أن تنتهــي، وأنا، في هذه الغمــرة، وحيدٌ لا أقَرُّ على قــرار. فذُكرتْ لي إحــدى المدرِّســات، في ثانويــة قريبــة للبنــات، تتفق ظروف حياتها مع ما أنا فيه، فاسترحــتُ إليها. جرى الحفــل في سكونٍ أشبه بالصمت. وتجلّى لي بعدها ما انطوتْ

عليه من سَعَة الإدراك، وجمال الروح، وعمق النزوع الإنساني في تعاملها مع الآخر.

-٤-

وتهيأت لي، في هذه المرحلة، سُبُلُ الاتصال بالمستشارية الثقافية الإيرانية، فاستجبت لدعوتها للسفر إلى لندن (١٩٩٠) وحضور ندوة أقامها بعض المقيمين فيها من العراقيين، للاحتفال بذكرى يوم «غدير خم»، وحضرها معي، من المدعوين، الأستاذان عبد الكريم اليافي ومحمد سعيد رمضان البوطي، وازددت قُرباً فيها من الشاعر العراقي الدكتور مصطفى جمال الدين.

تناولتُ، في كلمتي، موقف الامام علي من المرأة. فما نزلت عن المنبر، حتى اقبل عليَّ الدكتور جمال الدين، يقول لي، وهو يضحك:

- أرْضيتَ، في كلمتكَ، أهل السنَّة والشيعة معاً!

فأجبته: ما إلى هذا قصدتُ أبداً، وما قلتُ إلا ما رأيت فيه الحق!

أنستُ، في السفر، برفقة الدكتور اليافي أُنساً لا أنسى بعض مواقفه. وبلغنا، في بعضها، زيارة الريف الإنجليزي. وبلغ منا الأنس بالصحبة، أن أغراني وهو يضاحكني في الطريق، بالدخول من باب موارَب، أفضى إلى قاعة فسيحة، رأيت فيها رجالاً يحتضنون فتياناً يداعبونهم ويطعمونهم بأيديهم! مشهد أدركتُ ما فيه، وحكيته، للدكتور اليافي. فهزَّ كتفيه وقال:

- لو عشتَ زمناً حيث عشتُ لم تجد غرابة فيما رأيت!

وعرض يوماً، لبعض القضايا النحوية، والدكتور مصطفى جمال الدين - واختصاصه الأول في النحو - يستمع إليه، فأعجب به إعجاباً لم يكتمْه عنه. فردَّ اليافي في تواضع:

- انما أردت أن أثبت جدارتي، وأدفعَ عنها!

دُعيت، بعدها، إلى الأهواز للاشتراك في الاحتفال بتجديد ضريح شاعر آل البيت «دعبل بن علي الخزاعي» المدفون، كما تقول روايات التاريخ، في سوسه (شوشة) عاصمة العيلاميين القديمة. فوقفنا على قبره المجلَل بستار كثيف، أردت أن أرفعه لأرى ما تحته، فأُسدلوه عن يدي! وبدت، في طريقنا إليه، أعمدة تاريخية ضخمة من آثار الإخمينيين (دارا ومَن بعده من بناة الإمبراطورية الفارسية). ونزلنا إلى قبو رأينا فيه قبراً أحاطوه بالرخام الأخضر، دفن فيه، كما

قالوا، النبي «إيليا» الذي صحب اليهود أيام نفاهم البابليون إليها.

كنا، يومها، في الشتاء، ولكن الجو، في الأهواز، كان ربيعياً. وقد عُقدت جلسات الندوة في فندق يطلّ على «نهر قارون»، عند الجسر الحديدي الذي يربط بين الضفتين. فكنت، حين أفيق، أطلُّ على النهر، فأرى جماعات الطير تحوم فوق مياهه، قريباً من سطحه. ويميل بعضها فيغمس جناحه فيه، ويأخذ يرفّ به، وهو يتجاوزه، كأنما انشقت عنه مياه النهر!...

ألقيتُ في الندوة كلمة كنت هيأتها، عن الشاعر العباسي الذي كتبت فيه رسالة الدكتوراه، وتمسكتُ فيها بأخباره التي حققتُها، فلم تلق قَبولاً، فيما بدا لي، لدى بعض مَن حضرها، إذ انحرفتُ فيها عما أحيطَ به من هالات الرضا العميق عمّا قاله وما فعله على السواء!

وتعددتْ زياراتي، من بعد، إلى المدن الإيرانية، فزرت أصفهان. دخلتها ليلاً فرأيت الأشجار محلاّة بقناديل من الأنوار المصبوغة بالخضرة، حتى كأنها تشعُّ من أغصانها، فتولّد إحساساً تضيء له النفس بالبهجة، يناسب ذكرى مولد السيدة فاطمة الزهراء، بنت النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) عليه السلام.

ثم لما دخلنا المدينة، في ساعات الفجر الأولى، بدت لنا أقواس الجسور المنصوبة على نهرها (زاينده)، وفيها جسر (خاجو) المنصوب على طابقين، يقوم في منتصفه البرج الكبير، حيث تحلو الإطلالة على بساتين المدينة وأرباضها!

وزرنا، في النهار، بستاناً يقوم، في وسْطه، بناء تنعكس أعمدتُه العشرون في بناء النهر، فيتضاعف عددها في العين. وسمَّوه لهذا «قصر الأربعين عموداً». وقد زُينت جدرانه بألواح تاريخية تصوِّر بعض مراحل التاريخ الإيراني، وأُلحقتْ به قاعةٌ عُرضتْ فيها بعض الآثار الصغيرة وقطع النقود القديمة. تمنيتُ، وأنا أقلِّب النظر فيها، بيني وبين نفسي لو أننا سلكنا هذا المسلك في بعض مواطن السياحة عندنا!

وألقيتُ أيضاً، بدعوة من المستشارية الثقافية عدداً من المحاضرات، في المناسبات التاريخية المختلفة، في دمشق وطهران وقُم، منها (١٩٩١) محاضرة عن فكر المفكر الإسلامي «مرتضى المطهَّري» الذي وصل، بدعوة الإسلام، إلى مستوى الدعوات العالمية، ووزنها بها، على نحو يقود إلى فتح باب الحوار والتقريب بين الحضارات الإنسانية قاطبة. ومحاضرة أخرى (١٩٩٢) عن الشيخ المفيد «محمد بن محمد بن النعمان» من

الوجهة الفنية، أبديتُ فيها استغرابي من بعض ما يقوله، مما ينفيه العقل ومنطق الدعوة. إذ لا يُعقل أن يدعو الإمام، بأمر من النبي عليه الصلاة والسلام، الفلَك فيستجيب له!

وأكثر هذه المحاضرات يجمعها كتاب «الملتقى» الذي طبعته المستشارية الثقافية الإيرانية بدمشق (٢٠٠١). ويمثّل لروحه العام كلمة ختمتُ بها محاضرتي عن واقعة كربلاء في مدينة «قم» (١٩٩٣): «إننا لا نريد أن نظل أسرى هذه المأساة، وما خلّفتْ من جراح تاريخية، تنزلق معها إلى وحل الخلاف المذهبي. فإن الإسلام كله هو المستهدف، وبوقوف المسلمين وراءه، في معسكر واحد، يحققون انتصارهم على المأساة»!

-٥-

وأتيحت لي زيارة القاهرة (١٩٩٤) للاشتراك في مناقشة رسالة أشرفتُ على كتابتها، حول «المسرح في سورية»، قدمها إلى معهد البحوث والدراسات العربية طالب من حمص كان من طلابي، في جامعة دمشق، قبل ثلاثين عاماً (طاهر التركماني). وشاركني في لجنة المناقشة الدكتور عز الدين إسماعيل، فمال عليّ، حين رأى الطالب، في سنّه المتقدمة، فهمس في أذني:

– أراه يصحّ فيه المثل القائل: اطلب العلم من المهد إلى اللحد!

كانت نبوءة حزينة صادقة أطلقها في لحظة دعابة عارضة، لم يتعدّ الطالب زمناً بعدها، فرحل وأبقى رسالته يتيمة لم تُطبع إلى اليوم!

وكنتُ نزلت، مع الطالب، يومها، منزلاً في مصر الجديدة هيأه لنا أحد موظفي المعهد، مكثنا فيه أسبوعاً، زرتُ خلاله بيت الدكتور مندور، فقطعتُ إليه الطريق التي كنت أقطعها، قبل سنين كثيرة، على شاطئ النيل. أذكر أني طرقت الباب، فسمعتُ طرقات خفيفة لعصا تدبُّ على الأرض، قبل أن يُفتح وتظهر لنا الأستاذة ملك عبد العزيز، تتوكأ على عصاها! كانت في سنواتها الأخيرة، قبل أن تميل عليها، في الطريق، كما حدثوني من بعد، شجرةٌ عاتية، هبت عليها ريح شديدة، فضربتْها ضربة مميتة!

جلسنا في غرفة المكتبة. أخذتُ أجيل نظري في خزائنها وكتبها، وأسترجع وقوفي أمامها، وفي المكتب والكرسي الذي كنتُ أقعد عليه، أمامه. لم يتغير شيء خلال السنين الطويلة، بعد رحيل الرجل الذي لا أنساه، ولا أنسى الأيام التي أمضيتها في صحبته!... واستعدتُ موقفاً كنا فيه في بعض الرياض، نتأهّل لالتقاط إحدى الصور،

والدكتور مندور يقف فيها إلى جانب زوجته. نظرتْ زوجتي، في الدكتور مندور، وهي تلتقط الصورة، وقالتْ له بصورة تلقائية:

- يا دكتور! خذ الآن، إذا سمحت، وضعاً رومنسياً يناسب الظهور في الصورة، إلى جانب الأستاذة ملك!

ضحك يومها مندور «أستاذ الرومنسيات والكلاسيكيات» ضحكةً طويلة مجلجلة لم أسمعه ضحكها من قبل!

-٦-

ودُعيتُ مرتين، بصفة محكَّم في بعض المسابقات الثقافية، لاختيار الفائز بجوائزها، لقيت في الأولى منهما الدكتور عبد القادر القط، فشهدتُ من تواضعه وغيرته على الحق، مشاهد أذكرها إلى اليوم. ومَن يخبُر ما يقع في مثل هذه الأحوال، يعرف قدْر الحقيقة فيما أقول.

ودُعيتُ أيضاً، للغاية نفسها، مرتين أخريين، لقيتُ، في الأولى منهما، الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان، وحضرتُ تكريمها في المهرجان نفسه الذي أعلنت فيه نتائج المسابقة، ووُزعتْ جوائزها. وبقي في نفسي، مما لستُ من حزنها، مما نحن فيه، قدْرٌ لعلّي ما عرفتُ مثله، في أحزان مَن لقيت من الناس! ولمّا أبلغتُها أنَّا ندرس، في الجامعات، بعض النصوص من شعرها، انفرجتْ شفتاها عن ابتسامةٍ شاحبة ولم تعلّق على الخبر!

موقفان لا أنساهما، وقفتُهما وتمسكتُ فيهما بما كنتُ أراه:

الأول: خبرٌ تلقتُه لجنة التحكيم يقول: ينبغي أن لا يقع حكم اللجنة على مَن لا ترغب الإدارة في أن تمنحه جائزتها!

والثاني: همسةٌ همسها في أذني أحد أعضاء اللجنة، برغبته في توجيه الجائزة إلى أحد المتسابقين، تكريماً للقطر الذي ينتسب إليه!

شاركتُ، من ناحية أخرى، في إلقاء بعض المحاضرات، تحت عناوين مختلفة، في مجمع اللغة العربية بدمشق، ومجمع اللغة الأردني، وهي المحاضرات التي اشتمل عليها كتاب «العربية في مواجهة المخاطر»، وجرى توزيعُه في دمشق، أيام الاحتفال بالعربية اللغة الأم. وقد وقفتُ فيها، من اللغة المحكية، وأدبها الشعبي المكوَّن منها، موقفاً يدعو إليه التعقُّل، مع المسعى الدائم إلى تقريب الفصيحة السهلة منها، مفرداتٍ وصياغات، عن طريق التسهيل والتيسير، واتساع حركة التعليم، وتوظيف أجهزة الإعلام بوعي وحكمة. وهو موقف لم يرضَ عنه بعض مَن استمع إليها، بدعوى أن الباب

يلزم ألا يُفتح مصراعاه للاحتفال بالأزجال والمواويل، في الساحة العربية، حتى لا يقوى، من ورائها، النزوع الإقليمي إلى ترسيخ العامّيات العربية، وإضعاف وعي شعوبها بوحدة لغتها، بداية لنموّ إحساسها بضعف رابطتها القومية.

وفي الردّ على ما قالوا، مع التسليم به جملةً وتفصيلاً، ذكّرتُ بأقوال الشاكين من تعقُّد قواعد النحو والصرف، وما تولّد من الحَيرة في الإملاء والهمز، وفي الألف اللينة والعودة فيها إلى أصل الكلمة، وغياب الحروف الصائتة (Les voyelles)، ووقوع الحَيرة في قراءتها، وتحريك أواخر الكلمات بالحركة الصحيحة، إضافة إلى الافتقار إلى المعجم الحديث المركّز المتصل بمعارف العصر العلمية المتطورة.

وقلتُ: ستظل المحكيَّة، في النهاية، لغة الحياة اليومية، وستضيق الفُرجة بينها وبين الفصيحة، يوماً بعد يوم، مع العمل على تيسير اكتساب الفصيحة، والإلمام بثوابتها، وانتشار أجهزة الإعلام، وأُلفة القراءة. ولن يُكتب الفوز أبداً، في لغة الكتابة، لغير الفصيحة السهلة الميسّرة، إذ لا يقرأ الناس ما يُكتب بغيرها. وتجارب مَن حاولوا أن يكتبوا بغيرها لم تنتهِ إلى غير الندم على ما أضاعوا من أوقاتهم، والعودة إليها.

أما الأدب الشعبي فهو اليوم جزء من تراثنا الثقافي العام، كما تعدُّه الشعوب الأخرى جزءاً من تراثها (folk – lore)، إذ ينفعنا في دراسة تطورنا اللغوي والتاريخي والاجتماعي، فضلاً على ما نتذوق فيه من جماليات التعبير والتصوير، على مثال الخَرْجَة، في الموشحات الأندلسية قديماً، ومثال بعض نماذجه في شعر شعرائنا المحدَثين الكبار، مثل شوقي وأبي ريشة وغيرهما، إضافة إلى شعراء المحكيَّة المعروفين اليوم، في الساحة العربية.

على أن هذا شيء، وعجز المحكيَّة عن الارتقاء إلى مستوى لغة الثقافة والإبداع شيء آخر، وما نستطيعه حقاً: أن نحتفظ لأدبها بحقل خاص يملك خصائصه المنفردة، بصفته أدب اللغة المحكيَّة.

وألقيتُ، من بعده، محاضرة تناولتُ فيها هذا الموضوع، وجئتُ بنماذج جعلتها أمثلةً لما أريد بيانه. وشدّدتُ على كون الخطاب الثقافي خطأً أحمر، كما نقول اليوم، لا تتجاوزه المحكيَّة أبداً، في غير مواضع التمثيل، أو مواضع التذكير بواقع الحياة القائم!

تلك، في كل حال، مسألة يلزم أن نقرَّ بأن لها، كما لغيرها من مسائل الإبداع والثقافة، أكثر من وجه واحد!.

آفاق المعرفة



كائنٌ أدبي حداثي
هل يحملُ هُوياتِ القرنِ الجديد؟

د. بغداد عبد المنعم ☼

حملَ القرنُ العشرون بكائناتٍ أدبية كانت جديدةً في وقتها.. وتتابعَ ذلكَ مع ريادات عربيـة أدبية وفكرية.. كان منها ريـادةُ الشاعرة العراقية نازك الملائكة للقصيدة الجديـدة.. قصيدة التفعيلة.. وسُجِّلَتْ هذه الريادةُ باعـتراف بها على طول المنطقـة الأدبية العربية وعرضهـا. والحديثُ عن الريادة وأصحابها هو حديث حق حين تبدأ العمليةُ التأريخية والنقدية.

لقـد أثَّرَ الحضورُ الكثيفُ للكومبيوتر على بَدْء ظهور أجنة أدبية أعتقد

☼ باحثة في التراث العربي. فلسطين.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

أنها ستضيف مورثات جديدة إلى سلالات الأدب في كل العالم، فبدأت تُخلقُ مسارات جديدة لها علاقة بسهولة وتسارع الاتصال.. ولها علاقة بتكاثف التغطيات الفضائية لمجمل المنجز البشري في الأرض..

قبل هذا الانفجار الالكتروني الاتصالي بقليل حمل الأدبُ بجنين نوعي كأنه إرهاصٌ لهذه المرحلة.. كان هذا الجنين هو (القصة القصيرة جداً).. بشروطها وأدائها الدقيق.. وهي تسكنُ منطقةً ليستْ هي فضاءاتُ الشعر.. ولا هي منطقةُ المقال ولا مجالات القصة بأحجامها..

نَفَسُها القصير حَمَّلَ كاتبَها أو مبدعَها مسؤوليةَ الكلمة.. وحسَّاً جديداً بتوازن بين الدقة والخَلْق.. فليس مكانٌ لكلمة قادمة من خارج زاوية اللقطة القصصية.. فلا كلمة تزيد.. ومع ذلك يقدمُ القاصُّ هنا ومضةً وارفة غنية شديدة الخصوصية.. فقد يُوظف المجاز بكل أنواعه الاستعارية والرمزية ليُتمَّ بلورةَ الصورة القائمة على الإغراب والإدهاش.. وقد يستند إلى كثير من الإضمار والاختزال والحذف.. فيبدو أنَّ المساحات الوجدانية اللانهائية تحتملُ تجربةً أدبية جديدة.. تجربةً في مس مساحات لم تُمَسّ من قبل!

ما إنْ أضاءَ المصطلحُ.. أي مصطلح «القصة القصيرة جداً» أولاً خجولاً منذ أواخر الستينيات ثم بقوة بدءاً من التسعينيات حتى حضر إلى ساحتها كثيرٌ من الفرسان والمتفارسين والتائهين.. طالبين تجربتَهَا متوهمين سهولةً سيكونُ بإمكانهم السير فيها والتحليق بها لخفتها!!

مُلابَسَات التجربة

لقد أتاها شعراءٌ ليجربوها فما عرفوا مفاتيحَهَا حقَّ المعرفة.. ولم يستطيعوا قيادةَ اللغة على مسارها وسرعتها.. ولعلهم لم يدركوا السحرَ الكامن في شروط غموضها النوعي..

وأتاها القاصون فحسبوا أنها مُلخص قصة طويلة.. وأتاها الصحافيون فحسبوا أنها (قفشة) أو (صدمة).. غير أن كل هذه المسارات المستسهلة لم تؤدِ إليها.. وتعثرتْ النصوص وأضحى الأمر بحاجة إلى أسبابٍ متراكبة تدعمُ بعضها بعضاً.. منها التأريخ لهذا النوع الأدبي الجديد والنقد لنصوصه الصادرة تساندُها الدراسةُ الأكاديمية التي تكرسُ له المصطلحات والإطارات الواسعة والشرعية..وكان لا بد لهذا الكائن من ظهور لافت قبل كل شيء يحملُ نيةَ وهدفَ ووعي ذاته ودوره الجديد..

ففي اللحظة التي انطلق فيها محمود درويش إلى السماء السابعة في الشعر

فتجاوز السماءَ العربية إلى السماء العالمية.. وكَوَّنَ رَحِماً شعرياً حداثياً وعربياً بآنٍ معاً وبعيداً عن عُقَد الحداثة حين تحملُ علاقات مَرَضِيّة مع الثقافة الغربية.. ويجب أن نكون الآن بانتظار أن يولد جيلٌ شعري من هذا الرحم.. الجيل الأشد دقةً والأشد حداثةً على الدرجة نفسها أيضاً.. ولكي نتابع سلالةَ اللغة التي خَلَّقَها وكبَّرَها محمود درويش..

في لحظاتٍ مُواكبةٍ لذلك المفصل الشعري تقريباً انبثقت (القصة القصيرة جداً) بنَفَسِها القصير الواضح وبومضها.. ويبدو بضرورتها في تلك اللحظة. فما كان الواقعُ ليحتملَ دوماً طيراناً.. كنا نحتاجُ نصاً يضيءُ التفاصيل وبسرعة..

وعلى الرغم من أن بعض الدراسات جعلت القصة القصيرة جداً من مواليد التسعينيات من القرن الماضي.. غير أنَّ لديَّ ما يعيدُها إلى ما قبل ذلك بعشرين سنة وبالتحديد إلى أواخر الستينيات وبدايات السبعينيات..

بَدء ظهور المصطلح في المشهد الأدبي السوري

أذكرُ وأنا لما أزلْ طفلةً صغيرة في أوائل السبعينيات من القرن الماضي هذا المصطلح.. وأذكرُ أكثر أني سمعتُهُ مبكراً جداً من الشاعر محمود السعيد بينما كنتُ أتردد بصحبة أبي إلى مقر النادي العربي الفلسطيني في مدينة حلب.. كنت أسمعه منه مباشرة وخلال الأمسيات الأدبية التي كان يقيمها النادي.. وفيما بعد في (مجلة المقاومة) التي أصدرتها إدارة النادي.. إذاً خرجَ هذا المصطلحُ من الجو الثقافي في حلب بذلك التألق والتوهج الذي تحملُهُ عادةُ التجربة الأدبية في علاقتها الجدلية مع الواقع ومع النبض الثقافي الذي كان عالياً..

وسوف يمرُ عقدُ السبعينيات كله قبل أنْ يبدأ النقدُ بالانتباه إلى هذا الكائن الجديد بهويته المختزلة وهدوئه.. فأبعدُ الانطباعات والكتابات عنه لا تتعدى أوائل الثمانينات من القرن الماضي وهي تُجمِعُ على ريادة (محمود السعيد) للقصة القصيرة جداً وربما على مستوى المنطقة العربية كلها.. فقد اعترف له بهذه الريادة الدكتور نعيم اليافي[1] والدكتور سمر روحي الفيصل الذي عدَّ (الشاعر محمود السعيد) أول الكاتبين في هذا النوع وأكثرهم شجاعةً وكون تجربته الأدبية تستحق قراءةً متأنيةً[2] وكذلك الناقد يوسف سامي اليوسف الذي قال «في السنوات العشرين الأخيرة طرأ تغيير كبير



على بنية القصة القصيرة في سورية وربما في العالم العربي كله، فظهرت أنواع من الصياغة أو التشكيل الفني لم تكن مألوفة من قبل.. ومن هذه الأنواع نوع يسمونه (القصة البرقية) ومن نماذجه ما يكتبه محمود علي السعيد ..»[٣]

..إلى أنْ بدأتْ تصدرُ الدراساتُ عنها فتعترف بالريادة للمدينة وللشاعر القاص معاً.. فالدكتور يوسف حطيني يذكر في كتابه الذي خصصه لدراسة معمقة في القصة القصيرة جداً «..وفي هذا الإطار تندرج التجربة المبكرة للكاتب والشاعر الفلسطيني محمود علي السعيد الذي بدأ بنشر هذا الشكل والتبشير به منذ بداية السبعينيات.. يعد محمود علي السعيد من أوائل الذين استخدموا مصطلح القصة القصيرة جداً، فقد أصدر مجموعات عديدة في هذا المجال وهو تاريخياً من رواد هذا النوع»[٤]

وقد تمت الإشارة إلى أن الشاعر السعيد هو أول من ثَبَّتَ على غلاف مجموعته القصصية الأولى (الرصاصة) مصطلح قصة قصيرة جداً [٥] وقد اعترفتْ له بذلك معظم الندوات التي عُقِدَتْ عن القصة القصيرة جداً.. وحتى توالتْ الكتاباتُ من أوروبة فكتب سلامة عبد الرحمن من باريس في جريدة (كل العرب) قائلاً «الميني قصة أو القصة القصيرة جداً نوع أدبي جديد يظهر في حياتنا الأدبية العربية الشاعر محمود علي السعيد يحاول التجديد في هذا النوع فتجربته (الشكل - المحاولة) تجد صداها في الساحة الأدبية العربية» [٦] ومبكراً وفي فاتحة الثمانينات كتب الدكتور

رياض نعسان آغا «يبدو أن نظرية الأجناس الأدبية التقليدية لم تعـد قادرة على احتواء هذا الخليط المتباين من التقنيات والأشكال الأدبية المحدثـة والتي تتجه إلى الاستقلال والتفرد بقيم خاصة بعد أن رفدتها تجارب متقنة أعلنـت عن خروجهـا على الحدود والمعايير التي فرضها النقاد على المبدعين.. إنها مغامرةُ الفن وقد خاض غمارها مجرباً بثقة وصدق فني محمود علي السعيد..»[٧]

ويبـدو أن القصة القصـيرة جداً والتي أخذت رمزاً يليق بها هو (ق.ق .ج) قد بدأت النبوءاتُ حولها وحـول أهميتها كفن أدبي جديـد سيتم التأريخ لولادته عبر مجموعات (ق.ق.ج) المبكرة للشاعـر وهي: الرصاصة – المدفـأة – القصبـة.. وقد ذكـر الشاعر اللبناني محمد علي شمس الدين موقفه من كل ذلك حين قوله « .. القصة القصيرة جداً لدى محمود السعيد تـأكل اللغة من حدثها وتُكثف لحظاتهـا إلى درجة مضغوطة حتى يصبح العنوان أحياناً لديه رمزَ الرمز حتى نحس بأن الكاتب يتمنى لو أنه اختصر أكثر وأكثر في اتجاه تقطير أخير مرتجى»[٨]. فهذا التعريف الخارج من ذهنية شعرية يشكلُ مع الدراسات التعريفية والنقدية رؤيةً مهمة في هذا الكائن الجديد وكاتبه ومبدعه.. في حين تبدأ الدراساتُ بالتَشَكُّلِ حوله.. نقرأ «وممن أخلص لهذا الفـن إخلاصاً كبيراً حتى كان رائد القصة القصيرة جداً بلا منازع الأديب الفلسطيني محمود علي السعيد الذي أصدر تسـع مجموعات قصصية خلال عقدين من الزمـن» [٩] وكان ثمة جيلٌ مـن الدراسات والمقـالات بدأتْ مـن أواخـر التسعينيات تناولَتْ الكائن الجديد[١٠].

قراءة في بعض القصص (ق.ق.ج)

لعلها القصـة الأقدم للكاتـب الشاعر محمـود السعيـد وعنوانها (عبـد الرحمن موقت)[١١] كُتِبتّ قبل أربعين سنة.. فتاريخها يعـود إلى ١٢/ ٥/ ١٩٧٠ وهي من مجموعة (القصبـة): «لم تكن عجينتـه الفنية تسلس القيادة بسهولـة القبلة، فالجلسة الفولاذية بين حرارة الفكرة الملتهبة وتوجسات الفشل اللاطـئ في منعطفات القطعـة الحجرية الشابة تقـدحُ كلما لامسـت المطرقة وجنة الإزميل وعبد الرحمن موقت الجواد الريفي محترق لدرجة الجـرأة في معادلات تتأرجح بـين موسيقى الولادة السليمـة والاجهاض الخفـي (يرفع يـده احتجاجـاً)». نلاحظُ هنا كيف وَجَّهَ الكاتـبُ عناصرَ القصِ نحو مستويـاتٍ عدة من معالجة الحدث الفني.. فثمـة تسجيلٌ سكيولوجـي يضبطُ الحدثَ الجدلي بين النحات والحجر!!

ومـن مجموعتـه القصصيـة القصيرة جداً والتي حملت عنوان (الرصاصة) قصةً

عنوانُهـا (الفنـان) مُهداة إلى لـؤي كيالي «الفرشاة تجوس واجهـة القماشة البيضاء بجسـارة والألوان الشمسيـة تكسو أجنحة الأشكال الهندسية بريشـن بلوري من نسيج الفصـول المكهـرب، وأصابـع الفارس في انسجـام صوفي بين مد وجــزر بينما شرارة الانهيارات تقدح في هشيم الجسد الخشبي وكبريـت الشرايـين الصدئـة يصفـي مع حبات الفاليوم المشاكسة حسابه وهو يشرح للأغصان الحريرية رقصة الحب».

أليسَ العنوانُ جزءاً أساسياً من النص؟؟ فمنـه ومـن دون مقدمات يلتقـطُ الكاتبُ حدثـاً فنياً: فرشـاة وقماشة والـوان.. ثم دخول مكثـف ودقيق في كله اللوحة وضمير الفنان.. ثـم أصابع الفنان وانهياره.. تنتهي القصةُ برقصة الحب. خمسون كلمة حَكَتْ حدثـاً تشكيليـاً وحَرَّكَتْ شخصيـةً حمَلَت المكانَ والحدث والفعـلَ.. فعـلَ التكوين اللـوني التجريدي.. والمكانُ حقيقةٌ قائمة مـن القُماشة إلى الفرشاة إلى أصابع الفنان المتحركة منهما إلى حبـات الفاليوم.. ليس إلا مثل هذه اللغة تستطيع أن تؤرخَ مثل هذا الحـدث – المشهد – القصة ولكنْ القصيرة جداً والمشبعة بالأهمية وبإرادة الكاتب.

تلـكَ أمثلةٌ من مجموعات من القصص القصيرة جداً المكتوبة والمنشورة منذ أواخر الستينيـات(١٢) كانـت في حينهـا النـبرةُ الخطابية صوتاً طربياً عامـاً لمعظم النتاج الأدبـي.. وغير الأدبي.. منذ تلك اللحظات وفي تواز عجيب مع الاختراعات التي اهتمت بنبش التفاصيل والاشتغال بصمت وخفوت.. ولدتْ هذه المساحةُ الصغيرةُ حاملةً رسالتها المُرهفة الدقيقة والتقنية إلى حد بعيد..

إنهـا محاولةٌ واعيـة لبنـاء درب أدبية بعيداً عـن الالتفافات الكثـيرة والمقدمات والتشبيهات وغطـاءات الاستعارات.. كأنها تريـد إقصـاء التقاليـد إسقاطـاً للحجم والأبعـاد .. كأنهـا تريدُ إقصـاء الضجيج ونـبرة الوعـظ .. ولكونها شديـدة القِصَر قطعـتْ رأس الخطابيـة .. ولكونها شديدة الاختزال فقد تشبثتْ بالدقة والتوهج.. تكرهُ الزخرفـةَ لكونها قائمة بالروح.. ربما توجهُ بشكلها وحضورها رسالةً لكل ما هو شديد الضخامة والانتفاخ..

لعلهـا تحمـلُ السردَ كرمـز تقليدي في القص.. غير أنها تتجـاوزه ربما بعد ثلاث كلمات.. وتُكَسِّرَهُ لتخرجَ مـارداً من بضع كلمات.. تسلكُ مُنعرجات لم تُسلك من قبل.. وأحيانـاً لم تُـرَ من قبل.. بـل أحياناً تصنع مُنْعرجَهَـا الجديد تمامـاً.. فمن المجموعة الأخـيرة للكاتب والتي حملـت عنوان (من قيس أرمينيـا إلى ليلى فلسطين) نقرأ هذه

القصـــة القصيرة جداً وهـــي بعنوان (آني) (١٣) «الهـلال الجميـل الذي فتـح قمراً جوريــاً على حرارة الموقف والتجربة، ينوس كقارب الصيد البحري وهو يجوب شواطئ فلسطين خريطة الجرح الذي أينعت أوراقه على إيقــاع قبلات (شمس ومطــر) لتُشرق من خاتمة (الجسر الذهبي) عشيقة الكلمة الأرمنية (آني) وهـــي تُقَبِّل تشظيات غسان كنفاني الموزعة ما بين الأرض والعشق فتنوء الساعــات بحمل القرنفل الــبري بتويجاته الدموية وكأس من الخمرة الرديئة تُدلَقُ في وجه سماسرة الوطن».. تقدم القصةُ ظلالاً ممتزجة بين تجربتين ثقافيتين نضاليتين في حلم ابداعي طويل للغايــة بزمنه التاريخي قصير جداً بالرغبة إليه.

ثم توالــتْ توجهاتُ الأدبــاء إلى الكائن الجديد فقد حمَلَتْ الرحلةُ الأدبية الشاسعة للكاتــب الكبير زكريا تامــر – في منتصف السبعينات – قصاً قصيراً غير أنَّ الكاتب لم يُحَمِّلْهُ بشهادة ميلادٍ ولا باسم.. بل أبدع نصاً حداثياً قصيراً شديد المواجهة والاحتجاج..

ويبـــدو أنَّ الكائــن الجديــد برشاقتــه وحداثته لفتَ انتباه كبار الكتاب.. فقد ذكر غــالي شكري في كتابه عــن نجيب محفوظ (من الجمالية إلى نوبــل)[١٤] أنه وجه سؤالاً لنجيــب محفــوظ: مــاذا تكتب يــا أستاذ؟ فأجاب: القصة القصيرة جداً.. هل تسمعني يا غــالي القصة القصيرة جداً.. ثم صَدَرَتْ لاحقاً ثلاثُ مجموعاتٍ للكاتب الكبير نجيب محفوظ حملت مصطلـــح: القصة القصيرة جـداً على غلافهــا وهي: أصـــداء السيرة الذاتيــة – صـــدى النسيـــان – أحلام فترة النقاهة.

وكان مـــن الكتاب الكبــار الذين اقتربوا منهـــا وجربوهـــا: عبـــد الســـلام العجيلي – عادل أبو شنــب – ياسين رفاعية – عبد الستار ناصر – عبد الرحمن مجيد الربيعي.. وكذلك الروائي الكبــير المخضرم حنا مينا الذي صرح إلى جريدة الرياض[١٥] بأنه كتب قصة قصيرة جداً بعنوان (طفلة للبيع)..

فهذه القصة القصيرة جداً (ق.ق.ج)[١٦] كائــنٌ أدبي جديد ولد داخل المشهد الثقافي السوري.. وفي مدينة حلب حيث وَقَّعَهَا مُبَكراً على أغلفة مجموعاتــه القصصية أي كتب لها شهادة ميلادها وبجرأة اسماً ومضموناً ومشروعاً الشاعر القاص (محمود السعيد) الذي أتمَّ إنجاز هـــذا التبلور والظهور لهذا الومضــ الأدبــي الحداثي.. وقـــد ظهرتْ خلال العقد الأول من القرن الجديد وعلى طول المنطقـــة العربية أسمــاءٌ لامعة كتبتْ بعمق وبخصوصية في هذه الكينونة الأدبية الجديـــدة.. بعضُــ هؤلاء الكُتَّــاب ينشرون

نتاجهــم في مواقع الكترونية، وهذا ما حوَّلَ نصَّهــم القصصــي إلى نص تفاعلــي يُقرَأ ويُؤوَل بسياقات مختلفة، وأدْخَلَ من ثم بعداً جديــداً في الحركــة الثقافيــة والأدبية هو البُعد الالكتروني الذي بدأ بالظهور والتأثير الواســع ويبدو أنه في طريقه لأخذ الشرعية الكاملة وذلك حــين تنضمُّ إليــه المساراتُ الأدبيــة الأساسية. ومنهــا المسار النقدي.. ومسار البحث الأكاديمــي الأدبي الذي قد يتضمن عمليــة تشريحية ونقدية واسعة في مجــال زمني طويل.. ومسارات التلقي الذي كان في شبه مَسْرَحة ما بين الكاتب والجمهور أو الكاتــب والمجلة والصحيفة مما سيسمح بانتقــالات أشد سرعةً للنبضــ والحركة.. وهناك مســارُ الصحافة الأدبية أو الإعلام الأدبي..

تلــوحُ في الأفق ظلالٌ وومضاتٌ لكائنات أدبية لعلها بتكوينها ودقتها تُواكبُ خصوصياتِ وهُويات القرن الحادي والعشرين خاصةً مع وجود مواقع على الانترنت بدأت تتجه نحو الاختصاص الأدبي والنقد وتلقي الحوارات (منتديات). وسيدخل الإبداعُ الأدبي سريعاً في تسارع الإبــداع الاتصالي فهــل سنكونُ حيال نص جديد شديد الانفتاح والشفافية وشديد التحمل لعملية النقد المستمرة التي ستكون معه وفيه بنفس **اللحظة؟؟**.

الهوامش

١- مجلة البيان الكويتية – عدد ٢٩٩- حزيران – ١٩٩٥

٢- وقد نشرت الدراسة نفسها في كتابه (أطياف الوجه الواحد) الصادر عن اتحاد الكتاب العرب – سورية.

٣- مجلة صوت فلسطين – ت١ ١٩٨٩ وجريدة البعث – ١٩٨٠ عدد ٥٤٣١/ الدكتور سمر روحي الفيصل.

٤- الناقد يوسف سامي اليوسف – مجلة إلى الأمام – ١٩٩٥- عدد ٢٢٨٥

٥- القصة القصيرة جداً بين النظرية والتطبيق. د. يوسف حطيني – دمشق – ٢٠٠٤.

٦- جريدة تشرين- ١٨الات٢ – ٢٠٠١، القاص باسم عبدو

٧- جريدة كل العرب – باريس – العددان ٥٠ و ٨٠ في عامي ١٩٨٤ و١٩٨٥ سلامة عبد الرحمن.

٨- جريدة تشرين ١٩٨٠/١٠/٢٨ د. رياض نعسان آغا

٩- الشاعر محمد علي شمس الدين – الكفاح العربي – ٢٠ /١٩٨٥/١٢

١٠- فن القصة القصيرة (مقاربات أولى). محمد محي الدين مينو، ط٢ – ٢٠٠٠- دبي.

١١- منهــا: القصة القصيرة جداً لأحمد جاسم الحسين ١٩٩٧. وفن القصة القصيرة – مقاربات أولى ٢٠٠٠. وشعريــة القصــة القصيرة جداً للدكتور حسن المــودن. والقصة القصيرة جداً عنــد زكريا تامر للدكتور يوسف حطيني.. بالاضافة إلى عدد كبير من المقالات والدراسات تناولت القصة القصيرة جداً بمقاربات تجنيسية وتاريخية وفنية.

❁- نحات وهو من أشهر النحاتين في مدينة حلب.

١٢- صدرت للشاعر والقاص محمود السعيد المجموعات التالية من القصص القصيرة جداً:

❁- الرصاصة- قصص قصيرة جداً - حلب - ١٩٧٩- النادي العربي الفلسطيني - اللجنة الثقافية.
- المدفأة . قصص قصيرة جداً - ١٩٨٠ - اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين.
- القصبة . قصص قصيرة جداً - ١٩٨٢
- المنقل . قصص قصيرة جداً - ١٩٨٢
- المحاولة - ١٩٨٣
- الشكل - ١٩٨٣
- نصف البرتقالة - ١٩٨٥
- بطاقة رقم /٥/ - ١٩٨٥
- إلى فراشة البحر - ١٩٨٧
- من قيس أرمينيا إلى ليلى فلسطين - شعر وقصص قصيرة جداً . دار الحوار - اللاذقية -١٩٩٤.

١٣- هو اسم مجلة أرمنية كانت تصدر في بيروت وآني زوجة الكاتب غسان كنفاني .

١٤- غالي شكري ، من الجمالية إلى نوبل . دار الفارابي - بيروت - ١٩٩١ .

١٥- جريدة الرياض / عدد ٥ يوليو / ٢٠٠١/ زاوية ثقافة اليوم.

١٦- لقد تم اعتماد هذه التسمية (ق.ق.ج) أي القصة القصيرة جداً بعد مخاض من تسميات شتى كان منها: ومضــات قصصية - لوحات قصصية - مقطوعات قصيرة - مشاهــد قصصية - أقصوصة - القصة القصيرة الشاعرية - القصة القصيرة - الخاطرة .

آفاق المعرفة



المركيزة مدام دو بومبادور

حامية الأدب والفن في البلاط الملكي الفرنسي

(١٧٢١-١٧٦٤)

إبراهيم سلوم ⊙

جان - انطوانيت بواسون التي عُرفت باسم مدام دو بومبادور، كانت سيدة موهوبة وجميلة ومثقفة، وأثرت بشكل عميق في النواحي الثقافية والفنية والسياسية في بلاط الملك الفرنسي لويس الخامس عشر (١٧٤٥-١٧٧٤). إن عودة إلى سيرة حياتها تطلعنا بأنه عندما بلغت سن الرشد عُنيت أمها بتعليمها وتثقيفها وتهذيبها، فدربتها على فنون الرقص والموسيقى والغناء والرسم. ثم قامت بتزويجها من أحد النبلاء «شارل لونورمان» فاتخذت جان من زوجها

⊙ ناقد ومترجم سوري.

العمل الفني: الفنان وفاء كريدي.

ومركزها المرموق وسيلةً للتقرب من القصر الملكي بشتى السبل والوسائل، وحصل لها ما أرادت. فبعد محاولات للَفْت انتباه الملك، استطاعت أخيراً أن توقعه في حبها، ليتخلى الملك عن خليلته الرسمية «دوقة دوشاتور» وتحل مكانها في قلبه. منحها الملك لقب مدام دو بومبادور. وعندما احتج زوجها على ذلك أُبعد عن باريس وحصلت «بومبادور» على قرار رسمي بالانفصال. ومنذ ذلك الحين أصبحت في العام ١٧٤٥ خليلةً للملك لويس الخامس عشر. وهكذا تحقق حلمها الذي كان يراود ذهنها بعد أن استمعت إلى إحدى العرافات وهي تقرأ فألها عندما كانت في عمر الورود: أمامك طريق مفروش بالورود وسوف ترتقين إلى أعلى درجات المجد لدرجة أنك ستصبحين ملكة من دون أن تضعي تاجاً على رأسك. والعرش سيخضع لك من دون أن تجلسي عليه، سيكون سلطانك مستمداً من جمالك فحافظي على هذا الجمال الذي هو كنزك الذي لا يفنى!! هذا ما قالته العرافة وما كانت تردده جان-أنطوانيت بواسون وهي تحلم بمستقبل مفروش بالورد، وتطيل النظر إلى قسماتها الفاتنة. وبالفعل تحققت هذه النبوءة حين اتخذها الملك لويس الخامس عشر خليلةً له. ولما كانت الخليلة لدى الملك بمثابة وظيفة رسمية مميزة إلى جانب منحها لقباً تشريعياً هو المركيزة دو بومبادور، فقد سمح لها بذلك أن تقيم في قصر فرساي، وتمارس نشاطاتها بشكل علني وكأنها رديفة للملكة لا بل أشد نفوذاً منها. ونتيجة حبها للأدب والفن وجنوحها إلى عالم السياسة أصبحت راعية الأدب والفن في البلاط حيث فتحت صالونها لاحتضان فناني وأدباء عصرها مثل: فولتير، ومونتسكيو، وجان جاك روسو، مارينو، الذين تغنوا بجمالها وأناقتها، وأشادوا برعايتها لهم وأفضالها عليهم. كما وساعدت الملك من الناحية السياسية على التقارب بين فرنسا والنمسا ليقاوم مطامع روسيا وانكلترا. لكن حرب السبع سنوات التي خاضها مع انكلترا أفقدته كندا والهند في معاهدة باريس (١٧٦٣) نتيجة عبثه بالنفوذ الملكي وانهماكه في حياة المجون التي كان يعيشها مع خليلته دوبومبادور، والتي كلفت الخزينة الفرنسية أموالاً طائلة، الأمر الذي أجبره على بيع بعض المستعمرات الفرنسية إرضاءً لنزواتها الطائشة. توفيت في العام ١٧٦٤ بعد إصابتها بمرض عضال تاركةً البلاط الملكي يعاني حالة من العجز والإحباط نتيجة أهوائها وإسرافها في تبذير المال العام، مما حمّل الخزينة العامة أعباء كثيرة. وكان هذا أحد الأسباب الرئيسية

التــي أشعلت نــيران الثــورة الفرنسية ضد النظام الملكي الــذي تهاوى في عهد حفيده لويس السادس عشر في العام ١٧٨٩.

❁ ❁ ❁

وُلدت جــان -أنطوانيــت بواسون التي اتخذت فيمــا بعد لقب المركيــزة مدام دو بومبــادور- في باريس عــام ١٧٢١ في أسرة شريفــة ومتواضعة، من أبٍ يدعى «فرانسوا بواسون» الذي كان سائساً ومراسلاً لدى دوق أورليان. ثم حدث في العام ١٧٢٥ أن شحّت الحبوب في فرنسا فكلّف القصر الملكي أحد التجار وعميله فرانسوا بواسون، والد جان- انطوانيت بتأمين حاجات الشعب، واستطاع حل الأزمــة بحنكة نادرة جنــى على إثرها فائــدة مادية كبيرة. مما جعــل وزير المالية الفرنسيــة «فاكون» يستوضــح عن الأسباب التــي جعلــت التاجر وعميله يملــكان ثروة هائلــة. وهكــذا تشكلت لجنة وأقــرّت بأن فرانسوا بواسون استغل حظوته لدى البلاط الملكي لمآرب شخصية بعيدة تمام البعد عن النفع العام.

وبعــد مناقشــات طويلــة حُكــم على فرانســوا بالإعدام بعد دَفْع مبلغ قدره ٢٣٢ ألف فرنــك لصالح الخزينة الملكية. عندئذ هبّ التاجر صاحب النفوذ القوي لدى الملك لنجــدة عميله حتى استطــاع أن يهرّبه من السجــن ويؤمنّ له ملجأ يركن إليه في ألمانيا بعيداً عن أعين الخصوم في فرنسا. وهكذا تشرد الزوج بعيداً عن عائلته، وظلّت زوجته «لويز-مادلين» وحيدةً مــع ابنتها ومع ابنها «هابيــل» الذي ولد في العــام ١٧٢٥، تعيش تحت كنف والدها الــذي كان يعمل متعهداً للجيش الملكي وموردّاً له لمادة اللحوم. وقبل أن يغــادر فرانسوا فرنســا إلى ألمانيا أوكل تربيــة ابنته «جــان- أنطوانيت» البالغة من العمــر وقتذاك ٥ سنــوات إلى أحد الأديرة في باريس حيث قضــت هناك حتى بلوغها ثماني سنوات طالبــةً في دير «الإرساليات»، مُــراد الفتيــات النبيلات يومئــذ، وملتقى الطبقة البورجوازية الغنية. غير أنها لم تكن تنعَم بلقب أرستقراطي ولا بثروة واسعة. جلّ مــا هنالك أنها كانت جميلة إلى أبعد حدود الجمــال. إذا خطرت وهي بعــد في سنتها الثامنة شاع المرح على جانبيها. وإذا تكلمت سال كلامها ناعمــاً كأنه الموسيقى. ولطالما وقفــت رفيقاتها ذاهــلات يتأملــن رأسها الصغير يتدفق ذكاءً، وبشرتها الناضرة تفيض حيويةً، ودلال قوامها تطفو على تمايله أروع معــاني الأنوثة. أما رئيســة الدير فكانت لا تفتأ تمتدح اجتهادها وأناقتها ونبل أخلاقها. لقد كانت شعلة من الذكاء وآية في الجمال،



وهما موهبتـان قلّما اجتمعتا في فتاة، لذلـك أطلقت عليها رفيقاتهـا في الصـف اسـم «رينيـت» أي الملكة الصغيرة. وكانت أمها أيضـاً من أجمل نساء باريـس وأكثرهن حظاً. وقـد أحاطـت طفليهـا بكل عنايتهـا واهتمامها، وسهرت على تنشئـة الصغيرة الحلوة على أحضان الـدلال، فارشةً دروبها بالهناء. وبفضل سخاء والدهـا استطاعـت لويـز - مادلـين أن تستعيـد شيئاً من قدرتهـا التي انهـارت بسبب غياب الزوج، بعـد أن أورثها والدهـا عقـارات درّت عليها مـالاً وفـيراً. وهكذا استطاعـت أن تدخل بقـوة إلى عالم المال وتحصـل على أصدقاء ينتمـون إلى هذا الوسـط الاجتماعي. وفي منزلها استطاعت أن تلتقي بالأدباء الكبار: مونتيسكيـو، ماريفـو، فولتـير، جان جاك روسـو، دالمبير...إلخ. وهذا ما ساعد في أن تلّقن ابنتها جـان - أنطوانيت ثقافةً واسعةً بفضل التعاقد مـع أساتذة مشهورين قاموا بتدريسها أنواع العلوم كافةً من أدب وفلسفة وفن ورياضيات.

وفي أحد الأيام قادتهـا أمها إلى عرّافة بارعـة لتقـرأ مستقبلها، فكانـت البشرى سعيدة جداً. تأملت العرّافة هنيهةً، ثم قالت لها: إن ابنتك «جان» ستصبح صديقة الملك الكبرى.

مضت الأيام حيـث أكبّت الصغيرة على دراسة الفنون الجميلـة، فتعلمت الخطابة والتمثيل والتصويـر، وساعدها لين قامتها علـى أن تبلـغ القمـة في الرقص. كمـا ساعدها سحر بشرتهـا ورقة صوتها في أن تجيد الغناء. وتعلّمت العزف حتى أصبحت

من أمهر عازفات «الكمان». وتدرّبت على ركوب الخيل فأصبحت فارسة لا يشق لها غبار، وتيسّر لها أن تقود بسهولة عجلة ذات جوادين. عندئذ عمدت أمها إلى إدخالها في بيوتات باريس. هكذا راحت الفتاة تضحك للدنيا والدنيا تضحك لها حتى بلغت العشرين من العمر، فتعلق بها «شارل دو تورنهايم» نجل وزير المالية العام في فرنسا. وشارل هذا شابٌ في الرابعة والعشرين، قصير القامة، قبيح الطلعة، ولكنه عاطفي، أنيس العشرة، قريب من القلب وتطفو على مجمل شخصه بوادر النبل والهيبة. وينعم، فضلاً عن ذلك، بثروة لا يُستهان بها، كما ينعم بلقب «فارس شرف». لذلك رحبت السيدة «بواسون» بزواجه من ابنتها، غير أن أباه ظل قلقاً لا يركن لزواجه من فتاة أبوها محكوم عليه بالإعدام، وأمها محطّ الألسن من الكلام رغم طيبتها وكياستها.

وبعد أيام صدر قرار ملكي يقضي بتحرير الزوج المشرّد فرانسوا، فعاد هذا إلى منزله بعد غياب خمس عشرة سنة لينعم في عائلته بمشاهدة فتاه يافعاً قوياً، وجان-أنطوانيت آيةً في الجمال والثقافة، فلم يتوانَ عن الموافقة على الزواج الذي تم في آذار سنة ١٧٤١. وفي هذه الأثناء، كان الزوج شارل يملك منزلاً ريفياً في غابة «ايتيول» بالقرب من القصر الملكي في فرساي، فعُرفت امرأته باسم «سيدة ايتيول». هكذا تكشف الحياة عن أجمل وجوهها للزوجين الجديدين في المرحلة الأولى من الزواج، غير أن حرارة الحب في قلب الزوج كانت أشدّ منها في قلب المرأة. ولا غَرْو في ذلك فهو سريع الإحساس، مرهف التأثر، وهي رصينة، متزنة، منزّهة عن ميوعة العواطف. ولكنها تستعيض عن الهيام الشديد بكونها ربة بيت من الطراز الأول. لم يكن في الواقع زواجاً ناجماً عن الحب، إلّا أن جان أنطوانيت عملت كل ما في وسعها لأن تجعل زواجها سعيداً. وقد طلبت يوماً من أحد أقربائها المقربين من الملك أن يلتمس من الملك دعماً لزوجها. وكان هذا القريب هو البارون «دو مارشيه» الذي كان يعمل فرّاشاً في غرفة ولي العهد.

بعد أكثر من سنة على زواجهما، بدأت شهرة السيدة «ايتيول» تمتد إلى مجتمعات باريس كافة. فتسابق الأدباء إلى دعوتها وزيارتها من «كريبيلون» إلى «كريسي» إلى «مونتيسكيو» إلى «فولتير». هذا الأخير الذي طالما نعتها «بربّة ايتيول». وأطرى أناقتها وجمالها ومواهبها الفنية. فولجت جميع القاعات واستولت على جميع القلوب. وصدف مرة أن التقت رئيس القضاة «هينو» فأذهله جمالها وكتب عنها يقول: «إنها من

أجمل ما تقع عليه العين». وها هي الصورة التي رسمها لها في ذلك العهد أحد ضباط الصيد في حاشية الملك تقول: «إن سيدة ايتيول طويلة قليلاً، طيّعة، أنيقة، رشيقة القوام، وجهها بيضوي الشكل، شعرها كستنائي لامع، أنفها متناسق التركيب حتى الروعة، فمها شديد الفتنة، أسنانها بيضاء جميلة كعقد من اللؤلؤ المنضود، والأجمل من هذا كله ابتسامتها الساحرة. فضلاً عن أن لون بشرتها يساهم أروع المساهمة في إبراز مفاتن قسماتها. أما عيناها الكبيرتان اللتان يزينهما حاجبان بلون شعرها، فلهما حدة إشعاع العيون السود، حنو ورخاوة العيون الزرق، والأناقة التي تتجلى في العيون الشهل، أما إيحاء وجهها فمتنوع إلى آخر حدود التنوع، غير أن قسماتها متناسقة كل التناسق في التعبير عن الخلجات الداخلية، مما يدل على أنها بلغت الحد الأعلى في السيطرة على نفسها، وكل حركاتها متناسقة مع مجمل طلعتها حتى إن كل ما في شخصها يكون همزة الوصل بين آخر درجات الأناقة وأول درجات النبل».

وتشاء الصدف أن تظهر أمام حفل من النخبة الباريسية مواهبها في الموسيقى والتمثيل الهزلي. وكان الدوق «دو ريشيليو» المقرب جداً من الملك لويس الخامس عشر بين الحضور، فصفق لها طويلاً وامتدحها في بلاط الملك وفي حضرة الملك. ظلت «سيدة ايتيول» من خيرة الزوجات في سنوات زواجها الأولى، فوضعت لزوجها طفلين: ذكر مات في المهد، وفتاة اسمتها «ألكسندرين».

لم تبعدها متاعب الحمل والولادة عن نظرات المتهافتين على جمالها وأخذت تتهرب منهم دون أن تسيء إليهم. وفي هذه الغمرة من التسابق إلى طلب رضاها ألمحت إلى المقربين منها بما يلي: «ما من أحد يستطيع أن يلامس قلبي إلا الملك». ثم أسرّت إلى صديقها «فولتير» بأنها تشعر بميل ملحاح إلى لويس الخامس عشر. أهي دعابة أم حب وليد؟ من يعلم إلى أين ستقود العواطف هذه المرأة الجميلة؟

الملك! الملك! كيف الوصول إلى الملك، وليس لها منفذ إلى البلاط؟ فالملك، كجميع أسلافه «آل البوربون»، مولع بالصيد، وميدان صيده الأحب غابة «سينار» في جوار «ايتيول» حيث تقيم. إذاً لِمَ لا تعترض طريقه؟ المسألة في غاية البساطة، طلبت إلى أحد الضباط في حاشية الصيد الملكية أن يجعلها في جماعة مرافقي الملك، فكان لها ما أرادت. وراحت تخطر على جنبات الحاشية ذهاباً وإياباً. حيناً تمتطي جواداً أنيقاً، وحيناً تقود ببراعة عربة ذات جوادين. وجلّ

همها أن يراها الملك وأن تعترض طريقه في بعض المنعطفات. ولم يتأخر لويس الخامس عشر عن ملاحظة هذه الفارسة الجميلة التي تملأ جو الحاشية حركةً وبهاءً. فسأل من تكون؟ فقيل له «سيدة ايتيول»، فصمت قليلاً ولعلّه قال في نفسه: إذن هذه هي التي طالما أشاد بذكرها الدوق «دو ريشيليو»، هذا الاختصاصي الكبير باكتشاف النساء الجميلات. وصدف مرة أن رآها الملك عن كثب، فلم يترك الغابة إلا بعد أن أهدى إليها أرنباً برياً من صيده الخاص: هدية كان يخصّ بها عادة نساء البلاط الملكي.

لقد كان الملك لويس الخامس عشر يومئذ في الرابعة والثلاثين. شعر أسود حالك، وعينان تحيط بهما سمرة مخملية، وفمٌ صغير أنيق النحت، يخبئ أسناناً بلون الفرح، ويظهر ابتسامة بلون النعيم. كل ذلك يضفي على مشيته شموخاً ومهابة، وفي مظهره مسحة من الحزم يزينها ترفّع عن العجرفة، فعيناه تطفحان ببريق من العطف فريد، يجذب إليه قلوب جميع محدثيه، ذلك لأنه ميال إلى الإرضاء، مما جعل خدمته متعةً للمقربين إليه، ونعمةً تحل عليهم. ففي سنته الخامسة عشرة تزوج «بماري ليكزنسكي» ابنة ملك بولونيا. ومنذ الليلة الأولى للزواج أعطى البرهان القاطع على حمية جسدية فائقة. وبعد عشر سنوات، والحال على هذا المنوال، أنعم الزوج الممتاز على زوجته بعشرة أولاد قبض الله أربعة منهم في المهد. فما كان من تتابع الولادات إلا أن أرهق جسد الملكة وامتص نضارة محياها. فاعتمدت الاعتدال في تلبية رغائب الملك، خصوصاً وهي تكبره بسبع سنوات.

فعندما بلغ هو الثلاثين، راحت هي تنوء بالسابعة والثلاثين مجعدة القسمات كأنها في أطراف الكهولة. عندئذ ذرّ الخلاف واضطربت أسس العلاقة الزوجية. ولطالما تذمرت بقولها: «ماذا؟ دائماً مضاجعة، دائماً حَبَل، دائماً وَضْع!» وبالتالي أغرقت في التمنع على لويس الخامس عشر، وأرغمته على كبح شهوته طويلاً مدعية أنه بحاجة إلى استعادة قواه. لهذه الأسباب كلها رأى لويس الخامس عشر أن ينزاح عن مخدع زوجته مستعيضاً عنها بأولى خليلاته «دو شاتورو». وكانت هذه عديمة الإغواء، ضخمة القامة جافية النظرات، قبيحة المظهر، فلم يشفع لها إلا تهالك جسدها على اللذة.

في ربيع ١٧٤٤ ذاع الخبر بأن الإمبراطور البروسي يهدد منطقة الألزاس. عندئذ سلك الملك طريق «ستراسبورغ» وما أن بلغ «ميتز» حتى داهمته حمى خبيثة هدّت قواه في بضعة أيام، وأشرفت به على هاوية

الموت. فنزل على نصائح مرشده الروحي وصرف خليلته «دوشاتورو» استعداداً لمقابلة ربّه. وتفشى نبأ مرضه في فرنسا، وتعالت الصلوات من أعماق القلوب طالبةً إلى ربها حتى يشفي الملك... واستجاب الله الدعاء، فشفي الملك.

بعد زوال الخطر، عاد لويس الخامس عشر إلى فرساي، وهنا تذكّر الخليلة الحبيبة فصمم على استرجاعها. ولكن «الدوقة دي شاتورو» لم تنعم بالعودة المرجوة. فعندما بلغتها الدعوة فاجأتها القشعريرة وارتفعت حرارتها ثم انطفأت سريعاً في ٨ كانون الأول ١٧٤٤. وظلت أسباب وفاتها سراً من الأسرار. لذلك زعم البعض أنها ماتت مسمومة. ومهما يكن من أمر فإن الملك حزن عليها حزناً شديداً، ولكن لوعته لم تستمر طويلاً وخصوصاً وهو في نضارة الشباب مكلل بالأمجاد، وأجمل الرجال، وكبير الملوك، و قلبه لا يزال ينبض بحب خليلة جديدة.

فبعد مضي خمسة عشر يوماً خطب ولي العهد ابنه ملك اسبانيا، فأحيا البلاط سهرة عارمة بهذه المناسبة دُعي إليها نبلاء وأكارم مدينة باريس ومن بينهم سيدة إيتول.

وفيما كان الملك يتفقد الضيوف والمدعوين وقف أمام حوريته سافرةً تتنفس الهواء الطلق. وكانت، عندئذ، في أجمل ساعاتها؛ شعرها مبعثر على أناقة، ولون خديها، تحت وطأة الحر والتأثر، يراوح بين حمرة الورد وحمرة الزنبق، وصدرها يخفق خفقات ناعمة، وابتسامتها لا أحلى ولا أعذب. فما كان من الملك إلا أن راح يغدق عليها من أعماقه عبارات الحب والعذوبة والجمال.

وعند انقضاء السهرة سأل الملك جميلته قائلاً: «إلى أين تريدين أن أقودك؟». فأجابت على الفور: «إلى منزل أمي». فهي حريصة على إقناع مخاطبها بأنها ليست روضةً سهلة الأكناف. ولم يجد الملك بداً من قيادتها في عربته التي يقودها سائسه إلى منزل أمها. وإذا العجلة تترنح والليل يحنو على حبيبين. الملك يضم سيدة ايتيول إلى صدره من دون أن يأبه لوجود سائسه.

أودع الملك رفيقته في ذراعي أمها، فتلقت الأم ابنتها على أشد ما يكون من الفرح. أما الملك فقد بلغ فرساي عند الساعة الثامنة صباحاً.

ما مضت بضعة أيام، حتى ضجّ البلاط بنبأ دخول مدام دوبومبادور إلى أكناف الملك. وبدأت الألسن تتناقل هذا الخبر بنوع من الاستهجان فما كان من الملك إلا أن أصرّ على المضي في طريقه، ضارباً بجميع

الاعتراضات عرض الحائط بعد أن سحره جمالها على الفور فانجذب إليها بقوة، ولاسيما في هذا العام ١٧٤٥ الذي شهدت بداياته انتصار فرنسا على بروسيا في معركة «فونتينوا» وخاصة بفضل وجود الملك نفسه على رأس قواته، وهذا ما شكل بدايةً لغزو هولندا من قبل فرنسا لاحقاً.

وفي ٣١ آذار سنة ١٧٤٥، دعا صديقته الجديدة إلى فرساي لتشاهد إحدى روايات الكاتب الروائي «رامو». ولأول مرة ظهرت سيدة «ايتيول» سافرةً في البلاط، فأدهشت بروعتها الناظرين. فسحرت بأناقتها وذوقها جميع الحاضرين، ومنذ ذلك الحين راحت سيدة ايتيول تغشى مخدع الملك علانيةً. غير أن سراً من الأسرار ظلّ يحيط بعلاقتهما. ولا عجبَ فإن لها بعلاً، فكيف تتملص منه وتتصرف على هداها؟ لقد أسرّت إلى مربيها «دو تورنهايم» بأن يبذل جميع وسائله الخاصة ليفصلها عن زوجها.

ولم يتأخر هذا الأخير في إبلاغ زوجها «شارل ديتيول» بأن امرأته لم تستطع مقاومة ميلها العنيف إلى الملك، ثم نصحه بأن يرضخ وينفصل عنها دونما هياج للانفصال المحتوم. وقع النبأ كالصاعقة على الزوج، وكاد أن ينطرح مغمى عليه. وعندما استعاد قليلاً من هدوئه راح يرسل الشتائم علناً، مهدداً بأنه سيثأر لنفسه بنفسه، منتزعاً الخائنة من ذراعي جلالة الملك. وبلغ وعيده سمع امرأته، فرأت الفرصة مناسبة للدخول نهائياً في حوزة الملك. فدلفت إليه ودموعها تنهمر بغزارة فيزيدها البكاء جمالاً. وما لبثت أن استرسلت في وصف شقائها، مجسمة للملك تضحيتها بعائلة كانت تعبدها، لكي تنغمس في شهواتها. فلان الملك، وهو بطبيعته رؤوف، وقرر أن يحمي سيدة «ايتيول» من غضب زوجها ويرفع رتبتها الاجتماعية. أي لقب يليق بها؟ أهو «المركيزة دو بومبادور»، ولكن دَخْلُ هذا اللقب السنوي يبلغ اثني عشر ألف فرنك، وهكذا تحولت العلاقة، التي اعتبرت في البدء دعابةً، إلى هيام متبادل لا يزيدهم كرّ الأيام إلا ضراماً على ضرام. أما الزوج المسكين فقد قرر السيد «دو تورنهايم» أن يبعده عن باريس ليقيم في الجنوب الفرنسي سنةً كاملة حيث بدأ يستشعر على أثرها نسيان امرأته الطائشة. فعاد إلى باريس، وكان القضاة، في أثناء غيابه، قد حكموا بانفصال الزوجين، وأمنوا للمرأة حماية القانون في عهدها الغرامي الجديد. عندئذ تهافت عليها المادحون من كل جانب وعلى رأسهم الأدباء الذين حيوا بإعجاب كلي ظهور هذه المعبودة النادرة. فها هو فولتير يكتب إليها ما يأتي: «إنني حريص

على سعادتك أكثر مما تتصورين. وما من أحد في باريس يهتم بك بمقدار اهتمامي. وإنني لا أكلمك كمداعب قديم يهمه إطراء الجميلات، بل كمواطن صميم. فهل تتلطفي وتمنحيني شرف مقابلتك في «ايتيول»، فأنا أحب أن أحدثك في بعض الشؤون، أنا، يا سيدتي، بكل احترام وتواضع خادم عينيك ووجهك وروحك».

في السادس من أيار سنة ١٧٤٥ توجه الملك لويس الخامس عشر برفقة ابنه لويس ولي العهد إلى منطقة الفلاندر التي استطاع جيشه ضمها إلى التاج الملكي الفرنسي. وفي هذه الأثناء كان يتحف دوبومبادور برسالة غرامية موسومة بالطابع التالي: «مودة وهيام». فاستفاد فولتير من هذه المناسبة لينشئ المقطوعة التالية:

بارع في الحب، بارع في الحرب
إنها مثله صافية.
ومثله تجمع القوة والنعومة.
أنها تبهج العين وتسحر القلب.

غير أن فولتير، على بوادر إخلاصه، متملق يهمه الوصول إلى أهدافه. لذلك تراه متنقلاً من إطراء إلى إطراء للملك والملكة. ولم تتعامَ المركيزة عن آماله، فسرعان ما أنعمت عليه مجاناً برتبة «نبيل في رفقة الملك» التي يبلغ ثمنها ستين ألف فرنك. ولم تكتفِ بذلك، بل رفعته إلى منصب «مؤرخ الملك» وخصته بمرتب قدره ألفا فرنك.

وفي السابع من أيلول من العام نفسه دخل لويس الخامس عشر وولي العهد إلى باريس مكللين بغار النصر. فأقيم على شرفهما في قاعة «الأوتيل دو فيل» حفل عشاء عامر، ورفعت فيه الأنخاب على صحة الملك وبسالة جيشه.

وفي الليلة التالية دلف الملك إلى المركيزة وتناول العشاء إلى جانبها. انحنت المركيزة ثلاثاً في حضرة الملكة ماري ليكزنسكا، ثم نزعت كفها الأيمن وهمت بتسلّم معطف الملكة لتقبيله، فسحبت الملكة ذيلها. وعندما رفعت المركيزة رأسها لمحت لأول مرة عن كثب امرأة لويس الخامس عشر. كل ما في وجهها يدل على هدوء تام. فلا الغضب يلوح على قسماتها، ولا الأسى يحطم جفون عينيها. لقد عاركت صروف الزمان فتعلمت أن تصبر. هكذا ولجت «جان- أنطوانيت بواسون» بلاط فرنسا، واستقرت في قصر فرساي، وطلب الملك من الرسامين لديه كالرسام الشهير «بوشير» الذي يُعَد الرسام الأول للملك أن يعمل على رسم لوحة لها بعد أخذ موافقتها. وقد رسمها في لوحته «شروق الشمس وغروبها». وفي هذه اللوحة تبدو مدام دو بومبادور على شكل حورية

وهي ترحب بعودة الشمس (أي الملك). وتظهر وهي واقفة وسط الطبيعة والزهور تنمو عند قدميها بينما تبدو البراعم الرقيقة منعكسة على فستانها الحريري المزركش باللون الزهري. وتبدو السيدة مرتاحة في هذا الجزء من الطبيعة، بينما أسندت يدها بطريقة طبيعية على قاعدة تمثال، وأمسكت بالأخرى مروحة وهي تشير إلى كلبها الصغير الذي يجلس بوفاء. والرسالة هنا موجهة إلى الملك: إنها وفية له بمثل وفاء الكلب. كان الملك يدخل إليها منذ الصباح الباكر فلا يغادرها حتى الساعة السادسة مساءً.

ومع مرور السنتين سئمت المركيزة من هذه العلاقة الحميمة القائمة على اللذة والمتعة معه بسبب ما أصاب جسدها من إنهاك وإعياء. إنها تحرص على استمرار علاقتها بالملك دون أن تستمر في بذل مفاتنها وملاشاة قواها. عليها إذاً أن تناضل لأجل هذه الغاية. الملك بدأ يشعر ببرودة خليلته وميلها إلى مقاومة اللذة الغريزية التي لا تجيد توفيرها، ولا تذوق منها إلا الألم والإرهاق. ولهذا السبب أراد ريشيليو أن يستغل الظرف من أجل إخفاق شأن مدام دو بومبادور عند الملك. فعندما رجع من حصار «جنوى»، أعلن عزمه على الحد من سيطرة المركيزة بكل الوسائل، فهي لا تفارق الملك أبداً حتى في مجالس العمل حيث كثيراً ما تقطع مجرى الأحاديث الهامة وتصدر الأوامر للوزراء بقولها «يجب... وأريد».

ولقد لاحظت المركيزة أخيراً، تلذذ الملك بمجالسة بناته الأميرات الفاتنات. لهذه الأسباب تحاشت المركيزة الصدمة وقررت أن تخلي كتفها قبل أن يطلب منها إخلاؤها وأن تحتفظ بالملك كصديق، وتثابر على علاقتها الحميمة به، وتظل في نظر الناس، خليلته. والملك من جهته بدا قليل الدخول عليها، وإذا به ينظر نظرات الإعجاب إلى سواها من النساء مثل «المركيزة» و«مدام دوكواسلان». وهكذا بعد خمس سنوات من الحب الصافي، أخلت مكانها لمحظيات جدد للملك، لكنها بقيت مستمرة في علاقتها الحميمة مع الملك لا بل شريكاً له في كل نزواته وملذاته، مما حدا بها إلى أن تجعل من فندق «بارك أويسر» مكاناً للقاءات السرية بين الملك وفتيات كواعب أطلقت عليه فيما بعد تسمية «حديقة الغزلان».

ها هي بعد عطفها على فولتير تتعهد الفيلسوف جان جاك روسو وتحوطه بعناية كلية. وكانت روايته «عراف القرية» قد انتشرت في الأوساط وأثارت إعجاب الكثيرين لدرجة أن الملك طلب بأن يحضر إلى فرساي لمقابلته حتى يخصه بمرتب يليق بمواهبه.

لم يستطع روسو أن يصمد طويلاً تحت وطأة الوساوس في شعوره المريض جرّاء مقابلة الملك المرتقبة التي شوشت ذهنه وتفكيره. فقد تخونه قواه ويقع مغمى عليه، وقد تبدر منه بعض البوادر السيئة التي يفضل عليها الموت. ثم كيف به أمام جلالة الملك الذي يغدق عليه عبارات العطف والثناء؟ كيف يجيبه محافظاً على نبرته القاسية إحدى شروط الرصانة الفلسفية؟ وماذا يقول عنه مناوئوه إذا قبل مرتباً وهو الذي يحتقر الجاه والمال؟ هذا إذا كان فعلاً سيحصل على مرتب. فعمد إلى الهرب مخلفاً وراءه الجاه والمال والملك والخليفة معاً. ولم تقتصر المركيزة على علاقتها بفولتير وروسو، بل كانت أيضاً صديقة «مونتيسكيو» و«بوفون» و«دالمبير» و«مارمونتيل» و«بيرون» وسواهم. وقد دافعت عن «دائرة المعارف» بذكاء وشجاعة.

أما الملك لويس الخامس عشر فكان قليل الإعجاب بالأدباء والفلاسفة لاعتباره إياهم عناصر هدامة. فهو يعتز بأن يشهد في عهده ازدهار عبقرية فولتير، ولكنه لا يحبه بل يخشاه، وفي أحد الأيام قال الملك: «لقد أحسنت معاملته كما أحسن لويس الرابع عشر معاملة راسين وبوالو. فجعلته نبيلاً في رفقتي وخصصته بمرتبات مالية».

ثم عرضت مسرحية «عراف القرية» وكانت المركيزة لا تستهدف من إعادة هذه الرواية التي أطربت الملك إلا إرواء خدمة لجان جاك روسو، فهي تحب الأدباء حباً عميقاً. تحبهم لأنها تذكر شبابها بذكر مجالسهم، وتتملص من ضجر البلاط حين تتنقّل في أجوائهم. ولشد ما عملت لرفع منزلتهم في نظر الأرستقراطية المتعجرفة التي تتنكر لهم وتوغل في احتقارهم. ولا عجب، فهي منهم ولهم.

وقد استفادت المركيزة من الهبات السخية للملك التي كان يوزعها عليها مثل قصر بومبادور في منطقة كوريزا، وفندق «ايفرو» في باريس الذي يحمل اليوم اسم قصر «الإليزيه» الرئاسي. وفي كل هذه المنازل كانت هي الملكة، يتردد عليها أكبر سادة فرنسا الذين يرتدون المعاطف المتوائمة مع ألوان رياشها، والملك يزورها ويتناول معها العشاء وينعم باللقاء معها.

وعندما زارها الدهاء في فونتينبلو قابلته، على فظاظته، خير مقابلة، واغتنمت الفرصة فقدمته إلى الملك. كما أنها حملت لويس الخامس عشر على تعيين مربيها السيد تورنهايم مديراً عاماً للمباني الملكية، وأمنت وراثة هذه الوظيفة لأخيها هابيل

بواسـون الـذي أدخلته إلى البـلاط باسم السيد دي فانديير.

وكان الملك شديد العطف على أمها، حتى إنه قبل حلول اليوم الأول من سنة ١٧٤٦ هيّأ لها هدية رائعة، هي كناية عن علبة تبغ من الذهـب الملون مزودة بساعة صغيرة يشملها إطار من الماس. لكنها لم تنعم بهذه التحفة إذ انطفـأت فجأة يـوم الرابـع والعشرين من كانـون الأول سنــة ١٧٤٥ في السادسة والأربعين مـن عمرها. والجدير بالذكر أنه عندما ماتت أمها بكت عليها بكاءً مراً، حتى إن الملـك نفسه اغرورقت عيناه ساعة شهد الدموع تتساقط على وجهها الجميل، وقرر مشاركتها في الحداد.

أمـا على الصعيد العاطفي فقد أحست المركيـزة بأن سنوات الحب الجميلة تمر كل ذلـك وهي لم تتجاوز الثلاثين، وها هو قلبها يخفق على غير انتظام، وأعضاؤها تستسلم لكسل التراخي. لقـد فرضت على الجميع نوعاً مـن الطاعة. ولم تقـف عند هذا، بل رفعت منزلة أهلها، وأنقذت أباها من حكم الموت، وجعلت أخيها مركيزاً وقربته فضلاً عن الأموال التي غنمتها وتصرفت بها.

وبالنسبة للطفلة ألكسندرين التي تتلقن العلوم في بعض الأديرة، فالمركيزة تحبها لأنها صورة طفولتها. وإذا بها تفكر في مستقبلها وتفكـر في زواجها، ترى أي زوج تنتقي لها؟ إنها تحلم بالكونت «دو لوك» الذي لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره. والكونت هذا ثمرة سفاح لويس الخامس عشر مع خليلته الأولى السيـدة دوشارترو. وأنه يشبهـه كل الشبه بطلعتـه وحركاته وتصرفاتـه. مثلما تشبه ألكسندريـن المركيزة دو بومبادور. ثم قادته مع ألكسندرين إلى بستـان التين الذي قرر الملك أن يـزوره. أما المركيـزة فقد أشارت بحنـو إلى الولدين وقالت: يا لهما من «زوج رائـع»! ولكن أمل المركيزة لم يتحقق. فها هو المرض يداهـم ألكسندرين في حزيران سنة ١٧٥٤ بعـد تناولها دواءً مطهـراً للأمعاء، مما جعلها تصـاب بارتفاع في درجة حرارة جسمها، صاحبه إقيـاء شديد. وعلى الفور اتصلت راهبات الدير بالأم لإبلاغها الأمر، التـي اتصلـت بدورهـا بالملك الـذي أمر طبيبه الخاصـ «سيناك» بأن يذهب لمعاينة الصغـيرة ويعلمه النتيجة علـى الفور. وما أن وصـل الطبيب حتى وجـد ألكسندرين تحتضر وهي فاقدة الوعـي. يا للمسكينة! فهي لم تصمد تحت وطـأة المرض إلا نهاراً واحـداً، ثم توفيت ودفنت في سرداب كنيسة «الكبوشيين» الواقع اليوم بالقرب من ساحة «الفاندوم» بباريـس. عندئذ أسودت الدنيا في وجه المركيزة، ولبثت أياماً على اضطراب

عنيـف كاد أن يودي بحياتها لاعتقادها بأن ابنتهـا الجميلة الساحرة التـي رسمت لها مستقبلاً رائعاً قد ماتت بالسم نتيجة دسائس البلاط والحساد الذين كانوا ناقمين عليها. وبعد أيـام وفي حزيران نفسه أي بعد مرور عشرة أيام على وفاة ألكسندرين ذهب أبوها ضحية مـوت حفيدته، فبكتـه حتى تفطر قلبهـا، وشعرت بعده بهـول الفراغ المطبق. وقـد تأثر الملـك لتأثرهـا فحـاول مراراً زيارتهـا بحثاً عن الطريقـة التي من شأنها تقديم العــزاء لصديقته الغالية التي توالت عليها نوائـب الدهــر. وإذا حياتها تستمر بين الأشواك والتملقـات والكذب ومتاعب الجسد والروح. فليس لهـا بعد الآن إلا أن تناضل استمــراراً للحفاظ علــى منزلتها. لذلك شوهــدت المركيزة تجنــح إلى التوبة شيئاً فشيئاً. وها هي تسمع القداس كل يوم وتمتنع عــن أكل الدسم نهار الجمعة حسب تعاليم الكنيسة الكاثوليكية، ولطالما شوهدت تزور كنيسة الراهبات الكبوشيات، ثم ترتمي هناك على قــبر ألكسندريــن وتسترسل في البكاء والصلاة. فمــا كان من جنوحها إلى التوبة إلا أن أثر في نفس الملكة التي أخذت تظن بأن توبــة المركيزة ستكون طريق الملك إلى الخلاص. كيــف لا والندامة الحقيقية تقضي على الخليلة بأن تغادر البلاط؟ لأن وجودهــا فيه -حتى كصديقة- من شأنه أن يستمر في إثارة الأقاويــل والظنون السيئة. غير أن المركيزة لم تفكر بعد بمغادرة البلاط لأنها تعتبر أن الصداقة لا تتنافى مع النوايا المخلصــة. ووافقها لويــس الخامس عشر علــى هذا الاعتبار. فبعــد أن شرّفها بلقب دوقة سنة ١٧٥٢ أنعم عليها سنة ١٧٥٦ بأن تظـلّ في البــلاط كرفيقة للملكــة. غير أن ماري ليكزنسكا رفضت أن تتقبل خدماتها، متذرّعةً بأن العلاقة الدينية تفرض عليها أن تعود إلى زوجها. فكان رفضها شديد الوطأة على المركيــزة. لذلك استشــارت الأب دي ساسي في الأمــر، فأعلمها أنه لا يحلها من خطاياها إلا إذا رجعت إلى المنزل الزوجي. وكان يعلم أن زوجها يحيا حياة هنيئة برفقة الآنســة «ريم» إحــدى راقصــات الأوبرا، وأنه لن يتخلى عنهــا مطلقاً ليستردّ زوجته الخائنة. فإذا رفض الزوج فلا حرج بعد على المركيزة. لذلك أقنعها بأن تكتب رسالةً إليه طالبــةً منه أن يصفح عن سيئاتها ويدعوها إليــه. ثم أوفد إلى الــزوج «لي نورمان»، من يحيطه علماً بــأن رسالة المركيزة ليست إلا مجرد حيلة، فإذا أجاب طلبها بالقبول فإنه حتماً سيثير غضب الملك.

وحــررت المركيزة الرسالة التالية: «إنني أقر بذنبي، وأريد أن أكفر عنه. إن خطيئتي

اليوم قد زالت بزوال علاقتي مع الملك، فلم يبقَ عليَّ إلا أن أصون مظاهر حياتي، وهذا ما أتمناه من كل قلبي. وإنني معتمدة على أن أمحو خيانتي الماضية بوفائي المقبل، فاستردّني إليك. وإنني سأعمل جهدي على استعادة عطف الناس بحياتي معك، بعد أن نقموا عليّ لانفصالي عنك». وهكذا بعد خمس سنوات من الحب الصافي، أخلت مكانها لمحظيات جدد للملك. ففي بعض الأمسيات من سنة ١٧٥٧ ضجّ البلاط بحدث لم يكن في الحسبان. هو أن أحد الحراس «داميان» يعتدي على الملك... داميان ذلك المتعصب المجنون يطعن الملك بخنجر... وخيّم الوجوم وتعالى الصراخ... ثم نقل لويس الخامس عشر إلى غرفته وهو يردد: «يا للسفاح! لقد قتلني..!». وراح الملك يئن كالمحتضرين... إنه يخاف الموت ويرى شبحه محدقاً به... بينما المركيزة المتروكة في الطابق الأسفل تجهش وتتلوّى في قبضة الدوار المحموم... وما لبث الملك أن شفي تماماً بعد مرور ثلاثة أيام على هذه الفاجعة، لكن الأسى لازمه عدة أيام بعد شفائه، فكان يقول مشيراً على رأسه: الجسد صحيح، ولكن هذا عليل، ومحال أن يشفى. وقصده في ذلك التلميح إلى خوفه من الموت أو إلى قلقه من حالة الشعب الذي بدأ ينقلب عليه

وخاصة بعد الهزيمة العسكرية التي مُني بها في معركة روسباخ يوم ٥ تشرين الأول ١٧٥٧ على يد البروسيين، وهذا ما جعل الإمبراطور البروسي فريدريك الثاني يطلق على كلبه اسم «بومبادور». بعد هذه الهزيمة وكل ما حصل مع الملك من مآسٍ سقطت المركيزة مريضة حيث بدأ نَفَسها يضيق بسبب إصابتها بنزلة تنفسية. ولاتمضي أيام حتى تعود إليها قواها، فتطلب الانتقال إلى فرساي. فإذا الأدباء والفنانون يتبارون في تهنئتها دون كل الناس، ذلك لأن نظرتهم فيها لا تتعدى عطفها عليهم إلى أخلاقها وسياستها، وعبثها بأموال الخزينة، وتأثيرها السلبي على الملك الذي أدى إلى إلحاق الهزيمة بجيشه، وإلى ضياع كل المستعمرات الفرنسية في الهند وكندا إرضاءً لأهوائها الشخصية. لكن شفاءها لم يكن إلا وهماً. فإذا بها تصاب من جديد وتشعر، هذه المرة، أن لا مردّ لحكم الله. وراح الملك يعودها تباعاً. وفي ليل الخامس عشر من نيسان ١٧٦٤ تهيأت وطلبت مشاهدة زوجها. غير أن هذا لم يأبه برؤيتها على فراش الموت، فرفض الطلب مدعياً أنه مريض... وأطل الفجر حزيناً على فرساي... هو فجر عيد الشعانين، عيد الفرح والطفولة... ما أجمله خاتمة لأيام الشقاء وإكليلاً لتوبة الخاطئين!

كان الملك لا يزال ساهراً في غرفته في حين كانت المركيزة في تلك الأثناء ترقب، بعينين فاترتين، تسلل الضياء إلى غرفتها. وكانت قد كتبت وصيتها، وأدلت إلى معاونها «كولان» بكل التعليمات حول طريقة دفنها. وفي الساعة السابعة والنصف ولجت عتبة العالم المجهول تاركةً وراءها اثنتين وأربعين سنة من حلاوة الدنيا ومرارتها. وعملاً بوصيتها قرر دفنها في كنيسة الآباء الكبوشيين إلى جانب ألكسندرين الواقعة في ساحة فاندوم بباريس. وفي السابع عشر من نيسان ١٧٦٤ عند الساعة السادسة مساءً، نُقل جثمانها إلى المدفن الأخير في موكب في غاية البساطة. وكان الليل يلف المكان، والمطر ينهمر، والعواصف تهب... بينما الملك على شرفته ينتظر غير مبالٍ بجنون الطبيعة... وعندما مر الموكب الجنائزي تبعه بنظراته حتى غاب وراء المنعطفات. ثم دلف مثقلاً إلى غرفته وذرف دمعتين كبيرتين وهو يقول: «هذا هو الواجب الوحيد الذي استطعت القيام به». وخلال مراسم الجنازة التي لم يستطع المشاركة فيها تمتم وهو يرنو إلى الموكب الجنائزي من إحدى النوافذ قائلاً: «إن رحلة المركيزة الطويلة يواجهها مناخ سيئ وطقس رمادي كالح!!. وهكذا نامت المركيزة نومها الأبدي في جوار ابنتها ألكسندرين». وبهذا انتهت هذه القصة الرومانسية التي كانت بطلتها مدام دو بومبادور خليلة الملك لويس الخامس عشر الذي آثر بعد رحيلها إلى دار الأبدية البحث عن السلوى لدى كونتيسة «دي باري» في قصر تريانون الذي كان قد شيده للإقامة مع مدام دو بومبادور، وذلك ليقتل حبه القديم للمركيزة بحب جديد يداوي به قلبه الجريح. كما وانتهت قصة هذه المرأة التي جمعت الأدباء والفنانين طوال إقامتها ببلاط الملك الفرنسي لويس الخامس عشر الذي وافته المنية في العام ١٧٧٤، أي بعد وفاتها بعشر سنوات.

المراجع

١- كتاب: «المركيزة دومبادور» تأليف خليل يونس، منشورات دار المكشوف، بيروت.
٢- موسوعة «لاروس الكبرى» الفرنسية: طبعة ٢٠٠٣.
٣- كتاب «خليلات الملوك» على الإنترنت.
٤- كتاب «المركيزة دومبادور» للكاتب موريس كانتان دولاتور.
٥- جريدة «البيان» الإماراتية: تاريخ ٢٠٠٥/٣/٢٨.
٦- موقع «دار الندوة» على الإنترنت، تاريخ ٢٠٠٤/٩/٦.

آفاق المعرفة

التوحيدي وسؤال الصداقة

رزاق كريمة ⊙

يقول جيل دولوز «إن مسألة الصداقة والصديق توجد في قلب الفلسفة ولا يمكن معرفة ماهي الفلسفة من دون عيش هذه المسألة الغامضة والإجابة عنها حتى لو كان الأمر صعبا».

فلماذا الصداقة على وجه خاص؟؟ هل سبق أن تساءلنا عن الصديق؟ من يكون الصديق؟ هل نملك أصدقاء؟ وكيف نحدد الصديق؟؟و الأهم هل سبق أن تساءلنا ماهي الصداقة من منظور ثقافي أو من زاوية فكرية؟؟

⊙ أستاذة بجامعة حسيبة بن بوعلي- ولاية شلف- الجزائر.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

لا أعتقد أن سؤالا كهذا قد شغل تفكيرنا، إنه بديهي لدرجة أننا لا نملك أي فكرة عنه ففكرتنا عن الصداقة قد لا تتجاوز ما نقرأه في بعض الكتب الأدبية أو المجلات المبعثرة لكن أن نعالج الصداقة من منظور ثقافي، أو أن نسأل ما الصداقة من زاوية فكرية أي أن تطرح الصداقة كإشكال مفاهيمي في الخطاب الفلسفي العربي بالشكل وبالقوة التي طرحت بها في الخطاب الفلسفي الغربي بدءاً من أفلاطون، أرسطو وشيشرون والقديس أوغسطين إلى ماسكولو ومونتاني وبلانشو ودريدا.. هذا ما يكاد يكون خارج مجال فضائنا الفكري والثقافي ربما لأن الأمر بالنسبة لنا أمر هامشي، وربما قد فاتنا أن الفلسفة اليوم أصبحت تبحث فيما هو حياتي، في ما هو يومي، وفي ما هو هامشي أيضا وأن الصداقة اليوم تشكل أحد مواضيعها الأساسية.

إن موضوع الصداقة يكاد يغيب في الثقافة العربية وإن وجد فهو لا يتجاوز بعض الفصول والأبيات الشعرية التي خصها بها شعراء وأدباء على نحو متفاوت كالجاحظ وابن المقفع والمتنبي وأبي حيان التوحيدي الذي أفرد لها كتاباً خاصاً بعنوان الصداقة والصديق وهو الذي أخذناه كنموذج ندرس من خلاله مشكلة الصداقة في الفلسفة العربية الإسلامية، فهو يشكل عصارة عقل وانعكاس لعصر، إنه تجسيد لثقافة وعقلية عاشتا وسادتا في القرن ٤هـ/١٠م، إذ يهمنا كيف نظر المجتمع لهذه الرابطة وكيف فهمها وهل تجسدت كسلوك..؟؟

إن التوحيدي الذي عاش منعزلا ومنفردا آمن في أعماقه أن الإنسان «لا يمكنه أن يعيش وحده ولا يستوي له أن يأوي إلى المقابر ولابد له من أسباب بها يحيى وبأعمالها يعيش، فبالضرورة ما يلزمه أن يعاشر الناس ثم بالضرورة ما يصير له بهذه المعايشة بعضهم صديقا وبعضهم عدوا وبعضهم منافقا، وبعضهم نافعا وبعضهم ضارا ثم بالضرورة يجب عليه أن يقابل كل واحد منهم بما يكون له مرد من دين أو عقل أو فتوة أو نجدة ويستفيد «هو» من ذلك كله ما يكون خاصا به وعائدا عليه بحسن العقبى عليه إما في العاجل وإما في الآجل».[1]

وما يؤكد ذلك أن الإنسان مدني بطبعه ولا يمكنه العيش بمعزل عن الجماعة، وكأن الطبيعة هيئته للحياة الاجتماعية أكثر من أي شيء آخر فهولا يمكن أن يعيش إلا مجتمعا إنه دائما عضو في جمعية ما بحاجة إلى أن يتفاعل مع غيره يؤثر في أبناء جنسه ويؤثرون فيه، يحبهم ويشاركهم الآمال والآلام بشكل يجعل كل ما بينهم مشتركاً ومشاعاً فالإنسان



يسكن إلى غيره من الناس يأنس بهم فتذهب بذلك وحشته من هنا كان الأنيس مرادفا للمؤانس وهو يصدق على كل من يميل وينزع للحياة الاجتماعية، فيأنس بصحبة غيره من أبناء جنسه ويفرح بمعاشرتهم، وهو بذلك يؤسس علاقات اجتماعية متينة، وحول هذه الفكرة كتب ابن خلدون فقال:«إن التاريخ خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من التوحش والتآنس..»(٣)، من هنا كان الإنسان يأنس بغيره وبالعشيرة ويبحث عن سبل التعايش معهم وكان التعايش ضرورة يستطيع من خلالها الأشخاص تأليف مجتمع يصيرون فيه عضواً واحداً. وهذا ما يؤكد أن الصداقة (موضوع حديثنا) ليست موضوعا شخصيا بالشكل الذي نتخيله فدورها لا ينحصر على المستوى الأخلاقي للفرد وللجماعة، بل يتجاوز ذلك للمستوى السياسي في المدينة المؤلفة من هذا التجمع البشري فهي «اختيار حر للعيش معا وهذا الاختيار هو الذي يشكل التجمع السياسي للمدينة».(٢)

و لا يختلف أرسطو عن التوحيدي في اعتبار الصداقة فضيلة ضرورية للحياة الجماعية أو المشتركة «فالإنسان ناقص بالحاجة، تام بالطلب»(٤) مما يعني أن الإنسان ناقص ولا يتحقق له الكمال إلا باتحاده والتحامه مع الآخرين، وأن إنسانية الإنسان لا يمكن أن تتحقق أو تكون إلا بالاجتماع. أي إن الاجتماع ليس غاية ذاته بل وسيلة لكماله وسعادته. ولما كانت سعادة

الإنسان تزيد وتنقص بمقدار مشاركة الغير له، كانت الصداقة كعلاقة تجمعنا بالآخر ضرورية، وهي تنتقل من مستوى العلاقة بين شخصين، إلى مستوى العلاقة بين أفراد الأسرة، إلى العلاقة بين أفراد المدينة ككل، مولدة بذلك نوعاً من الوفاق الاجتماعي..

ولقد شغل موضوع الصداقة حيزاً كبيراً من تفكير التوحيدي، الذي كان مدفوعاً بحكم مزاجه وتركيبته النفسية وظروفه المعيشية من جهة، والآليات الاجتماعية كفقدان الأمن والفقر، والفشل في الحياة الاجتماعية من جهة ثانية للبحث عنها، فعندما يستبد بالإنسان هذا الشعور الكئيب بانعزاله تبرز حاجته الماسة لذات أخرى أو للأنا صديقاً يتوحد معه وينعكس فيه انعكاساً صادقاً يؤكد وجوده، ومن هنا تساءل التوحيدي عن الصداقة وفتش عنها في ذاته وعند الآخرين وحملت لنا إجاباته صورة حية لمجتمع القرن ٤هـ في علاقاته الاجتماعية والإنسانية في أشكالها المضطربة.

لقد كان اهتمام التوحيدي بموضوع الصداقة اهتماما بالإنسان في محاولة لفهمه ويمكن القول أنه: «استقرأ الإنسان من خلال ذاته، وأشكل عليه الإنسان من علاقته المتشعبة بالآخرين»[٥] فلم يكن اهتمامه بها من باب الإشادة بها وتحديد أنواعها، وإنما من باب التساؤل عن وجودها وإمكانية تحققها على أرض الواقع.

واستطاعت الرسالة أن تعكس مزاج التوحيدي ونوازعه الوجدانية والعاطفية، وترصد صوراً حية للمجتمع وأحواله المتناقضة، إذ شملت كل ما يتعلق «بالصداقة والصديق وما يتصل بالوفاق والخلاف والهجر والصلة والعبث والرضا والمذق والإخلاص والرياء والنفاق والحيلة والخداع والاستقامة والالتواء والاعتذار»[٦].

وإذا كانت في عمومها لا تؤمن بالصداقة والصديق فإن هذا أمر طبيعي، كونه استجاب فيها لطبيعته وتجاربه وما مر به من وقائع وأحداث ولأجل ذلك كانت الرسالة تعبيراً صادقاً عن جانبه الوجداني والعاطفي وخير دال على تلك الحالة التي ألف فيها هذه الأسطر إذ يقول: «ومن العجب والبديع أنّا كتبنا هذه الحروف على ما في النفس من الحرق والأسف والحسرة والغيظ والكمد والومد..»[٧]، وهو في كل ذلك لم يكن شاذاً في رؤاه عن مفاهيم عصره.

وقد بدأ تأليفها في سن الشباب وبيضها في أواخر حياته حيث كان يعاني من متاعب الشيخوخة والغربة وشظف العيش لهذا نلمس في الرسالة وبشكل خاص في مقدمتها نبرة تشاؤمية نابعة من روح كئيبة قضت حياتها

لا تجد «صديقا مخلصا وصاحبا شفيقا فأمسى غريب الحال غريب اللفظ غريب النحلة، غريب الخلق، مستأنسا بالوحشة قانعا بالوحدة، معتادا للصمت، مجتنفا على الحيرة محتملا الأذى، يائسا من جميع من ترى»[٨]. مما دفعه إلى إنكار الصداقة بمفهومها المثالي كما حدده أرسطو، معتبراً أن الصديق والصاحب والأنيس والنديم وما شابه ذلك، أنماطا نادرا ما تتجسد على أرض الواقع في شخصيات محسوسة.

إن الصداقة علاقة عطف ومحبة ومودة بين الأشخاص تتأسس على الاختيار والتفضيل منبعها التعاطف والمشاركة في الميولات، وعمادها المساواة والألفة، ويعتبرها التوحيدي «عاطفة اصطفائية وفضيلة إنسانية يصعب تحقيقها في الغالب.. و هي مرتبطة بصميم الحياة الشعورية تتفرع عنها جملة من الفضائل الخلقية والسلوكية تضمن لها البقاء والنماء «كالعشرة والمؤاخاة والألفة وما يلحق بها من الرعاية والحفاظ والوفاء والمساعدة والنصيحة والبذل والمواساة والجود والكرم».[٩]

والصداقة علاقة تتم في إطار كل ما يمكن وصفه «بالمتبادل» أي في إطار من المعرفة المتبادلة، الاحترام المتبادل، العاطفة المتبادلة، القبول المتبادل، الولاء المتبادل آخذين بعين الاعتبار أن التبادل هنا يكون من أجل صالح الطرف الآخر ومنفعته قبل منفعة النفس فالصديق يطلب لذاته أولاً وقبل كل شيء وبهذا لا يمكن أن توجد الصداقة إلا مجتمعة مع غيرها من الفضائل الأخلاقية والإنسانية.

ويكشف التوحيدي عن ماهية الصداقة فيعتبرها رابطة عامة ورئيسية تتميز بطابع الاختيار الشخصي المقصور على شخص معين دون غيره أي إن الصديق ينتقى من بين الآخرين ويميز من دون باعث إنه فهو اختيار عفوي لشخص ننطلق وإياه من الأهداف نفسها ننفعل معا لنفس الاهتمامات ونعمل معا بالحماسة نفسها فهي تقتضي «ممازجة نفسية وصداقة عقلية ومساعدة طبيعية ومواتاة خلقية حتى إذا ما اتحدت هذه العناصر الأربعة أوجدت الثقة المتبادلة التي تخلق بدورها طمأنينة وسكونا ثابتين لايضعفان ولا يحولان مع الدهر».[١٠]

بهذا يكون التفاهم وتبادل الثقة في الصداقة هما ثمرتا توافق طبيعي.. كذلك تقتضي توافقاً وتناغماً نفسياً واستعداداً روحيا فهي حسبه لا تكون إلا بالمشاكلة والتشابه فالصداقة التي لا تتأسس على المشاكلة تكون صداقة عرضية، لغرض من الأغراض تزول عند انقضائه وتضمحل،

ومع ذلك فهي تستلزم نوعا من الخلاف شريطة أن لا يكون خلاف الضد للضد، بل خلاف الشكل للشكل وهو خلاف سطحي عرضي بعيد عن جوهر الصداقة «فالصديق كالرقعة في الثوب فإن كان مشاكلا لم ينب عنه الطّرف، وإن كان غير مشاكل كان الفضوح».[11]

الصداقة تصهر الروحين أو النفسين معاً وتمزجهما بشكل تتمحي معه كل معالم الاختلاف، فتتحد بذلك إرادتهما وتتلاشى في بعضها البعض لتصبح إرادة واحدة فلا تترك مجالا للخصوصية بينهما، إنه اتحاد كامل يجعل الصديقين أشبه بروح واحدة في جسدين، فتكون الصداقة ثمرة ارتباط روحي غير محدد بزمان أو مكان إنه أشبه ما يكون باتحاد روحين أو ذاتين تجتمعان صدفة، تتعرفان على بعضهما، تجلان بعضهما ولكنهما تظلان حرتين، وهو المعنى نفسه الذي أكده أرسطو في قوله: «الصديق هو أنت إلا أنه بالشخص غيرك».[12]

والصداقة الحقيقية هي شيء خير في ذاته يهب فيها الصديق نفسه لصديقه كاملا غير مجزأ فلا يبقى له شيء للقسمة فالصديق من كان بكله لك، وكانت أقصى غايات الصداقة من شاركك بنفسه وماله لغير سبب أو غاية وآثرك على من سواك فكنت أنت غايته، وهنا كانت الصداقة شيئاً أكثر من الاتحاد والإتفاق.. ولما كان معروفاً لدينا أن محبة الإنسان لذاته أو لنفسه، لاتزيد عندما يقدم على فعل حسن لنفسه، ولا يكلفه ذلك أي شكر أو شعور بالامتنان والعرفان وجب أن ندرك أنه في الصداقة الحقيقية لا يمكن أن نعثر على معاني الكلمات، التي تدل على التمييز بين الصديق وصديقه مثل الرجاء والإلزام والفضل والشكر والعرفان.لأن كل شيء أصبح مشتركا بينهما، فقد اشتركا في الإرادات والأفكار والآراء، والميولات والرغبات وفي الحياة أيضا. من هنا كانت علاقة الإنسان الفاضل بصديقه مشابهة لعلاقته بذاته. وبهذا المعنى يكون الصديق شخصا آخر هو أنت وهذا ما يشير إليه التوحيدي في قوله: «بئس الصديق صديق تحتاج معه إلى المداراة وبئس الصديق صديق تحتاج إلى أن تقول له أذكرني في دعائك وبئس الصديق صديق يلجئك إلى الاعتذار».[13]

ويؤكد التوحيدي ما ذهب إليه أرسطو حينما اعتبر الصداقة فضيلة أخلاقية، لا يمكن أن تنشأ إلا بين الأفراد الفاضلين أو الذين يشتركون في الفضيلة.. وبذلك تصبح العلاقات الاجتماعية مؤسسة على مبدأ الفضيلة فتجمعهم المحبة وتزول عوارض

الخــلاف ومتى حدث ذلك لن يحتاج الناس إلى العدالــة، وعندمــا تتحقــق العدالة في المجتمــع تصبح الصداقة نعمة وفضلاً وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يعيش وحيدا بلا أصدقــاء، فلا بد أن لا يبالغ في عددهم كي لا يفقدهم، لأنه ليس في مقدوره بل يستحيل عليــه أن يــوزع قلبــه بينهــم، ولا يستطيع اختبارهم كلهم، فالصداقة الحقيقية تعني قلة الأصحــاب لا كثرتهم، وعليه من امتلك أصدقاء كثيرين في الواقع لا صديق له، وقد قيل لفيلسوف «من تحب أن تصادق؟ فقال: أمــا في الدهــر الصالح فالحبيــب اللبيب الأديب، فإنك تستفيد من حسبه كرما ومن أدبــه علما ومــن لبه رأيا، وأمــا في الزمان الســوء فأرض بالمكاشر الذي يعطيك بعضه بالحياء وبعضه بالنفاق ويمتعك ظاهره وإن ســاءك باطنه ولكل زمــان حكم ولكل ظهر عكم».[14]

وهذا يثبــت أن الناس علــى اختلافهم وتباينهم في حاجة دائمــة للجماعة، للغير، للصديــق ذلــك أن الوحدة المطلقــة تلغي الصداقة التي هي مشتركة ووحدة جماعية وتعبــير عــن «إمكانيــة العيش معــا»، وفي ســياق الحديث عن الصداقة -دائماً- نجد التوحيدي في موضع آخر يتبنى رأيا مخالفاً بعيداً عن النظرة المعيارية، فهو لما يتكلم عن الصداقة يضع لها شروطاً يستحيل توفرها ممــا يجعل إمكانيــة إيجــاد الصديق أمراً نادراً إذ يذكر ســؤالا لفيلسوف «من أطول الناس سفــرا؟؟ فقال: مــن سافر في طلب الصديق».[15]

ويعود التوحيــدي لمناقشة عبارة أرسطو «الصديق هو أنت إلا أنه بالشخص غيرك» فيرى أن هذا التعريف قد تطلب إيجاد نوع مــن التوافــق والتناغم النفســي وإن توفر شيء من هذا التوافق يحقق الصداقة، وإن تعذر ذلــك كان الخلاف والهجر، مما يعني أن التناغــم والتوافق النفســي أساس تبنى عليــه الصداقة وهذا الشــرط نفسه ينفي وجودهــا ويجعــل تحققهــا مستحيلا، لأن التوافق مع الآخريــن قلما يحدث وهذا ما تؤكده التجارب الاجتماعية..

إذ يؤكــد التوحيدي أن الإنسان جبل من طبائــع مختلفة وهذا ما يجعلــه ينقلب من حال إلى حال فيصبــح من الصعوبة بمكان أن يحقــق هذا الانسجام والتوافق مع نفسه فكيــف إذا كان الأمــر بينه وبــين الغير..!! «فكل واحد مختلــف بمزاجه وخلقه وطبعه وشكله ونظره وفكره وعادته فالناس في أصل حياتهم وبدء خلقهم قــد افترقوا مجتمعين واجتمعــوا متفرقــين واختلفــوا مؤتلفــين وائتلفــوا مختلفــين وأحاسيسهــم متوقدة

وظنونهم جوالة وعقولهم متفاوتة وأذهانهم عاملة وآراءهـم سائحة»[١٦]، إذاً ليس هناك طبيعة بشرية واحدة، بل طبائع متعددة مما دفعـه للإقرار بأن الصداقة لفظ بلا معنى ومعنى ذلـك أن الصديق شيء نادر «ولشدة عزته كأنه غير موجود».[١٧]

وكأن أرسطـو يحضر من جديد بكلمته التأسيسيـة: «آه، أيهـا الأصدقـاء لم يعـد هناك صديـق» حاملة معهـا منطق الندرة والاستثناء، فكانت الصداقة محكومة بالندرة وكان الإعلان عنها لا يتم إلا بالانطلاق من جملة تذكرنا دائما بعـدم وجود الأصدقاء والأصحاب كون الصداقة الكاملة مستحيلة إلا بـين الفضـلاء، كما أنـه يستحيل على الإنسـان أن يصادق ناسـا كثيرين. وإن كان في كلامـه (أرسطو) تجريديـا فهو لا يشير لأي علامة تدل بأنه قد عانى تجربة معينة يصعب معها على الإنسان الاحتفاظ باتزان عقله مما يعني أن، كل ما قاله يبقى معقولا، لكنـه لا يعلو على الآراء أو الجانب النظري مما يضفي على معنـى الصداقة شيئا من الفتور. وقد بـرر التوحيدي جمعه للأقوال التـي تنفي الصداقة والأخرى التي تؤكدها بقولـه: «الإنسان مدني بالطبـع وبيان هذا أنـه لابد له مـن الإعانـة والاستعانة، لأنه لايكمل وحده لجميـع مصالحه ولا يستقل بجميع حوائجه وهذا ظاهر وإذا كان مدنيا بالطبـع فبالواجب ما يعرضـ في أضعاف ذلك من الأخذ والعطاء والمجاورة والمحاورة والمخالطـة والمعاشرة ما يكـون سببا لنظام الحال وأن يكون لانتشار الأمر ولا محالة أن هـذه وأشباهها مفيضـة بالناس إلى جملة ما نعتهم هؤلاء الذين روينا نظمهم ونثرهم وكتبنا جورهم وإنصافهم..».[١٨]

إن ما يلفـت الانتبـاه في الصداقة هو أنها تشكل مجال تعـارف نقطة التقاء، إنها ثابتـة ومستمـرة وليس بمقدورنـا شراؤها فهي مجانية بشكل من الأشكال هي لا تتكر اللـذات والمنفعة وإن كانـت تسعى وتهدف إلى شيء آخر، لقـد كان تحليل التوحيدي للصداقـة محاولة لفهم طبيعـة الإنسان أو تلك الطبيعة البشرية المعقدة وأيا كان موقفه من مسألة الصداقـة، فإنه قد استطاع من خلالهـا تحليل السلوك الأخلاقي ونقده في محاولة لإعادة بنائه على أسس سليمة.

ولربمـا كان التوحيدي مـن الفلاسفة الذين يلجؤون إلى الرمز، ويكتفون بالصمت، في بعض الحالات حينما يكون هذا الأخير أحسن ناقل ومعبر عـن حقيقة معينة تأبى الظهـور علنا وبهذا المعنـى اعتبر كتابه في الصداقة «.سـؤالا عميقا، وصمتا من نوع خاص، يرسم من خلالـه ملامح العلاقات

الاجتماعيــة والإنسانيــة في القرن ٤هـ في صورها المضطربة».[19]

أي نعم.. إن منحى الكتاب يميل إلى عدم الاعتراف بوجود الصداقة وهو يمثل نظرة متشائمة وموقفاً جامعاً بين اليأس والتمرد. إلا أنه يأس ناتج عن إحساس عميق بالغربة الاجتماعية وسيتطــور هذا الشعور ويتعمق أكثر ليصبح إحساســا بغربة وجودية تيقظ خلالهــا إحساس التوحيــدي بالذنب ومن عمق إحساسه بالذنب أدار وجهه إلى ملكوت الله طالبــا عنده الأنس ليجد في القرب من الله نوعاً مــن الطمأنينة وربما صداقة من نــوع آخر فانظــر إليه حين يقــول: «أوحى الله إلى بعضــ أنبيائه معاشر المتوجهين إليّ لمحبتي ما ضركم مــن عاداكم إذا كنت لكم سلما وما ضركم ما فاتكم من الدنيا إذا كان لكم حظا، كيف يفتقر من أكون حظه وكيف يستوحشــ من أكون أنيســه وكيف يذل من أكون عونه».[20]

وكأنــه يؤسس لعلاقــة صداقة مع الله فــإذا كانت صداقتنا لما يحيــط بنا تشعرنا بمعنــى الجمــال، وكانت صداقتنــا للناس تشعرنــا بمعنى القــوة، فــإن صداقتنا لله تشعرنا بمعنى الحق.

لقد كانت غربة التوحيدي غربة الإنسان بين أبناء جنســه، والإحساس بالغربة عامل أساسي ينبه إلى عدم التوازن بينه وبين نفسه وبينــه وبين مجتمعه، أمــا إذا توافق الوعي الذاتي مع الوعــي الاجتماعي فهو الشعور بالذات المتجاوبة مع الشعور بالآخرين وهذا ما يشهد على أنه اجتماعي في عمق طبيعته، يعيش في مجتمعه ويعايشه وهذا ما تضمنه الصداقة، فتتغلب الأنا بذلك على عزلتها.

لم يختلــف مفهوم التوحيــدي للصداقة كثيراً عن مفهوم معاصريه، فهو لما يتكلم عن ندرة الصداقة يلتقــي مع إخوان الصفا في اعتبارهم الصداقة نوعا من الأخوة وصفاء المــودة في عمومهــا لا تتحقق عنــد عامة الناس بل في جماعتهم فقط «لأن صداقتهم خارجة من ذاتهم وذلك أن كل صداقة تكون لسبــب ما.. إلا صداقة إخوان الصفاء، فإن صداقتهــم قرابة رحم، ورحمهــم أن يعيش بعضهــم لبعض ويرث بعضهــم بعض ذلك أنهم يرون ويعتقــدون أنهم نفس واحدة في أجساد متفرقة، فكيفما تغيرت حال الأجساد بحقيقتها فالنفس لا تتغير ولا تتبدل».[21]

إن الصداقة نفس صادقة تعرف معنى أن تحب حبا هادئا، تعــرف معنى أن تكون محلا لثقة الغير، تعرف كيف تروض نفسها علــى معرفــة الوفاء والالتزام بــه بقدر ما تستطيع.

والملاحــظ أن إخوان الصفاء قد نظروا

للصداقــة من زاويــة أخلاقية دينية فهم لا يعنون بالأصدقاء لغير معنى إلا لله، إضافة إلى ربطها بالنصيحة بمعناها الديني كفرض أو كتنبيه فهم يؤمنون أن «ليس من جماعة يجتمعون على المعاونة في أمر من أمور الدين والدنيــا أشد من نصيحــة بعضهم لبعض، ولا أحســن من معاملة إخوان الصفاء: ذلك أن كل واحــد منهم يرى ويعتقــد أنه لا يتم له ما يريــده من إعلاء الديــن إلا بمعاونة أخيه وكل واحد منهم يريد ويحب لأخيه ما يحب ويريد لنفسه، وكذلك يكره له ما يكره لنفسه»[٢٢]، وبهذا فهم يخضعون الصداقة لقيــم أخلاقيــة متعالية كالخــير والشر... إنها صداقة تكتسي طابــع الأخوة الدينية، وترتبــط بالواجب الدينــي أكثر مما تطرح كفضيلــة مدنية بشكل خاص، إذ من واجب المؤمن «أن لا يكــذب..ولا يخدع ولا ينخدع وينصــح ولا يخــون ويثق ولا يتهــم ويتودد ولا يتحاسد ويتحــاب ولا يتباغض ويوافق ولا يخالف ويتفــق ولا يختلف..يتعاون على صلاح الدين ويكونــوا (الأخوان الأصدقاء) كرجل واحد ونفس واحــدة تتكافأ دماؤهم وأموالهم».[٢٣]

وبهــذا يتضح أن الخطاب الإسلامي في عمومه يتكلم عن علاقة المؤمن بأخيه المؤمن لا عــن علاقــة الصديق بصديقــه أو عن علاقة الصداقة بشــكل عام، فمفهوم هذه الرابطة كعلاقة مدنية مازال غائباً أو مغيباً عن خطابنا، ففي الوقــت الذي استطاعت فيــه الفلسفــات الكــبرى ربــط موضــوع الصداقة بالعقل، والعدالة والسياسة وحتى الديمقراطيــة لا تزال هــذه النقاط مبهمة ومغيبــة في خطاباتنا ولعلّ السبب يكمن في أن الإســلام اهتم أكثر بعلاقــة العبد بربه أي مسألــة العبودية لله وعلاقة العبد بغيره ضمن ما يعرف بالأخــوة في الله أو الأخوة الدينيــة، مما حصر الصداقة كقيمة مدنية في حدود الهامش.

وأمــا التوحيدي فقد نظر إلى الصداقة من منظور أخلاقي عملي، ولم تكن مرجعيته في ذلــك مرجعيــة دينية لاهوتيــة محضة بقــدر ما كانــت فلسفية أدبيــة، فقد ربط بــين حب الذات وحب الغــير وربط الاثنين بالصداقة حينمــا قال إن الصديق هو آخر أنت ومن هنا تطرح مسألة العلاقة بين حب الذات وحب الغــير إذ الأنا في المفهوم العام والمتــداول للحب تتجرد مــن ذاتيتها لتنشد الغير أو الآخــر، وليس الصديــق سوى أنا آخر، وهكذا تكون هذه المحبة أبعد ما تكون عن التعالي والتمركز الذاتي كونها تعبر عن علاقة تقتصر كل المسافات بين الذوات.

إن الصداقة التي «كانت فضيلة أو على

الأقل مصحوبة بالفضيلة»[٢٤]، تراجعت في عصرنا الحديث فاقدة بذلك أهميتها القديمة، وإذا انعدمت الصداقة في المجتمع اليوم فلا شك أن السبب هو عدم تفسير معنى الصداقة، وما يتوقف عليها من أبعاد روحية تمكن الإنسان من التعرف على هويته الإنسانية وتمنحه مجالا يتجاوز فيه ومن خلاله ذاتيته، فالإنسان ليس في مقدوره تجاوز فرديته إلا بالتحامه مع الآخرين لأنه في جوهره وطبيعته ألفة وتواصل وبهذا المعنى تكون الصداقة في جوهرها تواصلاً وجدانياً عليه تتأسس علاقات الأنا بالغير فهي قبل أن تكون اشتراكاً واقتساماً لمعطيات الوجود هي أيضاً نوع من الالتزام يمنح فيه الصديق مسؤوليته اتجاه صديقه الأولوية على مسؤوليته تجاه نفسه وذاته وإن لم تكن المشاركة والاقتسام مبررا للصداقة فلا ضرورة لوجود الصديق.

وهنا نميز بين صداقة تكون عبارة عن توافق وملاءمة تلعب الصدفة دوراً كبيراً في إيجادها وبين صداقة نموذجية تحمل طابعاً استثنائياً وتشكل تزاوجا ومزيجا كونيا بين طرفين اثنين كتلك التي جمعت بين مونتاني وديولا بويسي: «إذا تمّ الإلحاح علي لقول لم أحببه، فإني أحس بأنه أمر لا يمكن التعبير عنه إلا بالجواب التالي: لأنه هو ولأنني أنا».

أما جاك دريدا فالصداقة عنده تمر بين الحي والميت.. إنها مسألة شهيق وزفير أي الحضور والغياب وبتعبير آخر حين يكون الحضور غيابا، والغياب حضورا، فالصديق بشكل ما يهبني موته كي أحافظ على البقاء باسمه، وإذا انطلقنا من عبارة التوحيدي الصديق آخر هو أنت فإن موت الصديق يعني موت الآخر.

لكن الصداقة التي تقوم على المشاركة في كل شيء لدرجة يكون كل شيء فيها مشاعا ستتحول في نهاية الأمر إلى ما يشبه الطغيان والاستبداد، إذ إن الصداقة والسياسة غالبا ما تتعرضان للخيانة والفشل الذي يحول دون تحققها فيصبح الصديق في هذه الحالة عدواً عنيداً، إن عبارة «العدو الصديق» كانت أطروحة نيتشه فقد انطلق من عبارة أرسطو: «أيها الأصدقاء لم يعد هناك صديق» ليصل إلى عبارة: «أيها الأعداء لم يعد هناك عدو» وهنا تتداخل وتتشابك المتناقضات...الصداقة/ العداوة..فيظهر لنا مفهوم الصداقة متميزا بالمغايرة والاختلاف..بعد أن كان عند أرسطو نموذجا للمماثلة والتشابه يسعى لتحقيق المساواة، والعدالة وهذا ما اعتبره

-نيتشه- وهماً زائفاً في محاولة تأسيس مغايرة تستند على الاختلاف في مكان الوحدة، لقد تساءل نيتشه من جديد عن الصديق؟؟ وكيف يمكن للشيء أن يتولد من ضده ونقيضه ومن هنا كان رفضه لفكرة الشبيه والمماثل.. لقد ثار على التقسيم الميتافيزيقي للصداقة لأنه رأى فيها نوعا من المسكوت عنه وكبتاً للصراحة فإذا كان لابد للصديق أن يتعلم لغة الصمت لكي يظل صديقاً، فمن أين لنا بصديق صامت؟؟ إن هذا السؤال هو جوهر نداء زرادشت «إن المرأة غير قادرة على الاضطلاع بالصداقة، ولكن قولوا لي أنتم الرجال من منا قادر على الصداقة..؟؟».(٢٥)

هكذا أصبح سؤال الصداقة من الموضوعات الرئيسة في الفلسفة المعاصرة، فقد تطرق له جاك دريدا في «سياسات الصداقة»، وميشال فوكو في «الجنون والمرض والعقاب»، وجيل دولوز الذي اعتبر الصداقة مسألة جوهرية في الفلسفة، هذه الأخيرة التي لم تبق محبة للحكمة بل صداقة للمفهوم.

إن هذا الانتقال من الحكمة إلى المفهوم ومن الحب إلى الصداقة هو في جوهره تعبير عن فعل نقدي يرفض رؤية المفاهيم من منظار «مع» أو «ضد»، يعبر عن هذا وبشكل متميز إيمانويل ليفيناس من خلال نقده لفكرة الشبيه التي تأسست عليها الصداقة في الطرح الغربي، حيث اعتبر تحويل الذات إلى موضوع أو التعامل مع الآخر كموضوع عملاً تعسفياً، لأننا بتحويله إلى موضوع لا نحرمه الحق في العيش، بل نحرمه الحق في الحياة.

لقد آمن أن الأخلاق الفعلية هي تلك التي لا تسعى لامتلاك الآخر أو السيطرة عليه لأن كل معرفة -حسبه- هي سيطرة، كما نادى بضرورة تأسيس الأخلاق على الآخر بل وأكثر من ذلك أن تتأسس الأخلاق على المسؤولية تجاه الآخر وبتعبير ليفيناس -نفسه- على علاقة وجه- وجه وليس كتف- كتف التي تعم المجتمعات الإخواتية وهي الفكرة ذاتها التي اشتغل عليها جاك دريدا محاولاً تفكيكها ومعتبراً إياها خطرا على «الديمقراطية القادمة» متسائلاً: ماذا نقصد بكلمة «الأخ»؟؟ أو عندما ننادي أحدا «بأخ» وعندما نختصر أو نلغي بهذه الكلمة كل الاختلافات مع الغير كآخر مختلف؟؟ ويضيف محذرا «إنه لا خطر على الديمقراطية القادمة، إلا من حيث يوجد الأخ، ليست بالضبط الأخوة كما نعرفها، ولكن حيث تصنع الأخوة القانون وتسود الدكتاتورية السياسية باسم الأخوة».(٢٦)

ممـــا يعني أن الدعوة إلى الأخوة العالمية قد تلغي معها الغيرية، وقد تلغي معها الحق في امتــلاك الآخر، إن دريدا لم ينفك يصرح أنه إذا كانت هناك أخلاق خالصة، فهي تلك الأخلاق التي لا تبغي امتلاك الآخر وذلك هو جوهر التصور الذي حمله التوحيدي في رسالته حول الصداقة والصديق..

ولأن الحديث عـــن الصداقة هو حديث عن المؤاخاة والاحترام والمجاورة، وهو كذلك في اللقــاء أو السفــر إذا أخذنــاه بمنطلق انزيــاح الذات ونزوعهـــا للالتقاء مع الآخر والاقــتراب منه بشكل يجعلها تحاوره وتقبل به كمـــا هو والصداقة في كل ذلك تلمس ما يطرأ مـــن تحولات مـــن أشـــكال الإقصاء والنفي، أو أشكال الترحاب والضيافة وبذلك وجـــب التفكير في كيفية إدماج الآخر ككيان ثقافي مغـــير ومختلف؟ ولا نعني بذلك إدراج هذا الآخـــر في النصوص الثقافية بقدر ما نتســاءل عن مدى قدرة هذه النصوص على استيعابـــه واستقباله خالقـــة بذلك شروطاً للضيافة والتواصل؟؟ وباختصار كيف يمكن أن تتحقق من خلال الصداقة إمكانية العيش معا؟؟ هي نفسهـــا الصداقة التي رأى فيها أرسطو من قبل ميـــزة للحياة المشتركة ومع أفلاطون كان أفضل الأصحاب أو الأصدقاء هم طلاب الحقيقة.. ولكن ماذا عن نظرتنا نحن للصداقة.. ألم يحن الوقت بعد للتفكير في الصداقة؟؟.

الهوامش والمراجع

١- أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصديق، فقرة «١٣ب»

٢- أبـــو زيد عبد الرحمن بـــن خلدون- مقدمة ابن خلدون لكتاب العبر وديـــوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجـــم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق كاترمير، القاهرة، المطبعة المصرية، ج ١، ص٥٧.

3- Aristote -Politique , Edition Flammarion- Paris2001- livre3 chapitreA.

٤- أبـــو حيـــان التوحيدي، المقابســـات، تحقيق وتقديم محمد توفيـــق حسن، مطبعة الإرشـــاد، بغداد ١٩٧٠، ص٤٧٣.

٥- عطـــاء الله زرارقة، تجليات النزعة الإنسانية في الفكر العربي، أبو حيان التوحيدي، ط١، المطبعة العربية غرداية، الجزائر، (دت)، ص١١٦.

٦- الصداقة والصديق، طبعة القاهرة، ص١/٢.

٧- إبراهيم الكيلاني، مقدمة الصداقة والصديق، ص١٩.

٨- المصدر نفسه والصفحة.

٩- أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصديق، إبراهيم الكيلاني، ط٢، دار الفكر، دمشق، سورية، ١٩٩٨، فقرة ٢١.

١٠- المصدر نفسه، ص٢٣.

١١- أبو حيان التوحيدي، المقابسات، مصدر سابق، ص٢٥٩.

١٢- أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصديق، مصدر سابق، فقرة (١٢أ).

١٣- المصدر نفسه، فقرة (١ب).

١٤- المصدر نفسه، فقرة (٧ب).

١٥- المصدر نفسه، فقرة.

١٦- المقابسات، ص٨٩.

١٧- الصداقة والصديق، فقرة (ب٢٤).

١٨- الصداقة والصديق، فقرة (٢٥أ).

١٩- عطاء الله زرارقة، تجليات النزعة الإنسانية في الفكر العربي، ص٦٩.

٢٠- التوحيدي، البصائر والذخائر، تحقيق: إبراهيم الكيلاني، مج٢، مكتبة الأطلس، دمشق، ص١٥٩.

٢١- إخوان الصفا، الرسائل، ج٤، ص٤٦.

٢٢- إخوان الصفا، الرسائل، ص١٠٩.

٢٣- إخوان الصفا، ص١٠٠.

24- Aristote –Ethique de Nicomaque ,. P207.

٢٥- فريدريك نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ص٨٣.

26- Jacque Derrida – Politique de l'amitié – Edition galilée – 1994– p76.

آفاق المعرفة

النابغة الشيباني... حياته وشعره

د. نزار عوني ⊙

ديــوان «النابغة الشيبــاني» من الدواوين الشعرية التــي تأخر تحقيقها، ففــي تراثنا العربــي كثير من الكنوز الدفينة التي تحتــاج إلى بحث ودراسة وتحقيق لتخرج بصورة علمية واضحــة يستفيد منها القارئ والدارس. فما كان معروفــاً عن النابغة الشيباني قبل سنين لم يكن يتعدى قصائد مبثوثة في بطون كتب التراث.

ففي عام ١٩٣٢ نشر أول كتاب يحوي قصائد وقد نشره الباحث المصري الشنقيطــي، ولكنــه كان غير واضح المعالم ودون شــرح وافٍ. وفي عام ١٩٨٠

⊙ ناقد سوري.
العمل الفني: الفنان عماد كسحوت.

كان شعــر الشيباني وحياتــه موضع دراسة مستفيضة تقدم بها الباحث العربي السوري عبـد الكــريم إبراهيم يعقــوب إلى جامعة الإسكندرية ونال بها درجة الدكتوراه فأعاد الاهتمام بهذا الشعر وذلك الشاعر.

من هو النابغة الشيباني؟

هو عبــد الله بن المخارق الشيباني. ولد سنة٣٥هــ. وكانت وفاتــه سنة١٢٦هـ. فهو شاعر من شعراء العراق وهو أشعر من ظهر من الشعــراء في قبيلة «شيبان»ولذلك أطلق عليه لقب «النابغــة» لتفوقه في الشعر على معاصريــه من الشعراء في زمنه. وربما يعود سبــب تسميته «النابغة» أن قبيلته كانت أقل شعراً من غيرها من القبائل مما جعله موضع حفــاوة وتقدير. وقــد تناقل شعــر النابغة الشيباني كثيرون مــن الرواة في زمنه منهم: حماد الرواية وأبو عمر الشيباني وحماد بن اسحق والعقبي وابن أبي الأزهر.

وكان الشيبــاني يكــثر من الــتردد على الشام لمدح الخلفاء الأمويين بقصد التكسب، وشعره في مدحهم واضــح الصنعة، غير أن الشيبــاني اشتهر بشعره الغــزلي وشعره في الحكمة.

شعره الغزلي:

يستهل الشاعــر قصائده بالغزل. ويبدو أنــه كان عاشقاً متيماً، أضنــاه الهوى وآلمه الغرام، فقد أحب امــرأة تدعى «سلمى» أو «سليمى» لفترة طويلة ثم أحب امرأة اسمها «أميمــة» ولكن لفترة قصــيرة لأن اسمها لا يتكــرر إلا نادراً في شعــره على العكس من «سلمــى» التي تكاد لا تخلــو قصيدة له من ذكرها ووصف محاسنها.

ففــي قصيدتــه الطويلة التــي تتصدر ديوانه وتتخذ حرف القاف قافية لها، يتقطع الشاعر شوقــاً لحبيبته، فما أقل ما تعطف عليه وما أكثر ما تبتعد عنه، فهي تكتم حبها ولا تدري ماذا تفعل بسبب ذلك الحب، فهي مثله تعاني وتكتوي بنار الشوق يقول:

أرقــتُ وشــرُّ الــداء هــمَ مــؤرقُ
كــأني أسـيرٌ جـانـب الـنـوم مـوثـقُ

وأعـجـب سلـمـى أن سلـمـى كـأنـهـا
مـن الحسـن حــوراء المدامـع مُـرشـقُ

تـعـطـفُ أحــيــانــاً عــلـيـه وتـــارة
تكاد -ولم تغفل- من الوجد تخرقُ

ويصف الشاعر مفاتن سلمى وصفاً فيه عذوبة وشفافيــة، فهي عندما تتبسم تظهر أسنانهــا وكأنها صف من الأقحوان في حقل جميل، أما ريقهــا فهو مسك وعنبر ممزوج بالخمر، وهي تمنع العاشق الولهان أن يمس ذلك العنبر وذلك الخمــر في فمها ولو أدى الأمر إلى موت العاشق شوقاً لها.. قد يحزن

الحمام لحالة ذلك العاشق لكنها هي لا تأبه لذلك أبداً:

وتبسمُ عن غرّ رواء كأنها
أقاحُ بريان من الروض مُشرقُ
كأن رضاب المسك فوق لثاتها
وكافورٌ داري وراحٌ تُصفقُ
حمته من الصادي فليس تُنيله
وإن مات ما غنى الحمامُ المُطوقُ

ويذكر في إحدى قصائده أسماء نساء تعلق قلبه بهن، وهؤلاء لهن نهود بارزة تتدلى بوقار كما تتدلى عناقيد التمر من النخلة، وهن يرتدين الحرير الناعم، الفاخر، وثياب حمر ويزين الوشم وجوههن.

أما عيونهن فهي واسعة كعيون المها، وحُسنهن كحسن الدمى أما نظراتهن فتأخذ الألباب، يقول:

ألا هاج قلبي ظُعنٌ بواكرُ
كما هاج مسحوراً إلى الشوق ساحرُ
سليمى وهند والربابُ وزينبٌ
وأروى وليلى صدنني وتماضرُ
كواعب أتراب كأن حمولها
من النخل عمريّ النخيل المواقرُ
تعلق ديباجٌ عليهن باجل
وعقل ورقم يملأ العين فاخرُ
لهن عيونُ العين في صور الدمى
وطرفٌ ضعيفٌ يستبي العقل فاترُ

ويبدو لنا من خلال دراسة شعره أنه قلما كان يتواصل مع حبيبته، فهي كما يقول، لا تجود له باللقاء، كما أنها لا تجود عليه بالحديث إذا ما التقاها، فهي تشير إلى ما تريد بكلمات قليلة.. وهي تبتعد ما استطاعت عن الفحشاء لأنها نبيلة الخلق، كريمة الأصل:

اتصرمُ أم تواصلك النجودُ
وليس لها وإن وصلتك جودُ
إذا لاينتها مطلتْ ولانت
وفيها حين تنزرُها صلودُ
تشير إلى الحديث بحسن دل
عن الفحشاء مُعرضة حيودُ

ثم ينتقل الشاعر الشيباني بعد هذه الأبيات للحديث عن جمال حبيبته الذي لا مثيل له فيصف هذا الجمال وصفاً حسياً، فلها المهابة والجمال وشعرها مسدول على كتفيها عن يمين وعن شمال، أما عيناها فهما كعيني بقرة وحشية لشدة اتساعهما، وتزين عنقها ونحرها قلادة رائعة:

لها وجه كصحن البدر فخمُ
ومنسجر على المتنين سودُ
وعينا برغز خرق غرير
وزان النحر واللبات جيدُ

ويصف لنا الشاعر لقاءه بحبيبته «سلمى» ويبدو أن لقاءه بها كان نادر الحصول. فقد

التقاها ذات مرة وهي موشحة بالحرير الفاخر، وقد نعم بهذا اللقاء.. واستمتع بمرأى هذه المرأة الجميلة، فهي جميلة إذا جلست وجميلة إذا وقفت فالعين لم تر جمالاً كهذا أبداً:

لقد واصلتُ سلمى في ليالِ
وأيامٍ وعيشٍ غير عشّ
لقد هازلتها في يوم دجنٍ
على عُتقٍ من الديباجِ فرشِ

ويذكر الشاعر الشيباني زيارته إلى مدينة «بعلبك» في بلاد الشام، وهنا يذكر شوقه لامرأة تدعى «أميمة».. حيث يقول:

أرقتُ وصاحبايَ ببعلبكَ
وأرقني الهموم مع التشكّي
وهيّج شوق محزونٍ عميدٍ
خيالٌ من أميمةَ هاج ضحكي

ويعترف الشاعر أن أميمة لم تبادله الحب لهذا فهو محزون مهموم فلقد رمته بسهامها. أما هو فلم يصبها بسهمه.. فتركت الحزن والأسى والذكرى له:

أضحت أميمةُ لا ينالُ زمانها
واعتاد نفسكَ ذكرُها وسقامُها
ورأت سهامك لم تصدها فالتوتْ
واختلَ قلبُك إذ رمتك سهامُها



فاشتقتُ إذ شطَتْ وهاج كآبتي
ذكرى ونفسي شفني تهامُها

الحكمة في شعر الشيباني

تروي المصادر أن النابغة الشيباني لم يقل شعراً حتى بلغ الخمسين من عمره، أو ربما لم يشتهر أمره كشاعر حتى بلغ هذه السن. ونرى كثيراً من الحكم في شعره فهو يرى أن الدهر يغيّر الإنسان ولكن الدهر لا يتغيّر إذ لا أحد يستطيع إيقاف الزمن أو يغيّر مساره.. يقول:

يبلى الشباب وينفي الشيبُ بهجتَه ... والدهر ذو العوص يأتي بالأعاجيب

ما يطلب الدهر تدركه مخالبه ... والدهر بالوتر ناجٍ غير مطلوب

وعلى المرء ألا يمتدح أحداً أو يذمّ أحداً إلا بعد أن يجرّبه ويتأكد من طباعه:

لا تحمدن امـرأً حتى تجرّبه ... ولا تذمّنه من غير تجريب

وقد جاءت قصائد الشاعر في الحكمة والموعظة في المرحلة الأخيرة من حياته حيث عاش عمراً مديداً جاوز التسعين عاماً. فهو يرى أن على المرء أن يبتعد عن لهو الشباب عندما يبلغ مرحلة الكهولة ويعلو الشيب رأسه. فإذا لم يقلع عن ملذات الشباب فهو مفرط في اللهو والجري وراء المتع:

ذر الشباب فلا تتبع لذاذته ... إن الذي يتبع اللذات مقترفُ

إن الشباب جنونٌ شرخ باطل ... يقيم غضاً زماناً ثم ينكشفُ

من يعله الشيبُ لم يُحدث له عظةً ... فذاك من سوسه الإفراط والعنفُ

ويقول في النصح بعدم الإطمئنان إلى التمام:

ولا تثقنّ بالتمام فيما ... حباك من النصيحة في الخلاء

وايقن أن ما أفضى إليه ... من الأسرار منكشف الغطاء

ذلك هو النابغة الشيباني شاعر كبير من شعراء العصر الأموي وقد خرج ديوانه بعدما لفّه النسيان زمناً طويلاً، تتنوّع أغراضه الشعرية، غير أن شعره الغزلي وشعره في الحكمة يفوق ما عداه.

الهوامش

١- الحوراء: التي اشتد بياض عينها وسواد سوادها -المرشق: الظبية عندما تنظر - تخرق: تتحير فلا تدري ماذا تفعل.

٢- الغـرّ: جمع غـرّاء والمراد الأسنان -الرواء: حسنـة المنظر المرتوية -. الرضاب: الفتـات. الداري: العطار - الصادي: الظمآن.

٣- ظعن: جمع ظعينة وهي المرأة في الهودج -كواعب: ثدياها بارزان- الرقم: الوشم.

٤- أتصرم: ابتعد- النجود: المرأة العاقلة.

٥- الفخم: الامتلاء والمهابة -المنسجر: المسدول -البرغز: ولد البقرة الوحشية.

٦- عش: دقيق -عتق- كرام

٧- العوص: الصعب.

المصادر والمراجع

١- تاج العروس- محبّ الدين أبو الفيض.
٢- معجم البلدان- ياقوت الحموي.
٣- تاريخ الأدب العربي -العصر العباسي، د. شوقي ضيف.

آفاق المعرفة



الذكرى الخامسة والسبعون لرحيل الموسيقار والملحن الأرمني كوميداس

د. نورا أريسيان ◎

«الشعب هو أكبر مبدع، اذهبوا وتعلموا منه. نحن نعرف الأرياف بجهلها ولكنهـا تتمثل أمام عيني كمكان مقدّس للفن الأرمني، فأرى هناك الأغنية الأرمنيـة على شفـاه القرويات. فالمحراث والمنجل والأحجـار كلها مقدسة بالنسبة لي».

بهـذه القناعة انطلق كوميداس في ظروف صعبة وجال لأكثر من عشرين عاماً في العديد من القرى في أرمينيا وجمع أكثر من ثلاثة آلاف أغنية شعبية من أفواه القرويين.

◎ باحثة ومترجمة سورية.

العمل الفني: الفنان جورج عشي.

ولد صوغومون صوغومونيان في كوتاهيا (غرب تركيا) عام ١٨٦٩ في عائلة تُعنى بالموسيقى. توفت والدته وهو لم يكمل السنة، وفقد والده عندما بلغ الحادية عشرة من عمره، فعاش في كنف جدته ولم يتحدث إلا باللغة التركية.

في عام ١٨٨١ وبفضل موهبته الغنائية، اختاره مطران القرية من بين /٢٠/ طفلاً يتيماً لإيفاده إلى «إيتشميادزين» -أو كاثوليكوسية عموم الأرمن أي مقر الكنيسة الأرثوذكسية الأرمنية في أرمينيا-.

رغم أن هذا الصغير لم يكن يتقن الأرمنية، إلا أنه كان قد تعلم الغناء وخاصة الألحان الدينية بالأرمنية في البيت من والده وأعمامه. وعندما خاطبه الكاثوليكوس (وهو رأس الكنيسة الأرمنية) لم يفهم هذا الصغير القروي والبائس، فغضب الكاثوليكوس وكاد أن يرفض المرشح الذي لا يتقن الأرمنية. لكن صوغومون أجابه: «أنا لا أتقن الأرمنية لكنني أغني بالأرمنية». وبدأ بالغناء فاستمع إليه الكاثوليكوس وتأثر بصوته فبكى.

تعلم هذا الصبي الموهوب خلال عام واحد اللغة الأرمنية وكذلك الأرمنية القديمة الـ«كرابار»، وتابع كل الدورات والدروس في معهد «كيفوركيان» التابع للكاثوليكوسية في ايتشميادزين، والذي يعتبر أهم مؤسسة تعليمية لرجال الدين في علوم اللاهوت والأدب والموسيقى وغيرها.

نصِّب كاهناً عام ١٨٩٤، وسمي باسم «كوميداس» على اسم كاثوليكوس أرمني في القرن السابع، كان شاعراً وموسيقاراً. لفت كوميداس الانتباه، وسطع اسمه عندما أسس عدة جوقات غنائية. وبعد تخرجه من المعهد، تم تعيينه أستاذاً في ذات المعهد، وقائداً للجوقة في الكنيسة.

وفي الحقيقة لم تشكل الموسيقى الأرمنية في منتصف القرن التاسع عشر، وبدأت تتطور وفق مبادئ الموسيقى الروسية مع إغفال اللغة الموسيقية الوطنية الأرمنية. فكانت الموسيقى والأغنية الشعبية الأرمنية «متعددة الأصوات» هي الوحيدة القادرة على خلق لغة الموسيقى الأرمنية وأسلوبها الفريد. فقد كانت الأغنية الأرمنية الشعبية منها والكنسية «أحادية الصوت» منذ قرون طويلة. وأول من جعلها متعددة الأصوات هو «كارا مورزا». وقد أتى إلى معهد كيفوركيان وأسس فرقة ولم يحجب عن ناظريه موهبة صوغومون الذي ضمه إلى مجموعته وجعله مساعداً له[1].

لقد كتب الكثير عن فترة بقاء كوميداس في المعهد، وكيف كان بعكس زملائه الذين يذهبون في العطلة إلى القرى، بينما كان

كوميداس ينتظر الزوار في المعهد لكي يستمع إلى أغانيهم وصلواتهم ويسجلها.

ويذكر أنه لم يكن يشارك في التدريبات الرياضية والركض الذي يمارس الطلاب، بل كان يردد صوته النوتات الأرمنية: «خو، نيه، با، بو،...»، وثم الأوروبية: «دو، ري، مي، فا، صول،...».

كانوا يطلقون عليه تسمية «نوتجي» عندما كان يأخذ بمداد قلمه ويسجل الألحان المغناة من حوله. كان يبقى وحيداً في غرفته الفارغة، إلا من طاولة وكرسي عادي، أما سريره، فكان عبارة عن خشبة وأغطية بسيطة. كان يعيش حالة من الحلم بين تدفق الأنغام وعذوبة الأصوات.

كان لديه موهبة في تعليم الأغاني «متعددة الأصوات» بسرعة كبيرة. وهكذا درّس تلاميذه خلال أسبوعين «القداس» الذي قام بتوزيعه.

وبعد فترة تم إيفاد كوميداس إلى برلين عام ١٨٩٦ ليدرس الموسيقى في معهد البروفسور «ريتشارد شميت» وأكمل دراسته في التاريخ والفلسفة في جامعة «كايسر فريدريخ ويلهلم». وفي نهاية الفترة الدراسية، كتب بحثاً في الموسيقى الكردية.

كان كوميداس مولعاً بدراسة موسيقى الشعوب، فقد درس الموسيقى الجيورجية والإيرانية والعربية والبيزنطية. وعند تواجده في أوروبة تعرف إلى الموسيقى الفرنسية والألمانية والروسية.

قدم بحثه إلى «المجمع الدولي للموسيقى»، ونال إعجاب المختصين، وكان أول موسيقي غير أوروبي ينضم إلى عضوية المجمع وكان يشارك في اجتماعاتهم، ويلقي محاضرات، ويغني بنفسه.

عاد إلى أرمينيا بعد حصوله على الدكتوراه في علوم الموسيقى. ومن هنا بدأت مسيرته في جمع وتسجيل الأغاني، حيث لم يتوقف عند حاجز كونه رجل دين، فكيف بكاهن يتنقل بين الأرياف ويجلس مع القرويين ويستمع إلى أغانيهم. ووجد الحل بالتخفي والاستماع إلى أغاني القرويين الشعبية من خلف الجدران، ومن أسطح منازلهم حيث كان يسجل ما يسمعه.

وهكذا جمع أكثر من ثلاثة آلاف أغنية ارمنية، وصاغها وقدمها بشكلها النهائي، فكانت متناغمة من خلال الغناء المنفرد والغناء الجماعي وبتعدد الأصوات. في الحقيقة، قام كوميداس بتنقية الموسيقى الأرمنية من ما يشوبها ليجعلها ذات طابع متميز. طبعاً لم يكن همه في ذلك جمع الأغاني فقط، بل دراستها حيث وجد قواعد الأغنية الأرمنية. إذ وجد أن الموسيقى الأرمنية لا



تشبه الموسيقى الأوروبية، وجزم بأن الموسيقى الأرمنية مبنية على البعد (ذو الأربع) وليس على طريقة (ذو الثمانية). فحسب كوميداس أن كل أغنية أرمنية كنسية أو شعبية تكون مكتوبة على مبدأ البعد ذو الأربع (tetrachord).

كما أنه وجد قاعدة أخرى وهي بخصوص الأوزان. فالأوزان الأرمنية تتعلق بنبرة الكلمات، ونبرة القصيدة والمعنى. وبذلك ليست محددة بمقاييس الأوزان الأوروبية فهي حرة، ما يعطيها غنىً أكبر. كان هدف كوميداس أيضاً إيقاظ الوعي لدى الأرمن من خلال جمع الموسيقى والألحان الأرمنية الشعبية وصياغتها في قالب وطني، ونشر جمالية الموسيقى الأرمنية لدى الشعوب الأخرى.

لقد تناول في العديد من مقالاته التي سطرها هوية الموسيقى الأرمنية، ما يجعله متأسفاً بأن التاريخ لم يكتب الكثير عن الألحان الأرمنية الروحية ولا عن النوتات. وينسب انطلاق الألحان الكنيسة الأرمنية القديسة إلى «القديس ساهاك» في فترة اكتشاف الأحرف الأبجدية الأرمنية. فقد أدى اكتشاف الأحرف في القرن الخامس الميلادي وترجمة الكتاب المقدس إلى ولادة أغاني دينية، ومع تطور الكنيسة ومراسم القداديس ظهر عدد من المنشدين الذين لحنوا التراتيل والأناشيد الدينية بهدف تبسيط معاني الأعياد المقدسة والطقوس الدينية. وهكذا غناء المزامير مهد لألحان التراتيل.(٢)

ونقتبس الأسطر التالية من مقالة

كتبها كوميداس صدرت في ١٨ أيلول ١٩١٣ في جريدة «أزادامارد» الصادرة في القسطنطينية: «لقد قمت بتدوين مواد تاريخية وقعت بين يدي من مصادر أجنبية وأرمنية، ولكنني لم أدرسها. لقد كان محور دراستي واهتمامي المقامات الأرمنية القديمة التي شكلت فكرة عنها من خلال جمع وترتيب وتدقيق المواد خلال عشرين عاماً لوحدي. وقد قمت بهذا العمل من خلال التعمق في معاني المقامات بهدف وحيد وهو أن أتمكن من إظهار الألحان القديمة الأرمنية من المخطوطات، وملاءمتها مع المتطلبات الحديثة من أجل تدعيم الموسيقى الكنسية، وأما الموسيقى الدنيوية فهي تعيش بفضل القرويين. وعندما نتملك من الموسيقى الكنسية والدنيوية نكون قد شكلنا فكرة أعمق عن الموسيقى الوطنية بشكلها الكامل».

من أهم أعمال كوميداس المنشورة: «الموسيقى القروية الأرمنية» و«أغاني شعبية وكنيسة أرمنية» اللتان تلقيان الضوء على النظريات الخاطئة بشأن الموسيقى الأرمنية. وفي عام ١٩٠٦ صدر في باريس بجهود أصدقائه باكورة أعماله بعنوان (الغناء الأرمني) مجموعة «أغاني قروية» كما له العديد من الأعمال الهامة التي تطرقت إلى دراسة الموسيقى الدينية الأرمنية حيث أثبت أنه هناك علاقة وطيدة بين الأغاني التراثية والدينية.

ومن أهم أعمال كوميداس هي صياغته للأصوات المتعددة في الأغاني التراثية التي تأتي من عمق الموسيقى الوطنية. وبفضل كوميداس، تم وضع أشكال جديدة للأصوات المتعددة في الأغاني الأرمنية مما ميزها عن أغاني الشعوب الشرقية الأخرى.

وظهرت قيمة أعمال كوميداس، عندما قام العديد من الباحثين من خلال دراسة أغانيه بالمقارنة مع أغاني شعوب أخرى. وكذلك عند إجراء مقارنات بين أشكال عديدة من الأغاني في مناطق مختلفة في أرمينية وأريافها.

يعتبر بعض الباحثين أن الفترة ما بين ١٨٩٩-١٩٠٥ كانت أكثر الفترات ثراء، حيث كان كوميداس يتابع عدة مجالات في الثقافة الموسيقية في وقت واحد، فكان قائداً للجوقة في المعهد، ويقوم بتأليف وتحضير كتباً دراسية للموسيقى، ويؤلف كلمات أغاني شعبية، ويلحن، ويحضر دراسات للمجمع الدولي للموسيقى.

من أعماله أيضاً جمعه وتسجيله لأكثر من ثلاثة آلاف لحن أرمني، وكردي وإيراني وعربي، وعشرات الدفاتر التي تحوي

نظريات تحويل النوتات الأرمنية، وأعمال حول دراسة الأغاني الشعبية، ومسودات أغاني وغيرها.

وما يعرف الآن من أعمال لكوميداس هو جزء من تلك الأعمال الضخمة والذي يشكل أساس علم الموسيقى الشعبية الأرمنية.

كان كوميداس يسعى إلى إظهار الأغنية، كونها حياة القروي، وتجسيد فني لمشاعره وعمله. ولذلك يعتبر كوميداس باحث في الدراسات التراثية، وظاهرة فريدة في الثقافة الأرمنية الحديثة.

كان كوميداس حريصاً على الاحتكاك بالعالم الغربي، ونجح في تعريف الموسيقى الأرمنية أمام كبار الموسيقيين الأوروبيين، حيث كانت له مشاركة ناجحة في المؤتمر الدولي للموسيقى الكنسية في برلين عام ١٩٠١. وبعدها أطل على الفرنسيين بعد تمكنه من مشروعه في تأسيس جوقة. فدخل «معهد الدراسات الاجتماعية العليا» للتعرف على علوم الموسيقى الفرنسية، ودأب على دراسة أعمال الموسيقار كلود دوبوسيه وعزفها، وتعرّف على أعمال العديد من المؤلفين الكبار الفرنسيين أمثال: موريس رافيل وكابرييل فوريه وغيرهم.

استطاع كوميداس أن يجمع جوقة مؤلفة من مغنين أرمن وفرنسيين، ودربهم على الأغاني الشعبية، والأغاني الدينية الأرمنية. وبعد أن تمكن من إتقان اللغة الفرنسية، وكانت فرقته قد انتهت من التدريبات وأصبحت جاهزة، قرر تقديم الحفلة المنتظرة في باريس، لتكون أول تجربة لتقديم الأغنية الأرمنية التراثية أمام النخبة من الجمهور الفرنسي عام ١٩٠٦. وبعد العرض يتقدم كلود دوبوسيه نحو كوميداس وينحني أمامه قائلاً له: «أيها الأب كوميداس، أنا أنحني أمام براعة الموسيقى الأرمنية». وقال للجمهور: «كان يكفي لكوميداس أن يكتب أغنية «أندوني» فقط، لكي يكون من الموسيقيين العظماء في العالم».

وفي عام ١٩١٠ انتقل إلى القسطنطينية وأسس جوقة الغناء «كوسان» المؤلفة من ثلاثمئة شخص. وبعد أن ارتفعت الأصوات بالأغنية الأرمنية، راح يؤسس فرقاً غنائية في كل المدن التي زارها مثل: برلين، وباريس، وجنيف، والإسكندرية، والقاهرة، وتبليسي، وباكو، حيث كانت تلك الفرق تنشد الأغنية الأرمنية الشعبية منها والكنسية.

لقد أبدى كوميداس خلال حياته الموسيقية اهتماماً بالغاً بالموسيقى الأرمنية الشعبية، ودراسة الموسيقى الدينية على حدٍّ سواء، معتبراً إياهما أخاً وأختاً ولدا من ذات الجذور.

كان يقلقه وضع الموسيقى الكنسية بشكل عام، وقد بحث عن طرق جديدة لتنقية الموسيقى الدينية وأساليب تطورها. حيث قدم من خلال كتاباته مشروعه موضحاً فيه أفكاره في إعادة إحياء وتطوير الموسيقى الدينية. حيث أخذ بعين الاعتبار الوضع المتردي للموسيقى الدينية، وبناء على الدراسات النظرية التي استكملها أقدم كوميداس على تأليف «القداس».

ويتصدر «القداس» قمة أعماله التي ما زالت تُنشد حتى يومنا هذا أثناء الطقوس الدينية في الكنيسة الأرمنية. وقد اعتمد فيها المبادئ التالية: التخلص من التنغيمات الأجنبية، وخلق انسجام بين الاحتمالات التي أوجدها، واختيار ما هو الأقرب إلى روح الموسيقى الكنسية الأرمنية، وملاءمة نظم الشعر بمعنى الكلمات، والاستفادة من المقامات القديمة عند تغيير اللحن. وقد تم تسجيل «القداس» أول مرة في باريس عام ١٩٣٢. والتي تعتبر من أهم الأعمال «متعددة الأصوات» التي ألفها كوميداس في إطار موسيقى الكنيسة الأرمنية.

لقد صاغها من خلال جمع الألحان من كهنة «إيتشميادزين»، وكهنة قرويين، وألحان تراثية قديمة انتقاها، لأنها تحمل الطابع الأرمني(٣).

من النادر جداً إيجاد فنان أو نحات أو رسام أرمني لم يتأثر بكوميداس وفنه. فقد أضحى كوميداس مادة دسمة للفنون الأخرى، كالفنون التشكيلية، والأفلام الوثائقية، والمسرحيات وغيرها. كما اندرج بين أعمال وإبداعات كبار وعمالقة الأدب الأرمني.

فقد تناول الشاعر المعروف باروير سيفاك عام ١٩٥٩ في قمة أعماله الملحمية «الناقوس الذي لا يصمت» حياة الموسيقار كوميداس ومصيره، وتتجلى فيها رؤيته وأفكاره، إذ إن الكتابة عن كوميداس تعني الكتابة عن الشعب الأرمني بأكمله، بأغانيه، ودموعه، بماضيه ومستقبله. ومن خلال صوره الشاعرية عالج فكرة الوطن المسلوب، والقهر المستمر، وتشكل هذه الملحمة في بنيتها وخصوصية تعبيرها الشعري ظاهرة فريدة في الشعر الأرمني.

وقال عنه الموسيقار آرام خاتشادوريان: «موسيقى كوميداس هي صافية كتدفق ينبوع جبلي. فإذا أراد الملحنون الأرمن المعاصرون -وينبغي عليهم ذلك- المشاركة في تكوين المدرسة الموسيقية الأرمنية، فيجب عليهم التعرف على كوميداس من صميم قلوبهم».

إن الأسلوب الخاص لتعدد الأصوات الذي اعتمده كوميداس أثرى الأغنية

الأرمنيـــة. ويمكن ذكر بعضـــ الأغاني التي تبرز التعبيـر الصادق عــن خلجاته وحزنه ومنها: (كارونا) أي «إنـــه الربيع»، و«شجرة المشمشــ» و«آه حبيبتي مـــارال» و(أندوني) -أي المشرد في بيتـــه-، والتي تصور عذاب الإنسان الأرمني المهجر من بيته.

أما أغنية «طائر الرهو» التي تحتل مكانة خاصة في قلوب الشعب الأرمني، فهي تمثل الحنين إلى الوطــن، وقد ظهرت في القرون الوسطــى عندمـــا كان الأرمنـــي يتغرب في أي مدينة خـــارج وطنه. وعندما وصلت إلى كوميداس نفض الغبار عنها، وألف لها لحناً خاصـــاً، بمرافقة موسيقيـــة شفافة إلى أن أضحت نشيداً لكل أرمني يحن إلى وطنه.

إضافـــة إلى الأغاني، بـــرز كوميداس في الجوقـــة الكنسية أو التراثيـــة، والتي كانت توزع بنمط تعدد الأصوات من أجل أصوات مختلطة. فقد لحن القداس للصوت الذكوري حصراً.

ومن الأغاني الجماعية نذكر: «صونا يار» (حبيبتي صونا)، ١٧٤أغنية المزارع»، «سلسلة من أغاني الأعراس» وغيرها. وتتفرد أغنية «أيتها اللغة المدهشة» التي ألفها في استنبول عام ١٩١٣ بمناسبة الذكرى ١٥٠٠ لاكتشاف اللغـــة الأرمنية والذكـــرى ٤٠٠ لطباعة أول كتاب باللغة الأرمنية.

على كل حال يمكن حصر أعماله المنشورة من المقـــالات كالتـــالي: «فصـــول الكنيسة الأرمنيـــة»، و«مواضيع مـــن تاريخ الموسيقى الأرمنية في القرن التاسع عشر»، و«مقالات نقديـــة»، وغيرها. أما مجموعـــات الأغاني فهـــي كالتالي: «ألف لعبـــة ولعبة»، و«ألحان كردية» و«(الغنـــاء الأرمني) مجموعة أغاني قرويـــة»، و«أغاني شعبية أرمنيـــة»، وأغاني دينية أرمنية»، «علم النوتات»، «كتب دراسية للموسيقى»، «أغـــاني أجنبية بلغات غربية»، دراسة عـــن الموسيقى الكنسيـــة الأرمنية»، «الغناء الأرمني»[٤].

لا يمكن إغفال دور كوميداس في التربية الموسيقية، فبالإضافـــة إلى الإرث الموسيقي الـــذي في التربية الموسيقية، فبالإضافة إلى الإرث الموسيقـــي الذي خلفّه، قام كوميداس برعايـــة وتنشئـــة جيـــل مـــن تلامذته، من منشدين ومغنين، الذيـــن تدربوا على يديه، ونشروا رسالته في أنحاء العالم، خلال حياته وبعد رحيله الأليم.

يمكـــن أن نستخلص من هذا بأن أعمال كوميداســـ في الغناء الجماعـــي والإفرادي تتقســـم إلى قسمين: إبداعـــات مبنية على مصـــادر موسيقية شعبيـــة ودينية. وأعمال تشمل مشاهد موسيقية.

فالموسيقـــار كوميداســـ كان يُعنى أكثر

بأعماله التي تتعلق بالغناء الإفرادي والجماعي والتوزيع. فهي بحق أعمال تأسر القلوب، وتلامس جميع المواضيع مثل: الحوار الذاتي، والنشيد، وطبيعة الوطن، والمناظر الطبيعية، والأعراس إلخ.

وهنا تظهر براعة كوميداس في التناغم، وأسلوبه الحساس في اعتماد تعدد الأصوات (البوليفوني)، وكذلك الأسلوب الجديد الذي اعتمده بالتنسيق بين خصائص الموسيقى الشعبية وأساليب علم الموسيقى التي كان يعتمدها المؤلفون في أوروبة.

لقد فتحت إبداعات كوميداس وأسلوبه في التأليف والتلحين آفاقاً جديدة أمام تطور فن الموسيقى الأرمني، ووضعها في إطار تطور الموسيقى العالمية، كما كان لها أثرها الكبير على موسيقى الشعوب الشرقية.

تتمثل الأغاني القروية الأرمنية التي جعلها كوميداس كأنطولوجيا لفنّ الغناء لدى الشعب الأرمني، وفي النظريات التي تطرق لها كوميداس، أظهر أسس الموسيقى الشعبية، ووصف تطور تكوين الأغنية، وقام بتحليل أشكال الأغنية الأرمنية الشعبية وخصائص تأليفها، ووصف قيمتها الفنية. ومن المهم أيضاً ما كشفه عن حقيقة خصائص الأغنية الدينية، وتلاقي أسس الموسيقى الشعبية والدينية. أما المقالات التي كتبها حول النوتات فهي تسهم في دراسة الموسيقى في القرون الوسطى.

تكمن قيمة الفن الذي قام كوميداس بتقديمه ليس فقط في الموسيقى الأرمنية بل في تطور موسيقى الشعوب الأخرى في الشرق، بل يمكن القول إنه من الأمور التي تتمتع بمكانة خاصة، هي الأطياف التي تتناول موقع الأغنية في حياة الشعوب. حيث كان كوميداس يصف عملية خلق الأغنية الشعبية مدركاً عمق حياة ونفسية القروي الأرمني، فيأخذ المتلقي إلى ميدان إبداع الشعب.

يملك كوميداس عدداً كبيراً من الأغاني (الفردية والجماعية) المبنية على أساس الأغاني الراقصة. فمن المعروف أن الأغاني الراقصة الشعبية القصيرة التي وزعها كوميداس منتشرة بين الشباب القرويين الأرمن. فخطوط الرقص تحمل روح الدعابة وأجواء الفرحة، فتشكلت سلسلة من الأغاني المميزة وهي: «الحبيبة شوغير»، و«خومار خاركي»، «اذهبي اذهبي»، و«لا يمكنني اللعب»..

فمما يميزها جميعاً: الرقة، وتناغم الحركة، رغم اختلاف بنيتها فهذه الأغاني تتلاقى في التناغم وفق طبيعة الرقصة.

فاستطاع كوميداس أن يعيد تأثير الآلات الإيقاعية الشعبية بشكل ساحر.

وهناك أيضاً أغنية «حبيبتي صونا» التي لها مكانة خاصة بين الأغاني من حيث انفرادها بطابعها كنشيد في حلقة رقص جماعية. ليس بسبب موضوع الأغنية الشعبية فقط، بل لأن الصورة الحقيقية باتت أغنى وأثرى بفضل فانتازية كوميداس، وخياله الواسع للتعبير عن الطرب الشعبي والرجولة. فهذه الأغنية الجماعية المعقدة التي تشكلت من ثمانية أغاني جماعية وأغنيتين منفردتين، سوبرانو وتينور، حيكت على موضوع بسيط لأغنية راقصة شعبية.

إن الإرث الموسيقي الذي خلفه الراهب كوميداس غني ومتنوع، وهو يشمل تقريبا مجالات الفن الموسيقي كافة بدءاً من التأليف، والغناء، والقيادة، وجمع الأغاني الشعبية، وتنقية الأغاني من التأثيرات الغربية، والدراسة الموسيقية، وأعمال لا تنتهي.

وأما عن الأغاني التي كتبها، وقام بتوزيعها، فهي تشمل أغاني قروية، وأغاني جماعية تتكلم عن الحب والشوق، وأغاني الغربة، وأغاني عن العمل، مثل الأناشيد، وأغاني خاصة بالحصاد، وأغاني طقسية تُعنى بأغاني الأعراس، وكذلك أغاني وطنية، وأخيراً أغاني، وترتيل دينية من القرون الوسطى، تم توزيعها بحس مرهف، وفن راقي. إضافة إلى ذلك يتمثل القداس الكوميداسي بالأصوات المتعددة كقيمة حقيقية يمكن أن تنافس أعمال موسيقيين عالميين.

فقد قال عنه ديميتري شوسداكوفيتش: «إن أعمال كوميداس في الموسيقى الأرمنية عظيمة جداً. لقد خرجت إبداعاته الجميلة عن حدود أرمينيا، وأضحت فخراً للثقافة الموسيقية العالمية. كوميداس ليس فقط مؤلفاً كبيراً، بل هو موسيقار معروف، وباحث في التراث ومن الصعب تقييم أعماله في هذا المجال. إن الموسيقيين ومتذوقي الموسيقى والشعب السوفييتي يحترمون ويقدسون ذكرى كوميداس. إن المؤلفين السوفييت الأرمن يتبعون في أعمالهم على خطى كوميداس العظيم. إن موسيقاه تعيش وستعيش إلى الأبد مع الموسيقى السوفيتية العظمى».

نجا كوميداس من الاعتقال والترحيل بفضل تدخل الأتراك. ولكن ما رآه من عذابات الأرمن خلال التهجير جعل توازنه النفسي يختل. فأمضى بقية حياته في المشافي في استنبول، وثم نقل إلى باريس عام ١٩١٩ حيث توفي عام ١٩٣٥، وبعد عام نقل

رفاته إلى يريفان ليرقد في مدفن العظماء «البانتيون».

في العام الماضي، احتفل العالم بالذكرى ال١٤٠ لولادة الموسيقار والملحن والقائد الموسيقي الأرمني كوميداس، كما أحيا عالم الموسيقيين هذا العام الذكرى ٧٥ لرحيله. وحرص الأرمن لإطلاق اسمه على مدارس وشوارع في يريفان، وهناك متحف خاص باسمه، كما يوجد تمثال له في إحدى الحدائق العامة في يريفان، مواجه المعهد العالي للموسيقى في يريفان الذي يسمى أيضاً باسمه.

«كوميداس»، اسم يرمز إلى شعب بأكمله بثقافته الغنية ومصيره الحزين. لقد اكتشف كوميداس الموسيقى والأغنية التقليدية ونشرها في أوروبة. فقد استطاع من خلال دراسة الأغنية الشعبية الأرمنية والألحان الكنسية، واكتشاف المقام الأرمني ونظرية الأصوات، أن يبرهن وبشكل علمي وتحليلي أن الموسيقى الأرمنية لها هوية خاصة بها.

كما تمكن من إزاحة ما أشيع عن الموسيقى الأرمنية بأنها حزينة وباكية دائماً. بل أثبت أنها حيوية وفي داخلها هناك روح وفلسفة الشعب الأرمني.

لقد أدرك أن الموسيقى هي صدى لحياة الشعب وما بداخله، وهي عنصر فعال على طريق الوعي الوطني. وبفضل الخامة الصوتية التي كان يتمتع بها، أوصل فن أداء الأغنية الأرمنية إلى مستوى عالي. وبذلك يمكن اعتباره مؤسس مدرسة الغناء الأرمنية. فصوته يوحي بكل ملامح شخصيته وملامح الأرمني في آن معاً، ففي تقلبات صوته يمكن الاستماع والإحساس بتاريخ الشعب الأرمني على مرّ القرون.

لقد أثبت كوميداس أن الموسيقى والأغنية الأرمنية لها نفس خصائص اللغة الأرمنية. ولذلك نجح في جمع الأغاني الريفية والتراثية وصاغها حيث تشكل الكلمات والألحان والموسيقى وحدة متكاملة.

ونختم بما قاله كوميداس في الموسيقى: «إن الموسيقى لهي ضرب من الحركية، كالضوء والحرارة والكهرباء إلخ. وهذا أمر بسيط جداً، لأنه الموسيقى تتكون من الأصوات التي ليست إلا حركات أتت من الجو. ولذلك يجب أن نرى في الأغنية أو اللحن الحركية أولاً. وتلك الحركية تتوافق مع حركية العالم الداخلي، أي المشاعر والاضطرابات. فحركات العالم الداخلي للإنسان هي نتيجة لحركات العالم الخارجي. وهكذا، تعدد البيئة يولد تعدد المشاعر وبما أن الموسيقى انعكاس للمشاعر فتظهر أمامنا بحزن وسعادة وسمو، وفق البيئة التي يعيش ويشعر وينتج فيها هذا الشعب».

الهوامش والمراجع

١- فارتانيان فارتان، «المسافر إلى الأبد»، بيروت، ١٩٩١، ص٢٨.
٢- كيفوركيان هرانت، «العيش مع كوميداس»، حلب، ١٩٩٣، ص١٥٣.
٣- سافاريان خاتشيك، «المبدع كوميداس»، يريفان، ١٩٩٩، ص١٢٢.
٤- كيفوركيان هرانت، «العيش مع كوميداس»، حلب، ١٩٩٣، ص١٤٨.

آفاق المعرفة



حلب في سيرة الملك الظاهر بِيبَرْس(١)

د. أحمد فوزي الهيب ☉

كثر الحديث في السنوات الأخيرة عن التراث اللامادي بعامة، وعن الأدب الشعبي بخاصة، ولقد أسعد الكثيرين ذلك، وهو - أي الأدب الشعبي الذي سنقتصر حديثنا في هذا البحث عليه - الذي قد أبدعه مبدعون كثيرون في أزمنة وأمكنة كثيرة، وعبّروا به عن روح الشعب وأصالته وحيواته المتعددة وما يصبو إليه من الآمال والأماني.

☉ أستاذ جامعي وباحث عربي سوري.
العمل الفني: الفنان عماد كسحوت.

وعلى الرغم من أنه - أي الأدب الشعبي - قد أشرع أجنحته في عوالم الخيال الفسيحة اللامتناهية، فحلقت في سماواته كما شاءت بلا قيود ولا حدود، فقد انطلق من حيوات الشعب وما فيها من أحداث ووقائع، وما انطلاقته في عوالم الخيال سوى تعبير عن رغبته في إعادة رسم التاريخ ورجالاته وصانعيه وأحداثه وصراعاته كما كانت تودّ طبقات الشعب العادية أن تكون، وهي التي اكتوت بنار تلك الأحداث والصراعات أكثر من غيرها، وسوى تعبير أيضًا عن رغبتها في انتصار الحق على الباطل، واندحار الشر أمام جحافل الخير، وفي أن يسود العدل والأمن ولو في الخيال طالما عزَّ تحققه في أرض الواقع.

لذلك من الضروري جدًا أن ندرس تاريخ الشخصية التاريخية، وهي هنا الملك الظاهر بيبرس، والتي انطلق منها الأدب الشعبي وصورها قبل الحديث عن السيرة نفسها، وذلك حتى نستطيع فهمها بعمق وشمول، ونصل إلى الغايات التي أراد رواتها وسامعوها أن يصلوا إليها.

ونجد ذلك في ما كتبته كتب التاريخ عنه مثل النجوم الزاهرة والبداية والنهاية وغيرهما، فهو السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتوح بيبرس سلطان الديار المصرية والشامية والحجازية[٢]. وُلد عام ٦٢٠هـ[٣]، في صحراء القبجاق[٤]. والقبجاق قبيلة تركية عظيمة، طلبت عام ٦٤٠هـ من ملك أولان التركماني أن يجيرها من التتار الذين هددوها، ولكنه غدر بها فأغار عليها وقتل وسبى الكثير منها، وكان بيبرس فيمن أُسر، فبيع ونقل إلى بلاد السلطنة الأيوبية حيث اشتراه الأمير علاء الدين البندقدار، ثم انتقلت ملكيته إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب عام ٦٤٤هـ[٥]، فجعله من مماليكه البحرية[٦]، وسرعان ما ظهرت مواهبه[٧]، فترقى في المناصب الرسمية واستمر في ذلك حتى غدا من كبار الأمراء[٨]، ومما يدل على ذلك أنه لما دخل القاهرة قبيل موقعة عين جالوت ركب السلطان الملك المظفر قطز لاستقباله، وأنزله في دار الوزارة وأقطعه قصبة قليوب[٩].

كان بيبرس شجاعًا طموحًا جدًا، وقد جعله ذلك يشارك في كثير من الأحداث المهمة وفي الحروب التي كانت تشبّ بين المماليك أنفسهم من جهة، وبينهم وبين أعدائهم من جهة أخرى[١٠]، فصار له شأن عظيم، وكان آخر هذه الأحداث المهمة التي أسهم فيها إسهامًا كبيرًا قبل أن يصل إلى السلطنة هو اشتراكه مع المظفر قطز في معركة عين جالوت في ٢٥ من رمضان

عام ٦٥٨هـ، والتي هُزم فيها المغول لأول مرة، وانتصر فيها المماليك عليهم انتصارًا كاسحًا[١١].

كان السلطان المظفر قطز قد وعد بيبرس من قبل أن يعيّنه نائبًا على حلب، ولكنه لم يفِ بوعده له خوفًا من اشتداد نفوذه، فحقد عليه بيبرس[١٢]، واتفق على قتله مع بعض أمراء المماليك، وسنحت له فرصة تحقيق ذلك قبل عودتهم مع جيشهم المنتصر إلى القاهرة[١٣]. وكانت هذه النقطةَ السوداءَ الوحيدةَ في تاريخه، ولكن الرجال والأمم لا يقاسون بالنقاط السوداء التي اقترفوها، وإنما يقاسون بالنقاط البيضاء التي صنعوها، ولقد حاول بيبرس أن يمحوها بأعماله الجليلة التي قام بها خير قيام بعد ذلك.

ومن البديهي بعد مقتل قطز أن تؤول السلطنة إلى قاتله ركن الدين بيبرس تبعًا للأعراف المملوكية السائدة آنذاك، وصعد إلى قلعة الجبل لتتم مراسيم استلامه للسلطنة رسميًا في ١٧ من ذي القعدة عام ٦٥٨هـ[١٤].

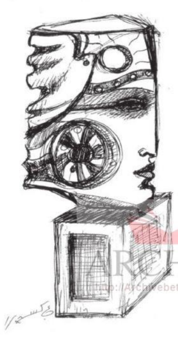
وعلى الرغم من أن بيبرس رابع سلاطين الدولة المملوكية الأولى[١٥] يُعد المؤسس الحقيقي لها، وذلك لما فعله من أعمال عظيمة في مختلف النواحي خلال مدة سلطنته التي امتدت قرابة عشرين عامًا[١٦] حتى وفاته في ٢٨ من المحرم عام ٦٧٦هـ بدمشق[١٧]، الأمر الذي جعله واحدًا من أعظم سلاطين المماليك قاطبة[١٨].

ولقد فصّل المؤرخون في القديم وفي الحديث من عرب وأجانب تأريخ أعماله العظيمة وملؤوا في ذلك الصفحات الكثيرة، الأمر الذي يدل على جدارته بالسلطنة، وعلى سبقه لكثير من سابقيه ولاحقيه من السلاطين المماليك، ويكفي الآن أن نشير إلى أنه استطاع أن يقضي على أعدائه في الداخل والخارج، أو أن يخمدهم بجيشه الذي عُني به عناية كبرى جعلته قويًا ومكنته من الانتصار على أعدائه، وأنه أقام علاقات طيبة مع معظم الدول المجاورة، وتميّز من جميع سلاطين عصره بحمايته للحرمين الشريفين، وبإحيائه للخلافة العباسية التي نقلها إلى القاهرة بعدما قضى عليها المغول في بغداد عام ٦٥٦هـ، وبأنه قد أصلح أحوال البلاد الاقتصادية والعلمية والأمنية، وبأن حدود سلطنته قد اتسعت حتى امتدت من أقصى بلاد النوبة جنوبًا حتى بلاد الشام شمالاً، ومن برقة غربًا حتى العراق شرقًا[١٩].

ولقد رسم الأدب صورة مشرقة له ولأعماله وإصلاحاته وانتصاراته في قصائد

كثيرة قالها أكبر شعراء عصره الذين أتـوه مـن كل حـدب وصـوب مثل شهاب الدين محمـود وعبد الله بن عمـر الأنصاري ومحيـي الدين بن عبد الظاهر وناصر الدين حسن بن النقيب الكناني وبـدر الدين يوسف المهمندار ومحمد بن رضوان الناسخ وشمس الدين بن دانيال وأبو الحسين بن الجزار وغيرهم[٢٠].

ولم يكتف الأدب بما قال الشعراء في الملك الظاهر باللغـة العربية الفصحـى كمـا فعل مـع غيره من الأبطـال، وإنما أضـاف اليه سيرة ملحميـة نسجهـا الشعـب باللغـة المحكية تعبيرًا عن حبه له واعجابه به، وسماهـا سيرة الملك الظاهر، وتعـدُّ درةً كـبرى في عقـد الأدب الشعبـي، أسهم فيهـا رواة شعبيون كثيرون، لم يحفـظ التاريخ أسماءهم، ولكنهـم عـبروا بصدق عن ضمـير الشعب الذي أحبّ الملـك الظاهر حبًّا جمًّا، فتغنى بانتصاراته في مجالسه بالمقاهي والديوانيات وغيرها في المدن والقرى مازجًا بين الحقيقة والخيـال، الأمر الذي جعـل الظاهر بطلًا شعبيًّـا أسطوريًّا قـدوةً فضلًا عن أنه بطل تاريخيّ حقيقيّ، ولذلك اختلفت سيرته هذه



من قطر إلى قطر من حيث الحوادث ورسم الشخصيات والإيجاز والتفصيل وغير ذلك، إذ كان كل راوٍ من رواتها يضفي عليها كثيرًا من روحه ويضيف إليها كثيرًا من فنه[٢١].

وتعدُّ سيرة الملك الظاهر من أبرز السّير التي لما تـزل راسخة في الذاكـرة الشعبية العربيـة، وآخر ملاحمنا العربيـة الشعبية إبداعًـا، وليس من اليسـير تلخيصها لأنها

حلقات كثيرة تتزاحم فيها الوقائع والأحداث والمواقف والحروب والرجال والنساء في بلاد كثيرة واسعة قريبة وبعيدة. ومع ذلك فإنها تتسم بخصيصة هامة هي: سيرة بطل تاريخي ملحمي، هو: الظاهر بيبرس، يشاركه أبطال، يواجهون جميعاً عدواً جباراً يعاونه أنصاره، وقد تمثل بشخصية شريرة، هي أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع، هي شخصية (جوان)[٢٢]. فالمعارك كلها إذن تقوم بين فريقين: الأول فريق العرب والمسلمين يتزعمه بيبرس من جهة، والثاني فريق الفرنج يتزعمه (جوان) ثم فريق المغول بقيادة (هلاوون) من جهة أخرى.

والسيرة تبدأ بالدولة الأيوبية، وتتوسع في أخبار الملك الصالح أيوب، لأنه الذي استقدم بيبرس الذي تسترسل السيرة في رسم خطوط صورته منذ نشأته، وتروى تآخيه مع الفداوية، ورضى الأولياء عنه، وتبنّي السيد البدويّ له، وتظل تتعقبه جاعلة إياه محور الحوادث في مناصبه التي تولاها، وفي إيثاره للعدل والخير كما ينبغي أن يكون الحاكم في تصور الشعب، حتى استقر له الأمر في مصر والشام. والأحداث بعد ذلك كرٌّ وفرٌّ بين العرب والمسلمين من ناحية، والفرنج والمغول من ناحية أخرى، يتخللها منازعات بين الوحدات التي يتألف منها هذا الفريق أو ذاك، والنصر غالباً للعرب والمسلمين.

وقد طبعت سيرة الظاهر طبعات عدة، اطلعت على أربع منها، هي:

١- طبعة مصرية، صاحبها عبد الحميد أحمد حنفي بلا تاريخ، وهي في خمسة أجزاء.

٢- طبعة مصرية أخرى، صادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧، وهي مصورة عن نسخة قديمة قاهرية، طبعها عبد الرحمن محمد عام ١٩٢٦، وهي في خمسة أجزاء.

٣- طبعة دمشقية صادرة عن دار كرم بلا تاريخ، وهي موجزة في جزء واحد.

٤- طبعة دمشقية صادرة عن المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، تح: بوهاس وزخريا ٢٠٠٠-٢٠٠٣م في أربعة أجزاء[٢٣].

إن جوانب سيرة الملك الظاهر التي يمكن الحديث عنها كثيرة ثرية متنوعة، لا يمكن تناولها في بحث واحد، لذلك سنكتفي بالحديث عن جانب واحد منها، هو حلب الشهباء في سيرة الملك الظاهر بيبرس.

ولعل من الضروري قبل الحديث عن حلب في السيرة أن نشير إلى أنها كانت في الزمن الذي دارت فيه حوادث سيرة الملك الظاهر

بيبرس والذي بدأ بالملك الناصر صلاح الدين الأيوبي أَمَّ البلاد مشحونة بالعلماء كما وصفها ابن خَلّكان عندما زارها[٢٤]، ومما يدل على أهميتها قول صلاح الدين الأيوبي عندما فتحها: ما سررت بفتح قلعة أعظم سروراً من فتح مدينة حلب[٢٥].

جعل صلاح الدين ابنه الملك الظاهر غازي ملكاً على حلب، فجدد عمارة قلعتها وحصن أسوارها، وضم إليه اللاذقية وجبلة، وساعد غيره من الملوك الأيوبيين في التصدي للصليبيين، كما عُني أيضاً بالإصلاحات الاقتصادية والعمرانية، واستقدم العلماء وبنى المدارس، الأمر الذي جعل حلب قبلة استقطبت أعلام الفكر والأدب والشعر من أنحاء العالم الإسلامي، فزادوها مع أمثالهم من أبنائها تألقاً وازدهاراً، ثم تابع مسيرته ابنه الملك العزيز محمد، ثم حفيده الملك الناصر يوسف الذي استطاع أن يضم إلى ملك حلب حمص ودمشق زمن سلطنة الملكة المملوكية شجر الدر في القاهرة، وكاد أن يستولي على مصر ويضمها إلى مملكته في حلب، ثم استقر الصلح بين الطرفين الأيوبي والمملوكي عام ٦٥١هـ على أن يكون نهر الأردن فاصلاً بينهما، وبذلك كانت البداية الفعلية للدولة المملوكية[٢٦].

واستمرت أهمية حلب هذه زمن الملك الظاهر بيبرس في العصر المملوكي، وإن تراجعت قليلاً بسبب تحولها من مملكة أيوبية إلى نيابة تابعة للعاصمة القاهرة في مصر، ولكنها بقيت أكبر النيابات وأهمها، إذ اشتملت على عدد كبير من النيابات الصغرى ليس له مثيل في غيرها، وازدهرت فيها الحياة الاقتصادية (التجارية والصناعية والزراعية) والعمرانية (العسكرية والدينية والمدنية) والعلمية والأدبية، فجذبت كثيراً من أعلام العصر وعلمائه، فأتوها واتخذوها مستقراً ومقامًا[٢٧]. ولا شك في أن من عوامل النشاط الفكري والأدبي المهمة في حلب وجود أسر حلبية علمية توارث أبناؤها العلم والأدب جيلاً بعد جيل، مثل بني العديم وبني الشحنة وبني الخشاب وبني الحنبلي وغيرهم[٢٨].

وأما حلب في سيرة الملك الظاهر فنجدها - كما هي في الواقع - مدينة كبيرة حصينة ذات موقع استراتيجي مهم متميز تجاريًّا في السلم، ومتميز حربيًّا في أزمنة الحروب، الأمر الذي جعلها أهم مدن الثغور الصامدة الصابرة، هاجمها الأعداء من مغول وفرنجة كثيرًا، فصمدت في أكثر الأحيان، ودقت ناقوس الخطر وأنذرت العاصمة القاهرة وطلبت منها المدد والعون، فكانت بذلك خط الدفاع الأول للسلطنة

المملوكية مـن ناحيتها الشماليـة الشرقية، لذلك ورد ذكرها كثيرًا ومطوّلًا مرات كثيرة في سيرة الملك الظاهر، كما اعترفت السيرة أيضًا بتميزها وبكبير حقها، وجعلتها سيدة المـدن متساميـة على عرش عزهـا التليد السعيد، وجعلت بقية المدن إماءً لها، فكثيرًا ما كانت السيرة تورد هذين البيتين من الشعر لـدى ذكر حلب وعند وصول كتب نائبها إلى السلطان المملوكي، وهما:

حـلـب الـشـهـبـاء قـالـت:
سـائـر المـدْن عـبـيـدي
أنـا في تـخـت عـزّي
بـين سـعـد وسـعـيـد

ولـن نستطيـع في هذا المقـام أن نقف أو نشـير إلى جميـع المواطـن التي ذكرت سيرة الملـك الظاهر حلـب لكثرتها، لذلك سنكتفي بذكر بعضها فقط على سبيل المثال لا الحصر.

- أراد ملـك الموصـل أيبك التركماني، وكان سيّئ السـيرة والذكر، أن يستولي على القاهـرة، فقـاد جيشًا كبيرًا اتجـه به إلى حلـب البوابة الشماليـة الشرقية للسلطنة، فلمـا اقترب مـن حلـب حاصرهـا وأراد أن يستبيحهـا، فأغلقـت أبوابهـا ودافعت عن نفسها وعـن السلطنة وصمـدت أمام جحافله، فلم يستطـع أن يدخلها، وتدخلت قوى الغيـب في الدفاع عنهـا، فابتُلي ملك الموصل بمرضـ عضال أعجز الأطباء، وفي الوقت نفسـه أرسل نائب حلب عماد الدين أبو الخيش[٢٩] كتاباً يحمله رسول على جناح السرعة إلى السلطان بالقاهرة، وكان آنذاك السلطان الأيوبي الملك الصالح أيوب، يعلمه فيه بالأمر ليأخذ حذره ولينجده. ولعلنا إذا اطلعنا على مضمـون الكتاب ندرك منزلة حلب في السيرة وما قامت به من دور مهم في ذلك الوقت العصيـب، وهذا المقطع يوضح ذلك:

((قال الملـك الصالح: من أنت؟ قال له: سيّار وحامل كتاب. قـال له: ومن أين وإلى أين؟ قال له:

حـلـب الـشـهـبـاء قـالـت
سـائـر المـدْن عـبـيـدي
أنـا في تـخـت عـزّي
بـين سـعـد وسـعـيـد

قال الملك: مـا معك من الأخبار؟ أخرج كتابـاً - ومما جاء فيـه- ... من عند نائب حلب إلى بين أيادي أمـير المؤمنين، اعلم يا أمير المؤمنين أننا مقيمون يوم تاريخ الكتاب وإذا بملك يقال له أيبك التركماني من أرض الموصل حطَّ على الأرضـ والبلاد فأغلقنا الأبواب في وجهه... فأرسلنا أربعة جواسيس يكشفـوا[٣٠] لنا على الأخبار، فغابوا وعادوا

إلينا وقالوا: إنه يريد أرض مصر والشام، ومرامه السلطان وسائر بلاد الإسلام، فما استقر له النزول حتى خصّه الله بداء مهول، وابتلاه بمرض لا يعلم له دواء، وإنه الآن على حياض الموت، واشتد عليه المرض حتى إنه حارت فيه الأطباء، ثم سطّرنا لك هذا الكتاب، وأعلمناك بما كان من الخطاب... أرسل لنا جواب كافي نعتمد عليه من فضلك. والسلام على نبيٍّ تظلّله الغمام))[٣١].

- وأراد الملك المغولي القان (هلاوون بن منكتمر) الاعتداء على السلطنة الأيوبية، فأتى بجيش جرار يبلغ عدده اثنين وثمانين ألف مقاتل إلى حلب، فأغلق نائبها[٣٢] أبوابها ورماهم جندها بالمدافع وصمدوا إلى أن تأتيهم النجدة التي أرسلوا يطلبونها مع رسول من السلطان الأيوبي، فأنجدها بجيش يقوده بيبرس وانتصر على المغول بمعونة الفداوية الذين كان يقودهم المُقدَّم سليمان الجاموس.

- عاد المغول ثانية إلى حلب، فأنذرت العاصمة واستنجدت بها، ولكن المغول استطاعوا أن يدخلوها ويدخلوا حماة وحمص ودمشق، وأن يصلوا إلى غزة وهددوا مصر، فاجتمع المماليك بقيادة كبيرهم (قطز)، واستطاعوا أن ينتصروا عليهم انتصارًا مظفرًا في موقعة عين جالوت الشهيرة، وأن يحرروا حلب وغيرها من المدن، وأن يردوهم مدحورين من حيث أتوا.

- وبعد المعركة قتل بيبرسُ قطز لأنه لم يفِ له بوعد كان قد وعده به من قبل، وهو إعطاؤه نيابة حلب كما سبق ذكره، واختيار بيبرس لها ليكون نائبًا عليها دليل آخر على أهميتها وتفوّقها على غيرها من البلاد. ولكن السيرة الشعبية لم تذكر كيفية مقتله ولا من قتله واكتفت بإشارة عجلى وذكرٍ مقتضبٍ لمقتله، وذلك لأنها لم تشأ أن تعكر الصورة البيضاء الناصعة لبيبرس بطل السيرة.

- عاد هلاوون إلى حلب مرة أخرى يقود جيشًا عرمرمًا، بلغ تعداده مئة ألف بتحريض من (جوان) الذي ادعى أنه ترك النصرانية واعتنق المجوسية وعبادة النار، فأغلق نائب حلب الأبواب ونصب المنجنيقات وأرسل كتاباً إلى السلطان يعلمه ويستنجده، وفي الوقت نفسه رد على كتاب (هلاوون) الذي هدده وطلب منه أن يسلمه المدينة، نقول: رد عليه بكتاب أقوى منه، جاء فيه:

((من نائب أمير المؤمنين الملك الظاهر إلى (هلاوون) المغرور. اعلم أنك إذا عملت بآراء (جوان) فإن عاقبتك وخيمة جدًّا، وستعود جميع الأضرار على عساكرك، وبعدها خراب بلادك. أمّا أن نفتح لك

حلب فهذا بعيد عنك بُعد الأرض عن السماء، فإن أسوار حلب منيعة والمؤن فيها كثيرة، ومياهها غزيرة ورجالها موصوفون بالشجاعة والبطولة، فارجع إلى بلادك ولا ترم برجالك في حرب لا طاقة لكم بها. وقد أُعذر من أنذر)).

وبدأت الحرب واشتدت، وأبلى جيش حلب وأهلوها البلاء الحسن، وكبّدوا العدو الخسائر الفادحة بالأرواح والأموال مدة عشرة أيام فتراجع الأعداء، ولكن المغول علموا باقتراب جيش الظاهر ففاجؤوه واستطاعوا أن يلحقوا به ضررًا كبيرًا، فارتدّ إلى معرّة النعمان وطلب النجدات من القاهرة ومن القبائل البدوية، كما أرسل إلى حلب يوصيها بالصمود، فصمدت حتى عاد إليها بالنجدات، وانتصر على ((هلاوون)) وقتله وأخذ الجزية من أبنائه، وبقي في حلب أسبوعين يحتفل بالنصر ويوزع الغنائم[٣٣].

- وأهمية حلب وتميزها جعلاها مطمعًا للغزاة، فلم يأتوا إليها من جهة الشرق فقط كما تقدم، وإنما أتوها أيضًا من جهات أخرى، فغزاها ((كرفوس)) ابن ملك أنطاكية الفرنجي ((الفرتماكوس)) بجيش جرار، فقاتله جيشها وأهلوها قتال الأبطال، وصمدوا صمودًا قويًا، وطلبوا النجدة من السلطان بيبرس، فأنجدهم بجيش جرار بسرعة فائقة جدًّا خوفًا من أن تسقط حلب، لأنها خط الدفاع الأول للسلطنة، وجرت معركة حامية الوطيس أمام أسوارها المنيعة انتهت بالانتصار المبين ومقتل قائد المعتدين ((كرفوس)).

- وأتاها أيضاً ((عرنوس))[٣٤] وأمر جيشه بالنزول ونصب خيامه أمامها، فأمر نائبها عماد الدين جندها بالاستعداد، وأغلق أبوابها وحصن أبراجها ونصب المنجنيقات على أسوارها، وأرسل كتابًا إلى السلطان الملك الظاهر بيبرس يحذره ويستنجده، وردًّ على كتاب ((عرنوس)) الذي قال فيه: ((اعلم أنني قاصد حرب السلطان، فإن انتصرت عليه تبق أنت على ما أنت عليه، وإن أسرني وغلبني اكسن تحت حكمه. فالرأي عندي أن تفتح البلد وتدع الناس تبيع لعساكري وتشتري منهم، وأنا مسؤول وملزوم بكل شيء يفقد وأقوم بالتعويض حتى يأتي السلطان. فانظر ما ترى وأرسل إليَّ الجواب)).

فردّ عليه نائبها عماد الدين قائلاً: ((هذا لن يكون أبدًا، وإن هذا المكر والاحتيال لا يمشي على مثلي، فإن أردت القتال فنحن مستعدون، وإن أردت الرواح فارحل بسلام)).

إنه رد حاسم قوي سريع. ولم يقف الأمر على المراسلة والتهديد، وإنما كانت

ثمة معارك بين جيش حلب والغزاة منعت اقترابهم من أسوار حلب حتى وصل السلطان وجيوشه. وهذا إذا دل على شجاعة نائب حلب وقوته وإدراكه للمسؤولية وإخلاصه للسلطان الظاهر بيبرس، فإنه يدل في الوقت نفسه على قوة حلب ومنعتها وقوة جيشها وشجاعة أهلها التي اعتمد عليها النائب في رده هذا. ثم كانت حرب ضروس أمام أسوار حلب بين الطرفين أسفرت عن انتصار بيبرس انتصارًا مبينًا انتهى بأن عرف عرنوس أباه المقدم ((معروف)) وقصته مع أمه مريم بنت ملك جنوة التي أسلمت ثم سرقها الفرنجة وهي حامل في القدس، وكيف تمت إعادتها إلى بلادها وولادتها له وإخفاؤها له في دير العرانيس. وبعد ذلك أعلن عرنوس إسلامه ودخل معظم قواده وجيشه في الإسلام، وقد احتفل السلطان بنصره هذا في حلب وأقام فيها سبعة أيام، وبعد ذلك توجه الجميع إلى القاهرة[٣٥].

- هاجم عرنوس حلب ثانية على رأس جيش جرار يقوده سبعة ملوك، وساعده فيه ملك روما، وذلك بعدما اختلف مع بيبرس لأسباب يضيق المجال عن ذكرها الآن، فأغلق نائب حلب عماد الدين أبوابها ونصب على أسوارها المنجنيقات، وأرسل كتاباً إلى السلطان يخبره فيه بذلك، فأمر السلطان جيوشه بالتوجه إلى حلب لقتال الفرنجة، فسارت بهمة عالية للجهاد، وقد وصل خبر عصيان عرنوس إلى أبيه معروف، فقال: ((اللهم لا كفر بعد إيمان ولا ضلال بعد الهدى...))، ثم سار المقدم معروف إلى حلب[٣٦]...

- وهاجم حلب الملك رومان الأزرق ومعه جوان على رأس جيش كبير من الفرنجة، فثبتت حتى أنجدها بيبرس بجيش استطاع أن ينتصر عليهم في معركة عظيمة أمام أسوار حلب ويردهم خاسئين[٣٧].

- وكانت حلب المكان الذي اختاره مقدم عيّاق الفرنجة ((عزائير اليغروي)) الذي كانت تهابه جميع ملوك الفرنجة ليتحدى فيه السلطان بيبرس بتحريض من ((جوان)).

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: لماذا كانت حلب دون غيرها من المدن المملوكية مسرحاً لهذا التحدي وما بعده من معارك؟ نعتقد أنه أراد بذلك أن يُكسِب هذا التحدي أهمية وجلالاً وعظمة يستمدها مما تملكه حلب من هذه الصفات[٣٨].

- ولم تأت أهمية حلب من كونها خط الدفاع الشمالي الشرقي الأول للسلطنة فقط، وإنما أتت هذه الأهمية لأنها أيضاً محل استراتيجي مناسب لتجمع جيوش السلطنة الكثيرة العدد والعدة، والتي تحتاج

إلى مكان واسع منبسط قادر على أن يؤمن لها الحماية اللازمة لها واحتياجاتها الكثيرة المتنوعة من طعام وعتاد وخيول وغير ذلك، وقد كانت حلب مؤهلة لتقوم بهذا الدور وتلبي هذه الاحتياجات. لذلك أمر بيبرس جيوشه أن تجتمع في أراضيها المنبسطة الواسعة الغنية جيوشه الذاهبة لقتال ملك الانجبار[39].

- صورت السيرةُ حلبَ بوابةً للسلطنة المملوكية، وهي كذلك تاريخيًّا، إذ صمدت أمام الأعداء وحمت ما وراءها من مدن السلطنة مثل حماة وحمص ودمشق والقدس وغزة ومصر، وإذا استطاع العدو أن يكسرها سقطت باقي نيابات السلطنة والسلطنة نفسها. ويبدو ذلك في حوار دار بين عرنوس وجوان عندما ظهرت لهما مآذن حلب الشامخة وأسوارها المنيعة، قال عرنوس: ما هذه المدينة؟ فأجابه جوان: إنها حلب الشهباء، إن أخذتها تأخذ بعدها حماة وحمص والشام والقدس وغزة وتملك مصر وأقطارها. وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أهميتها وقوتها[40].

- ولهذه الأهمية الكبرى لحلب نجد أن الملك الظاهر بيبرس كان حريصاً أشد الحرص على إصلاح أبراجها وأسوارها وصهاريج مياهها وتعميق خندقها، وإقامة الأرصاد مسافة ثلاثة أيام حولها، وملء حواصلها بالمؤن مهما بلغت تكاليفها، والقضاء على اللصوص وتأمين الطرق وإقامة العدل في أهلها، وعلى توصية شيوخ القبائل البدوية ليكونوا مستعدين الاستعداد التام لنجدتها والدفاع عنها حتى تصمد أمام الأعداء، وذلك لأنها خط الدفاع الأول للسلطنة[41].

- ومن البديهي أيضاً ألا تغيب منزلة حلب عن القبائل البدوية، فلما علمت شيوخها في الجزيرة والصحراء هجوم ملوك الفرنج بقيادة عرنوس عليها قالوا: ((يجب أن ننتصر لحلب ونخلصها من هذا الحصار ونساعد الملك الظاهر)). واتجهوا بجموعهم نحوها بأقصى سرعة، وقاموا بدورهم في تحقيق النصر أفضل قيام، فكافأهم السلطان على ذلك وأعطاهم حصتهم من الغنائم، وأوصاهم أن يكونوا مستعدين دوماً لنجدتها[42].

- ومثلما تجلّت أهمية حلب الاستراتيجية في السيرة زمن الحروب، تجلت أيضاً زمن السلم، إذ كانت مركزاً تجارياً مهمًا تمرُّ به القوافل المحملة بالبضائع المتنوعة والرقيق وغيره، وكان، ممن مرّ بها، مملوكٌ مريض ضعيف اسمه محمود، تنبأ له نائب حلب بمستقبل عظيم، لأنه أفضل رفاقه رغم مرضه وضعفه من جهة وصحتهم وقوتهم

من جهة أخرى، هذا المملوك هو نفسه الذي غدا فيما بعد الملك الظاهر بيبرس صاحب هذه السيرة التي خلدته.

- وكذلك عندما بعث ملك المغول أبرهة بن هلاوون بالهدايا والجزية التي حمَلَها مئةُ بغل وحرَسَها خمسمئة فارس، وقفوا في حلب، لأنها بوابة السلطنة المملوكية، فاستضافهم نائبها عماد الدين وأرسل كتاباً إلى السلطان يعلمه بذلك، فأرسل إليهم من يأتي بهم إليه في القاهرة.

كلُّ ما تقدم من ذكرٍ متكرر لحلب في سيرة الملك الظاهر يدل على تميزها وأهميتها في كل من الحرب والسلم على حد سواء، وهذان أمران لم تخترعهما السيرة اختراعاً، وإنما استمدتهما من الواقع التاريخي لحلب في ذلك العصر، كما استمدت من التاريخ الواقعي أيضاً كثيراً من الحوادث والشخصيات مثل بيبرس وقطز والملك الصالح أيوب ومعروف الذي لما تزل ((كلته[٤٣])) معلقة على قنطرة باب أنطاكية الذي استشهد قربه وهو يدافع عنه بشجاعة أسطورية، ولما يزل قبره في مسجد قريب من مكان استشهاده يقع فيما يسمى اليوم بسوق الزرب بين باب أنطاكية والقلعة. ومن البديهي ألا ينفي هذا تطوير الخيال الشعبي لهذه الشخصيات والحوادث واختراع شخصيات وحوادث وأمكنة جديدة، وقد أدى هذا المزج بين الحقيقة والخيال أو بين الواقع والأسطورة إلى إعطاء السيرة الشعبية خصوصيتها وجمالياتها وأهدافها الثقافية والقومية والترفيهية وغيرها.

وأخيراً إذا قال الأدب العربي الفصيح عن حلب على لسان أعظم شعرائه في الماضي المتنبي:

كلّما رحّبتْ بنا الروضُ قلنا:
حلبٌ قصْدُنا وأنتِ السبيلُ

وقال على لسان شاعر من أعظم شعرائه في العصر الحديث، هو الأخطل الصغير[٤٤]:

نفيتُ عنكَ العُلى والظرْفَ والأدبا
- وإنْ خُلقتَ لها - إنْ لمْ تزرْ حلبا
لو ألِفَ المجدُ سِفْرًا عن مفاخره
لراحَ يكتبُ في عنوانِهِ حلبا

فقد قال الأدب الشعبي عنها في أعظم سِيَره وآخرها، وهي سيرة الملك الظاهر بيبرس:

حلبُ الشهباءُ قالتْ:
سائرُ المُدْنِ عبيدي
أنا في تختِ عِزّي
بين سعدٍ وسعيدِ

الهوامش

١- بكسر البـاء الأولى وسكون الياء وفتح البـاء الثانية وسكون الراء والسين، ومعنـاه بالتركية: أمير فهد. (النجـوم الزاهـرة ٩٤/٧ وتاج العروس ظ هـ ر). كما ضُبط بفتح البـاء الأولى في الأعلام ودائرة المعارف الإسلامية من غير إشارة إلى مصدر. لذلك نرجح الضبط الأول.
٢- النجوم الزاهرة ٩٤/٧
٣- العبر في أخبار من غبر ٣٠٨/٥.
٤- تقع شمال بحر قزوين.
٥- النجوم الزاهرة ٩٥/٧-٩٦.
٦- نسبة إلى بحر النيل. (العصر المماليكي٥).
٧- دائرة المعارف الإسلامية ٤٨٦/٨.
٨- سمط النجوم العوالي ١٨/٤.
٩- النجوم الزاهرة ١٠١/٧.
١٠- دائرة المعارف الإسلامية ٤٨٦/٨-٤٨٧.
١١- البداية والنهاية ٢٣٤/٧.
١٢- دولة الظاهر بيبرس في مصر ٤١.
١٣- النجوم الزاهرة ١٠١/٧-١٠٢
١٤- المصدر السابق ١٠٢.
١٥- بدائع الزهور ٣٠٨/١.
١٦- النجوم الزاهرة ١٧٧/٧.
١٧- العبر في خبر من غبر ٣٠٨/٥.
١٨- تاريخ المماليك البحرية ٤٨.
١٩- يُنظر على سبيل المثال النجوم الزاهرة ١٩٠/٧ ودائرة المعارف الإسلامية ٤٨٧/٨ وما بعدها وكتاب دولة الملك الظاهر بيبرس في مصر.
٢٠- يُنظـر بحثنـا المنشور في مجلة مجمـع اللغة العربية بدمشق. المجلد ٧٥ عـام ٢٠٠٠ الجزء ٢ ص ٢٥٩-٢٩٠.
٢١- وذلك لأن السِّيرة الشعبية في أصلها ليست قصة تُقرأ على انفراد، وإنما هي رواية طويلة تؤدى في مجالس كثيرة، وهذا الأداء له تقاليده التي تتوافق مع التقاليد الفنية للجماعة الشعبية، ولهذا تتنوع صور الأداء وفـق تباين أحـوال المجتمعات الشعبية العربيـة، ومن ثم نجد صورًا عدة مـن الأداء ترتكز على الإلقاء المسرحـي، بينما تضيف صور ثانية من الأداء العزف على الرباب والغناء المنفرد، وتتوسع ثالثة في العزف والغنـاء مكوّنة فرقة متعـددة الآلات والأدوار. وهذا يرجع إلى وجود محترفـين متفرغين لعملية الأداء، كانـوا يلقون السِّير الشعبية على الناس، وأُطلق علـى الواحد منهم اسم الحكواتي أو المحدّث أو الشاعر، ويبدو أنهم كانوا يقرؤون من كتب بعامة، أو على الأقل يرجعون إليها، ولم يكن هؤلاء الرواة المنشدون لهذه السير مغنين ملهمين فحسب، بل كانوا أيضا معلمين ملهمين للشعب مدركين لدورهم ولواجباتهم في تعليم

الطبقات الشعبية، وفي تجميل وتحسين حال الإنسان الشعبي بإعادة بناء الحياة ذاتها، ولو خياليًّا أو فنيًّا، كما يتمنى أن تكون، شأنهم في ذلك شأن معلمي النخبة أو الصفوة وفنانيها.

٢٢- أكبر الشخصيات الشريرة في السيرة، جاسوس للصليبيين ومعين لهم بدهائه ومكره وعلمه وتعصبه الأعمى الذي لا يرتوي إلا بإشعال الفتن والحروب وإلحاق الهزيمة بالمسلمين، وقد تنكر حينًا بشخصية قاضٍ مسلم اسمه صلاح الدين، وتقابله في جانب الخير شخصية الظاهر بيبرس التي تمثل المعادل الموضوعي أمامها. (أضواء على السير الشعبية ٩٠-٩١).

٢٣- على الرغم من أن الطبعات الثلاث الأولى تختلف عن الرابعة بأنها شعبية، إلا أنها- أي الطبعات الأربع جميعها- تشترك معاً في أنها لا تحقيق فيها على الإطلاق، ولا تمحيص للأخبار والأحداث والأعلام، ولكنها مع ذلك مهمة لأنها الوحيدة من جهة، ولأنها تعطي صورة صادقة للأدب الشعبي من جهة أخرى.

٢٤- وفيات الأعيان ٤٨/٧.

٢٥- البداية والنهاية ٣٣٥/١٢.

٢٦- يُنظر كتابنا الحركة الشعرية في حلب زمن الأيوبيين ٢١وما بعدها.

٢٧- يُنظر كتابنا الحركة الشعرية في حلب زمن المماليك ٢٧ وما بعدها.

٢٨- المرجع السابق ١٥.

٢٩- نقول: لعله أبو الجيش.

٣٠- كذا ورد. وحافظنا على النص بما فيه من أخطاء نحوية، وذلك لأنه باللهجة العامية، ولن نشير إلى ذلك ثانية.

٣١- سيرة الملك الظاهر، الطبعة المصرية ١/ ٥٠- ٥١.

٣٢- تسميه السيرة أحيانًا الباشا.

٣٣- سيرة الملك الظاهر، الطبعة الدمشقية ص٢١٣-٢١٦.

٣٤- هو ابن المقدم معروف الجمري من امرأته مريم بنت ملك جنوة، ولكنه لم يعرف ذلك في بداية الأمر، وكان يعتقد أنه ابن مغلوين الفرنجي ملك البرتغال

٣٥- سيرة الملك الظاهر، الطبعة الدمشقية ص٢٢٠- ١٢٦.

٣٦- سيرة الملك الظاهر، الطبعة الدمشقية ص ٢٥٤-٢٦٠.

٣٧- سيرة الملك الظاهر، الطبعة الدمشقية ص٣٠٥.

٣٨- سيرة الملك الظاهر، الطبعة الدمشقية ص٢٩٨.

٣٩- سيرة الملك الظاهر، الطبعة الدمشقية ص١٨٣.

٤٠- سيرة الملك الظاهر، الطبعة الدمشقية ص٢١٩.

٤١- سيرة الملك الظاهر، الطبعة الدمشقية ص٢٦٠.

٤٢- سيرة الملك الظاهر، الطبعة الدمشقية ص٢٧٠.

٤٣- هي كرة كبيرة ثقيلة من الحديد، تتصل بها سلاسل تنتهي كل منها بكرة حديدية أصغر، وتتصل الكرة الكبيرة بسلسلة حديدية قوية، كان يقاتل بها القائد البطل المقدم معروف الجمري، ولا يستطيع ذلك غيره لثقلها ولقوته.

٤٤- بشارة الخوري ت ١٩٦٨.

المصادر والمراجع

- أضواء على السير الشعبية، فاروق خورشيد، المكتبة الثقافية، مصر ١٩٦٤.
- البداية والنهاية، ابن كثير، تح أبو ملحم ورفاقه، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥.
- بدائـع الزهور في وقائع الدهور، ابن إياس، تح محمـد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢.
- تاريخ المماليك البحرية، علي إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، مصر ١٩٦٧.
- دائرة المعارف الإسلامية، إعداد خورشيد وزميليه، القاهرة، طبعة دار الشعب.
- دولة الملك الظاهر بيبرس في مصر، محمد جمال الدين سرور، دار الفكر العربي، مصر ١٩٦٠.
- الحركة الشعرية في حلب زمن الأيوبيين، أحمد فوزي الهيب، جامعة حلب ٢٠٠٦.
- الحركة الشعرية في حلب زمن الأيوبيين، أحمد فوزي الهيب، جامعة حلب ٢٠٠٦.
- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، العصامي، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٨٠هـ.
- سيرة الملك الظاهر بيبرس، ولها عدة طبعات، منها:
١- طبعة مصرية، صاحبها عبد الحميد أحمد حنفي بلا تاريخ، وهي في خمسة أجزاء.
٢- طبعة دمشقية صادرة عن دار كرم بلا تاريخ، وهي موجزة في جزء واحد.
- العبر في خبر من غبر، الذهبي، تحص لاح الدين المنجد، وزارة الإرشاد، الكويت ١٩٦٦.
- العصر المماليكي في مصر والشام، سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٦.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي، وزارة الثقافة، القاهرة ١٩٦٣.
- وفيات الأعيان، ابن خلكان، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨.
مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٧٥ عام ٢٠٠٠ الجزء ٢.

آفاق المعرفة



هل العلم يخدم العدالة

المحامي هائل منيب اليوسفي ⊛

بتاريخ ١٩٩٧/٩/٢٥ حاول رجال الموساد الإسرائيلي اغتيال رئيس المكتب السياسي في حركة حماس المجاهد خالد مشعل وسط شوارع عمان عن طريق اعتراضه وحقنه بعقار كيميائي غامض ولاذوا بالفرار وتركوا وراءهم خالد مشعل يتخبط في حشرجة الموت وكان من المؤكد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة من دون أن يعلم به أحد لولا عناية المولى ومسارعة بعض مرافقيه إلى إسعافه عن طريق إعطائه المصل المضاد (الترياق) الذي كان سراً كيميائياً

⊛ عضو الرابطة السورية للطب الشرعي.

أيضاً ولا يعرفه إلا الذين يعرفون العقار الأول وكان للملك حسين وقتها الدور الكبير في إجبار سلطات الاحتلال الإسرائيلية على فكك رموز العقار الذي حقنوه به من ضمن صفقة سياسية كبيرة لا مجال للخوض في تفاصيلها الآن.

وعلى غرار ما فعله (الموساد) مع خالد مشعل هناك من يقول إن طريقة وفاة ياسر عرفات ليست بعيدة عن أسلوب الموساد بوسائل كيميائية لا تترك أثراً وراءها يدل على فاعلها لاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار قدرة جهاز الموساد على الاختراق الأمني الذي راح ضحيته العشرات من الشهداء كان في عدادهم على سبيل المثال وليس الحصر الشيخ أحمد ياسين، جهاد جبريل، يحيى عياش... وآخرون من حيث اعتماد العقاقير أو اعتماد أسلوب التفجير.

ومنذ أيام قليلة شغلت العالم بأسره قضية محمود المبحوح الذي بدت وفاته طبيعية من دون مداخلة جرمية لولا يقظة بعض مرافقيه للشهيد المبحوح وانفجرت على أثرها فضيحة أمنية كبرى لا تزال أصداؤها تصم الآذان في كل مكان وما إن بدأت تهدأ موجات فضيحة الشهيد المبحوح حتى انفجرت فضيحة أخرى أكبر وأوسع وأبعد أثراً من كل الفضائح الأخرى وهي ارتكاب الجرائم بأحدث التقنيات عبر أجهزة الهاتف الخليوي سواء من حيث التنصت أو زرع الأرقام في أجهزة هواتف الآخرين أو تفجيرها... أمور لا تصدق.

وعل أبرز مثال في استخدام التقنيات الحديثة المتطورة في ارتكاب الجريمة كان مقتل رفيق الحريري ولم يحسم التحقيق أمره بعد في معرفة وسائل ارتكاب الجريمة حتى الآن. تارة يقولون سيارة مفخخة وتارة أخرى عبوة ناسفة تحت الأرض وآخر ما سمعناه هو ما نشرته إحدى الصحف الروسية المعروفة باتزانها وقربها من صناع القرار من أن قتل الحريري تم بواسطة صاروخ موجه جو -أرض متطور جداً تملكه دولتان في العالم ألمانيا وإسرائيل فقط.

المهم في هذا الاستطراد هو ما سمعناه شخصياً من أحد الشهود [1] في ملف الحريري والذي وقع في قبضة الفريق المحقق (ديتلف ميليس) وأعوانه في منتجع (مونت فيردي) [2] حين طلب منه الإدلاء بالإفادة التي لقنوها له وهددوه إذا امتنع أنهم سيحقنونه بالعقاقير التي تجعله أن يقول ما يريدونه ويتحمل تبعات كل النتائج الطبية السيئة وما تلحقه به من هذيان وضعف أعصاب، ثم تمكن هذا الشاهد الشهم من الهرب من قبضتهم ودخل الحدود السورية آمناً وبقية الأحداث معروفة.

إذاً التقنيات المتطورة بما فيها العقاقير

والمستحضرات الكيميائية تصنع الشهود.. تصنع الإفادات.. تقيم الأدلة.. تطمس الأدلة، تغير مجرى التحقيق وبالتالي تصنع الجريمة وتصنع النتائج أيضاً سواء كانت براءة أو إدانة.. هذا أمر مخيف حقاً.

لأبدأ الحديث عن العقاقير تاريخياً وأن يكون للحديث امتداد وصلة إن قصة العقاقير المؤثرة على العقل والإرادة قصة قديمة، لعل الكحول من أقدم أنواعها، وقد قال الرومان قديماً تكمن الحقيقة في الخمر.

وإلى جانب المواد الكحولية توجد المخدرات المختلفة كالحشيش والكوكايين والمسكالين وإذا كانت هذه العقاقير قد أريد بها لأحيان كثيرة أن تؤدي إلى كشف خبايا النفوس، فإن التعبير الملفت للنظر «مصل الحقيقة» لم يسمع لأول مرة إلا في سنة ١٩٣٢ عندما استعمل كالفين جودارد عقار السكوبولامين من مشتقات الأتروبين كمهدئ في حالة الوضع.[٣]

وقد سبق للدكتور هاوس في سنة ١٩١٦ أن لفت النظر إلى خواص هذا العقار إذ كان يستعمله في حالة ولادة وطلب شيئاً من الزوج فردت الزوجة وأخبرته بمكانه على الرغم أنها كانت تحت تأثير المخدر لم تعرف الوضع قد تم.

وقال إنه يحصل بعد ذلك في الحالات المماثلة على إجابات صحيحة أدت به إلى الاعتقاد بأن هذا المخدر يفقد القدرة على الاختلاق وتغيير الحقيقة.

ولكن علماء آخرين لم يشاركوا هاوس تأكيده وأشاروا إلى حالات كذب وعلى أنه إذا كان من السهل الحصول على اعترافات تافهة فإن مقاومة النائم تظل شديدة إزاء الاعترافات الهامة وإن كان الأمر يختلف باختلاف الشخصية.

ثم جاء استعمال الباربيتورات في التخدير، ومنها الأمتيال والإفيبان والمعروف أن كمية بسيطة منها تؤدي إلى التهدئة وأن كمية أكبر تحدث التخدير، في حين تؤدي الكميات الكبيرة إلى الغيبوبة والموت.

وتستعمل هذه المواد في التحليل النفسي بدل الالتجاء إلى الطريقة المطولة في التحليل وهي طريقة تداعي المعاني، وخاصة بالنسبة للصدمات النفسية كالتي تحدث للجنود في ميدان القتال، ومن ثم أجريت التجارب لاستعمالها في التحقيقات، واختلفت نتائج التجارب اختلافاً كبيراً، فبينما يذهب البعض إلى أنه حصل على اعترافات كاملة يذهب بعض آخر إلى أن الشخص الذي يصمم على عدم الافضاء لايفضي تحت تأثير المخدر ولعل هذا الاختلاف مرجعه اختلاف أثر العقار باختلاف الأشخاص واختلاف الظروف.

ولكن القدر المتيقن في هذا الخصوص

هو أن هذه العقاقير تؤثر على تحكم الإنسان في إرادته قليلاً أو كثيراً وتجعله أكثر قابلية للإيحاء والانقياد وأكثر رغبة في المصارحة والإفضاء، وإذا لم يأت الاعتراف صريحاً فإن الاستجواب خليق تحت تأثير المخدر بأن يوقع الشخص في التناقض والخلط.

وعلى أية حال فإن البنتوتال هو أشهر هذه العقاقير التي استعملت كمصل حقيقة، وقد استعمل في قضية هامة في فرنسا شغلت الأذهان وأثارت الجدل.

وكانت البداية في نوفمبر ١٩٤٥ عندما ألقي القبض على فرنسي بتهمة التعاون مع الأعداء أثناء الاحتلال الألماني، ولم ينطق المتهم بحرف منذ القبض عليه، ولما كان قد أصيب برصاصة في رأسه في سنة ١٩٤٣ فقد أحاله قاضي التحقيق للفحص الطبي الشرعي.

وفي ديسمبر ١٩٤٦ قرر الأطباء الثلاثة الذين فحصوه أنه مصاب بالبكم وليس متصنع، وفي عام ١٩٤٧ عاد قاضي التحقيق وانتدب الأساتذة هوير ولافاستين وجنيل بيران لفحصه للبت فيما إذا كان المتهم مصاباً بحالة بكم عضوية أو هيستيرية أو أنه متصنع وفي استطاعته الإجابة، واستعمل الخبراء الثلاثة عقار البنتوتال وسألوه وهو تحت تأثير العقار فأجاب بكلمة نعم، ثم أخذ يتكلم وإن كان ذلك في صعوبة ظاهرة، ولكنه بعد يومين كان يتكلم بوضوح كاف، وأقر بأنه كان يدرب نفسه على النطق منذ أشهر وهو في السجن ولكنه خشي أن يتكلم أمام قاضي التحقيق بطريقته غير الطبيعية حتى لا يتهم بالإدعاء، وعلى ذلك قرر الخبراء الثلاثة أن حالة البكم غير قائمة أو أنها قاربت الشفاء.

وقامت على الأثر ضجة كبرى في المحافل العلمية والقضائية وثارت ثائرة الصحافة والرأي العام.

وقرر مجلس نقابة المحامين في باريس أنه يعتبر استعمال التحليل العقاري سواء في الخبرة الشرعية أو لاستخلاص أقوال المتهم في أي إجراءات التحقيق انتهاكاً لحق الدفاع.

وقررت الأكاديمية الطبية الفرنسية عدم جواز الالتجاء إلى التحاليل العقاري في خبرة قضائية بقصد التشخيص أو لاستمداد المعلومات.

بل إن المتهم رفع دعوى جنحة مباشرة على الأطباء الثلاثة يتهمهم بإحداث جرح به عند (ثقب الإبرة لدى إعطائه المصل) وأنه أفشوا سر المهنة بنقل المعلومات التي أفضى بها قاضي التحقيق، ولكن محكمة السين /تحت رئاسة القاضي دور كايم/ قضت ببراءتهم على أساس أن الجرح التافه قد أجري بقصد التشخيص الطبي وأن

الأطباء لم يكونوا معالجين بل خبراء علهم أن يقدموا للقاضي المعلومات المتصلة بالمهمة الموكلة إليهم.

وقد أدت هذه الفضيحة إلى إحالة المتهم مرة ثالثة إلى لجنة من ثلاثة أطباء آخرين لإعادة فحصه، وقد قرروا أن حالة الأفيزيا تحسنت ولكن إصابة المتهم خطيرة بحيث تجعله عاجزاً عن الدفاع عن نفسه كما يجب ويتعين إخلاء سبيله طبياً، وفعلاً تأجلت المحاكمة إلى أجل غير مسمى وأطلق سراحه.

وقد كان التيار كله -سواء بين العلماء أو غيرهم- متجهاً إلى الثورة على هذه الوسيلة واستعمالها في التحقيق والاستجواب، حتى الأطباء الثلاثة (هوير ولافاستين وبيران) أعلنوا أنهم لا يقرون مطلقاً إباحة هذه الوسيلة في الاستجواب وأنهم ما التجؤوا إليها إلا كوسيلة تشخيص في خبرة طبية شرعية لا كوسيلة استجواب. وقد أثيرت للاستدلال على بطلان الالتجاء إلى التحليلي الدوائي في الاستجواب عبارات قانونية قوية، أولاها حق الإنسان الطبيعي المطلق في سلامة شخصه.. جسمه وعقله، وخاصة إزاء أي إجراء يقلل من تملكه لزمام إرادته وبطلان كاعتراف أو دليل يستمد عن طريق الإكراه بأي صورة من صوره، وحق المتهم في الصمت، أي حقه في أن لا يرغم على إدانة نفسه بالنطق حيث تستدعي مصلحته في الدفاع عن نفسه ألا يتكلم.

بل إن الأستاذ (جارسون) وتبعه الكثيرون وصف الوسيلة صراحة بأنها تعذيب يعود بنا إلى العصور الوسطى، وأننا إذا كنا لا نقبل اليوم إنزال العذاب بالمتهم حتى يقر، فإن (عقلية التعذيب) ما تزال قائمة ماثلة من وراء الالتجاء إلى هذه الوسيلة الجهنمية.

ومن حق الصمت تنشق حرية المتهم في الكذب، وقد لا نميل إلى القول بأن الكذب حق لأنه نقيضه من الوجهة الخلقية، ولكنه حرية فعلية أو رخصة للمتهم، ولا شك أن للمحقق.. بل عليه أن يعمل على كشف أكاذيب المتهم، ولكن إذا كان من حقه أن يفضح هذه الأكاذيب فليس من حقه أن يخنق قوة المتهم العقلية أو إرادته.

هذه الإرادة التي تستطيع ولا نقول يحق لها أن تكذب من دون أن ينالها القانون بشيء.

ولكن موضع الخلاف الحقيقي كان في شرعية استخدام التحليل العقاري والخبرة الطبية الشرعية، مثل تشخيص البكم كما في حالة الفرنسي السابق بيانها.

يذهب فريق إلى أن التحليل العقاري يجوز استعماله بقصد التشخيص ولمعرفة ما إذا كانت الحالة عضوية أو نفسية أو تصنعاً أو بقصد الحصول على أقوال

واعترافات، وإذا حدث من المتهم الإفضاء بشيء فإن الطبيب ملتزم بواجب المحافظة على أسرار المهنة ولا يستطيع أن ينقل شيئاً إلى القاضي فيما عدا ما يتصل بالحالة المراد تشخيصها، ويضيف هذا الفريق إلى ذلك أنه لا يحسن الالتجاء إلى هذه الوسيلة إلا عند الضرورة وبحال فشل كل وسيلة أخرى، وإن من حق المتهم دائماً أن يرفض هذه الوسيلة.

ولا يرى أنصار هذا الرأي أن التصنع حق الحرية للمتهم يتعين المحافظة عليها، فإن كان المتهم يلجأ أحياناً إلى أخبث الوسائل للتصنع والتضليل فليس من الإنصاف حرمان العدالة من الاستعانة بالخبرة لفضح تصنعه وتضليله، ولا يختلف الالتجاء إلى التحليل العقاري عندئذ عن الالتجاء إلى أخذ عينة من الدم لفحصها أو استعمال جهاز قياس الموجات الكهربائية للمخ أو الدق على الجسم لاختبار الأعصاب.

ولكن أغلب الرأي يتجه إلى عدم جواز استخدام التحليل العقاري في الطب الشرعي فالتصنع بادئ ذي بدء نوع من الكذب، كذب يتصل بحاله وهو حرية للمتهم أمام القاضي وأمام الخبير، وليس معنى ذلك أنه ليس للخبير أن يكتشف التصنع بالفحص والملاحظة، ولكن ليس له أن يهدم قدرة المتهم على التصنع، وعليه أن يقف عند حد العلاقات والدلالات، ولهذا فلا محل للمقارنة هنا مع فحص الانعكاسات العصبية أو تحليل الدم، إذ في هذه الحالات ومثلها يقف الفحص عند حدود العلامات من دون تجهم على إرادة المتهم أو محاولة تعطيلها.

هم يرون أن استخدام التحليل العقاري في الطب الشرعي جدير دائماً بأن ينزلق من التشخيص إلى انتزاع المعلومات والاعترافات، كما تؤكد ذلك القضية الفرنسية، وبهذا نصبح أمام «مصل الحقيقة» الذي يخل بكل حقوق الإنسان ألا يؤدي هذا الإجراء إلى إقرار المتهم بتصنعه؟ ألا يعني ذلك أنه تحت ستار تشخيص التصنع يتدخل الخبير لانتزاع اعتراف من المتهم بتصنعه.

أما المسألة الثانية التي ثار فيها النظر فهي حالة ما إذا وافق المتهم على تخديره واستجوابه تحت المخدر أو طلب ذلك.

ويرى بعضهم أنه لا يوجد مانع قانوني من تخدير المتهم واستجوابه إذا طلب هو ذلك لإظهار براءته، بل إنه من الظلم أن يرفض طلب للمتهم قد يحقق له فائدة، ويذكر بندر أن التحليل العقاري استعمل في إحدى القضايا إذ جمد فيها عند مرحلة تكافأت عندها كفتا البراءة والإدانة.

وكان المتهم مصراً على أنه كان بعيداً عن مكان الحادث ليلة وقوعه، ورأت النيابة

استجوابه تحت تأثير المخدر فوافق على ذلك، وظل تحت تأثير المخدر مصراً على أقواله، وترتب على ذلك حفظ القضية.

ونحن نرى أن يمتد حظر استخدام هذه الوسيلة مهما كان الغرض ومهما كانت الظروف، إن التخدير أخطر وسيلة يمكن أن تتسرب إلى قاعة التحقيق، والسماح بها مهما أحاطت بذلك الضمانات معناه التعرض لكل الآثار البليغة التي تنجم عن إساءة الاستعمال، إذا أبحنا استعمال التحليل العقاري بموافقة المتهم، أفلا يسيء إلى مركزه أن يرفض؟ أو لا يكون في ذلك إكراه جعله يخضع لهذه الوسيلة؟ وإذا اشتد حرصنا فحتمنا أن يكون ذلك بناء على طلبه، فما هو الخط الفاصل بين الموافقة والطلب؟ ألا يتصور عند ذلك التحايل والادعاء بأن المتهم هو الذي طلب، في حين أنه لم يصدر منه سوى الموافقة على ما طلب إليه؟ أما ما يقال من أن هناك تخديراً لمصلحة المتهم لا يجوز حرمانه منه فلا نظن أن هناك شيئاً من هذا، إن هناك دائماً احتمالاً أن يعترف المتهم أو يسيء إلى مركزه أو يشي بنفسه عن واقعة أخرى أو يختلط عليه الأمر فيمزج الحقيقة بالخيال وينطق بخرافة قد تؤخذ عليه.

ومن ناحية أخرى فإن هناك عدداً من الناس لا يتأثرون بهذا المخدر، فهل يكون في مصلحة العدالة أن يصروا على الإنكار وتخرج صحائفهم بيضاء في حين أنهم هم مذنبون.

لقد قلب العلم ميزان العدالة التي كانت تمسك به امرأة معصوبة العينين ووضعه في يد صانع التقنيات والعقاقير.

الهوامش

(٩) هسام هسام.

(٢) مركز البحوث الجنائية في القاهرة.

الفندق الذي اتخذته لجنة التحقيق مقراً لها في بيروت.

مصادر البحث:

١- الحقوق الجزائية العامة للدكتور عبد الوهاب حومد.
٢- مجلة المعهد القومي للبحوث الجنائية للدكتور أحمد محمد خليفة. القاهرة عام ١٩٥٨.
٣- ملف التحقيق في اغتيال الحريري وسماع أقوال الشهود (المحامي الوكيل).

آفاق المعرفة

الثورة المعرفية الكونية والصورة الافتراضية المترتبة عن مجتمع المعلوماتية

د. منير سويداني ⊙

مما لاشك فيه أن التغيرات الكبيرة والهائلة للثورة المعرفية الكونية - العلمية والتقنية - والمتجددة يوماً بعد يوم بسرعة كسرعة العمليات الرقمية أو التقنيات الرقمية الجديدة، أو بمعنى آخر سرعة الدخول إلى ذلك العصر الرقمي، وما أفرزته ثورة الاتصالات والمعلومات وما نتج عنها من صور اجتزائية افتراضية تبرز حقيقة أبرز مفردات البنى التحتية لمظاهر مجتمع المعلوماتية والتقنيات والحاسبات الآلية والعصر الرقمي. وكان لتلك التغيرات

⊙ باحث سوري.
⊙ العمل الفني: الفنان أنور الرحبي.

أشد الأثر في النظام الدولي الجديد، وامتدت تأثيراتها على العالم ككل بعد ثورة الاتصالات والمعلومات سـواء في مشهده ونظامه أو في قواه أو في مفاهيمه وأدواته ووسائطه.

ويوما بعد آخر تتعاظـم أهمية الشبكة الدوليـة «الإنترنـت» ودورهـا المتزايد في إحداث تغييرات جذرية في المعارف المكتسبة للأفـراد والتـي تنعكس بالضـرورة على مفاصل الحياة في شتـى صورها وحلقاتها ومستوياتها، فتبرز واضحة جلية في مفردات البنى التحتية لبعض مظاهر الوعي والتطور والارتقاء. ومما لاشك فيه أن الإنترنت تفتح لنـا أبوابـا وسياقات علـى الدنيا لا يمكن تصورهـا وتأطيرها للوهلـة الأولى.. فهل تعلم أنك تستطيـع وأنت تجلس أمام شاشة الكمبيوتر، وبعد أن يأوي كثير من الناس إلى فراشهم، أن تنظر إلى حصيلة زمنية تتجاوز آلاف السنين من التطوير العلمي والهندسي والمعلوماتي؟.. نعم، إنهـا الإنترنت توصلك إلى حيـث لا تستطيـع أن تصـل في «تلك اللحظة»، وتقطع بـك المسافة خلال ثوان، لن أطيل في هذا المجال فنحن بتنا في عصر التواصـل الإنساني القائم على مجموعة من التحولات المتسارعة والمتنامية والمؤثرة على الأطر الهيكلية المتدفقة من ثورة المعلوماتية وتأثيراتهـا المشهودة في جميع المجالات وفي مختلـف المراحل سواء ما تعلق منها بالزمان أو بالمعنى والهويـة أو بالواقع والحقيقة أو بالعمل والتقنية.

وفي عصر متعـدد اللغـات والمجالات، متراكب الأنظمة والمستويات، إذ هو متسارع بقدر ما هو إلكـتروني، وهو رقمي بقدر ما هـو تقني وأخيرا وخاصة فهـو كوكبي لأنه يصـدع الحواجز بين الـدول والمجتمعات، بقدر ما يفتح الحدود بين البشر، ليس فقط الاقتصاديـة والماليـة، بل أيضـا المعرفية والرمزيـة والخلقية والأمنيـة، الأمر الذي يحول الكرة الأرضية إلى سوق مالية واحدة وإلى قرية إعلاميـة مشتركة، ولاشك أيضا أن لهـذا التغير في نمط الإنتـاج والاتصال والتداول، كما يتمثل في الانتقال من الإنتاج الميكانيكـي والسلـع الثقيلـة إلى الإنتـاج الإلكتروني والسلـع الافتراضية، إنما يترك أثـره القوي علـى مختلف وجـوده النشاط البشـري كما على بنية الثقافـة ومنتجاتها وعلى مكانة النخب الثقافية ومهماتها.

وفي ضوء هـذا التغير في المشهد العالمي الـذي يتحول بصورة جذريـة وهائلة، وقد يمكن اعتبار العولمة مجرد إمبريالية معاصرة أو ليبراليـة جديـدة أو هيمنـة أمريكيـة، وبالتالي الانتقال إلى تعظيم السوق بمختلف توجهاته أو تسليع الثقافة والعقول، وبالتالي

تفرض علينا متطلبات جديدة، تتراءى أمامنا حتمية التعامل مع العولمة مفردة وظاهرة، بصفتها ثمرة الطفرات والانفجارات والتحولات المتسارعة التي تضع المجتمعات البشرية أمام التحديات الجسيمة والخطيرة، ومواجهة أبرز التداعيات الناتجة عن ذلك النظام الدولي الجديد. والدخول إلى ذلك العصر الرقمي وفق متطلبات حاجتنا الوطنية الأساسية واستخلاص أبرز ما ينتج عن تلك التحولات الاقتصادية والتقنية وأبرز ما يتعلق بمجتمع المعلوماتية، والتوافق المنهجي المترافق مع جملة الأسس وطبيعة التغييرات لمسايرة ذلك التطور الحاصل من هذا الجانب والتي من أبرزها وما يهمنا في هذه المرحلة هو الاقتصاد المعرفي والسبل الكفيلة والمهيئة للانتقال إليه والاستفادة من جوانبه كافة.

ننتقل إلى جانب آخر وهو الدخول في العصر الإعلامي الجديد، حيث نشأت معطيات جديدة تغيرت معها صناعة الرأي العام بقدر ما تغير شكل المصداقية والمشروعية السياسية، حيث لم يعد الكتاب أو النواب وحدهم يصنعون الرأي العام أو يمثلونه، وإنما أصبح الإعلام المرئي بقنواته وشبكاته وبرامجه ورجالاته وصوره يسهم أيضا في صناعة المشهد وفي تشكيل الفضاء العمومي الذي لم يعد حكرا على الساسة والمثقفين والدعاة، إنما أصبح مجالا تداوليا، بوسع الفاعلين الاجتماعيين على اختلاف قطاعاتهم وحقول عملهم، أن يساهموا في تشكيله وتوسيعه بالمداخلات عبر المناظرات التلفزيونية والمناقشات العلنية التي تطور أسلوب التطلعات الديمقراطية القائمة في أي دولة في العالم.

وبالانتقال إلى ناحية تطوير التقنيات المعلوماتية الجديدة فإن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد، بل لابد من حمايتها وصياغتها وفق رؤانا وما يناسبنا منها بشكل لا يتعارض مع خصوصيتنا وذاتيتنا ومواقفنا من هذا النظام الدولي وتأثيراته على اقتصادنا، من هنا يجب التطوير الدائم لأنظمة التقنيات المعلوماتية ومن ثم حمايتها والتي تتلخص في أبرز ما يلي:

- شبكات البيانات والمعلومات والاتصالات.
- أنظمة الشبكات الكهربائية.
- أنظمة الغاز الطبيعي والنفط والخزن الاستراتيجي.
- أنظمة المواصلات بمختلف أنواعها.
- أنظمة خدمات الطوارئ.
- أنظمة الخدمات الحكومية المختلفة.

الاستيعاب الأيديولوجي

والسؤال المحوري الذي ينبغي طرحه بالنسبة لتكنولوجيات المعلوماتية والثورة المعرفية الكونية، المعاصرة والمستقبلية هو: هل تفتح هذه التكنولوجيات باب الفردوس أمام الإنسانية بأسرها؟، حيث يتاح للبشر لأول مرة الاتصال بين بعضهم البعض بطريقة مباشرة، دون حدود وقيود، وبغض النظر عن تنوع أعراقهم وأجناسهم ومعتقداتهم ومواقعهم وطبائعهم، وتعدد ثقافاتهم، بالإضافة إلى انفتاح أبواب المعرفة أمامهم بكل فروعها وقنواتها وأدواتها ؟.. أم إن هذه التكنولوجيات التي يشيع استخدمها في البلدان المتقدمة ستوسع الهوة بين الشمال والجنوب ؟.. بل وبين القادرين على الاتصال في المجتمع الواحد نفسه وغير القادرين، وتصبح بالتالي كما لو كانت جحيما مرفوضا . إن المتابع للتراث العلمي الخاص بعصر المعلوماتية الكوني من السهل عليه أن يرصد ظاهرة الاستيعاب الأيدلوجي -



إن صح التعبير- بين المتفائلين والمتشائمين، وفيما يلي تلخيص مكثف للحجج التي يستندون إليها:

- يتوقع في عالم المستقبل أن يصبح بمثابة سوق للمعلومات يستطيع فيه الناس، من خلال حواسبهم الآلية، أن يشتروا وأن يبيعوا المعلومات، وأن يتشاركوا في الوصول إليها. وستتعدد الاستخدامات لهذه المعلومات في

مجالات التجارة والصحة والتعليم والإدارة والأنشطة الحكومية، وفي مجالات الترفيه المتنوعة، مما سيؤثر على الأنشطة والمجتمع والتاريخ.

- إن سرعة التطور في تكنولوجيا المعلومات والاتصال من شأنها أن تتحدى العقل الإنساني لكي يفكر بطريقة أفضل وأسرع، لكي يصبح أكثر معرفة وفعالية وإنتاجية، وهذا في حد ذاته سيؤدي إلى التوزيع العادل للثروة الكونية في سياق اقتصاد يقوم على الرخاء في القرن الجديد، حيث تربط تكنولوجيا المعلومات والاتصالات المجتمعات ببعضها البعض، وبذلك ستختفي مشكلة من يملكون ومن لا يملكون في مجال الثروة والاتصال والمعرفة معاً.

- مثلما أدى تطور الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر إلى إضفاء الطابع الديمقراطي على المعرفة، فإن تكنولوجيات المعلومات والاتصالات ستسرع من سيطرتنا على المعرفة، ذلك أن الثورة المعرفية الكونية، من خلال هذه التكنولوجيات، تحمل في طياتها الوعد بالقضاء على العزلة في العالم، بفعل سيل المعلومات وغزارتها، ومن شأنها أن تجعل البلدان النامية تحرق المراحل المكلفة من عملية التنمية، وتركز جهود العقل الإنساني المعولم لحل المشكلات الحادة.

- ويمكن أن تصبح فكرة الحرية العالمية من خلال الاتصال والحوار عبر مشكلة الإنترنت حقيقة في المستقبل. ذلك أن الاتصالات بين الأفراد المتباعدين مكانيا قد تحل محل وسائل الإعلام المسموعة، بالإضافة إلى الإمكانيات الهائلة لممارسة حرية التفكير وحرية التعبير. لقد أعطت تكنولوجيات المعلومات والاتصالات القوة للناس، وهم بالفعل يستخدمونها والشاهد على ذلك أن أجيال الشباب تستثمر بقوة في الانترنت من غير أن يتوفر لهم تمويل ضخم، ولكنهم يعتمدون على المعرفة والإبداع.

- تقدم شبكة الإنترنت إمكانيات لنشوء ثقافة تقوم على التسامح، ولعلها أيضا تسهم في إشاعة الديمقراطية في المجتمعات، وإعادة قيمة الإحساس بالمشاركة في المجتمع. وفي الوقت الذي تشاهد فيه مجتمعات محلية تقليدية تتسم بالجمود، فإن ما يطلق عليها المجتمعات المفترضة والمجتمعات المتصلة ببعضها عن طريق شبكة الإنترنت في حالة نمو سريع.

- هناك توقعات بأن الديمقراطية ستتسع دوائرها في العقود القليلة القادمة وسيمارسها الناس على شتى اختلافاتهم.

ولا شك - في نظر المتفائلين - أن تكنولوجيات المعلوماتية والاتصالات لديها الإمكانية والقدرة على إعادة إحياء القيم الديمقراطية، وإضفائها على المؤسسات السياسية، ذلك أنها تستطيع أن تربط بين الناس وتزيد من تمكينهم داخل كل مجتمع على حدة، وعلى مستوى العالم أجمع كما لم يحدث من قبل، وهي تقدم إمكانيات الاتصال التفاعلي الخلاق لمصادر المعلومات ومراكز اتخاذ القرار، حيث يمكن المشاركة في المعلومات بغير تكاليف مالية، وكل هذا سيعطي الإمكانية لمعرفة المعلومات والبدائل المختلفة، مما سيحسن من عملية اتخاذ القرار. وهناك مؤشرات على أنه في المستقبل فإن فكرة النظام يمكن أن تنبع من النسق الاجتماعي ذاته.

- من شأن تكنولوجيا المعلومات والاتصالات أن تقضي على حواجز الزمان والمكان، ومن شأن ذلك أن يغير الطريقة التي نعيش بها، مما يرفع من مستوى الوعي الاجتماعي في العالم . وهناك توقعات بأن تكنولوجيات المعلومات والاتصالات ستنفذ إلى كل مجالات الحياة، وستصبح هي مع مرور الزمن الأداة الرئيسية للتغيير الاجتماعي.

- هناك نهضة الآن في مجال الترجمة الآلية، وفي ضوئها تستطيع تكنولوجيات المعلومات والاتصالات أن تقضي على الحواجز بين لغات العالم، وتشجع الحوار الثقافي بين الناس على مستوى العالم كله. أن من شأنها - يقول المتفائلون - أن تحسن من نوعية الحياة على المستوى الكوني، حيث سيتاح حتى للمناطق البعيدة أو الهامشية أن تصل لمراكز المعلومات الصحية والخدمية، وكذلك الاستفادة من شكل وسائل التعليم عن بعد، وحتى التمتع بإمكانيات الترويج ويستطيع الناس باستخدامهم شبكة الإنترنيت أن يعملوا وهم داخل بيوتهم لحساب أي مشروع أو شركة في العالم. وقد أصبحت هذه الممارسات واقعا بالفعل، أو على العكس قد تشجعهم على مغادرة المدن، والسكن في مناطق ريفية، ومعنى ذلك اتساع دائرة المراكز الريفية على حساب المراكز الحضرية.

مما سبق تلخيصا عن حجج المتفائلين بالإنجازات والمكاسب الخارقة التي ستقدمها تكنولوجيات المعلومات والاتصالات الجديدة. ولعله حان الآن إثارة السؤال الرئيسي: ما هي موضوعية هذه الحجج؟.. أول ملاحظة نقدية نقدمها أننا ضد المنطق الذي يذهب - في الموضوعات

المهمة الخلاقة - إلى إبراز كل الجوانب الإيجابية وإخفاء الجوانب السلبية. فهذا التحيز المسبق للتطور التكنولوجي المبهر الذي حدث في تكنولوجيات المعلومات والاتصالات من شأنه أن يخفي حقيقة السلبيات التي لا بد أن تصاحب أي تطور تكنولوجي جديد.

ولنأخذ على سبيل المثال ما يذهب إليه المتفائلون بأنه ستنشأ في المستقبل سوق عالمية للمعلومات يستطيع الناس من خلالها ممارسة البيع والشراء، والحصول على معلومات في مجالات الصحة والتعليم. ويمكن القول إن هناك مؤشرات على بداية تخلق السوق العالمية، لعل الإحصاءات الخاصة بالتزايد الضخم في معدلات التجارة الإلكترونية يؤكد ذلك، ولكن من هم المتعاملون في هذا المجال؟ هم في الواقع الشركات التجارية ورجال الأعمال والاقتصاديون الذين لا يمثلون أي مجتمع سوى شريحة صغيرة، ولكن ماذا عن باقي الشرائح في المجتمع وخصوصا شرائح الطبقات المتوسطة والفقيرة، والذين لا يستطيعون حتى الآن - بحكم ضآلة الإمكانيات المالية والاقتصادية - استخدام التكنولوجيات الجديدة في مجال المعلومات والاتصالات؟..

وإذا نظرنا إلى الصورة الوردية التي يقدمها المتفائلون عن أن تكنولوجيات المعلومات والاتصالات ستؤدي إلى التوزيع العادل للثروة الكونية في سياق اقتصاد يقوم على الرخاء، فهي صورة أبعد ما تكون من الحقيقة. ذلك أن كل المؤشرات الاقتصادية تشير إلى أن العولمة - في ضوء ممارساتها الراهنة - قد أدت إلى اتساع دوائر الفقر وزيادة عدد الفقراء حتى في الدول المتقدمة ذاتها، وتبدو مشكلة الفقر في الوقت الراهن مشكلة عالمية، احتار في حلها خبراء الاقتصاد والاجتماع، وتعدد البرامج الدولية والإقليمية والمحلية لمواجهتها بطريقة فعالة. ومن ناحية أخرى، يمكن القول أن ما يذهب إليه المتفائلون من أن تكنولوجيات المعلومات والاتصالات الجديدة من شأنها أن تؤثر تأثيرا عميقا على المعرفة الإنسانية من حيث التعمق وسرعة تراكم المعرفة فهو صحيح تماما. ذلك أن الأبحاث التي أجريت على الإنترنت تؤكد أن شبكة المعلومات العالمية وما تقدمه من معلومات يمكن تحويلها إلى معرفة، ستخلق أنواعا جديدة من الباحثين ذوي العقلية الموسوعية، بحكم تعدد وتنوع مصادر المعرفة المختلفة التي تنتمي إلى فروع علمية شتى، ونشرها على شبكة الإنترنت، مما يسمح للباحث باكتساب

نظرة شاملة لدراسة الظواهر المختلفة. ومن شأنها هذا أن يقضي على الظاهرة السلبية المتعلقة بتفتت المعرفة، والتي أدى إليها تيار التخصص العلمي الدقيق.

وفي تقديرنا أيضاً أن الصورة المتفائلة صحيحة فيما يتعلق بأن القرن الواحد والعشرين سيشهد أوسع حوار للحضارات شهده التاريخ الإنساني، فلأول مرة يتاح لكل ثقافات العالم أن تعرض نفسها على شبكة الانترنيت بأعماقها التاريخية وتنوعاتها وآدابها وفنونها ومعرفتها العلمية. ليس ذلك فقط بل أن المثقفين والباحثين الذين ينتمون إلى ثقافات متعددة يستطيعون لأول مرة أن يتصلوا ببعضهم البعض اتصالا مباشرا لا قيود فيه ولا حدود. ولا شك أن تطور برامج الترجمة الآلية للغات من شأنه أن يدفع حوار الحضارات إلى مسارات ثقافة غير مسبوقة.

آفاق المعرفة



الإبداع الفنّي.. وبناء التاريخ

اسكندر نعمة ⊙

يفقد التاريخ معناه، من دون أن تندمج في مسيرته الكبرى، جزئيّات الحياة والفن معاً، لتصبحا كلاً مترابطاً ترابطاً عضويّاً، يكمّل أحدُهما الآخر. فالحياة من دون الفن هياكل محنطة، لا تحمل في طيّاتها رونقاً ولا عطاءً إنسانياً.. وكذلك فالتاريخ من دونهما مسيرة فارغة، تدخل في حساب التعداد والأرقام والتكرار من دون أن يكون لها مذاق فكريّ وجمالي يبعث النكهة في أوصالها..

⊙ كاتب وقاص سوري.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

إنّ الحضارة بمختلف أعماقها وألوانها، والشعر والفنون الجميلة والقصة والرواية والمسرح. إن هي إلاّ جزئيّات أساسيّة مكوّنة للفن في مشهده الواسع العريض. والحياة من دون أن تشتجر فيها هذه الجزئيّات تبقى بناءً خلبيّاً. وأخيراً لا يبقى للتاريخ الإنساني أيُّ معنىً من دون هذا كلّه.. فأيُّ مصير ينتظر الإنسان عندما ينزع عنه ذلك القناع الآدمي بألوانه الفنيّة والفكريّة؟!

هل يمكن للإنسان المعاصر أن يحيا من دون أدب وموسيقى وفنون جميلة؟؟ وأيُّ مطامح تبقى له وقد ترنّحت معظم الإيديولوجيات واختلطت في عالمها الأوراق وتبعثرت؟؟ أيُّ معنىً يبقى للإنسان عندما يتحوّل إلى آلةٍ خرساء مقطوعة عن كل مبادرة فنيّة وفكرية؟؟. وماذا ينفع الجماعات البشرية إذ تتحوّل حسب رؤية نيتشه إلى قطعان منزوعة الإرادة والتطلع والرغبة؟؟.

لقد أصبح من المؤكد عبر العصور التاريخية مهما أوغلت في القدم وحتى اليوم. أن لا شيءَ يعبّر عن حقيقة الإنسان وجوهره الدّفين أكثر من ممارسة ضروب الفنون الجمالية والفكرية على مختلف صنوفها. فهي المساعد الأوحد لتخليص الإنسان أيّاً كان وأينما كان من جهله وغبائه الفطري.

وهي العامل الرئيس في نجاة الإنسان من وطأة التعصّب والتّقهقر والعنصرية والعودة إلى الحالة الحيوانية.. كما أنها تشكّل عصا النجاة التي تتكئ عليها المجموعات البشرية للتطلّع إلى آفاق إنسانية أرحب، بما تهيّئهُ من ظروف إيجابية مواتية للحصول على دروس وحالات معرفيّة مستمدة من التاريخ العام والخاص.. فتتعمّق آنذاك إنسانيةُ الفرد التي تميّزه لينجو من ربقة قيود الأرقام التي تحدّد حياته، ومن عبث الكلمات الفظّة التي تنخر ضميره وأعصابه، ومن جميع الوسائل المدمّرة التي تهدّد مصيرَه..

لأجل ذلك، فإن جميع دور النشر ومؤسّسات الثقافة والمعرفة، مدعوّة إلى الاعتناء المعمّق في تكريس الناحية الفكرية الجمالية والفنيّة، كي لا تغدو أعمالها أنشطة باهتة محنّطة. بل عليها أن تخوض غمار السّباق في نشر المعرفة الإنسانية وإيصالها إلى الجماهير الواسعة، عبر وسائل الفن والجمال بكل سعته ومرادفاته..

على دور النشر وكل مؤسّسات الثقافة أن تقدم لقرّائها وإلى كل أجيال الناشئة من طالبي المعرفة، ما يؤكد أهميّة الذوق الفني. كما عليها أن تسعى بعمق وجدية لإحياء الثقافة والمعرفة القديمة ضمن إطار الفن الحياتي الواعد بمستقبل أفضل. وذلك

من خـلال التأكيد على أن كل ثقافة ومعرفة لا ترتبط بمحور التاريـخ وحركيّتـه وصيرورته المتصاعـدة، هي معرفة باطلة مـن أساسها، وتعيش في الوهم والعدميّة، لأنّهـا لا تنفع حياة الإنسـان ومسيرتـه البنّاءة في قليل أو كثير. إذ ليس من منطق الفن بكل اتساعه وضروبه، ولا من منطـق التاريـخ ومسيرته أن يظل الفعـل الثقافي نشاطاً منفصلاً عـن أهداف الإنسان الـذي يتوق أبـداً إلى السعادة والاستقرار، وإلى تحقيق أفراح وهناء الجسـد والروح.. لذلك فإن تدريب الإنسان والناشئين خاصـة على تـذوّق المنجـزات والعطاءات الإبداعية والفنية من خلال ربطها بمراحل التاريـخ الكـوني، هـو ضرورة كبـيرة جداً ونشاطٌ أساسي لابدَّ منه. وتظل هذه المهمة والمسألـة الكبـيرة في رأس قائمة حاجات الإنسـان الذي يبتغي دومـاً المحافظة على كينونته الإنسانيـة وفحواها الدّفين. وذلك بإخلاصـه لذاته وانفتاحه بـلا تردّد على تراث الشعوب القديمة وطروحات الشعوب



المعاصرة، بكل ما تملك من مواقف وكيانات متباينة وهويّات حضارية مختلفة..

في عودة متأنية، ودراسة لبعض نصوص الأدب القـديم، نقع علـى نصوصٍ متميزة منطوية علـى إحساس وذوق رفيع، سواء ما كان منهـا ينبض بحياة مصر الفرعونية، أو حيـاة مجتمعات سومر وآكاد وفارس، عبوراً إلى كتابات وأغاني الهند والصين. أو ما هو مـن صميم التراث الإغريقي اللاتيني الذي شاع وانتشر قبل ميلاد السيد المسيح..

إن القارئ والدارس لمثل هذا التراث العالمي القديم يجد نصوصاً منسوبة إلى ملحمة جلجامش، وزرادشت، وبوذا، وكونفوشيوس، وهوميروس، وهيراقليطس، وفيثاغورث، وأوفيد.. كل هذه النصوص، وكثير غيرها، يرسم لنا الملامح لأهمّ تحوّلات الفن الشعري القديم والتأمّل الكوني، حيث يتضح للدّارس أن الفن والأدب حمل في طيّاته ملامح الفوارق بين الشعوب. إذ عبّر كل أدب عن سمات الشعب الذي أبدع هذا الأدب والفن. ومن خلاله نلمس الفوارق الاجتماعية والإنسانية بين الفراعنة والصينيين والهنود والفرس والاغريق.. ففي كل أدب تبرز الخصائص والميزات الخاصة بشعب أو أمة أو أي تكوين اجتماعي بشري. وهذا بدوره مساهمة مهمة جداً في بناء التاريخ وإعطائه سماته المرحلية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية..

إن من يغوص في أعماق تلك النصوص الفنية الجميلة، يتّضح لديه، أن لا سبيل إلى كل متوهّج ومدهش وجميل وعبقري، إلا إذا توفّرت الأصالة الإبداعية التي تهدف أولاً وآخراً إلى تكريم الإنسان ووضعه في إطار الحياة الكريمة، ونشله من أزماته الروحية والعقلية والحياتية. ولا سبيل إلى حياة إنسانية حديثة، ولا سبيل إلى بناء تاريخ كوني عامر بالإيجابيّات، من غير أن تنفذ النصوص إلى جوهر الحياة والأشياء والكائنات لتؤسس بدايات الحياة الإنسانية ذات الخصائص الجمالية والفكرية التي تلوّنُ حياة الصغار والكبار على حدٍّ سواء، وهذا بدوره من جهة أخرى يشكل عناصر صياغة التاريخ الإنساني وبنائه..

إن تلك الكتابات الإبداعية على اختلاف منابعها وتوجهاتها ما هي إلاّ تعبير خالص عن مواقف تأملية وتجارب فردية وجماعية. كما إنها الصورة الحافظة والمخلِّدَة لما ضاع وتشتّت من صنائع تاريخية عبر قرون وأجيال متلاحقة.. إن فعل الكتابة والإبداع الفني، أهمُّ إنجاز بشري في تاريخ الكون. وكل شيء لا ينساب من أطراف عباءة الكتابة يظلُّ هباءً منثوراً وأثراً ضائعاً. وكلُّ حضارة لا تحدُّها الحروف والكلمات التي تغزو بها عقل الإنسان، تظلّ بدورها ضحيّة الإهمال والتّلاشي..

إن الإبداع الحق ما هو إلا انفتاح معرفي إنساني، وغرس ثقافي، على الرغم من عمق الفروقات والمتناقضات في التجارب البشرية. وهذا بدوره يدعونا للاعتقاد الراسخ، أنه لا سبيل إلى الإبداع الأصيل إلا إذا وضع المبُدع الإنسانَ في خطّته وأهدافه. متسلحاً

بالصّدق الفني والإخلاص لرؤى الإنسان ومستقبله، والتعبير بمهارة وحذق عن كل ما يرتبط بالإنسان من خواطر وتأملات وتطلّعات، ما يعترضه من مسائل اجتماعية وذاتية..

من دون ذلك، لا يمكن للعمل الإبداعي والفني أن يغدو أصيلاً، بل يظل ضرباً من ضروب اللهو والعبث والتكرار المرفوض، وتقليداً فجّاً عاجزاً عن الدخول إلى قلب المجتمع وبناء التاريخ..

آفاق المعرفة

حقيقة الأكوان المتوازية

موسى ديب الخوري ⊙

سيناريوهات العوالم المتوازية

إن كوننا على اتساعه ليس سوى جزء بسيط من بنية كونية أكثر اتساعاً وتعقيداً، بل ليس سوى عينة من جمهرة من العوالم الأخرى. ولم تنفك السينما وأدب الخيال العلمي يعملان في استثمار هذه الأفكار الحديثة. لكن بعيداً عن الخيال العلمي، يبدو أن هذه الأفكار تصبح أكثر فأكثر جدية في الفيزياء والكوزمولوجيا، مما ينعكس أيضاً على الأفلام نفسها. فعلى

⊙ باحث ومترجم سوري

سبيل المثـال، في الفيلم الفرنسي «تدخين/ عدم التدخين» للمخـرج الفرنسي آلان رني Alain Resnais، ترتكـز بدايـة القصة على قرار إحـدى الشخصيات بالتدخين أو بعدمـه. ويقترح كل جزء مـن جزئي الفيلم ست نهايات

محتملة لـكل من هاتين البدايتين. لدينا بالتـالي اثنـي عشـر سيناريـو في ١٢ كون مختلف، وكلها واقعية.

إن مفهـوم الأكوان المتعـددة يدفع بهذه الفكـرة إلى اللانهاية. فكافة السيناريوهات تقـع وتتحقق، وهـي بالتـالي واقعية بقدر السيناريـو الوحيد المرصود في عالمنا، حيث ثمة مجرات ونجوم وأرض وبشر. في العالم الذي نستمع فيه إلى هذه المحاضرة كما وفي العـالم الذي انتهت فيه هذه المحاضرة أو في العالم الذي لا تزال فيـه قيد التحضير. بل وكذلـك في العالم الـذي لا توجد فيه نجوم ولا كواكـب ولا مستمعين أو محاضرين! هذا ناهيك عن لانهاية من العوالم الأخرى.

إن فكرة العوالم اللانهائية فكرة ساحرة، لكـن هل هي فكرة علمية؟ إنها ليست فكرة جديدة تماماً. فأناكسيمندر الميلي كان يدافع عنها منذ نحو ألفين وستمئة سنة. وفي عام ١٦٠٠ أدت فكرة «العوالم المتعددة» إلى حرق الفيلسوف الإيطـالي جيوردانو برونو لأنها كانت تعارض الفكرة القائلة بأن الأرض تقع في مركز الكون. وقبل نحو ثلاثين سنة كانت النظريـات التـي تصف أكوانـاً أخرى غير كوننا تعتـبر نظريات شـاذة وميتافيزيائية وغير علمية!

أما اليوم، وعلى الرغم من بقاء الفرضية مثاراً للجدل، فقد وصلـت إلى نطاق العلم البحت. بل ويبدو أنها محفزة جداً إذا أخذنا بعـين الاعتبار عـدد العلمـاء ذوي الشهرة الذين يهتمون بها ويعملـون عليها. ويشهد على ذلك الكتاب الـذي صدر بعنوان «كون أم أكـوان متعـددة» لعالم الكونيـات برنارد كار Bernard Carr مـن جامعـة الملكة مـاري في لندن، ناهيك عـن العدد المتزايد من المؤتمـرات المخصصة لمناقشة الأبحاث الجديدة حول هذا الموضوع.

الأكوان المتعددة عبر التاريخ

خلال السنوات القليلة المنصرمة أصبحت الأكـوان المتعددة تشـكل أداة عمل بالنسبة للباحثـين لا يمكن الاستغناء عنها كما يقول تيبـو دامور مـن معهد الدراسـات العلمية العليا في فرنسا. لكـن هناك علماء آخرون

لا يزالــون يعارضــون هذا الــرأي معتبرين أن هذه الفرضيــة لا يمكن أن تكون موضع اختبار وتحقق، مثل دافيد غروس David Gross الحائــز على جائــزة نوبل للفيزياء عام ٢٠٠٤.

يبقى أن نظريــات مختلفة في محاولتها لوصــف الكون تغطي في الحقيقــة أنماطاً مختلفــة من الأكوان المتعــددة. وهي بالتالي ليســت كلها من طبيعة واحدة ونمط واحد. الأمر الذي يؤدي أحياناً إلى نوع من الخلط بينهــا كمــا يقــول ماكس تغمــارك Max Tegmark من MIT. وقد اقترح تصنيفاً لهذه الأكــوان المتعددة في سبيــل التوضيح والتبسيــط. وسوف نعرض للفئات الأربع الأكثر تواتــراً في الأبحــاث. لكن قبل ذلك لنعرض بسرعة لفكرة الأكوان المتعددة عبر التاريخ.

كانــت الفكــرة الأولى حــول الأكــوان المتعددة قد طرحت من قبــل أناكسيماندر المفكر اليونــاني الذي عاش بين عامي ٦١٠ و ٥٤٦ قبــل الميلاد، وهي تعد أول فكرة عن الكون غير أسطورية، وتقول: إن العوالم تظهر عندما تختفي عوالم أخرى.

وجاء المفكر اليوناني ديمقريطس (٤٦٠- ٣٧٠ ق.م) ليقول إن عدد الذرات والعوالم غير محــدود. وإن كانت الأفكار الثابتة عن العالم قد سيطرت بعد ذلــك قرابة ألفي سنة مع فكرة الكــون المركزي حول الأرض وسموات بطلميوس السبع، لكن المفكر الألماني نيكولاس دو كوســ (١٤٠١- ١٤٦٥) جــاء ليقــول بتعددية العوالم التــي يتميز سكانها بسمات خاصــة. وبعده كانــت صرخــة الفيلسوف الإيطالي الشهــير جيوردانو برونو (١٥٤٨- ١٦٠٠) الذي أحرق بسبب قوله بوجود عوالم لانهائيــة متمايزة عن بعضهــا بعضاً. وكان لغوتفريد ويلهلم ليبنتز الفيلسوف والرياضي الألمــاني (١٦٤٦- ١٧١٦) مساهمتــه أيضاً عندما قال بوجود عوالم متعددة كثيرة ممكنة بحيــث يكون عالمنا هــو الأفضل من بينها. وكانت للفيلسوف الفرنسي في الفترة نفسها برنار لــو بوييه دو فونتنيل (١٦٥٧ -١٧٥٧) نقاشات شجاعة بالنسبة لذلك العصر حول تعدد العوالم.

عادت فكرة العــوالم المتعددة للظهور في القرن العشرين، من خــلال بعض المفكرين مثل نلســون غودمان (١٩٠٦- ١٩٩٨) الذي قال بعوالم متعددة حقيقية متواجدة في الوقت نفسه وتتخلق باستخدام الرموز! لكن الفكرة

الأكثر أصالة كانت للفيلسوف الأمريكي دافيد لويس (١٩٤١- ٢٠٠١) الذي قال إن كل ما أمكن أن يحصل أو ينتج في عالمنا ينتج فعلياً في عالم آخر. أما الذي أدخل فعلياً فكرة العوالم المتعددة أو تحديداً المتوازية إلى حقل العلوم البحتة عن طريق الميكانيك الكمومي فكان الرياضي الأمريكي هيوج إيفريت (١٩٣٠-١٩٨٢). وكان أول إدخال للعوالم المتعددة إلى مجال علم الكونيات مع سيناريو التضخم الكوني المستمر بلا توقف على يد الفيزيائي الأمريكي من أصل روسي أندرييه ليند في عام ١٩٤٨.

نموذج العوالم المتعددة الأكثر أولية (النموذج الأول)

ينتج النموذج الأول للعوالم المتعددة، وهو أبسط النماذج وأكثرها أولية، مباشرة من تطبيق النظرية النسبية العامة لأينشتين على الكون. إن الكون يشير إلى كل ما يحيط بنا. لكن بما أن سرعة الضوء محدودة فإن قدرتنا على الرصد محدودة أيضاً. إن حجماً معيناً فقط يقع ضمن إطار رصدنا. وفي نموذج الانفجار الكبير، إذا أخذنا بعين الاعتبار المسافة التي يقطعها الضوء منذ ١٣,٧ مليار سنة في الوقت الذي كان الكون يتوسع فيه ويكبر، فإن هذا الحجم يوافق حالياً كرة متمركزة افتراضياً حول الأرض ويصل نصف قطرها إلى نحو ٤٦ مليار سنة ضوئية. غير أن النسبية العامة تقول لنا أيضاً إنه إلى ما وراء هذا الأفق ثمة فضاء لانهائي يمكن أن يكون موجوداً فعلياً. وفي الأحوال كافة، فإن هذا الفراغ يوجد في التصور الذي يعتمد فضاء انحناؤه معدوم، أي ما يمثل الهندسة الأكثر بساطة بالاتفاق مع الأرصاد.

تشير الأكوان المتعددة في هذه الحالة إلى مجمل هذا الفضاء اللامتناهي حيث تشتمل المناطق الواقعة إلى ما وراء الحجم الذي نرصده على أكوان جديدة، مما يشكل أحجاماً أخرى لها الشكل نفسه بحيث تكون متراصفة وتمتد في الفراغ اللانهائي. ووفق هذا المنظور، فإننا نجد نحن البشر أنفسنا ببساطة في جزء من الأكوان المتعددة حيث اجتمعت الشروط الخاصة جداً والضرورية للصيرورة الطويلة التي أدت إلى انبثاق الحياة. وفي نموذج الأكوان المتعددة البسيط هذا تكون قوانين الفيزياء هي نفسها من كرة كونية إلى أخرى، لكن تختلف الشروط فيها وفقاً للآليات التي تم توزع المادة وفقها

خــلال لحظــة الانفجار الكبــير في كل من هذه العوالم. ووفقاً لماكس تغمارك، يمكن أن توجد أكوان توائم مطابقة لكوننا، إنما ليس على مسافة أقل مــن (١٠١٠)١١٥ متر من بعضهــا بعضاً. ولهذا فإن حظوظ مصادفة ولقاء أقراننــا معدومة. فالنموذج الأول من الأكوان المتعددة يشتمل بالتالي على تراصف بسيط لأكوان لا تنتهي.

أما الفئة الثانية فهي أكثر تعقيداً. وهي تنتــج عن النمــوذج الكوني الأكــثر انتشاراً وقبــولاً اليوم بــين العلماء لوصــف الكون الوليد، وهو ما يسمى بالتضخم الكوني.

التضخم الكوني (النموذج الثاني)

في الثمانينيات مــن القرن الماضي طوّر عالم الكونيــات الروســي الأصــل أندرييه ليند نمــوذج الكون المتضخم بشكل مفصل. ووفق هــذه النظرية فقد شهد كوننا مرحلة توســع هائلة تمامــاً بعد الانفجــار الكبير: وتحديداً بعد ١٠-٣٥ ثانية من عمر الكون، حيث تضاعف حجــم الكون الوليد والفائق السخونــة والكثافة بشــكل مفاجئ بمقدار ١٠⁵⁰ ضعفاً. ويسمح هــذا التسارع الهائل بتفسير لماذا نشهد هــذا التجانس في كوننا علــى مستواه الكبير كما ويفسر ظهور البنى الكبرى فيه مثل الحشود المجرية كما ترصد اليــوم. لكن نظرية ليند تذهب إلى أبعد من ذلــك، فهي تفترض أن الزمكان هو في حالة تضخم مستمر. إنه التضخم الأبدي. وبشكل أدق، فإن بعض المناطق لا تزال تشهد مرحلة التضخم التي تقود أو تؤدي إلى نشوء الكثير الكثير مــن الفقاعات المنفصلــة والمتمايزة مما يعطي بالتــالي لانهاية من الانفجارات الكبيرة. ويولد كل انفجــار كبير منها كوناً. إن الفرضية مغرية جــداً، لكن الأمر يتعلق هنــا بكون متعدد مختلــف تماماً عن الكون المتعدد السابق.

ومنذ بضعــة سنوات فقــط جاء تطور نظريــة الأوتار الفائقة ليدعــم هذا الكون المتعــدد الفقاعــة، وهــي نظريــة تحاول وصف التفاعــلات الأساسية في الفيزياء كافة: الكهرمغنطيســية والقوتين النوويتين الشديدة والضعيفة إضافــة إلى الجاذبية. إن هــذه النظرية التي تحاول توحيد القوى الأساسيــة والقوانــين الفيزيائيــة، حيــث تظهر كافــة الجسيمات فيهــا كأنماط من اهتــزاز وتر أولي، على غرار اهتزاز وتر آلة موسيقيــة يمكن أن يــؤدي إلى إنتاج نغمات السلم الموسيقــي، لا تزال بعيدة عن تحقيق

هدفها حتى الآن. وهي بدلاً من أن تصل إلى نظرية واحـدة للأوتار توصلت إلى ١٠^٥٠٠، بل إلى ١٠^١٠٠٠ نظرية مختلفة!!

وهكذا، عندما نفكر في التضخم الأبدي في إطـار نظرية الأوتار، فـإن تنوع الأكوان المتعـددة الفقاعات ينفجـر إن صح التعبير أو يصـل إلى حد لا يمكن تخيله. وهذه هي الصورة التي يدافع عنها ليونارد سوسكيند، أحـد آباء نظرية الأوتـار، والذي يعمل هو أيضاً مع ليند في جامعة ستانفورد. إن هذا الكون المتعدد هو عبارة عن بنية متدحرجة مؤلفـة من لانهاية من الأكـوان الفقاعات، حيث كل كـون منها له قوانينـه الفيزيائية الخاصـة به، والذي يحتوي على لانهاية من الأكـوان الأولية فيه. وهنـا أيضاً، في هذا المشهد الـذي لا يمكن سبره أو الإحاطة به، فإننا نحن كبشر نوجد في إحدى هذه الجزر المتأقلمة ببساطة مع الحياة، أو تحديداً مع أحد أشكال الحياة.

الجاذبية الكونية ذات العُقد (النموذج الثالث)

غـير أن لي سمولـين ينتقـد بشدة هذا النمـط من الأكوان المتعـددة. فهو معروف بصرامته تجـاه سيطرة نظريـة الأوتار في الفيزياء النظرية. فهي تفلت من أية تجربة محتملة، طالما أن سوية الطاقات التي تدخل في مثل هـذه الظاهرات تقع ببساطة خارج أي إطـار قابـل للتجربة. ومع ذلـك، فإن نظريتـه الخاصة قادتـه إلى اقتراح مقاربة أخرى مختلفة تماماً في عام ١٩٩٢: ألا وهي فرضية «الاصطفـاء الطبيعي الكوني» التي تقود أيضاً وأيضاً إلى نمط ثالث من الأكوان المتعددة.

إن لي سمولين هو أحد مخترعي الجاذبية ذات العقـد، وهي نظرية كمومية للجاذبية. غير أن هذه النظريـة لا تتنبأ بنقطة فرادة مركزيـة للثقوب السوداء، هـذه النقطة أو الموضع حيث تكون الكثافة وانحناء الزمكان لانهائيين. ففي هذه الحالة، وقريباً جداً من مركز الثقب الأسود، تصبـح الثقالة دافعة بدلاً من جاذبة. وهكذا تجري الأمور كما لو كانت المادة تنضغط نحو المركز لتعود فتندفع وترتد عند أطرافهـا في مرحلة جديدة من التوسع. وعندهـا يولد كون جديد في حالة توسع في قلـب الثقب الأسود نفسه. وهكذا فإن كل ثقب أسود يتشكل يولّد هو نفسه كوناً جديداً. وبالتالي، فإن عالمنا الذي نعيش فيه يحتـوي أو يكون قد ولّـد على الأقل ١٨١٠

كوناً وليداً خلقوا عبر ثقوبه السوداء. وفي هذا الكون المتعدد المستلهم إلى حد كبير من نظرية التطور البيولوجية الداروينية، فإن كل كون ينقل إلى خلفائه قوانينه الفيزيائية الخاصة التي تتعدل بشكل طفيف من خلال التخلخلات الكوانتية في لحظة «الارتداد» في الثقب الأسود، مما يجنب الكون الوليد أن يكون مجرد نسخة منقولة. ومثل هذه الآلية التطورية تسهل بقاء القوانين التي توفر أقصى حد من ولادة الثقوب السوداء، أي أنها توفر إمكانية البقاء والتكاثر. إنه كون ساحر بلا شك، لكن هذا النموذج لم يتجاوز حالة الكينونة الجنينية. ويبقى أن نحدد فيه بشكل رئيسي آلية انتقال القوانين الفيزيائية. ولكن وفقاً لصاحب هذا الكون المتعدد، فإنه يتميز بأنه يمكن أن يقدم تنبؤات قابلة للتحقق والاختبار. وهو يحدد بين أشياء أخرى الكتلة الحدية العليا لنجم نيوتروني، وهي المرحلة الانتقالية بين انفجار نجم كبير الكتلة (سوبرنوفا) وتشكل ثقب أسود، وهي حوالي ١،٦ كتلة شمس.

كافة العوالم موجودة (النموذج الرابع)

وأخيراً تأتينا الفئة الرابعة من العوالم المتعددة المتوازية من أفق مختلف تماماً. فالأكوان السابقة كانت تنتج كلها من نظريات تصف الجاذبية، القوة العاملة على مستويات الكون الكبير. أما الفئة الأخيرة فتأتينا من الميكانيك الكمومي. وهو إطار نظري يفسر العالم اللامتناهي في الصغر. وقد اعتبر الميكانيك الكمومي طويلاً كمجال غريب، لكن الكون المتعدد الناجم عنه هو الكون المتعدد الأول علمياً من وجهة نظر تاريخية. ففي عام ١٩٥٧، اقترح الفيزيائي هيوج إفريت، وكان في برنستون آنذاك، تفسيراً ثورياً مخالفاً لكل الأفكار التي كانت سائدة آنذاك في النظرية الكمومية نفسها. فقد مضى إلى أقصى ما يمكن في مبدأ التراكب الكوانتي لحالات المادة التي تقول بها هذه النظرية. ووفق هذا المبدأ، فإن نظاماً كوانتياً يمكن أن يوجد في عدة حالات في آن واحد. وهكذا فإن قياسات هذه المنظومة يمكن أن تعطي نتائج مختلفة. وبالنسبة لإفريت، فإن هذا المبدأ ليس صحيحاً فقط على المستوى الدقيق للجسيمات بل وعلى المستوى الجهاري الكوني. وهكذا فإن النتائج المختلفة للقياسات المكنة توجد في الوقت نفسه كوقائع متوازية: فكل العوالم موجودة!

العالم الذي ندخّن فيه والذي لا ندخّن فيه. وهما يتشعبان باستمرار في عوالم جديدة. فلماذا لا نرصد إذاً سوى كوننا؟ الجواب ببساطة لأننا لا نستطيع أن نرى سوى الكون الذي نوجد فيه.

وعلى الرغم من غرابة تفسير إفريت لكنه يصبح أكثر فأكثر قبولاً اليوم بين العلماء الفيزيائيين الجديين. وبالنسبة لتيبو دامور، «فهو التفسير الذي يفرض نفسه من الآن فصاعداً». وفي التصنيف الذي وضعه عالم الكونيات ماكس تغمارك تأتي الأكوان المتوازية لإفريت على المستوى نفسه مع الأكوان- الفقاعات التضخمية. لكنها تضيف وفقاً له المزيد والمزيد من النسخ التي يستحيل تمييزها. والأمر الذي كان يبدو أقرب إلى الميتافيزياء منذ فترة قريبة إذا به يدخل اليوم أدبيات العلم من أوسع أبوابها.

ردود الفعل على فرضية الأكوان المتعددة

إضافة إلى الأسماء التي ذكرناها ضمن أهم فئات الأكوان المتوازية أو المتعددة، ثمة أسماء علمية أخرى لا تقل أهمية وشهرة كان لها مواقف مختلفة من هذه الفرضية.

ويأتي في مقدمة مؤيدي هذه الفرضية ستيفن واينبرغ، الحائز على جائزة نوبل ومؤسس النموذج المعياري في فيزياء الجسيمات الدقيقة. وهو يعتقد أن هذه الفرضية تشكل تحولاً هاماً في طبيعة العلم نفسه. ويقول: «علينا أن نتعلم كيف نعيش في كون متعدد». كما نشير إلى البريطانيين مارتن ريس وستيفن هوكنغ، وإلى نظريي الأوتار الفائقة في برنستون إدوارد ويتن.

من جهة أخرى، وعلى طرف المعارضة، هنالك من يرفض كلياً هذه الفرضية. ومنهم دافيد غروس الحائز على نوبل لعام ٢٠٠٤، الذي يرفض تماماً مشهد الأكوان المتعددة. وهو يعتقد أن علينا العثور على نظرية لكل شيء قادرة على تفسير الكون الذي نعيش فيه وفق قوانين رياضية محددة تماماً. أما بول ستاينهارت أحد نظريي التضخم الكوني في برنستون فيرفض الفكرة من أصلها ويقول: «إنها فكرة خطرة، لا أريد أبداً مواجهتها والتفكير بها»!

يبقى أن بين الفريقين المؤيد والمعارض هناك فريق من المتشككين، ومنهم جورج إلليس من جامعة الكاب في جنوب أفريقيا، الذي يرى أن فرضية الأكوان المتوازية هامة

بمـا تحمله من تفسـيرات لبعض الأرصاد، لكن الحجج المقدمـة لصالح هذه العوالم لا تـزال برأيه ذات طابع فلسفي وليس علمي. وهـو لا يريد الخلط بـين الفلسفة والعلم. من جهة أخرى يقـول بول ديفيس إنه يعتبر نفسه متشككاً حـول هذه الفرضية، خاصة وأنهـا تتطلب في النهاية القبول بسلسلة من القوانين التأملية دونما تفسير لها.

هـل كان لـدى الله الخيـار في خلقـه العالم؟

طرح أينشتين هذا السؤال الشهير الذي يصيغ تساؤلنـا عما إذا كان وجودنا يفرض قيوداً على مواصفات كوننا. إن هذه الفكرة التي تنعـت بـ«المبدأ الإنساني»، تلاقي ما يدعمها اليوم في نظريـات العوالم المتعددة. ووفقاً للنظرة النيوتونيـة للعالم، فإن الكون يعمل كما لـو كان آلة كبرى، غـير حساسة لوجود الحياة أو لأي شكل من أشكال الوعي. وبالتالي فإن قوانين الفيزياء وصفات الكون لا تتعلق بـأي شكل بوجود أحـد يرصدها أو لا.

وقد ظهـر مفهوم جديـد منذ نحو ٥٠ سـنة يرتكـز علـى أن سمات الكـون تبدو «منضبطـة» ومتوافقـة بشـكل خاص مع وجودنـا. يتعلق هذا التوافـق الدقيق جداً بالثوابت الجوهرية في الفيزياء كما وبعوامل عديـدة في علـم الكونيات. ومـن هنا هذه الفكـرة التي وفقها يمكن لبعض مواصفات الكـون أن تكون مرتبطـة بوجود المراقبين. وقد أطلق على هذه الفكرة «المبدأ الإنساني» من قبل الفيزيائـي النظري براندون كارتر Brandon Carter الـذي يعمل حالياً في مرصد باريس- مودون.

ينحـدر هذا المبـدأ نفسـه بطريقتين. توصف الأولى بـ«المبـدأ البشري الضعيف»، وهـي تقـول إن قوانين الطبيعـة والثوابت الفيزيائية ثابتة. وبالتالي فإن وجودنا يفرض قيـوداً عندما يتعلق الأمـر بالمكان والزمان اللذين نرصد الكون بدءاً منهما.

على سبيل المثال، لماذا للكون العمر الذي يميزه؟ إن المقاربة النيوتونية، أي الآلية التي تحدثنا عنهـا، لا ترى سبباً خاصاً في ذلك. فقـد بدأ كل شـيء ببساطة مـع الانفجار الكـوني الكبير منـذ نحو ١٥ مليـار سنة. والمصادفة هي التي تجعلنا نرصده الآن في هذه اللحظة بالذات من عمر الكون.

ظهور الحياة

لكـن ثمة إجابة أخرى على هذا السؤال

طرحت عام ١٩٦١ من قبل روبرت ديك Robert Dicke من جامعة برنستون. فهو يذكرنا بأن ثمة شرط أساسي لا يمكن الاستغناء عنه لظهور الحياة وهو وجود الفحم. ويتم إنتاج هذا العنصر داخل النجوم وفق صيرورة تتطلب نحو عشرة مليارات سنة، وهي الفترة التي تنفجر النجوم بعدها بشكل مستعرات فائقة (سوبرنوفا). وهكذا يتحرر الفحم وعناصر كيميائية أخرى في الفضاء، حيث يمكن لها المشاركة في تشكيل كواكب وفي ظهور الحياة.

من المعلوم من جهة أخرى أن عمر الكون لا يمكن أن يكون أكبر بكثير من عشرة مليارات سنة، وإلا لكانت المادة التي تشكله قد تحولت بالكامل تقريباً إلى بقايا النجوم، مثل الثقوب السوداء والأقزام البيضاء أو النجوم النيوترونية. وبما أن كل شكل من أشكال الحياة يتطلب وجود النجوم، فإن الحياة يمكن أن تنبثق فقط في كون عمره عشرة مليارات سنة أو أكثر بقليل. ولا شك أن هذا الكون قد مر بمراحل كثيرة، لكن ما كنا لنكون فيه قبل مضي هذه المدة من عمره.

أما مؤيدو «المبدأ الإنساني القوي»، فيذهبون في تأملاتهم إلى أبعد من ذلك. فهم يؤيدون فكرة أن وجود المراقبين يطرح قيوداً على الثوابت الفيزيائية نفسها. ويتعلق عدد لا بأس به من هذه القيود بـ«ثوابت البنية»، التي تصف كثافة القوى الأساسية الأربع في الفيزياء- الجاذبية والكهرمغنطيسية والضعيفة والشديدة.

كون بين أكوان

لقد نظر كثير من الفيزيائيين لوقت طويل إلى المبدأ الإنساني القوي بازدراء، لأن المحاكمات المنطقية التي استند عليها كانت مختلفة كثيراً عن الطريقة التي كانت الفيزياء الكلاسيكية تتوصل بها إلى قيم الثوابت. ولا شك أن ما دعم ورسخ هذا الاحتقار تجاه هذا «المبدأ الإنساني القوي» هو واقع أن بعض الأشخاص ذوي الميول الدينية الطابع كانوا يفسرون توافق الثوابت كبرهان على وجود الخالق.

مع ذلك، أصبح المبدأ الإنساني -في معناه العام- أكثر شعبية وقبولاً منذ نحو عشر سنوات. ولم يكن ذلك بسبب أن الحجج تغيرت بشكل جذري. بل جاء تغير الموقف هذا بالأحرى لأن علماء الكونيات توصلوا إلى أن كوننا هذا لا يمكن أن يكون سوى

مثال خاص من مجموعة واسعة من الأكوان «الموازيـــة»، التي تشكل «كونـــاً متعدداً». إن الآليات التـــي أدت إلى نشوء كوننا يمكن أن تكون قـــد أدت في الواقـــع إلى ولادة أكوان عديدة أخرى.

لم تتـــم صياغـــة الفرضيـــات المتعلقـــة بالكـــون المتعدد من أجـــل تفسير التوافقات الناجمة عن المبـــدأ الإنساني. لكن يبدو أن المفهومين أصبحا مرتبطـــين ارتباطاً وثيقاً اليوم. فالوجود المحتمل لكون متعدد يطرح مسألـــة معرفـــة لماذا نعيش في هذا الكون بدلاً بالأحرى من العيش في كون آخر. إن مجموعـــة واسعة من الأكـــوان تسمح بكافة الاحتمـــالات وبكافـــة توافقـــات الثوابـــت الفيزيائيـــة: ففي مكان آخـــر، وبالمصادفة البحتة، يمكن لهذه الأخيرة أن تسمح تماماً بظهور الحياة. يمكننا أيضاً أن نقبل بسهولة أن وجودنا الخاص يفرض قيوداً على الكون الذي نرصده.

توافق الثوابت

بالمقابـــل، كان لا بـــد مـــن الاستنتاج أن مفهوم الأكوان المتعددة نفسه يقلص من المبدأ الإنساني القوي إلى مبـــدأ إنساني ضعيف. ومن أجـــل ذلك ليـــس إلا، فإن عـــدداً من الفيزيائيـــين يمكن أن يعتبروا وجود الأكوان المتعـــددة علـــى أنه التفســـير الأكثر طبيعية لتوافق الثوابت. لأنـــه، إذا لم يكن ثمة سوى كون واحد، فإن هذا التوافق يمكن أن يحرَّض من أجل تبرير وجود «الضابط» أو «الموافق»، أي الوهة تكون هي أصل هذا الكون. ولهذا تمّ وصف الأكـــوان المتعددة على أنها «الحل الأخير بالنسبة للملحد اليائس».

ظاهرات محلية

قبـــل مناقشـــة وتقييـــم تفســـير المبدأ الإنســـاني عن طريق وجود الأكوان المتعددة، ثـــم مسألة أساسيـــة تتعلق بمعرفـــة ما إذا كانت قيم الثوابت تتعلق بالسمات العشوائية للكـــون، أو إذا كان يمكـــن التنبؤ بهذه القيم بوساطة نظريـــة فيزيائيـــة أساسية. وهذه الظاهـــرة تتعلق بشكل وثيق بالسؤال الشهير الـــذي طرحه أينشتين: «هـــل كان لدى الله الخيار عندما خلق الكون؟».

إذا كانـــت الإجابـــة بالنفي فـــإن المبدأ الإنساني لا يعود قائماً على أي أساس ويكون توافـــق الثوابت ناجماً عـــن مصادفة بحتة. أمـــا إذا كانت الإجابة بوجود خيار لدى الله عند خلقه للعالم، فإن المبدأ الإنساني يصبح بالمقابل متضمنـــاً وأساسيـــاً. وعندها فإن

ما نسميه قوانين الطبيعة يجب أن تعتبر كظاهرات محلية. وهكذا فإن المحاولات التي تسعى إلى التنبؤ بقيم الثوابت ستصبح بلا جدوى بمقدار ما كان حال الفلكي يوهانس كبلر الذي كان يحاول أن يتنبأ بالمسافات بين الكواكب بالارتكاز على الخصائص الهندسية لبعض متعددات السطوح. فلم يكن مكتوباً لهذا المشروع النجاح لأنه كان مبنياً على افتراضات ومسلمات خاطئة. مما لا شك فيه أن بعض العلماء يفضلون أن تكون الثوابت محددة بوساطة فيزياء أكثر جوهرية. لكن ضمن أية أطر ومسلمات يمكن لهذا أن يتحقق؟ حالياً، تعتبر النظرية M هي المرشح الأفضل لتمثل النظرية الجوهرية في الفيزياء، وقد صيغت منذ نحو ١٥ سنة. وتتضمن هذه النظرية وجود أحد عشر بعداً، حيث تنبثق الأبعاد الأربعة الزمكانية المألوفة بالنسبة لنا من انثناء الأبعاد الإضافية الأخرى على نفسها.

وعلى عكس النموذج المعياري في فيزياء الجسيمات الدقيقة، الذي لا يشتمل على قوة الجاذبية والذي يحتوي على نحو ثلاثين من المعاملات الحرة، فإن النظرية M قد أيقظت الأمل بإمكانية التنبؤ بقيمة الثوابت، مع طرحها للمسلمة الوحيدة بوجود هذه الأبعاد الأحد عشر. لكن أبحاثاً حديثة تفترض أن عدد الحلول لمعادلات النظرية M كبير جداً في الواقع، ويتجاوز رقماً فلكياً من رتبة ١٠^٦٠٠! وتوافق هذه الحلول حالات طاقية ممكنة للفراغ الكمومي، وهي تشكل وفقاً لليونارد سوسكيند من جامعة ستانفورد «ممراً كونياً» لانهاية لاتساعه وتنوعه.

التوسع يتسارع

إن إحدى السمات الهامة لهذه الحالات الطاقية هي أنها مرتبطة بمعامل يوصف بأنه «ثابتة كونية». وكانت هذه الثابتة Λ قد أدخلت في عام ١٩١٦ من قبل أينشتين في معادلات النظرية النسبية. وكانت تسمح في ذلك الوقت بوصف نموذج كوني ستاتيكي، مستقر، غير متغير، بما يوافق معارف ذلك العصر. لكن أينشتين اضطر إلى التخلي عن هذه الثابتة بعد نحو ١٥ سنة بسبب اكتشاف توسع الكون الذي يتعارض مع كون مستقر.

وهكذا ظل العلماء يعتبرون طيلة عقود عديدة أن قيمة الثابتة لامدا Λ كانت معدومة، إنما دون أن يفهموا مع ذلك لماذا يجب أن تكون هذه القيمة معدومة. ويبدو أن ظاهرات كوانتية كانت تقود في الواقع

إلى قيمــة غير معدومة -لا بل وكبيرة جداً- للثابتــة Λ، حتــى وإن كان الفيزيائيــون لا يعرفون كيف يتم حسابها بطريقة صريحة. لكــن الاكتشــاف الذي تم عــام ١٩٩٨ بأن التسارع الكوني يتسارع غيّر من هذا الواقع. فهذا التســارع يعود إلى تأثــير ثابتة كونية قيمتهــا أصغر بـ١٢٠١٠ مــرة من تلك التي يتنبأ بها الميكانيك الكمومي!

في إطار المشهد الكــوني، وبالنسبة لكل كون مختلف، يجب أن تأخــذ الثابتة Λ أية قيمة مهما كانت إنما تقع بين حدين، كبيرين جداً إنما أحدهما موجب والآخر سالب. غير أن القيمة الملاحظة في كوننا بعيدة جداً عن القيمة المتوسطة، وهي تبدو في هذه الحالة من وجهة نظــر إحصائية فائقة الصغر إلى حد مدهشــن. وكما لاحــظ ستيفن واينبرغ فــإن قيمة الثابتة Λ خاضعة لتحديد المبدأ الإنســاني، لأن المجرات (وبالتالي الحياة) لا يمكن أن توجد لو لم تكن هذه القيمة صغيرة أو لــو كانــت أكبر بكثير مما هــي عليه. إن تطبيــق الاعتبــارات الإنسانيــة على كون متعدّد يملك طيفــاً واسعاً من القيم للثابتة Λ يتطلب أن تكون القيمة التي نرصدها في كوننا أصغر بالضرورة من القيمة المتوسطة.

وإن كان ذلــك يرضينــا أو لا، فــإن تصور المشهــد الكوني يأتي ليدعم على هذا النحو المبدأ الإنساني.

طيف من الأكوان

هــل يعني ذلك أن سمات كوننا يجب أن تعتــبر كسمات «غير قياسيــة»؟ إن القائلين بالمبــدأ الإنساني يؤيــدون الإجابــة بنعم، مقدرين أن أشكالاً مشابهة لحياتنا لا يمكن أن تظهــر إلا في طيــف محــدود جــداً من الأكوان. إن أشكالاً أخرى من الحياة ستكون ممكنــة في طيــف أوسع من الأكــوان، لكن الحياة لن تستطيــع بالتأكيد الظهور كيفما اتفق وأينما كان.

يعتقــد لي سمولــين Lee Smolin بالارتكاز على مبــادئ كوبرنيكوس، عكس ذلك، أي إن غالبية الأكوان تملك خصائص مشابهــة لكوننا، الذي يجب أن يعتبر بالتالي كنموذج للكون المتعــدد. ووفق هذا النظري الكندي، فإن الثوابت الفيزيائية قد تطورت حتــى اتخذت القيــم التي نعرفهــا حالياً، وذلك عــبر صــيرورة تتســب إلى التحول والتطــور والاصطفاء الطبيعــي. وفي إطار هذا السيناريو يلعب وجود الحياة دوراً تابعاً بالكامــل وبالتــالي لا يكون ثمــة قيود ذات طبيعة إنسانية فيه.

وإذا كنا نفضل بالنسبة للمبدأ الإنساني فكرة توافق مرتبط بوجود المراقبين في الكون المتعدد، فإن تفسيره يظل مع ذلك إشكالياً. فبأية آليات تكون التوافقات محددة؟ وبعبارة أخرى، ما الذي يحدد مراقباً ما ويعرّفه؟ أوليس من الضرورة بالتالي وجود عتبة دنيا من الذكاء لتحقيق هذا التعريف؟

مبدأ الحياة

يجب أن نحدد هنا أن الحجج التي تقدم اليوم في إطار الأبحاث حول المبدأ الإنساني لا تتعلق كثيراً بالإنسان نفسه بشكل خاص. وقد قبل براندو كارتر نفسه بأن اختيار هذا المصطلح لم يكن موفقاً تماماً. وبعبارة أخرى، فإن الحجج الإنسانية لا تشدد على ما هو خاص بالإنسان هنا، وهي بالأخص لا تؤكد أبداً الفكرة الدينية القائلة بأن الكون خلق فقط لكي يكون مسخراً للإنسان.

بل سيكون أكثر منطقية أن نجمع القيود الإنسانية الطابع بما سماه الفيزيائي البريطاني بول ديفيس Paul Davies بـ«مبدأ الحياة». كان العلم حتى فترة قريبة ينظر إلى وجود الحياة كأمر ناتج ولاحق، وليس كسمة جوهرية من بنية الكون نفسه. وخلال القرن التاسع عشر، استخدم القانون الثاني من الترموديناميك على سبيل المثال للتأكيد على أن الكون يخضع لموت بطيء وذلك ما أن تبدأ الحياة وكافة أشكال المتعضيات بالتلف بشكل لا يمكن تعويضه. لكن تطورات علم الكونيات قادتنا إلى مقاربة مختلفة بل ومعاكسة. وفي الواقع، وفقاً لنظرية الانفجار الكبير، يكشف تاريخ الكون عن درجة من التنظيم المتنامي، بالأحرى منه متراجعاً، حيث يمكن القول إن الفيزياء الحديثة قادرة تماماً على تفسيره دون كسر القانون الثاني في الترموديناميك.

إن التراتبية الناتجة عن هذا التاريخ الكوني توصف أحياناً بـ«هرم التعقيد». ويرى برنار كار أن هذا الهرم لم يمكن له أن يتكون إلا وفقاً للمبدأ الإنساني، الذي يجب أن يفسر في هذه الحالة أنه مبدأ «التعقيد». وفي هذه الحالة، فإن وجود المراقب يصبح هو نفسه تالياً وتابعاً، حيث يعكس وجود الوعي شكلاً خاصاً فقط من التعقيد في قمة الهرم.

خاتمة

يقول أورليان بارو إن هذه الفرضية تبقى هامة جداً من عدة زوايا، ولعل أهمها اعتبار ظهور الحياة للمرة الأولى كمبدأ

كوني. ويشير أيضاً إلى أنها المرة الأولى التي يقـود فيهـا المنطق العلمي كمـا يعتقد إلى وجود عوالم غير مرئية. وبعبارة أخرى، فإن هذه الفرضية، التي تعتبر برأيه علمية، تقود إلى وجـود أجسام أو أكـوان تتجاوز الإطار الدقيق للفكـر العلمي نفسـه. وبهذا فهي تخلق جسوراً مع مناهـج أخرى، وتطلق ما يشبه أسطورة جديدة، وتجبرنا بالتالي على إعادة تحديد ما ننتظـره من الفيزياء ومن العلم. وهنا تكمن أهمية هذه الفكرة، حيث تفرض التفكر بالعلم بما هو «طريقة لصنع العـالم». إنها مراجعة لمـا وصلنا إليه اليوم، وعملية علينا القيام بهـا بكل ما أوتينا من انتبـاه وحذر وتحفظ، لأننـا نجتاز مناطق خطـرة فكرياً علـى الأقل ونحـن نتجاوز حدود الكون المرصود وحدود العلم الحالي.

لقـد كانـت الشجاعة في تاريـخ العلم أكثر إبداعـاً وإنتاجاً من الخوف من طرق أبواب المجهول. ولهذا فإن اعتماد المجازفة العلمية قد يتطلب إعادة النظر في المنظومة العلمية نفسهـا وفي المنهج العلمي. ومن جهة أخرى يشدد أورليان بارو على ضرورة عدم تحريف تفسـيرات هذه الفرضيـة الجديدة لصالح أنسـاق فكرية مسبقة كمـا حصل في كثير مـن الأحيان عبر تاريخ العلم. فما أن ينفتح العلم على مفاهيم غير علمية بالمعنى الذي يفهمه غير العلميين خصوصاً، يصبح خطر انحراف الفكـر العلمي كبيراً، لكن مع ذلك كانت المخاطر تستحق المجازفة دائماً وكانت النتائج تتجاوز بكثير الأفق المحدود لأنصار تحريف العلم.



حوار العدد

جيانا عيد: الفشل جعلها فنانة

إعـــداد : عادل أبو شنب

حوار العدد



جيانا عيد:
الفشل جعلها فنانة

إعداد: عادل أبو شنب

وهي على مقعد الدراسة الثانوية جيء بها لتؤدي دوراً صعباً في خماسية «مبروكة» التي ألفتها أنا والمرحـوم محمد الماغوط، تعترف أنها فشلت. لكن حلمهـا تحقق بانتسابها إلى معهد التمثيـل العالي بسورية فقد حمّسها على النجـاح، ومن نجاح إلى آخر، صارت نجمة مشهـورة في عالم الفن والدراما السورية. إنها النجمة المتألقة جيانا عيد، التي تحكي في حوار هذا الشهر من

⊙⊙ أديب وقاص سوري

«المعرفــة» قصة مشوارها الفني الطويل مع الفن التمثيلي، من الفشل إلى النجاح الكبير، والمستمر.

ابنة مشتى الحلو نجمة كبيرة

- المولد، النشأة والدراسة؟

• أنا في الأصل مــن قرية جميلة تدعى (مشتى الحلو) لكني مــن مواليد دمشق في الستينــات من القرن الماضــي، من أب كان ضابطــاً في الجيشــ العربي الســوري، وأم كانت تعمل مدرسة في مدارس بيروت حيث كانت تقيم مع أهلها، كنت البكر في إخوتي، ولــدي أخان: حســام وحنا وأخــت واحدة كارولــين، وقد درســت أنا وأخــي الممثل المعروف حسام عيد، في المعهد العالي للفنون المسرحية قسم التمثيل في دمشق، وكنت من دفعــة ١٩٨٢ . ١٩٨٣ وهو بعدي بسنة دفعة ١٩٨٣ . ١٩٨٤، وأخــي الثــاني درس الأدب الفرنسي ويعمل عازفــاً على آلة (الدرامز) وأختي درست الأدب العربي وتعمل مدرسة. عائلة من الطبقة الوسطــى، العلم والأدب والأخلاق عنوانها، والمحبة هي لغة التواصل مع الآخــر، وصفة ملتصقــة لا تفارقها في كفاحها والتزامها بكل قضايا الحياة.

الفشل أوصلها إلى النجاح الكبير

- حدثيني عن بداياتك في التمثيل؟

• كان للتلفزيون العربــي السوري الذي تزامنت نشأته مع طفولتي الأثر الأكبر في غرس حلــم أن أصبح ممثلة لأعــبر عن حضوري الإنساني وعن رغبتي في الارتقاء بمجتمعي ليكون مجتمعــاً دائم التطور على الرغم من قدمه في التاريخ وتوالي العصور والحضارات عليــه وخصوصيتــه التي تميــزه عن باقي المجتمعــات. والفن والثقافــة والإبداع هي المرايا الحقيقية التي تعكس صورة مجتمعنا وهي التي تعبر عــن تطورها ورقيها. لذلك كنــت دائمة المشاركــة في نشاطات المدرسة وفعالياتها الثقافية والفنية التي كنت أحسها تقود خطواتي لتقريب الحلم إلى واقع أحبه وأرغب رغبة كبيرة في الوصول إليه.

وأثناءهــا امتدحــت كثــيراً وأثني على أدائي عبر الأشكال الفنية التي مارستها من قبل المشرفين والمشرفــات وحتى الطالبات

في المدرسة، ووصفت بأنني موهوبة وقد عنى لي هذا الأمر كثيراً وصرت المميزة بين رفيقاتي بسبب الحضور الذي حققته في تلك الأنشطة. وجاء اليوم الذي كان للتلفزيون العربي السوري فيه الفضل علي فلم يكف أن زرع الحلم في روحي ومخيلتي بل كان آنذاك مشروعاً ثقافياً بكل معنى الكلمة، ففي ذلك الحين لم تكن هناك معاهد إبداعية أو فنية متخصصة ولا حتى مؤسسات ذات طابع أكاديمي محترف، فتبنى التلفزيون هذه المهمة وكان البديل وحاول تحقيق المشروع الثقافي الذي آمن به عبر المثقفين القائمين عليه من أدباء ومبدعين وفنانين وإداريين وحولوا العمل فيه من مجرد عمل إعلامي إلى ورشة عمل تبنت آليات عمل المشروع الثقافي المتكامل في كل ما قدم على شاشته من برامج ثقافية، واجتماعية، وسياسية، وفنية، ودرامية منوعة كلها كانت تكرس الرؤيا والهدف والإيمان بمسؤولية وتوازن وعمق وبساطة واحترام لعقلية المتابع لهذه الشاشة، وتبني لكل المواهب بكل ما تعنيه هذه الكلمة من احتواء ورعاية، وتوجيه وتقييم وتقويم. وأعود إلى فضله الذي أسبغه علي والذي شكل بدايتي الفنية ورسم أول خطوات الواقع لتحقيق ذلك الحلم الساحر الذي كان يملؤني، يومها تمَّ اختياري من المدرسة وكنت في الأول الثانوي، لأمثل خماسية من تأليف الكاتب النجم الكبير الأستاذ (عادل أبو شنب) والذي لن أنسى ما حييت أنه منحني الفرصة وشرف أن أجسد واحدة من شخصياته، وهيأ لي فرصة دخول العالم الذي أعشق عبر تلك الشخصية في مسلسله التاريخي (مبروكة) وهو خماسية تاريخية من العصر العباسي حملت اسم تلك الشخصية التي جسدتها والتي تحكي معاناة جارية في حب سيدها الذي عشقها أيضاً وتحريم المجتمع لتلك العلاقة آنذاك وكيف انتهت قصة العشق نهاية مأساوية أدمت قلوب كل من شاهدوها وكانت من إخراج المرحوم الأستاذ (محمد العقاد) الممثل الكبير الذي كان مشهوراً آنذاك بشخصية (أبو كاسم بائع الخيار) في

أعمال ذلك الزمن الكوميدية (وقد كانت الخماسية التي لعبت بطولتها أول أعماله في الإخراج وأظن أنها لم تتكرر فيما بعد) وأيضاً لن أنسى فضله الأبوي وتبنيه لي ومساعدته إياي ماأمكن في تلك الخماسية، أذكر أنني كنت مفتونة ومسحورة بذلك العالم السحري الذي كان مرسوماً في مخيلتي وأصبح الآن واقعاً مدهشاً بكل أجوائه، من الاستديو والديكورات والأضواء والموسيقى والغناء، ومن ثم الممثلين والممثلات نجوم كبار كنت أظنهم عمالقة وليسوا بشراً.

قسم إعادتي إلى التمثيل:

وكان معروفاً عني ومنذ طفولتي، أنني ورغم جرأتي وقوة شخصيتي إلا أنني كنت خجولة جداً، ولشدة خجلي ودهشتي أمضيت التصوير كله وأنا لا أستطيع النظر في عيني من يشاركوني التمثيل ولا النظر إلى وجوههم وكان رأسي منكساً دائماً وصوتي يكاد لا يسمع، فكانت النتيجة أن فشلت فشلاً ذريعاً في أدائي لذلك الدور، لكن ذلك الفشل كان محرضاً ومحفزاً لي بأن



أقسم بأنني لن أعود إلى التمثيل مرة أخرى إلا وقد تمكنت من أدواتي التعبيرية والفنية، ومن معرفتي المعرفة الكاملة لكل ما يحيط بهذه المهنة، وقد كان الله إلى جانبي كما هو دوماً وله الحمد بأنني أكملت دراستي الثانوية وعندما وصلت إلى البكالوريا الأدبية طبعاً فتلك كانت ميولي افتتح المعهد العالي للفنون المسرحية بقسم التمثيل فقط، الآن تعددت فروعه طبعاً واستقبل الدفعة الأولى من طلابه، فاتضحت الصورة والهدف أمام ناظري وما عاد هناك هدف آخر سوى وجودي في هذا المعهد الأكاديمي وبذل قصار جهدي لأتفوق فيه وأتميز وأبدع

وأساهم مساهمة فعالة ومسؤولة في الارتقاء بمجتمعي وإنساني وأحقق الرسالة التي بها آمنت وبكل شرف وشفافية وإقناع وصدق.

وعندما حصلت على شهادتي الثانوية التي نجحت فيها بعلامات عالية خولتني لأسجل في كل الفروع الأدبية، إلا أنني وخوفاً من ألا أقبل في المعهد العالي للفنون المسرحية قسم التمثيل، سجلت في كلية الآداب قسم الأدب الفرنسي ثم تقدمت لامتحان القبول في المعهد العالي للفنون المسرحية، أذكر أنني ألفت المشهد الذي تقدمت فيه للفحص وأخرجته بنفسي وجسدته أمام إخوتي عشرات المرات قبل أن يحين موعد الامتحان المحدد لي، وأذكر أن موضوع المشهد كان المعاناة لامرأة فلسطينية، وهكذا تقدمت إلى الامتحان وأديت المشهد الذي هو أساسي في امتحان القبول وقد أعطيته كل ما أملك وقتها من إحساس وخوف ورغبة ودفق ودفاع مصيري لأقبل في هذا الامتحان وأمام لجنة كانت من كبار المبدعين والمثقفين أذكر منهم الأستاذ الأب الذي لا يمكن لي أن أنساه أنا وكل الطلبة الذين درسوا في المعهد العالي للفنون المسرحية وكان آنذاك عميده الرجل الرائع والمعلم الكبير والأب الحنون الأستاذ أديب اللجمي الذي احتوانا كأبنائه وساندنا وقدم لنا كل الدعم الممكن ابتداءً من امتحان القبول وإلى ما بعد تخرجنا من المعهد العالي للفنون المسرحية، والمرحوم يوسف حنا والأستاذ الرائع والمبدع الكبير أسعد فضة والمخرج الذي لن تنساه الحركة المسرحية والطلابية في ذلك الوقت الراحل فواز الساجر الذي ترك فراغاً كبيراً في مسرحنا، لجنة قبول كبيرة مؤلفة من رجال كبار معلمين حقيقيين، وعند صدور النتائج كنت الأولى من بين المقبولين في المعهد وكان عددهم حينذاك (٧٠٠) متقدم ومتقدمة وهكذا ابتدأت الرحلة الحقيقية في العمل والجهد والدراسة والإيمان والمسؤولية وتخرجت من المعهد وكنت الأولى على الدفعة وبدرجة جيد جداً.

الموهبة لا تكفي

ولا بد من الدراسة الأكاديمية

- هل تكفي الموهبة أم لا بد من الدراسة التخصصية؟

• نحـــن في عصر التخصص والتطورات المذهلـــة، ولم يعـــد يكفـــي في أي مجال من المجالات أن يكـــون الإنسان موهوباً فحسب بل يجب وبديهـــي أن تدعم وتصقل الموهبة بالمعرفة والدراسة المتخصصة، نعم دراستي في المعهد أفادتني ودعمتني وحققت لي من المعرفة ما لم يكن بإمكاني فردياً أن أحققه ليس في مجال عملي الإبداعي الاحترافي فحسب بل جعلـــت نظرتي إلى العـــالم وما يدور فيه وحولي أعمق وأكثر مسؤولية ووضعتني على الطريق الصحيح والأرض الصلبة التي منها انطلق للمسير بخطى واثقة معنية ومسؤولة ليكـــون لدي رأي واضح وموقف واثق ومقنع وهذا برأيي أهم ما يميز الرسالة الإبداعية التـــي نحملها علـــى عاتقنـــا كمبدعين أن يكـــون لنا رأي نستطيع أن نجسد من خلاله مواقفنا التي يجـــب أن تكون مؤثرة وفاعلة وتساهـــم في التغيير والارتقاء بمعرفة واثقة نحو الأفضل والأسمى.

حلمي بأن أصبح ممثلة تحقق

- ما الذي وصلت إليه بعد الفشل الأول، ثم النجاح؟

• منـــذ تخرجـــي إلى الآن، رحلة طويلة وعمـــر أصبـــح الآن في التجربـــة الإنسانية والإبداعيـــة مـــن المســـرح إلى السينما إلى التلفزيـــون إلى الإذاعـــة وحتى في المساهمة بالتنمية والحراك الثقافي فقد كان لي شرف المشاركة في عدة لجان تحكيم في مهرجانات عربيـــة ومحلية للمسرح المحـــترف والهاوي والطلابي والشبيبي وقد كرمت والحمد لله في الكثير من المهرجانات السورية والعربية، ولا أستطيع أن أقول لك مع أي مخرج أو بأي عمل ارتحت بالتعامـــل أكثر، فكل التجارب الإبداعية بحلوها ومرهـــا هي التي شكلت مسيرتي وحضوري الفنـــي والإبداعي وقد تعلمت من الفشـــل مثلما تعلمت من النجاح والنجوميـــة، كل ما أريد قوله أن المبدع كلما كـــبرت تجربته أحس بأنـــه صغير أمام العالم والحياة، وأن رحلة كفاحـــه واجتهاده ودأبه وجهـــده ما زالـــت في البدايـــة وأن الطريق

مـــازال طويلاً والخطـــوات كبـــيرة وصعبة للوصول إلى نهايته.

التوازن بين حياتين العامة.. والخاصة

- هل يمكن للفنان أن يوازن بين حياته العملية في الفن وحياته الخاصة؟

• نعـــم استطعـــت التوفيق بـــين حياتي الخاصة وعملي كممثلة لأنني بطبعي أحب الهدوء والتأمل، وزوجي يملك طباعاً مشابهة كثـيرة وهو صديقـــي قبل أن يكـــون زوجي والحـــب والتفاهم والإيمـــان بالآخر والثقة هم الرابط بيننـــا والرغبة بإسعـــاد أحدنا للآخر هو ما نعمل عليـــه إضافة إلى المهنة التي تجمعنا فكمـــا تعرف زوجي هو الممثل زياد سعد وقد كان زميلي في الدراسة وبنفس الدفعـــة في المعهد العـــالي للفنون المسرحية وغالباً مـــا كنا نتنافس علـــى المرتبة الأولى في الصفـــوف الأربعة من دراستنا وبيتنا هو مسكن روحنا وهدوءنـــا ودفئنا، صحيح أن الله لم يعطنا أولاداً إلا أننا لم نشعر بأي فراغ أو حاجة لأننا كلينـــا يملؤنا الحب والرغبة في العطـــاء بلا حـــدود وكل الأطفال الذين يحيطون بنا مـــن أقرباء وكل طفل في العالم هو ابن لنا.

الدراما السورية في الأوج

- مـا رأيـك بحركـة الدرامـا في سورية الآن؟

• حركـــة الدرامـــا في سوريـــة تبدو من الخارج حركة ملفتة ومميزة إلا أنني وبمنتهى المسؤولية والوعي أقول بأنها لاتملك مقومات الاستمرار بشكل تصاعدي، وتقودها التبعية والفوضى والعشوائية وغياب المنهج والرؤية. فالمهنة غير محصنة في الماهية والداخل، ولم تؤصل أو تجذر عبر خلـــق تاريخي تراكمي يعـــزز معايير لتطور باستمرار فنلغي ما كان سلبياً معيقـــاً ونكرس ما هو إيجابي ويسهم في خلـــق حركـــة متطـــورة تساهـــم بارتقاء المستقبـــل وهذا يعنـــي إيجـــاد آليات عمل ومنهـــج ودراسة لكل المعطيات، مازلنا ورغم هذه الضجة والاكتساح للدراما السورية بكل مستوياتها وعلـــى الصعد كافة نتخبط دون أن نعرف إلى أين، ودون أن نعترف لأي آخر بجهـــده في تسليم الشعلـــة للآخر، بل نتخذ

من الإلغاء إلغاء الآخر وجهده سمة للوجود. ما زالت المؤسسات الناظمة لشؤون الدراما والدراميين وكل المهن الإبداعية ومؤسساتها يحكمها الهم الذاتي والشخصي والجمعي الذي بسببه وجدت هذه المؤسسات الناظمة والمعنية بشؤون الإبداع والمبدع غائب ولا منهج ولا آليات عمل ولا معايير تبنى أو ترسم أو تفعيل لعمل مؤسساتي معني بالهم الجماعي يحكم هذه المؤسسات وهو ملغىً من حساباتها. لذلك وللأسف الشديد وبواقعية شديدة أراها إضافة إلى البطالة التي لحقت بـ٩٠٪ من الدراميين و١٠٪ منهم يعملون هي معرضة للانكسار والاختراق والتفريغ والانحسار والتوقف وتعرض الدراميين لكارثة أكبر في كل لحظة ومع أي ظرف وهذا ما يجب أن نعيه وألا نسكت عنه ونعمل على تغيير واقع هذه الدراما من الداخل أولاً وتغيير العقلية الضيقة التي تقودها والمصلحية الذاتية المخربة لصالح حركة حقيقية محصنة بمعايير موضوعية وفنية وإبداعية واستراتيجيات ومنهج لمصلحة الجميع وتفعيل دور المؤسسات الناظمة والتي تحفز الإبداع وتميز المبدع. بعيداً عن الزيف والقشور والمصلحة الذاتية العمياء.

- ماذا تركت النجومية في نفسيتك؟

• نعم أثرت النجومية بأن جعلتني أكثر حساسية وأكثر تأملاً وأكثر عمقاً وبساطة وأكثر رغبة في المعرفة والعمل الجاد والجهد والعطاء غير المحدود كي أساهم في الارتقاء وتغيير الواقع إلى واقع أجمل وأنبل كما حلمت وأحلم دائماً.

- ماذا تقولين للشبان الذين يريدون أن يمروا بتجربتك؟

• أقول للشباب أن الله خص المبدع بشيء من ماهيته المقدسة في الإبداع والخلق، فقدروا كم من المسؤولية وكم من العمل وكم من الجهد والثقافة والإيمان والأخلاق يجب أن نتحلى بها كي نكون أهلاً لهذه الميزة التي خصنا وحبانا بها الله عز وجل.

❁ ❁ ❁

شاءت الممثلة الكبيرة ابنة «مشتى الحلو» أن تكون إجاباتها، إنشائية، ومختصرة هذه

طريقتهـــا في الإجابة، وأنـــا أحترمها، لأنني أحترم هـــذه الفنانة الكبيرة التي كان فشلها في أداء دور صعـــب في «مبروكة» حافزاً لها لإثـــراء تجربتها الفنيـــة بالانضمام إلى أول دفعـــة للتمثيـــل في المعهد العـــالي للفنون، لتتخرج أولى علـــى هذه الدفعة التي ضمت المئـــات. إن روح المثابـــرة لتحقيق الحلم قد لاحقتها، وهكذا الفنان الملتزم بقضية فنه، يجعل من الفشل حافزاً ودافعاً، بدلاً من أن يقعـــده عن تحقيق حلمـــه. إنني أحيي هذه الفنانة الصديقة.

متابعات

- صفحات من النشاط الثقافي — إعداد: أحمد الحسين

كتاب الشهر

- النسبيّة في الطبيعة — إعداد وتقديم: محمد سليمان حسن

آخر الكلام

- الثقافة الكونية — رئيس التحرير

متابعات



صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين •

المؤتمر السنوي التاسع لمجمع اللغة العربية:

برعايـة الدكتورة نجاح العطار نائب رئيـس الجمهورية بدأت في مكتبة الأسـد الوطنية بدمشق فعاليات المؤتمر السنوي التاسع لمجمع اللغة العربية وذلك تحت عنوان: «الكتابة العلمية باللغة العربية».

وناقش المشاركـون في المؤتمر مجموعة من المحاور التي تركز على البعد الحضاري للكتابة العلمية باللغة العربيـة وخصائص الكتابة العلمية باللغة

• أديب وباحث في التراث العربي (سورية)

العربية، والكتابة العلمية باللغة العربية قديماً وحديثاً، ومشكلات ووسائل تنمية الكتابة العلمية باللغة العربية.

الدكتور مروان المحاسني رئيس مجمع اللغة العربية: إن اللغة لا يمكن أن تكون بديلا عن المعرفة كونها أداة للوصول إلى المعرفة والفهم والإفهام وهي التي ترسم للفرد صفات العالم الذي يعيش فيه بما يسمح له بالمشاركة في تطوير مجتمعه، واستعرض مراحل من التاريخ العربي تمكن العرب خلالها الإفادة من علوم الحضارات الأخرى وتطبيقاتها التقنية المختلفة وقدرتهم على استيعاب المواد الثقافية في تلك الفترة وتدوينها باللغة العربية.

بدوره عرض الدكتور محمد مكي الحسني الجزائري أمين مجمع اللغة العربية تقريرا عن منجزات المجمع خلال الدورة المجمعية المنصرمة تطرق فيه إلى المشكلات التي تعاني منها اللغة العربية والتي تتمثل بشكل أساسي بتردي مستوى التعليم والأداء اللغوي واستخفاف المتعلمين بلغتنا الوطنية، واستعرض خلاصة أعمال لجان المجمع السادسة عشرة وما أنجزته لجنة اللغة العربية وعلومها التي اتخذت ٥٣ قرارا بشأن ألفاظ وتراكيب منوعة وأجابت عن مجموعة من الاستفسارات الواردة من جهات حكومية وخاصة من بعض المواطنين، مشيراً إلى ما أنجزته لجنة المصطلحات الزراعية من دراسة ٢٠٠٠ مصطلح ووضع المقابلات العربية والفرنسية والأصول اللاتينية لبعضها مشيراً إلى الجهود التي تبذلها لجان طب الأسنان والمصطلحات الرياضية والعلوم الكيميائية والفيزيائية والمصطلحات البريدية ومصطلحات الاستشعار عن بعد في وضع مجموعة من المصطلحات والمقابلات العلمية للمصطلحات المتخصصة بهذه المجالات.

وأوضح الدكتور أحمد حسن حامد رئيس المجمع الفلسطيني وممثل الباحثين المشاركين في المؤتمر أن اللغة العربية هي شخصيتنا القومية ووعاء فكرنا ومبعث أصالتنا وأصل مستقبلنا، لافتاً إلى أن اللغة العربية هي أوسع اللغات وأشرفها وأنها عرفت الاختصار والاستطراد والحذف والترادف والتضاد وفتحت صدرها للغات الأخرى فأخذت منها وأعطتها وأدخلت في ثناياها ألفاظا هذبتها واستعملتها في سياقها اللغوي المتجدد لافتا إلى ضرورة الدفاع عن اللغة العربية بطرق علمية منطقية مقنعة لأنها لغة واسعة قادرة على مجاراة الحياة في شتى العصور والأزمان.

وضمن محور البعد الحضاري للكتابة

العلمية باللغة العربية أشار الدكتور محمد هيثم الخياط إلى دور اللغة في ترسيخ الأصول الثابتة في نفس الإنسان وإيصال المعارف الأولى التي تعين على التواصل معتبرا أن ثقافة الأمة هي ذلك القدر المشترك من ثقافات أبنائها وهي مرآة جامعة في حيزها المحدود جوهرها اللغة ثم الحضارة التي هي المظهر المادي لهذه الثقافة بالاستفادة من معطيات العلم والتقانة لعمارة الأرض والارتقاء بالوضع المعيشي للإنسان.

وفي محور الكتابة العلمية والتعريب والتقدم العلمي، قدم الدكتور مكي الحسني الجزائري أمين مجمع اللغة العربية مداخلة أشار فيها إلى دور توطين العلم في التقدم العلمي للأمم والذي يقتضي تعزيز اللغة الوطنية وحمايتها وتدريس العلوم كلها باللغة الوطنية ونشر نتائج الأبحاث العلمية بها وإعداد كتب تدريسية ومراجع بهذه اللغة لتعزيز مكانة الكتابة باللغة العربية.

وتحدث الدكتور عيسى العاكوب عن أبعاد الذات والموضوع في الكتابة العلمية والأدبية معرفاً الذات بأنها الأنا الواعية المتهيئة للكتابة في الموضوعات العلمية أو الأدبية أي مجموع الملكات الإدراكية البشرية المسؤولة عن اقتراح الفكر وبلورتها وتنظيمها وإخراجها في بيانات تعبيرية لغوية موجهة إلى جمهور مقصود، ولفت إلى أن الموضوع مختلف في الكتابة الأدبية لأن الذات المنتجة للكتابة أو التأليف منشغلة انشغالاً تاماً بمعرفتها الحدسية التي محورها العام موضوع المعالجة منهمكة في إنشاء بيان تخيلي تصويري قادر على تصوير طاقاتها الإبداعية في ميدان التأليف من جهة.

وطرح الدكتور محمد الجوادي (عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة) تساؤلا حول إمكانية أن يحل المجاز مشكلة تعلق الأسماء بالمعاني أو أنها خلقت مشكلة جديدة كان يمكن تجاوزها لو أننا فرطنا في الحرص على الربط بين الاسم والمعنى بدلاً من أن نفرط في هذا الحرص، ولفت إلى أن عبقرية توظيف المجاز في صوغ المصطلح العلمي العربي تكمن في أنه يخلق مادة جديدة قابلة بذاتها لكل ما تتقبله الجذور القديمة من اشتقاق متعدد ونسب وتصغير ونحت وإضافة.

وناقشت بعض أوراق العمل المقدمة خصائص الكتابة العلمية باللغة العربية قديماً وحديثاً، والكتابة للأطفال، والكتابة العلمية في المنظمات الدولية، حيث اعتبر الدكتور محمود السيد أن لغة العلم يجب أن تتسم بالوضوح الذي لا يحمل اللبس لأن الغرض الأساسي للغة العلم هو تفسير

ظاهرة أو شرح طريقة ولا يمكن تحقيق ذلك بلغة غير صريحة وواضحة أو بكلمات مبهمة غير محددة المعنى إضافة إلى مراعاة سلامة البنيان اللغوي والإنجاز عن طريق الرموز والمعادلات الرياضية والرسوم مع الانتباه إلى قضية المصطلحات.

وتحدث الدكتور عبد الإله نبهان عن خصائص الكتابة العلمية وتميزها عن الكتابات الأدبية لكونها تعنى بالأفكار والحقائق وبترتيبها ترتيبا معقولا على مقتضى المنطق الذي يتطلبه البحث وبتعبيرها عن تلك الحقائق بعبارات سهلة الفهم ومفردات دقيقة تعبر بالضبط عما يريده الكاتب، بينما اختارت الأديبة مريم خير بك أن تكون مداخلتها حول لغة الطفل العلمية والتي أشارت خلالها إلى ضرورة الاهتمام بلغة الطفل بشكل عام ولاسيما لغته العلمية لأن لغة الطفل كيان ينتمي إلى اللغة القومية لشعوبنا العربية.

وتحدثت الأديبة مريم خير بك عن حال لغة الطفل في هذا العصر فوجدت أنه يعيش ثنائية لغوية بين الفصحى والعامية وتظل الفصحى بعيدة عن مسمعه ولاسيما في سن ما قبل المدرسة، وتناولت خير بك مصادر هذه اللغة التي من المفترض أنها تخاطب الطفل بلغة علمية وهي التعليم والكتاب المدرسي العلمي والكتب والموسوعات، إضافة إلى وسائل الإعلام وخاصة برامج الأطفال العلمية التي تعاني من خطأ في النحو في كثير من الأحيان وركاكة الأسلوب وعدم وجود دقة علمية في المصطلحات وتناسب بين الفكرة واللغة وعمر الطفل والاعتماد على إبهار الصورة على حساب اللغة.

بدوره اختار الدكتور ممدوح خسارة كتاب المناظر لابن الهيثم نموذجاً للكتابة العلمية باللغة العربية قديماً، وتطرق إلى عناصر الكتابة العلمية في كتاب المناظر على مستوى الجملة الاسمية والفعلية والخبرية والإنشائية في الكتابة العلمية إضافة إلى الأداء اللغوي في الجملة ومصطلحات ابن الهيثم في البقاء والتغير وطرائقه في وضع المصطلح العلمي، واستعرض خسارة خصائص الكتابة العلمية عند ابن الهيثم والتي اتسمت بالوضوح والدقة والسهولة واليسر والتعبير المباشر وتجنب المحسنات اللفظية والاستعانة بالرسوم والأشكال إضافة إلى التبويب والتقسيم والإحصاء والإيجاز والنزعة العقلية.

وقدم الدكتور أحمد شيخ السروجية مداخلة بعنوان الكتاب المرجع والمؤلف والمترجم تحدث فيها عن فوائد نقل المعرفة بالترجمة التي تتمثل في حصول المترجم على

دراية جيدة بالمصطلحات العلمية وتحسين معرفته وقدرته على الكتابة باللغة العربية وإتقانه لها إضافة إلى قدرته على التعامل مع اللغتين العربية والأجنبية ما يمكنه من امتلاك القدرة على استخدام اللغة العربية بأسلوب علمي ميسر ورأى أن سبب افتقارنا للغة علمية جيدة يعود إلى قلة الممارسة وليس لقدرة اللغة العربية.

كما قدم الدكتور قاسم سارة مداخلة بعنوان الكتابة العلمية في المنظمات الدولية بدأها بتعريف للكتابة العلمية لفت فيها إلى أن القائمين على الكتابة العلمية للمنظمات الدولية يتسمون بالاطلاع والإلمام باللغات الأخرى أكثر من نصيب غيرهم وأنهم يتوخون الدقة المشوبة بالحذر للتعبير عن المفاهيم المستجدة، وأوضح أن الكتابة العلمية في المنظمات الدولية هي عمل جماعي ذو طابع مؤسسي يخضع لمقاييس دولية ويتطلب اتخاذ خطوات إدارية وتقنية متكاملة يحظى فيه ضمان الجودة بالأولوية المطلقة ويخضع للتقييم الدائم ويحرص الكتاب العلميون فيه على الاستفادة مما يتجمع فيه من معارف ومصادر لغوية متجددة من أجل المحافظة على الاتساق في الأساليب اللغوية وفي المصطلحات مستخدمين أحدث ما انتهت إليه التقنيات في الحوسبة وإدارة المعلومات ويحتل التوثيق فيه مكانة رفيعة.

وقدّمت ضمن فعاليات المؤتمر طائفة غنية من المداخلات تناولت وسائل تنمية الكتابة العلمية باللغة العربية، وسبل تطبيق المعايير العالمية على التقارير المعلوماتية باللغة العربية وتنمية الكتابة العلمية باللغة العربية لطلاب الهندسة إضافة إلى دور التعريب في الكتابة العلمية باللغة العربية ودور الترجمة في الكتابة العلمية باللغة العربية، حيث أشارت الدكتورة غيداء الريداوي إلى أن العلوم الهندسية بمجالاتها المختلفة المعمارية والميكانيكية والكهربائية من العلوم الهامة في المجتمع لأنها عماد هذه الثورة التقنية ومن أكثر العلوم الحديثة تأثيراً وتأثراً بها، كما أشارت الدكتورة أميمة الدكاك إلى تميز الهندسة بتطور تقنياتها السريع وبروز مصطلحات وطرائق وآليات حديثة تتطلب من المهندس مواكبتها من جهة ومواكبة دخول مفردات تخصها من جهة أخرى، وتحدث الدكتور أحمد مطلوب حول دور التعريب في الكتابة العلمية باللغة العربية موضحاً أن التعريب يقوم على ثلاثة أمور لابد منها في الكتابة العلمية وغيرها وهي المصطلحات والترجمة والتأليف، ورأى الدكتور زهير إبراهيم أن المشكلة التي تواجه أقطار الوطن العربي هي التخوف من

الترجمة أو التعريب في مجال الكتابة العلمية عند تعليم العلوم الطبيعية والدراسات التجريبية في الجامعات بحجة أن التعليم بالعربية يحرم المتخرج من متابعة الركب العلمي المتطور بسرعة ولأن الاعتماد على المراجع العربية أمر غير ميسور.(١)

وجه مضيء للتليسي:

تقديراً لدوره وإسهاماته الفكرية والثقافية نظم مجمع اللغة العربية بالجماهيرية الليبية ندوة حول حياة وآثار المؤرخ والأديب الليبي الراحل خليفة محمد التليسي بعنوان «التليسي في الذاكرة» وذلك بمشاركة عدد من الأدباء والمفكرين والمثقفين والباحثين من مختلف الجامعات الليبية، الذين قدموا خلالها قرابة ١٤ بحثاً تتناول سيرة ومواقف وحياة الأديب الراحل خليفة محمد التليسي.

واستهل أعمال الندوة نائب أمين عام مجمع اللغة العربية بورقة بحثية بليبيا بعنوان «التليسي مترجماً»، تناول بها دراسات التليسي لإنتاج وسير بعض أعلام الأدب الإيطاليين.. مبينة إبداعه في هذا المجال والذي تمثل في تأليف قاموسيه الإيطالي العربي- والعربي الإيطالي.

وقدمت بعد ذلك الورقة البحثية الثانية بعنوان «التليسي مؤرخاً»، ورصدت هذه الورقة في مقاربة أولية، بدايات تطور التدوين التاريخي في المكتبة الليبية إلى عصر الدكتور خليفة التليسي، وأشارت الورقة إلى مكانة التليسي كمثقف بين أبناء جيله في القرن العشرين، وإلى مدونته التاريخية التي ضمت ١٥ كتاباً رصدت التاريخ الوسيط والحديث المعاصر، وجمعه بين التأليف والترجمة.

وجاءت الورقة البحثية الثالثة تحت عنوان «التليسي الوجه المضيء في الأدب العربي الليبي»، بمثابة شهادة حول مكانة أدب الدكتور «التليسي»، وما قدمه من إسهامات كان لها أثر كبير في المشهد الثقافي الليبي خاصة وفي الوطن العربي بصفة عامة، وقالت الورقة «إن الجهود التي بذلها التليسي في ميدان البحث الأدبي كافية للدلالة على جدية صاحبها وتمكنه من تنوير بعض القضايا المهمة وارتياد مجالاتها البكر»، وأضافت أن الباحث التليس عمل بدأب للكشف عن جوانب خفية في تاريخنا، وأن جهوده في هذا المجال ستظل على الدوام مقرونة بحاجة ملحة إلى ضرورة الاهتمام بكل جوانب تاريخنا الوطني.

وتحت عنوان «ملامح الخصوصية في شخصية التليسي الثقافية» كانت الورقة البحثية الرابعة، وعرّفت هذه الورقة

القليسـي بأنه أحد أقطـاب الثقافة الليبية المتينـة، وعُمدهـا الرصينـة، وهـو أحد أرحـب الأبـواب التـي رأى خلالها العرب والغرب حقيقة ليبيا وعلو مستواها الثقافي والإبداعي، وحول الملامـح والصفات التي غلفـت شخصيته الثقافية، أوضحت الورقة أن الدكتور التليسي كان يتصف بالعصامية، والنزوع النقـدي، والموسوعية، التي صنعت منـه أديباً يُعـد مفخـرة لليبيـا وأدبائها وعلمائها ومثقفيها.

وتناولـت الأوراق البحثية الأخرى التي قدّمت خلال هذه الندوة نتاجات وإبداعات الأديب الراحل، وإسهاماته اللغوية، ونتاجاته التاريخية، ومنهـا كتابه «المؤشرات الدلالية في معجم معـارك الجهاد في ليبيا ١٩١١- ١٩٣٢»».

وحول إبداعـات التليسي الشعرية، قدّم أحد الباحثـين المشاركين في الندوة، الورقة البحثية الثالثة، بعنـوان «التليسي شاعرا»، وأكـدت هذه الورقة أن تميز ديوان التليسي ظهر بخصائص لغوية وبلاغية رمزية، وأنه كان صاحـب رسالة شعريـة هادفة، حيث تغنى بحب الوطـن معبراً عن ذاته وتجربته الإبداعيـة الصادقة، وأضافت بأنه استطاع أن يبني لنفسه ثقافة واسعة، فيتسم أسلوبه الشعـري بالرصانة والجزالة، وذلك ما كان انعكاساً طبيعيا لقراءاته في الأدبين العربي والغربي، ليجمع بين الأصالة والمعاصرة.[٣]

الفلسفة واستراتيجيات الحداثة:

أقـام مركز الصحافـة العالمية في مقرّ وكالة الاتصال الخارجي بالعاصمة التونسية ندوة حول الفلسفة والتنوّع الثقافي والتقارب بين الثقافات، وذلك في إطار فعاليات اليوم العالمـي للفلسفة بمدينة العلـوم في تونس بإشراف وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ووزارة التربيـة والتعليـم ووزارة الثقافـة والمحافظة على التراث.

وقد استهل الدكتور فتحي التريكي رئيس كرسـي اليونسكو للفلسفـة بجامعة تونس الندوة واضعـاً إياها في إطارهـا ومنوّها بجهود كل المساهمين في هذا الحدث الفكري والعلمي الذي اعتبره التريكي هاما على أساس أننا «في العالم العربـي في حاجة إلى تطوير الفكر الفلسفي»، مشيداً بمكانة تونس على المستوى العالمي في مجال البحوث الفلسفية. وقد تمّ اختيار تونس لعـدة اعتبارات، لعل أهمها حرص تونس على الإيفاء بالتزاماتها وانخراطهـا في توجهات المجتمـع الدولي، واعتبارهـا من الدول العربيـة القليلة التي تعير اهتماماً كبيراً لتدريس الفلسفة «الثانوي والجامعي».

وقـد قدّم الدكتـور التريكـي لمحة عن

ظـروف نشـأة هـذا الهيـكل المنبثق عن «اليونسكو» بالأساس، حيث أشار إلى الجهود الساعيـة إلى نشـر السلام ونبـذ الحروب تواصلـت على مدى خمسـين سنة أي منذ إنشـاء منظمة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٩٥ عندما تمّ اعتماد إعلان باريس- بمشاركة خمسين فيلسوفا من مختلف أنحاء دول العالم- والذي تتلخص مبادئه في النقاط التالية:

١- الفلسفـة في مواجهـة المشـكلات العالمية وتعزيز التعاون بين الشعوب.

٢- تعليـم الفلسفـة بـكلّ مجالاتهـا «العلـوم الإنسانيـة وترسيخ مبـدأ التكافؤ الاجتماعي».

٣- توسيع نطـاق التدريس والتوجّه إلى تشريك الشباب في هذه التوجّهات الفكرية.

وقـد أكد الدكتور فتحـي التريكي على استعـداد كرسي الفلسفـة للمشاركة في كل البرامج وعلـى مواجهته للهجمـة الشرسة التـي أطلقت على الإسـلام مما خلق نوعا من التصادم بـين الحضارات في ظل حالة مفزعة يعيشها العالم اليوم على كل المستويات خصوصـا تنامي العنصرية حتى وصلت إلى درجـة أنها أصبحـت سياسـة دول. ويرى الدكتـور التريكي أن الحـلّ يكمن في الفكر وليس في السيف وأن يتمّ تحديد الأمور ثمّ التوضيـح فالنقد مع تشخيص الأمراض ثم التنظير.

وأكـدت الباحثـة فاطمـة الترهـوني على دعم كرسـي الفلسفة للحـوار وتعليم الاتجاهات الفلسفية لبنـاء الفكر المستقلّ، مشيرة إلى مؤتمر الحـوار العربي الآسيوي بشـأن الفلسفة والذي سيعقـد في مارس/ آذار ٢٠١١ المقبـل، واعتبرت أن من أهداف تنظيم مثل هـذه الحـوارات تطوير الفكر الفلسفـي التنويري داخـل الوطن العربي، وهي محاولة في البحـث في قضايا فلسفية شائكـة وعلاقتهـا بالفكر، لذلـك تعدّدت اللقـاءات والمحاضـرات في كلّ من المغرب والجزائر ومصر وبيـروت وتهدف جميعها إلى تحريـك الساحة الفكريـة العربية، إذ يجب على الفكر العربي الفلسفي أن يساير الفكـر العالمي ويوجد معـه جنبا إلى جنب، وأشارت الترهوني إلى أن كرسي الفلسفة قد أصدر ٨ كتب إلى حدّ الآن بالتعامل مع دور نشر عالمية شهيرة وبلغات مختلفة كالفرنسية والألمانية والإنجليزية.

وفي إطـار فعاليـات هذه النـدوة قدّم الباحـث الجزائـري عمـر أزراج مداخلة قيّمة تركـزت حول تأثـير الكلونيالية على تشكيل نقد ليوتـار وداريدا وفوكو للحداثة الغربية.[٣]

أبو ظبي للثقافة والتراث تبحث في تاريخ السيوف العربية:

أصدرت دار الكتب الوطنية في هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كتاب «سيوف عربية» الذي يعرض تاريخ السيوف ومراحل صناعتها، وذلك في إطار الاستراتيجية التي أطلقتها الهيئة لإغناء المكتبة العربية ومكتبة تراث جزيرة العرب، بما يعكس الاهتمام بتراث الأجداد، والحرص على جمع المصادر كافة المتعلقة بتراث منطقة الخليج العربي والعالم العربي عموماً، إيماناً منها بأهمية هذا الرمز العربي.

ويحكي الكتاب سيرة السيف الذي احتل المكانة الأولى في المجتمعات والحضارات القديمة، لاسيما العربية، فهو رفيق المحارب وخليل الفارس وأهم قطعة سلاح كانت تمتلكها الجيوش في الماضي، وهو ما يعطي لحامله الهيبة والاحترام والوقار، وقد تفنن صانعو السيوف منذ القدم بتقنيات صناعته مسخرين خامات متنوعة، على الرغم من كونها بدائية غير أنها باتت منارة يهتدي بها صانعو سيوف اليوم.

ويوضح الكتاب كيف أن السيف العربي لا يزال رمزاً لتاريخ طويل من الصناعة الدقيقة، والتقاليد الضاربة بجذورها في أعماق الثقافة العربية، منذ ما قبل الإسلام وحتى تاريخها القريب، وهو عند العرب رمزاً للشهامة والشرف، بل هو الرفيق الملازم في الحل والترحال، حتى أطلقوا عليه ما يقارب من ٣٠٠ اسم وأنشدوا فيه الشعر، فقد بلغ تعلقهم بالسيف حداً جعلهم يتوارثونه كالكنوز، ويحيكون حوله قصصاً وأمجاداً.

كما يحكي الكتاب أهمية السيف عند العرب فهو يعد أثراً تاريخياً وتحفة فنية فاتنة، تقتنيها المتاحف المتخصصة، ويتهافت على جمعها الهواة المتحمسون، الذين يعدون السيف العربي التجسيد الأمثل لما وصلت اليه تقنية صناعة السيوف عبر الأزمنة، لجمعه بين الفعالية القتالية والفن.

وفي هذا الكتاب يستطيع القارئ إلقاء الضوء على مكانة السيف العربي في الثقافة والتاريخ عبر سرد مختصر ومكثف في الوقت ذاته، إلى جانب القيمة الرمزية للسيف من خلال نظرة العرب الفلسفية إلى السيف كتعبير عن الرغبة في الوصول إلى الكمال عبر اتحاد الوظيفة الوجودية والمظهر الخارجي في هيئة عضوية واحدة.

وفي كلمة لهيئة (أبوظبي) للثقافة والتراث عن هذا الإصدار جاء فيها «السيف أصل أصيل في حياة العربي، لا يمكنه التخلي عنه وإن زالت أسباب استعماله، شأنه في ذلك

شأن مختلف عناصر البيئة العربية، ولم يكن السيف لدى العربي زينة يتحلى بها في حله وترحاله فحسب، بل كان أداة حرب ورمزاً للعزة ومجالاً لإظهار الإبداع الفني والبراعة في الصنع، حتى غدا السيف بأقسامه الأربعة «النصل، المقبض، الغمد والحمائل» مجالاً خصباً للإبداع والفن العربي».[4]

متحف زايد الوطني:

أكد الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس دولة الإمارات أن «متحف زايد الوطني» سيكون منارة إشعاع تبرز رؤية مؤسس الدولة الوالد الراحل الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، وقال بمناسبة إزاحة الملكة اليزابيث الثانية ملكة المملكة المتحدة والشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي في الساحة الغربية لفندق قصر الإمارات الستار عن التصميم الخاص بـ«متحف زايد الوطني» المتوقع افتتاحه عام ٢٠١٤ في جزيرة السعديات: «إن المتحف يعكس الفكر الثاقب لمؤسس دولة الاتحاد وإنجازاته العديدة وعلى رأسها توحيد أبناء الإمارات كافة تحت راية واحدة وبناء دولة قوية ومزدهرة.. ليبقى هذا الصرح الوطني الشامخ رمزاً لإرثنا الثقافي العريق وشاهداً حياً للأجيال القادمة على الإنجازات الكثيرة التي تحققت في عهد الشيخ زايد وحافزاً لنا جميعاً لمواصلة بناء دولتنا الغالية بالنهج والعزيمة ذاتهما، مؤكداً أن متحف زايد الوطني سيكون نافذة يطل منها زوّاره وضيوف دولة الإمارات على تراث شعب الإمارات وإرثه الثقافي ونهضته الاقتصادية والمعيشية والبيئية والتعليمية والصحية».

وأوضح الشيخ سعود بن صقر القاسمي عضو المجلس الأعلى حاكم رأس الخيمة أن المبادرة بإنشاء «متحف زايد الوطني» يعدّ خطوة غير مسبوقة وفريدة من نوعها وأن الهدف من إنشائه يتمثل في تسليط الضوء على الجوانب المختلفة في حياة وفكر وأعمال الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان واستجلاء المعاني والقيم الكامنة فيه والتي من واجبنا أن نؤرخها في حياة شعب دولة الإمارات لنحتفي بمسيرة القائد الأول الشيخ زايد الرمز الشامخ والتي اتسمت مسيرته بالعديد من الإنجازات والوقائع التي ساهمت ببناء ورفعة دولة الإمارات واعتلاء المجد.

وأكد الشيخ حمد بن محمد الشرقي عضو المجلس الأعلى حاكم الفجيرة أن المتحف سيكون له دور كبير في اطلاع العالم على محطات عديدة في حياته ومراحل الاتحاد منذ توليه حكم (أبوظبي).. مرورا بتأسيس الاتحاد ووضع اللبنات الأولى

لتجربة وحدوية لا مثيل لها وأيضا جهوده الحثيثة في لملمة الصف الخليجي وجمع شتات الأمة العربية.

وبهذه المناسبة أكد الشيخ محمد بن زايد آل نهيان ولي عهد (أبوظبي) أن «متحف زايد الوطني» تمّ تصميمه ليوثق تاريخ دولة الإمارات ويكون شاهدا على قدرة الشعوب على تحقيق آمالها وتطلعاتها إذا ما توفرت لها قيادة حكيمة لديها الإرادة القوية والبصيرة الثاقبة، وقال إن الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان كان أبا ومعلما وقائدا ملهما لشعب الإمارات وللعديد من شعوب العالم ومن هنا تكمن أهمية «متحف زايد الوطني ليس فقط كمرجع وشاهد على هذه الإنجازات بل ليكون حافزا نحو مزيد من الازدهار والتقدم ليس لشعب الإمارات فقط بل لشعوب المنطقة والعالم، مضيفاً إن كل ركن في هذا المتحف لا بد وأن يحمل صفات تلك الشخصية الفذة من قيم ومثل بما ألهمته للبشرية في إنسانيته وتسامحه وسعة صدره ومن إنجازات أبهرت العالم فتحدى الزمان والمكان في كافة أعماله».(٥)

مركز ثقافي في مطار أنشون الدولي:

بهدف تعريف المسافرين بتاريخ كوريا الجنوبية وثقافتها، أقامت الجهات الثقافية في مطار أنشون الدولي مركزاً تجريبياً للثقافة الكورية التقليدية، يضم العديد من البرامج التثقيفية التي تسلط الضوء على الفنون والثقافة الكورية الجنوبية.

والمركز الذي تشرف عليه مؤسسة كوريا للتراث الثقافي يدعو جميع المسافرين الأجانب الذين ينتظرون إقلاع رحلاتهم إلى برامج تعليمية مدتها ١٥ دقيقة يصنعون خلالها بأيديهم مشغولات حرفية تقليدية مجانا مثل المراوح وعلب المجوهرات والأكياس وعلب الأقلام، ويقدم للمسافرين برامج تدريبية حول كيفية صنع الأجراس وحلى الإكسسوار باستخدام قطع معدنية وشرابات بستة ألوان كانت تستخدم بشكل كبير في الماضي كهدية زفاف.

ويقوم المشرفون على ورشات العمل وهم يتقنون الإنكليزية واليابانية والصينية بمساعدة المشاركين في البرامج بإنهاء العمل بالمشغولات في الوقت الذي يطلعون فيه المشارك على معلومات مفصلة حول خلفية وتاريخ كل مشغولة أو حرفة.

وقالت إحدى العاملات في المركز وتدعى لي يونغ جو لوكالة الأنباء الكويتية (كونا) إن هذه الأنشطة اليدوية تقام على مدار العام مبينة أن ما يتراوح بين ٢٠٠ و٤٠٠ شخص يزور المركز.

وإضافة إلى البرامج الثقافية يوجد في

المركز مسرح إذ بإمكان المسافر الاستمتاع بالموسيقى الكورية التقليدية ما يجعل زيارة المركز لزاماً للمهتمين بالثقافة الكورية، ويقوم المركز كذلك ببيع المشغولات اليدوية مثل السيراميك والزجاج الملون والألبسة.

إلى جانب ذلك توجد لمؤسسة كوريا للتراث الثقافي مراكز أخرى في المطار تهدف إلى تعزيز ثقافة كوريا الغنية، وتتناول هذه المراكز تجربة الثقافة الكورية التقليدية إذ بإمكان المسافرين التعرف إلى الزي التقليدي والألعاب الكورية القديمة إضافة إلى عروض تقليدية مسرحية مجانية، وتمكين المسافرين من مشاهدة وتأمل معرض للمشغولات الكورية التقليدية يطلق عليه (بيت كوريا) وتعرض فيه مجموعة من القطع الثقافية ومشغولات تعود إلى تاريخ البلد منذ خمسة آلاف عام.(٦)

برلسكوني وجراحة التماثيل:

تعرض رئيس الوزراء الإيطالي سيلفيو برلسكوني لانتقاد جديد لسماحه لما وصف بـ«جراحة تجميلية» على اثنين من تماثيل الرخام الرومانية القديمة في إيطاليا، يمثل أحدهما إلهة الحب فينوس، والآخر إلهة الحرب القديمة، حيث أمر بيرلوسكوني باستبدال وإضافة أعضاء مقتطعة على تمثال إلهة الحرب القديمة، وكذلك يد تمثال فينوس، في محاولة انتقدها خبراء الفن، واعتبروها إجراء غير لائق وخطأ من الناحية الجمالية.

وأما ما أغضب محبي الفن هو أن هذا النوع من «التجميل»، الذي يكلف أكثر من٧٣ ألف يورو، تسبب في إتلاف العديد من التماثيل الرومانية واليونانية القديمة بدءاً من القرن السابع عشر، وقد بات موضوع التجميل حالياً عادة قديمة، وتعرض برلسكوني إلى انتقاد لعدم احترامه قواعد الترميم الإيطالية، والتي تقوم على عدم استكمال الأعمال الفنية القديمة، وعلى الرغم من أن أجزاء الجسم التي ستضاف «قابلة للإزالة»، فإن أحد النقاد الفنيين أشار إلى أن المرممين الإيطاليين، والذين تدفع لهم الحكومة لترميم الأعمال الفنية القديمة في الصين، يعلمون الصينيين عدم إخفاء الفرق بين القديم والجديد في التماثيل.

يشار إلى أن هذين التمثالين وجدا منذ قرابة المئة عام، ويعرضان في مقر إقامة برلسكوني، وقد احتفظ بالتمثالين سابقاً في متحف روما، وكان قد أمر بيرلوسكوني بتخفيضات هائلة إلى أكثر من ٤٠٪ في ميزانية إيطاليا للفنون الجميلة للعام المقبل كجزء من برنامج التقشف.

على صعيد آخر ذكرت وسائل الإعلام

أن دار نشر مارسيليو أصدرت كتاباً تحت عنوان «الملك يضحك، كل النكات التي رواها برلوسكوني» للمؤلف الشاب سيموني باريللاري.

ويرصد الكتاب ويحلل كل النكات التي رواها رئيس الحكومة الإيطالية سيلفيو برلوسكوني وكيف يوظفها سياسياً، كما يقدم تحليلاً مفصلاً لأساليب برلوسكوني في التواصل الساخر، ومدى انعكاس ذلك على الحياة السياسية، حيث يستخدم هذا الأسلوب سلاحا ضد المعارضة وأداء الحكومة.

يذكر أن برلوسكوني أطلق نكات عدة وتعليقات ساخرة في مواقف ومناسبات مختلفة أثارت جدلاً كبيراً، مثل وصفه الرئيس الأميركي باراك أوباما عقب انتخابه بالشاب الأسمر الوسيم ونكاته عن اليهود واليسار الإيطالي، وحسب تحليل المؤلف فإن برلوسكوني يستخدم النكات كنوع من الحماية ضد النقد، ويضيف إنه يجيد استخدام النكتة للتورية، ليقول علناً ما يعنيه من دون الحاجة إلى تحمل العواقب.(٧)

الإسبانية ماتوتي تفوز بجائزة سرفانتيس:

فازت الروائية الإسبانية أنا ماريا ماتوتي بجائزة سرفانتيس التي تعد أسمى جائزة أدبية للناطقين باللغة الإسبانية.

وتُعد الروائية الإسبانية ثالث امرأة تفوز بالجائزة، وقالت الروائية التي تبلغ من العمر ٨٥ عاما إنها «في غاية السعادة» لفوزها بالجائزة التي تبلغ قيمتها ١٢٥ ألف يورو.

وتعُد ماتوتي واحدة من بين أحسن الأدباء الأسبان لما بعد الحرب الأهلية الإسبانية التي تشكل محور معظم أعمالها، وهي كذلك ثالث امرأة تحصل على الجائزة منذ إنشائها عام، ١٩٧٥. حيث كانت الأديبة الإسبانية ماريا سامبرانو أول من فاز بها من النساء عام ١٩٨٨، وبعد ذلك بأربع سنوات حصلت الأديبة الكوبية دولسي ماريا لويناس على هذا التتويج الأدبي.

وقالت ماتوتي خلال مؤتمر صحافي: «أعتبر أنها إذا لم تكن اعترافا بقيمة أعمالي، فهي على الأقل اعتراف بالمجهود والتفاني الذي بذلته للكتابة طيلة حياتي».

واشتهرت الروائية الإسبانية بأسلوبها الشاعري كما تعالج رواياتها عالم الطفولة والمراهقة، كما اشتهرت كذلك بكتابتها للأطفال وللفتيان. ومن رواياتها في هذا المجال: الأطفال الأغبياء، والقصة الحقيقية للأميرة النائمة.

ومن بين أهم رواياتها التي حظيت بشعبية كبيرة وترجمت إلى ٢٣ لغة تُذكر

رواياتي آل هابيل والجنود بيكون ليلا، والمكيدة، وكل أحداثها تجري إبان الحرب الأهلية الإسبانية لما بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٩.

وقال ماريو بارغاس يوسا الفائز بجائزة نوبل لهذه السنة في تصريح للإذاعة العمومية الإسبانية: «إنها تستحق الفوز بهذه الجائزة منذ مدة، ولكن أن تكون منحت هذا التشريف متأخرة أفضل من لا شيء»، وأضاف الأديب البيروفي الفائز بجائزة سرفانتيس عام ١٩٩٤ قائلاً: «أنا متأكد أن الكثير من القراء عبر العالم سيسرون لهذا النبأ كما سررت».(٨)

مرور ١٢٠ عاماً على ميلاد اجاثا كريستي:

احتفلت الأوساط الثقافية والشعبية البريطانية بمرور مئة وعشرين عاما على ولادة الكاتبة البريطانية «اجاثا كريستي» التي ما تزال رواياتها البوليسية عن الجريمة وألغازها من بين الأكثر مبيعاً في العالم.

وقال القائمون على تنظيم معرض أعمال اجاثا كريستي في مباني مؤسسة السينما البريطانية في لندن: إن كتاباً أو شريطاً مصوراً أو مواد لها علاقة بالكاتبة أو أعمالها تباع في كل ثماني ثوان في مكان ما في العالم.

وقد اختارت مؤسسة السينما البريطانية الاحتفاء بالذكرى المئة والعشرين لميلاد الكاتبة بطريقة مبتكرة فقامت بنقل مقطورة من قطار «الاورينت اكسبرس» قطار الشرق السريع إلى باحة مجاورة لمركز عروض السينما، وفتحت المؤسسة بابه للمهتمين للتجوال في أروقته وتلمس جدرانه الخشبية والجلوس على مقاعده الفاخرة آملة في أن تمكنهم هذه التجربة من محاكاة الحقبة التي عاشتها الكاتبة خاصة وإنها كانت تستخدم القطار في ترحالها واختارت اسم القطار عنوانا لواحدة من أهم رواياتها «جريمة في قطار الشرق السريع»، حيث نقلت شركة اورينت اكسبرس مقطورة «زينا» وهو اسم محاربة اسكوتلاندية إلى منطقة «ساوث بانك» في وسط لندن لأنها تتميز بمعالمها الأصلية، وقد بنيت المقطورة في عام ١٩٢٩ من القرن الماضي أي خلال الفترة التي قامت اغاثا كريستي برحلاتها في القطار ونشرت عقبها روايتها الشهيرة «جريمة في قطار الشرق السريع» وقامت كبرى شركات السينما العالمية بإنتاج أكثر من فيلم صور معظمها في القطار.

يذكر أن كريستي حازت شهرة عالمية، وجذبت اهتمام ملايين القراء من جميع الثقافات واللغات، وقد نشرت ثمانين رواية

أثبتت فيها أن القدرة على فهم الجريمة ومرتكبيها لا يعني إعجاباً بها بل تعني أن عقول البشر في حالة تأهب دائم لحل الألغاز.(٩)

إحالات

١- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا»

WWW. SANA. ORG.

٢- وكالة الأنباء الليبية «جاما»

WWW.JAMAHIRIYANEWS.COM.

٣- وكالة الأنباء التونسية

WWW.AKHBAR.TN.

٤- موقع العرب أونلاين

WW.ARABONLINE.CO.

٥- وكالة أنباء الإمارات

.WWW.WAM.ORG.AE

٦- وكالة الأنباء الكويتية «كونا»

WWW. KUNA. NET.

٧- وكالة رويترز

WWW.REUTERS.COM.

٨- شبكة المعلومات العربية المحيط

WWW.MOHEET.COM.

٩- موقع ميدل ايست أن لاين

WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO

كتاب الشهر



النسبة في الطبيعة

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن *

قد يبدو للوهلة الأولى أن النظر إلى الطبيعة في مجموعها الكلي كموجود مادي وما ينتج عن ذلك من حركة لها تستتبع بالضرورة جملة من التغيرات، يستدعـي منا الوقوف على ماهية هذا الوجـود في حراكه وسكونه. ولربما أيضـاً يستدعي منا دراسة الطبيعة في مكونات تواجدها وعلائقها في توازن نسبـي صحيـح، وماذا يعني وجود الخلـل في هذا التـوازن؟ ماهية النسبة

* باحث سوري.

والنسبية في الوجود الطبيعاني. جدل العلاقة بين مكونات الوجود الطبيعاني والعلاقة بينهما؟. هذا مايحاول المؤلف الإجابة عليه. الكتاب تحت عنوان: «النسبة في الطبيعة» لمؤلفه الباحث «كمال القنطار». الكتاب صادر عن وزارة الثقافة بدمشق للعام ٢٠١٠. يقع الكتاب في /٣٠٠/ صفحة من القطع الكبير. نقدم عرضاً له بما يتسق والمعطيات المعرفية للكتاب.

❁ ❁ ❁

الفصل الأول: سقالات البناء.

يبسط الإيقاع النسبي ظلاله على الوجود الكوني كله، بما جهر من إيقاعات المجرات الجليلة في الفضاء السحيق تتناغم فيه النسب الموقعة، فتنتظم البنى المادية، وتضبط حركاتها. وتتصدر صفحات ذلك السفر مجموعة من الأعداد، دعيت: ثوابت الطبيعة الرئيسة، لم يلحظ، حتى الآن، أي تبدل ملموس في قيمها، وهي تختزل إيقاعات نسبية ذات شأن خطير في المنظومة الكونية. تأتي سرعة الضوء في مقدمة تلك المجموعة، وهي تمثل النسبة الثابتة بين المسافة التي يقطعها شعاع ضوئي في الخلاء، والزمن الذي تستغرقه. ويتبعها ثابت الثقالة وهو المعبر عن التناسب الطردي بين قوة التجاذب الثقالي لجسمين ماديين، وكتلتيهما، والتناسب العكسي بين تلك القوة ومربع المسافة بين الجسمين. ويغوص ثابت بلانك في عمق عالم الصغائر الذي يحكمه ميكانيك الكم، كاشفاً عن ثبات النسبة بين تردد الموجة الضوئية وطاقة الكم المرتبطة بالموجة. أما ثابت بولتسمان فيخرج إيقاع النسبة من عالم الجسيمات الدقيقة، لينقذه من شبهات الارتياب، ويوظفه في رصد التناسبات بين درجة الحرارة وحجم الغاز المثالي وضغطه، في حين يفصح العدد (١٨٣٦) عن النسبة الثابتة بين كتلة البروتون والالكترون، يتبعه ثابتان آخران هما: كتلة السكون للإلكترون وشحنته. إن هذه الثوابت تقوم بدور سقالات البناء التي تقام حولها نظريات الفيزياء وتحدد بنية الكون الذي نعيش فيه. ونحن نصادفها حيثما اتجهنا في مناحي علوم الطبيعة. إلا أن هاجساً يعرض لبعض فيزيائي العصر: ما سر هذه الثوابت؟ وقد يفضي تتبع ذلك الأثر إلى أفكار وتصورات تفوق ما ينسجه الخيال. فأبرز النظريات التي تقدم نفسها اليوم، كأساس لذلك، هو نظرية الأوتار الفائقة.

لتزعم أن للكون عدداً أكبر من الأبعاد، لا يقل عن سبعة، وقد يبلغ أحد عشر بعداً. وقد خفيت الأبعاد الإضافية عن الحواس لسبب ما. ويستدعي الغريب، فتقول نظرية الأوتار بأن ما ندعوه بثوابت الطبيعة الأساس قد لاتكون ثوابت أساسية حقة، أي أن الإيقاعات التي تمثلها هذه الثوابت، ليست وليدة خصائص جوهرية في بنية الوجود الكوني، وإنما نتجت عن طارئ عشوائي في سياق السيرورة التي ولدت الكون، وتقترح كثرة من العوالم المتباينة. ولكل من هذه العوالم منظومة من القوانين تتسق فيما بينها، وتختلف بين عالم وآخر، تسبح في فضاء لا نهاية له. لقد عكست الثوابت، في معظمها، الأبعاد الإيقاعية لقوانين الطبيعة. ولم يفتن جدل التضاد الفنون البصرية فحسب. وإنما أثار مخيلة الشاعر أيضاً، فترجم جماليات ذلك الجدل إلى لغة اللسان، فيقول (كعب بن جبيل):

ثوت نصف شهر تحسب الشهر ليلة

ناغي غزالاً ساجي الطرف أحور

أما (ذو الرمة) فيقوم بتركيب نسبتين اثنتين: الدعج والبَرَج في إيقاع واحد، ثم يقف متأملاً:



كحلاء في دعج، صفراء في برج

كأنها فضة قد شابها ذهب

وماذا يقول الفكر في ذلك؟ يقلب الآراء فيخرج منها حائراً كما دخل. ولكم أضنته مثنوية (الخير والشر) فلا تنفع هذه القسمة في تسكين هواجسه، فيفيء إلى التوحيد ليرفع الخير إلهاً واحداً، ويخفض الشر شيطاناً. وأياً كانت الإجابة من هذا التساؤل، فإن أي تعديل، أو اغناء، لمفهوم الثقالة، لن يخمد الإيقاع الذي تتأثر وفقه، ثقالياً، أشكال المادة والطاقة، وتنشئ منظومات بالغة الاتساق والانضباط، محكومة بقانون التجاذب الثقالي.

❁ ❁ ❁

الفصل الثاني: في رحاب العدد.

فتنت الدائرة الإنسان منذ القدم، وعدها الإغريق أجمل المنحنيات وأكملها. واعتقد بعضهم أن الكواكب السيارة ترسم مسارات دائرية دون زيغ. لأن عقولاً إلهية تسكنها، وليس للآلهة أن تختار، غير الدائرة مثلاً للكمال. ولئن صُحح هذا الاعتقاد على يد (كبلر) إذ بين أن مسارات الكواكب ليست دائرية تماماً، وإنما قطعية ناقصية (اهليلجية) إلا أن الدائرة لم تفقد جمالها. وتساءل محبو الدائرة، المشتغلون بالهندسة، منذ الحضارات القديمة: إن الدوائر تضيق وتتسع، ولكنها تظل متمثلة، فهل من سر يكمن خلف ذلك؟ وجرب بعضهم أن يقطع الخيط الدائري فيبسطه، ثم يقيسه، فيحصل على طول محيط الدائرة. وقام بعضهم بقياس المسافة بين نقطتين متناظرتين على الدائرة. لكن قلّة من الناس تلك التي تملك الحدس الذي يلتقط ومضة فيقوم بنسبة محيط الدائرة إلى قطرها، ليكتشف أن تلك النسبة تبقى ثابتة لا تتغير.

ها هي ذي تتراقص أمام بصر (المتنبي) أقراصاً من شظايا النور المتسلل عبر فرجات الأيك في شعب (بوان):

وألقى الشرق منها في ثيابي
دنانيراً تفر من البنان.

رغم ذلك، غص (اينشتاين) على العدد متعته الإيقاعية العتيقة، كنسبة ثابتة بين محيط الدائرة وقطرها، فهذه النسبة لم تعد ثابتة على نحو مطلق، ولا تساوي العدد على الدوام. وليس للقارئ الكريم أن ينتظر منقذاً في الهندسة المنبسطة، حيث تتساوى كثافة المادة الكونية والقيمة الحرجة، فإن قسمة الكون في هذه الحال سوف تكون التمدد الأبدي أيضاً، ولكن وفق إيقاع أبطأ بكثير من سابقه. نردد ما قاله (طرفة بن العبد):

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأنباء من لم تزود.

* * *

الفصل الثالث: خواطر كونية.

إن ما يبدو لنا من ابتعاد للمجرات عنا ليس ناتجاً، في الحقيقة، عن حركة تلك المجرات بقدر ما هو ناشئ عن تمدد الفضاء الكوني. هو ظاهرة مشتقة من نظرية (النسبية

العامة) التي تراعي توسع الكون، فالمجرات تبث ضوءاً يكاد يكون جميعه بنفس طول الموجة وفي جميع الاتجاهات. لأن الفضاء يتوسع. ولا يجري ذلك التوسع في الفضاء على نحو عشوائي، فثمة ضابط إيقاعي له. لكن من الآراء ما يذهب إلى أن الانفجار الأعظم ليس سوى نقطة تحول، أو نقلة جدلية، واحدة في التاريخ الحقيقي للوجود الكوني الشامل. ويبدو أن عالمنا الكوني لمّا يقرع باب الشيخوخة، وإنما يعيش النقلة من الشباب إلى الكهولة. ومن حسن حظ الشعر أن (لبيداً) شاعر الجاهلية، قد توفي قبل إطلاق القمر الصناعي بزمن بعيد، فلو أن لبيداً قد وقف على ذلك الزمن الهائل الذي يمثل عمر الكون، لأمسك عن القول:

ولقد سئمت من الحياة وطولها

وسؤال هذا الناس: كيف لبيد.

وفي صراع الجبابرة، هزت نظرية الانفجار الأعظم الصورة الكونية التي رسمها الفلكيون، وعصفت بالمعتقدات الشائعة عن نشوء الكون. إن ذلك الانفجار Biq Banq قد زود المادة البكر المنطلقة من قمقمها السحري، بطاقة حركية جبارة، أدت إلى تولد أشكال متمايزة من المادة، وإلى تحول في تلك الأشكال مازال مستمراً دون نفاذ. مازالت البيانات الرصدية إذاً تذهب إلى أن الكون ممعن في تمدده خلال هذه الحقبة من تاريخه. ومازال السؤال مطروحاً أمام الكوسمولوجيا: هل يستمر هذا التمدد إلى الأبد، أم يعتريه تحوّل إلى التقلص في لحظة مجازية؟ وإذا تواصل التمدد، كيف سيكون إيقاعه: ثابتاً، أم متسارعاً، أم متباطئاً، وما هي حال هذا الإيقاع في عصرنا؟ إن التوليفات المتعلقة بحواس الإنسان هي مزيج متراكب من جدليات الذات والموضوع. وهي لذلك ذات طابع نسبي فلكل فرد خاصيته، ولكل مجتمع تناسباته، ولكل عصر معاييره. أما التوليفات التي نتحراها في الوجود الكوني الشامل، فهي تآلفات موضوعية. وإن كانت نسبية بالمقاييس الكونية زماناً ومكاناً. ويمكن النظر إلى النظم الحية على أنها نتاج توليف معياري بين الأشكال الملموسة للمادة الكونية، ومستوى ملائمة من الطاقة المتوافرة في حقبة زمانية محددة.

❁ ❁ ❁

الفصل الرابع: وداعاً للفيزياء.

يعرف الوزن بأنه القوة التي تجذب الجسم إلى الأرض. ولا ترجع هذه القوة الثقالية إلى الجسم ذاته فحسب، وإنما تتعلق بالمكان أيضاً، «فوزن جسم عند القطب مثلاً، يزيد عن وزنه عند خط الاستواء بمقدار (٠,٥٪)». وإذا رحلنا، بذلك الجسم، إلى القمر، فإن وزنه القمري سيقل بنحو ست مرات. لكن الوزن يتمتع بصفة تدعو إلى التأمل، على أن النسبة بين وزني جسمين تبقى ثابتة أينما تمت الموازنة بينهما. وسواء جرى القياس على سطح الأرض، أم على أي جرم سماوي آخر. وتتيح تلك النسبة الثابتة بين وزني الجسمين أن تقارن وزن الجسم المفرد بوحدة عيارية، بما يكشف عن صيغة جديدة للجسم هي الكتلة، وهذه الكتلة هي السبب في ثبات النسبة بين وزني جسمين، وهي إحدى الثوابت الكمية للجسم المادي، والمعبرة عن تلك الخاصية الطبيعية العميقة للأجسام كافة، خاصية التناسب الوزني، التي تمنح مفهوم (الكتلة) صفتها الإبداعية. وتعكس هذه العلاقة كسواها من القوانين ذات الإيقاعات النسبية، عمق الصلة بين القوى والكتل في التوازن الديناميكي الكوني. وفي هذا التوازن يؤدي إيقاع النسبة دوره المرموق في حفظ المنظومات المستقرة (نسبياً) وإخضاع العشوائية إلى قيود النظام.

❁ ❁ ❁

الفصل الخامس: أيتها الكيمياء.

طالما تألق الشاعر الفرنسي (رامبو) إلى الاستحواذ على (كيمياء الكلمة)، ملتمساً ذلك التخاطر المكنون بين الكلمات والكيمياء، فالكيمياء تركيب وتحليل، وفن الكلمة كذلك. وفي متناول أيدينا، أنفس ما أنتجته الكيمياء من مركبات: إنه الماء، ومن ذا الذي يملك، كالماء، ذلك الطيف الغني من الإيقاعات. وقد التمسه (مجنون ليلى) فمزج به الخمر ليستحيل رضاباً في ثغر ليلاه:

كأن على أنيابها الخمر شجها

بماء الندى من آخر الليل عاتق

لكن (لافوازيه) في المختبر، حطم نظرية (الإنارة). فأثبت أن الاحتراق على اختلاف أشكاله، هو نوع من الأكسدة ينشأ عن اتحاد الأوكسجين بالمادة القابلة للاحتراق. وأيضاً إثباته العلمي لقانون مصونية المادة، وبالتالي

لا شيء يخلق من عـدم. وتصنف المركبات العضويـة، في العـادة، في مجموعات وفقاً لتركيبهـا، ويتسم هـذا التركيب في الغالب، بنمط إيقاعي نسبي يميز كل مجموعة.

❁ ❁ ❁

الفصل السادس: إيقاعات حيّة.

للتسميـة شـأن عظيـم في توقيع ذلك المنعطـف الكبير في سـيرورة الحياة: ظهور الكائنـات الهوائيـة، عبر عمليـة التركيب الضوئي، مما هيأ لتغيرات جذرية في مسار التطور. ويبدو أن تدفق الأوكسجين المتحرر إلى الغـلاف الجـوي، قد انتهـى إلى حال متوازنة تقريباً. وتختزل هذه النسبة شرطاً رئيساً لأنماط الحياة الراهنة. وإن أي خلل يطرأ على تلـك النسبة سوف ينجم عنه رد فعل عضـوي، قد يكون بالغ الضرر أحياناً. كما أن الزيادة المفرطة في نسبة الأوكسجين تؤدي بدورها إلى ضرر مقابل. وهكذا، فإن التفاعل المتبادل بين البيئة والكائنات الدنيا الأولى، والـذي أطلق سراح الأوكسجين حراً في الجـو، قد أخذ يؤثـر عميقاً في التوازن البيئي البديئي، هيـأت لابتكار مناخ أخرى في سيرورة الحيـاة. ويدخل إيقـاع النسبة وسيطاً للتعبير عن إحـدى الظواهر الدالة على التآزر بين صفات الكائن الحي وشروط بيئته. وهكذا، فـإن دينامية التناسب، كآلية داخليـة في الطبيعة، تمارس فعلها التلقائي في اتجاه إحـداث التوازن بين الكائن الفرد وموئله البيئي، وبين النوع ومحيطه الطبيعي، بمـا يهيء الشروط لإيفاء الكائن، في نزوعه إلى البقاء.

❁ ❁ ❁

الفصل السابع: إيقاعـات الشخصيـة الإنسانية.

جاء في رسائل (إخوان الصفا) أن جميع ما على الأرض مـن معادن ونبات وحيوان، إنما يتكـون من أركان الوجود الأربعة: النار والهـواء والماء والتراب. وهـي تأتلف، على تناقض طبائعهـا، في نسب متفاوتة. وليس اختلاف بني الإنسان في صورهم وطباعهم سوى تجسيد للنسبة بين (الأخلاط) الأربعة التي يتركب فيها جسـم الإنسان وهي الدم والبلغـم والمرة السوداء والمرة الصفراء. وما تعارض الأمزجة بين الناس سوى اختلال في النسبة بين تلك الأخلاط، أو ما يقابلها من الطبائع الأربـع. وإذا كانت مقولة (الأركان

الأربعــة) وما يقوم عليها مــن أمزجة وعلم فراسة، تبــدو اليوم أفكاراً ساذجة تخطاها العلم، فإنها تشــير إلى منحىً هام في تاريخ المعرفة، هو النزوع (التوحيدي) الذي يرجع الكائنــات، جميعاً، إلى أصول مادية واحدة، ويبحــث في أسبــاب التبايــن بــين أنماط الشخصيات والأمزجة علــى أساس واقعي محسوس. إن شخصيــة الإنسان، واختلاف أنماطها مــازالا محفوفين بالأسرار العلمية، على الرغم من المكتشفات الهامة في خريطة المورثــات، التــي وضعت اليد علــى أعداد مــن الجينــات المسؤولة عن هــذه الفعالية الحيوية أو تلك. والتي تؤثر في رسم ملامح الشخصية.



الثقافة الكونية

رئيس التحرير

التسليم بصحة القول الشائع عالمياً، من أن العالم يؤلف قرية واحدة كبيرة، أصبح من الأمور التي لا نقاش حولها، نظراً للتطورات والتغيرات التي طرأت على وسائل وأساليب وتكنولوجيا الاتصال والمعلومات، وهذا الأمر يزداد شدّة وقوة وتقدّماً مع مرور الشهور والسنوات..

إن عصرنا، هو عصر علم في المحل الأول، ليس بمعنى التقدم الهائل الذي تمّ إنجازه في مجال العلوم الطبيعية والبيولوجية وما إليها، بقدر ما يعني

سيطرة وسيادة التفكير العلمي القائم على التجربة المحسوسة، وتحكّم التفكير العلمي الدقيق في السلوك وتوجيهه للعلاقات الإنسانية وما يترتب على ذلك من تراجع وانكماش في التفكير الغيبي القائم على مسلمات لا يوجد دليل قاطع على صحتها ويصعب البرهنة عليها عقلياً وعلمياً.

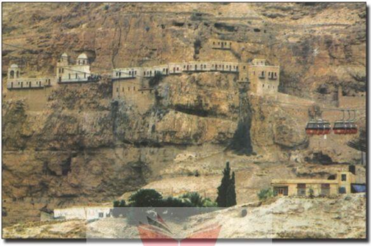
إن تقدم تكنولوجيا الاتصال جعل من الميسور الانفتاح على ثقافات العالم في شتى أصقاع الأرض، وانتشار التعليم بمختلف درجاته وأنواعه على نطاق واسع في الوطن العربي، بشكل لم يكن معهوداً من قبل، والإقبال الشديد على التعليم الجامعي والعالي، واعتباره مطلباً اجتماعياً، وليس مطلباً شخصياً، أتاح الفرصة لأعداد كبيرة من الناس للاتصال بالثقافات الأجنبية من ناحية، وإعادة النظر في كثير من الأمور الحياتية والاجتماعية والثقافية، وهذا سوف يشكّل في القادم من السنوات مشروعاً مفتوحاً لبناء معرفة ثقافية عربية متقدمة، من منطلق تاريخ هذه الثقافة التي كانت دائماً، بحكم مقوماتها وإنجازاتها على صلة مستمرة بالثقافات الأخرى ولم تكن بعيدة في أي وقت من الأوقات عن التأثيرات الخارجية.

كثيرون يقولون، كيف يمكن أن يتحقق ذلك، ونحن نشهد اليوم نوعاً من التسوّل والاستنساخ لثقافة الآخرين، وليس إنتاجاً لثقافة ذات خصوصية خاصة، الأمر الذي يؤدي إلى خلل في الميزان الثقافي ويشكل في المستقبل أزمة ثقافية، لأن المزيد من التمادي على هذا المنوال يفقدنا التراث والأصالة اللذين ميّزا ثقافتنا وحصناها لحقبات تاريخية مضت، ومن دون أن يغيب عن بالنا أهمية التثاقف والانفتاح محصنين بذلك التراث وتلك الأصالة، نؤثر ونتأثر، نتمسك بهما من غير تحجّر ونرفدهما بما يلائم من الحداثة من غير تعقّد وتبعية.

الثقافة الكونية، تحاول بشتى السبل والوسائل فرض نمط استهلاكي وقولبة الثقافات المحلية المختلفة وبدرجات متفاوتة، ومصادرة تراثها وتفكيك ركائزها من خلال تهميشها والتقليل من أهميتها وعدم صلاحيتها لمواكبة العصر، وهي كما يقول عنها الزميل الدكتور مسعود ضاهر: «ثقافة عالمية عابرة للقوميات والجنسيات، وتسعى إلى تدمير التقاليد والعادات الموروثة في المجتمعات التقليدية أو تلك التي ولجت باب الحداثة

ومابعد الحداثة من باب استيراد إنتاج العلم والتكنولوجيا، لا من باب تصنيع ذلك الإنتاج والتفاعل معه محلياً».

وهذا يعني أن المجتمعات النامية تعاني في زمن «الثقافة والقرية الكونية من انكفاء في القيم وتعرض لمشكلات عديدة، والعيش في حالة من التقهقر الثقافي وما يترتب عنه من مخاطر التبعية والاندثار.. وهنا يبرز خطر غياب الإبداع على المدى الطويل، لأن الثقافة النقلية التي يجترها الوطن العربي لا تكفي لمقاومة الثقافة العقلية التي ينتجها الغرب، ويحضر في الذاكرة التساؤل الذي طرحه «ابن خلدون» حول تقهقر الحضارة العربية في الأندلس، فيرجع سبب هبوط المستوى العام بفعل رحيل العرب عن الأندلس، ليس لأن العرب عرب، بل لأن العرب كانوا يشكلون ما نسميه البنية الفوقية للمجتمع، أي إنهم كانوا يضمّون أهل العلم والمعرفة والمال، لذلك عنى رحيلهم رحيل الأساس البشري لعملية الازدهار، كما أنه عنى استبدال حركة الازدهار بحركة تقهقر.. وبذلك أعطى «ابن خلدون» تحليل الثقافة والمعرفة بعداً اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، فأمام ذلك المجد والتراث والحضارة الذي تركناه في بلاد الأندلس، ألا يدفعنا ذلك أن نستفيق اليوم، لنبحث فيما آلت إليه أوضاعنا، في الأسباب والنتائج؟!.



أريحـــا الكنعانيـــة

بدأت في الحادي عشر من شهر تشرين الأول الماضي، الاحتفالات بذكرى مرور عشرة آلاف سنة على وجود مدينة أريحا الفلسطينية، تحت شعار «استكشف أقدم مدينة في العالم»، وأعتقد أن هذه المناسبة جديرة بالتقدير والوقوف عندها طويلاً، فأريحا مدينة كنعانية قديمة، يعدها الخبراء الأثريون أقدم مدن فلسطين، وتتنافس مع مدينة دمشق في القدم، إلا أن أريحا قد انقطع فيها السكن في بعض مراحل التاريخ، ودمشق استمرت مأهولة ولم ينقطع فيها السكن حتى يومنا هذا، ولذلك يقال عنها «أقدم مدينة مأهولة في التاريخ».

أريحا عند أجدادنا الكنعانيين تعني (القمر) والكلمة مشتقة من فعل (يرحو) أو (اليرح) في لغة جنوب الجزيرة العربية وتعني (الشهر أو القمر) وأريحا في السريانية تعني (الرائحة أو الأريج) وقد ازدهرت هذه المدينة في عهود مختلفة، وتدل على ذلك آثار الأبنية القديمة التي يعود تاريخها إلى العصر الروماني، وأهمها جبل التجربة (قرنطل) حيث صام السيد المسيح (عليه السلام) وتل أريحا الذي يضم بقايا الآثار القديمة التي يعود تاريخها إلى الألف الثامن قبل الميلاد، وقصر الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (٧٢٤م - ٧٤٣ م) وخربة المفجّر، ومسجد أريحا القديم الذي بني عام ١٣٣١ هجري، والمتحف الجديد الذي يضم مقتنيات ونماذج وأدوات أثرية متنوعة وغنية تعكس للزائر مدى أهمية المدينة وغناها بالحضارات التي مرت عليها، والفنون الجميلة والصناعات التقليدية التي ازدهرت فيها..

أريحا مدينة وقف الزمن عندها طويلاً، وهاهي تدعو العالم للاحتفاء بها، وتتذكر حضارتها ومعالمها وكنعانيتها وعروبتها.

ع. ق